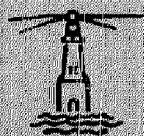




٥ - ٣ - ٢
محمد

خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ

دكتور شوقي ضيف



دار الحرف



٩ - ٣٩
محمد
خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

دكتور شوقى ضيف

١ - ٢٥
محمد
خاتَمُ المُرْسَلِينَ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنعم علىّ أن أكتب الصفحات التالية عن حياة أعظم رسول أهداه الله إلى البشرية، وهيئات أن أوفيه بعض حقّه. وإن حياته لا تخفى منها خافية فى طور طفولته وشبابه حين كان يتعد عن عبادة الأصنام وهو الشباب، وفى طور اقترانه بخديجة، وكان اقترانه بها موفّقًا سعيدًا، وعاشا حياة زوجية هنيئة، شغل نفسه فيها بالتجارة، وأكبرت قريش فيه الصدق والأمانة ولقبته «الأمين»، ووصفته خديجة حينئذ قبل مبعثه بأنه كان يصل ذوى الرحم ويكفل الضعيف ويكسب الفقير ويكرم الضيف ويعين على نوائب الحق. وإذا كانت هذه خصاله قبل مبعثه، فما بالنا به وقد أصبح نورًا مضيئًا لأمته وله يقول الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، فهو دائما لأمته رحمة ورفق ورأفة لا يذم أحدا ولا يعيب أى عيب ويعفو ويصفح حتى عن أعدائه.

ولما أنزل الله عليه الوحي وأخذ يدعو قريشا إلى توحيد الله ونيل الأوثان والأصنام التى توارثتها عبر مئات السنين هالت الكثرة من أهلها دعوته، وتسَلَّلت منها فئة آمنت بوحدانية الله ورسالة رسوله المصطفى. وشبّت معركة قاسية من إيذاء مشركى قريش للرسول وأتباعه المؤمنين، ولما اشتد أذاهم أمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى أرض الحبشة فى السنة الخامسة من مبعثه، وفيها آمنوا على دينهم عند ملك الحبشة المسيحي وأقاموا بخير دار. ولم يهاجر الرسول معهم فقد بقى بمكة يبلغ رسالته متلقيا أذى قريش دون جزع، وفى ذلك تتضح رحمته بأصحابه وتفانيه فى إبلاغ عقيدة الإسلام. وبينما قريش تشتد فى إيذاء الرسول والمؤمنين إيذاء عنيفا إذا وقد من أشرافها يلقى أبا طالب عم الرسول قائلين له:

إن لك سنًا وشرقًا ومنزلة فينا، وإننا لا نصبر على تسفيه ابن أخيك أحلامنا وعيب آلهتنا. فإما أن تكفّ عنا وإما أن ننازلك وإياه في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. وذكر أبو طالب ما قالوه للرسول. فقال له في إصرار: "والله - يا عم - لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله - أو أهلك دونه - ما تركته". فقال له أبو طالب: "قل ما أحببت، فلن أسلمك - والله - لشيء أبداً". ومضت الأيام وقريش لا تكفّ عن أذاها للرسول والمسلمين.

وتوفي أبو طالب كما توفيت بعده سريعاً خديجة فاشتت بالرسول البلاء من حرمانه منهما. ورأى أن يذهب إلى ثقيف بالطائف على بعد نحو خمسين ميلاً من مكة يدعو أهلها إلى دين الله لعلهم يجيبونه، ولقى نفراً من ساداتها لم يحسنوا لقاءه وهزئوا به، فانصرف عنهم، وسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم يرشقونه بالحجارة حتى دميت رجلاه، وعاد إلى مكة داعياً أن يخرج من أصلاب ثقيف من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً. وأخذ الرسول يعرض نفسه ودينه على القبائل في مواسم الحج فيجد منهم ازوراراً إلا ما كان من أهل يثرب فإن نفراً منهم بايعه على دينه ونصرته، وأرسل معهم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ليدعوا إلى الإسلام، وانتشر في يثرب، وجاء منها إلى الرسول في موسم الحج التالي وفد كبير، فبايعوه بيعتهم الكبرى، وأمر الرسول - بنظره الصائب - الصحابة بالهجرة إلى المدينة، ثم هاجر إليها، وبدأ فيها ببناء مسجده متخذاً منه دار عبادة وتعليم وقضاء ومشورة للمسلمين.

ومن بواكير أعماله في المدينة التي تدل على أنه كان رجل دولة وسياسة أنه كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار سماهما في صدره أمة، وكان ذلك إرهاباً واضحاً بيد تكوين الأمة الإسلامية التي أصبحت - فيما بعد - إمبراطورية ضخمة، وضمن هذا الكتاب دستوراً للأمة الإسلامية الناشئة. وحرى برجال القانون في عصرنا أن يتدارسوه ويشرحوا بنوده القانونية المثلى. وقرّر الدستور أن اليهود في المدينة جزء من الأمة، وأقرهم على دينهم عملاً بقوله تعالى: ﴿لَا

إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴿١﴾ وَأَقْرَبُ - فيما بعد - مجوس الخليج العربى عبدة النار على دينهم الوثنى، وبذلك تقررَت حرية العقيدة فى الأمة الإسلامية إلى أقصى حد. وجعل الرسول للأمة الإسلامية مبادئ أساسيين: مبدأ الأخوة كما قال الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ويقول الرسول: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه"، ومبدأ المساواة التامة أمام الله فلا وسطاء بين الناس والله من كهنوت كما فى اليهودية والمسيحية، والناس متساوون دون أى جناه أو عصبية أو قومية أو طبقية ولا فرق بين عربى وأعجمى ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى.

وفُرضت الزكاة وما يتبعها من الصدقة، وبهما حلَّ الإسلام مشكلة الفقراء والأغنياء إلى الأبد. وجعل الله الكعبة قبلة الصلاة فى الفرائض الخمس اليومية، وبذلك وحد بين المسلمين فى جميع بقاع الأرض. وهاجم المستشرقون الرسول لكثرة حروبه فى الجزيرة وكانت ضرورية لنشر الإسلام، ووُضعت لها سبعة قوانين رحيمة لم تعرف الأمم الغربية فى حروبها أحدها حتى اليوم، واتضح أن ما سُمى سرايا حرية إنما كان فى جملته بعوثاً للدعوة إلى الإسلام.

ويكرر الله فى القرآن أنه موجه للجنس البشرى جميعه كما فى قوله لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وكان الرسول شديد الإيمان بذلك مما جعله يبشِّر أصحابه مراراً بأنهم سيفتحون العالم، كما جعله يدعو الملوك من حوله إلى الإسلام: ملك إيران وإمبراطور بيزنطة وحاكم مصر وملك الحبشة. وإن ما فى تعاليم الإسلام من الحرية الدينية المكفولة لجميع الشعوب، وما فيها من العدل والإخاء والمساواة كل ذلك يهدف إلى وحدة الشعوب وأنه دين عالمى. ولى فى عالميته كتاب تُرجم إلى الإنجليزية والفرنسية.

وحمل بعض المستشرقين على زواج الرسول من عائشة لخبر كاذب يقول إنها كانت فى سن التاسعة، والثابت أنها كانت فى نحو العشرين من عمرها. وحملوا على تعدد زوجاته وكنَّ جميعاً أرامل ما عدا عائشة، وتزوج بغير واحدة

منهن - كما بيّنت في غير هذا الموضع - لأسباب اجتماعية وسياسية. وأكرم الإسلام المرأة إلى أبعد حد، إذ جعل الزواج بين الرجل والمرأة ميثاقاً يُعقد أمام الله، كما جعل للنساء حقوقاً على الرجال اجتماعية ومالية لم تتوفر لهن عند أمة غريبة حتى اليوم. ومن حسن معاملة الرسول للنساء اليهوديات أنه بعد انتصار رجال جيشه على يهود خيبر حرّم عليهم زواج المتعة باليهوديات، وفي ذلك دليل قاطع بأنه محرّم في الإسلام.

ومن المواقف الحضارية للرسول ﷺ أن كثيرين من أهل مكة كانوا يعرفون الكتابة بسبب عملهم في التجارة، وكان من يعرفونها في المدينة قليلين لاشتغالهم بالزراعة، وكثر أسرى قريش في غزوة بدر، وكان فداء الأسير القرشي من ألف إلى أربعة آلاف، فجمع الرسول من الأسرى من يعرفون الكتابة، وقال لهم إنَّ كلاً منكم يستطيع أن يفدى نفسه من الأسر بتعليم عشرة من غلمان المدينة الكتابة، وتعلمها منهم كثيرون وهو عمل حضارى عظيم.

ومن أعمال الرسول ﷺ البالغة الرحمة أنه فتح مكة قهراً ولم يحلّ فيها السبي والغنيمة، إذ قال لا سبي ولا غنيمة بمكة، وحارب بعدها هوازن، وكان سيدها وقائد جيشها مالك بن عوف أمر الرجال باصطحاب نسائهم وأولادهم معهم، فلما هُزموا أسر جيش الرسول النساء والأولاد وأصبحوا سبيّاً، وجاء الرسول وقدّ منهم يُعلن إسلامه، فردّ عليهم النساء والأولاد.

وظل الرسول ﷺ طوال حياته في مكة والمدينة يعيش معيشة زهد وتقشف، ومنذ موقعة خيبر تكثرت أمواله، وكان يجعلها لإعلاء جيشه وللفقراء والمساكين، وحياته لا تتغير لا هي ولا حياة زوجاته، فدائماً زهد وشظف، ومَرّت الأيام وهن يتحمّلنها، حتى إذا تكاثرت مجي الأموال بعد خيبر وفُتحت مكة صارحنه بأنهن منصرفات معه عن متاع الدنيا، وأنه ينبغي أن يتيح لهن شيئاً من الترف وزينة الحياة، وغضب واعتزلن شهراً ونزل القرآن يُخَيِّرُهُنَّ بين قبول معيشته الزاهدة وفراقه لهن، ورضين حياته وحياتهن الزاهدة المتقشفة، وانتقل إلى الرفيق الأعلى وهو مضطجع على حصير.

وكان دائما يدعو أصحابه إلى أن يكونوا عدولا رحماء بالإنسان والحيوان وأن يكون إيمانهم عقلائيا بصيرا بتدبير الله للكون الدال على وحدانيته، وأن لا يؤمنوا بخرافة أو سحر أو تنجيم أو كهانة أو شعوذة. وحدث أن كُسِفَت الشمس يوم وفاة ابنه إبراهيم فقال بعض الصحابة إنها كسفت حزنا عليه، فجزع لهذه الخرافة وأسرع فخطب الصحابة قائلا: "أيها الناس: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يكسفان لموت أحد".

ولم يخط الرسول ﷺ نفسه بأى هالة قدسية طوال رسالته، ولا حاول أن يقوم بمعجزة سوى معجزة القرآن، ودائما يقرر أنه ليس إلا بشرا مثل أى صحابى، ويعمل مع الصحابة نفس أعمالهم دون أى ترفع، فقد نقل معهم حجارة مسجده فى بنائه، وحفر معهم الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب، وكان لا يستشعر أى عظمة ويقول للصحابة إنى لا أختلف عنكم فى شىء، وكان يمنعهم من الوقوف له تجلّة حين يخرج عليهم، كما كان يمنعهم من الإسراف فى البناء عليه حتى لا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من تأليه عيسى بن مريم وقولهم إنه ابن الله. ودائما كان يقول لأصحابه إنما أنا عبد مثلكم من عباد الله أكل كما تأكلون وأجلس كما تجلسون.

ورجعت فيما كتبت من الصفحات التالية إلى القرآن الكريم ففيه تشريعات الدين وكثير من الغزوات، وتوقفت فى الفصل الثالث عشر لكتابة كلمة عن القرآن وذكرت فى إعجازه وجهها لم يتنبه إليه الأسلاف، ورجعت إلى كتب الحديث وإلى كتب السيرة النبوية وفى مقدمتها سيرة ابن هشام والطبقات الكبرى لابن سعد وإلى كتاب عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع للمقريزى. وما رجعت إليه من المؤلفات الحديثة كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل وكتاب نور اليقين فى سيرة سيدنا محمد سيد المرسلين للشيخ محمد الحضرى، كما رجعت إلى كتابات المستشرقين. وكل ما حاولت كتابته عن الرسول العظيم وحياته إنما هو إمامة قاصرة بجوانب سيرته وما أعظمه من رسول

اختاره الله لإبلاغ خاتمة رسالاته الإلهية إلى البشرية لسعادتها في الدنيا والآخرة.
صلوات الله وسلامه عليه إلى أبد الآبدين. والله أسأل أن يلهمنى السداد فى
الفكر والقول والعمل بمنه وكرمه.

القاهرة فى ١٥ من يناير سنة ٢٠٠٠

شوقى ضيف

تمهيد

بدأت الحديث عن سيرة الرسول ﷺ العطرة بحديث ذكرت فيه الموقع الجغرافي للجزيرة العربية وعصرها الجاهلي وما كان به من وثنية وكهانة، كما ذكرت العالم في عصر البعثة النبوية، واليهودية والنصرانية والحنيفية دين إبراهيم. وبالمثل تحدثت في إيجاز عن إبراهيم وبنائه مع ابنه إسماعيل للكعبة وانتقال سيدانتهما إلى قبيلة جرهم فقبيلة خزاعة وتحولها إلى قُصَيّ وقريش، وازدهار التجارة بمكة، وإخفاق غزوة أبرهه الحبشي لها، وما كان من ولائها على العرب لأنها حامية الكعبة وما بها من أصنامهم المقدسة .

وانتقلت إلى الحديث عن سيرة الرسول ﷺ من مولده إلى نهاية حياته مما يميّزها عن سيرتي رسول اليهودية والنصرانية، إذ لا نعرف عن حياة موسى إلا أشياء قليلة ذكرت في التوراة وذكرها القرآن قبل مبعثه، ولا نعرف شيئاً عن أيامه الأخيرة قبل موته ولا موضع قبره، وعيسى عاش ثلاثين سنة قبل مبعثه ولا نكاد نعرف عنها إلا ما ذكر القرآن من كلامه في المهد، وإلا بعض أخبار غامضة مثل رحلته مع أمه مريم إلى مصر. أما الرسول ﷺ فحياته بجميع تفاصيلها مسجلة عند مؤرخي سيرته، وهي تذكر نسبه الشريف من جهة أبيه عبد الله بن عبد المطلب كبير سادة قريش، وبالمثل من جهة أمه آمنة بنت وهب القرشية، ولم تطل مدة زواج عبد الله بآمنة إذ توفي سريعاً ييثر في عودته من تجارة له بالشام في أثناء حمل آمنة بابنها .

وتقدمت بها أشهر الحمل، ووضعت في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول وأرسلت نواً إلى جدّه عبد المطلب تبشّره به ، فجاء إليها مسروراً وسماً محمداً. ويذكر مؤرخو السيرة بعض خوارق حدثت في ميلاده أو قبله، إرهاباً بأنه الرسول المنتظر، ولم أورد ذكر شيء منها لأنها رُويت بعد زمن طويل من

ميلاده، ولها نظائر تُذكر في صباه مثل شق الملائكة لصدره في طفولته كما تُذكر له خوارق في رحلته إلى الشام مع عمه في الثانية عشرة من عمره مثل تظليل الغمام له وميل شجرة بظلها عليه وبشرى بحيرا بنبوته. وكل تلك المعجزات الحسّية يُراد بها التنبؤ بأنه رسول الأمة، ومعروف أنه لم يعتمد في رسالته على معجزات حسية تماثلها. ومن أعظم معجزاته في نبوته أنه لم يأت بمعجزة سوى القرآن الكريم بتعاليمه الإلهية وبلاغته الباهرة وإشعار قارئه بأنه في الحضرة الإلهية.

وكانت أم محمد آمنة مُتعبة، فأرضعته أسبوعا ولم تلبث جارية عمه أبي لهب أن ساعدتها في رضاعته. وكان أشراف مكة يبعثون بمن يولد لهم مع مراضع بدويات كنّ يفدن على مكة لحمل الرضّع إلى بواديهم وتنشئتهم فيها، وجاءت مكة مراضع بنى سعد واختارت آمنة منهن لطفلها حليلة السّعدية. وظل محمد في بادية بنى سعد حتى بلغ خمس سنوات، وكان لهذه النشأة البسيطة في البادية أثرها في محمد إذ تعود أن يطيل النظر في الكون من حوله: في السماء ليلا وما يبرز فيها من قمر ونجوم ونهارا وما ترسل فيه الشمس من أشعة ساطعة. وكان يعيش معيشة حرة خالية من أى قيد، وينام مبكرا ويصحو مع أشعة الفجر الرمادية ويُطعم طعاما بسيطا من اللبن والتمر أحيانا. وعاد إلى مكة وشوارعها الضيقة، ولم يعد ينام في خيمة بل في بيت مرتفع. وحملته أمه وهو في السادسة من عمره إلى يثرب لزيارة أحوال أبيه، ورأى فيها النخيل والزروع والبساتين وقنوات المياه، والناس تختلف حياتهم الزراعية عن حياة بادية بنى سعد تمام الاختلاف. وفي عودته توفيت أمه في الطريق، ورجع إلى مكة محزونا. ولم يلبث أن توفي جدّه وكفله عمه أبو طالب وعاش مع أبنائه. وأخذ يتردد على أسواق مكة، وكان عمه تاجرا يتردد على الشام فسأله أن يصحبه في تجارته إليها وصحبه، وهو في الثانية عشرة من عمره.

وما بلغ محمد هذه السنّ حتى اتسعت مداركه، فقد رأى في طفولته حياة البادية وعاشها، ورأى في صباه يثرب حياة الزّراع وعاشها، ورأى في مكة حياة

التجار وعروضها وعاشها، ورأى مدن الشام وحدائقها. وكل ذلك أتاح لمحمد معرفة بحياة البدو والزراع والتجار وحياة مدن الحجاز ومدن الشام. ويمكن أن نجعل رؤيته حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان سيد بني تميم ختام المرحلة الأولى من حياته، إذ رأى بني هاشم وبني المطلب وعشيرتي زهرة وتيمم يجتمعون عند ابن جدعان ويعقدون حلفاً سمي حلف الفضول، تعاقبوا فيه أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم ممن دخلها إلا أعانوه على من ظلمه حتى تُردُّ مظلمته، وقد شهدته الرسول ﷺ وهو غلام، وامتدحه وهو رسول، وقال: "ما أحب أن لي به حُمُر النعم، ولو أنى دعيت في الإسلام إليه لأحببت".

والمرحلة الثانية من حياة الرسول مرحلة شبابه، وكان في أوائلها يرعى غنم أهله وأهل مكة، وكأنا استعادت ذاكرته أيام نشوئه في بادية بني سعد ورعيه فيها غنم أبويه من الرضاع، ونظن ظناً أنه لم يطل مقامه في الرعى، وأنه انتقل إلى العمل في التجارة إذ كانت أسرته أسرة تجار. وجعله عمله في التجارة ينفذ على أسواق مكة، ورأى في سوق عكاظ قس بن ساعدة الإيادي أسقف نجران على بعير يعظ الناس ورؤى بعض موعظته. ووصلته التجارة بالسيدة خديجة بنت خويلد وكانت ذات شرف وجمال ومال كثير، وقد كان يتجر لها في مالها بعض رجال قريش، وقدموا لها محمداً فاستأجرته في بعض تجارات صغيرة، فجاءها بربح كثير. وعرف عمه أبو طالب أنها تعدُّ لتجارة لها مع قوافل الصيف، فسألها أن تعهد بها لمحمد فرحبت به، وعاد من تجارته لها بربح وافر لم تعهده، فاغشبت وزاد في اغتباطها أن ماجاء به من عروض التجارة ربحت فيه أيضاً ربها وافراً. وازداد إعجابها به، وتمنت في نفسها لو اقترن بها هذا الشاب القرشي الشريف المفرط في الصدق والأمانة. وكانت ذات عقل راجح، فعرفت صديقة لها برغبتها في الاقتران به، ولقيته، ووجدت منه قبولاً حسناً، فعرفتُها والتقت به، وقالت له: يا بن عمّ إنى قد رضيت بك لقرابتك إلى ومكانتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، وهى كلمات في استقبال محمد وأنها ترضى به زوجاً تدلّ على سداد عقلها، وتمت مراسيم الزواج سريعاً. وعاش الزوجان المتحابان

معيشة هنيئة، وأسلمت له تجارتها وتدبير مالها، ونال في سرعة احترام قريش له، وذلك لصدقه في التعامل وشدة أمانته حتى لقبوه بالأمين. وكانت خديجة بجانب ثرائها ذات جمال وحصافة عقلية ممتازة، فعاشت سعيدة مع محمد وملأت عليه ديناه سعادة، ورزقا في السنوات العشر الأولى من زواجهما بستة أبناء: ولدين توفيا سريعا وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

وكان أهم حادث له في هذه المرحلة السعيدة من حياته بناء قريش الكعبة واختصام عشائرها فيمن يكون لها شرف حمل الحجر الأسود المقدس إلى موضعه، واشتد الجدل بين العشائر في ذلك طوال أربعة أيام، واتفقت العشائر على أن تجعل الحكم بينها أول داخل من باب المسجد، فكان أول من دخل منه محمد، فلما رأوه قالوا - بصوت واحد - إنه الأمين، ونحن نرتضيه. فطلب رداء واسعاً وضع الحجر فيه، وطلب إلى كل عشيرة أن تحمله من طرف، فحملته العشائر إلى موضعه، ووضعته بنفسه فيه. والحادث يدل على مكانته في قريش وتلقيهم له بالأمين وحسن رأيه ودقة حكمه.

وأخذ محمد في نهاية هذه المرحلة الثانية السعيدة من حياته يتحنث أى يتعبّد لربه طوال شهر رمضان من كل سنة، واختار لتحنّثه واختلائه بعبادة ربه غارا بجبل حراء، وهو يبعد عن مكة بنحو ثلاثة أميال. ولم تكن خديجة زوجة ثرثرة فتركته يخلو فيه لنفسه لعبادة ربه كما يريد، ودائما كانت تعدّ له الزاد أياما وترسله إليه، وهو غارق في عبادته لربه، وتأملاته في الكون من حوله. وتقول السيدة عائشة إن أول ما كان من تباشير الوحي رؤى صادقة كان يراها في النوم، ولا يلبث أن يراها واقعة في اليقظة.

وبلغ الأربعين من عمره، فأيقظه من نومه في السابع عشر من رمضان ملاك في صورة رجل واقف أمامه وفي يده صحيفة وبادره بقوله: ﴿اقْرَأْ﴾. فأجابه: ما أنا بقارئ. فضمّه إليه وعصره عصراً شديداً حتى بلغ منه الجهد، وأرسله وقال له ثانية: ﴿اقْرَأْ﴾. فقال: ما أنا بقارئ. فعصره عصراً شديداً حتى بلغ منه

الجهل، ثم أرسله وقال له: ﴿اقْرَأْ﴾. فقال له: ماذا أقرأ؟ فقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وقرأ الآيات وانصرف الملاك. وفرع محمد فزعا شديداً، وانطلق إلى خديجة بمكة وأنبأها بالحادثة وهو يرتجف وجلاً، فهل ما رآه بغار حراء شيطان لكهانة أو ملاك لنبوة؟ وطمأنته خديجة، وقالت له: أبشراً يا ابن عمّك نبيّ هذه الأمة. وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان متحنفاً - وقيل بل كان نصرانياً - وقصّ عليه الرسول الحادث، فقال له: إن كنت صدقتني فإن هذا هو الناموس (أى جبريل) الذي كان ينزل على موسى. وبشره بالنبوة. وانقطع الوحى عنه فترة قليلة وعاد إليه الوحى وتتابع.

ويمضى الرسول فى المرحلة الثالثة من حياته يدعو إلى الإسلام سراً طوال ثلاث سنوات معرّفاً من يدخله بتعاليمه الكبرى، وفى مقدمتها الإيمان بوحداية الله والصلاة له والإيمان باليوم الآخر وبالملائكة والرسول ورسالته النبوية، ودخله صفوة من المسلمين الأولين فى مقدمتها أبو بكر. وأمر الرسول بالدعوة إلى الإسلام جهراً، وبادرت كثرة قريش بمعارضته، وكان أبو جهل أشدهم عداً له، ووسّطوا له عمه أبا طالب ليثنيه عن دعوته، فقال قوله المشهور: "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته". ومن كان يبادره بالعداوة عقبة بن أبى معيط وآذوا أصحابه المستضعفين من العبيد والإماء إيذاء عنيفاً، وكان أبو بكر الصديق يشتريهم ويحررهم.

وعلم عمّ الرسول حمزة وكان من أبطال قريش وفرسانها أن أبا جهل آذى الرسول عند الصفا فغضب غضباً شديداً، وجاء إليه فضربه بقوسه فشجّه شجّة قوية، وأعلن له ولن حوله أنه على دين محمد، وذهب إلى ابن أخيه فأعلن إسلامه، وعز الإسلام به، وكفّت قريش عن بعض ما كانت تؤذى به الرسول. ولما اشتد إيذاء قريش للصحابه أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة (المسيحية)، فلقبهم النجاشى لقاء كريماً، وأقاموا عنده فى أحسن جوار.

ومضى الرسول في دعوته إلى عقيدة الإسلام. وأدت الظروف عمر بن الخطاب أن يذهب إلى بيت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد غاضبا لما علم من إسلامهما، ورأى عندهما صحيفة فيها أوائل سورة الحديد، فقرأها وشعر في أثناء قراءتها أنه في الحضرة الإلهية، فأعلن إسلامه مما يشهد بهذا الوجه من إعجاز القرآن، فإن من يسمعه يشعر كأن الله حاضر معه فيستجيب له. وذهب إلى الرسول معلنا إسلامه.

وتقول كتب السيرة النبوية أنه شاعت حينئذ قصة الغرائق وأن الرسول قرأ في الكعبة سورة النجم على جمع فيه بعض مشركي قريش، فلما بلغ قول الله فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أتبعها بقوله: تلك الغرائق العُلا، وإن شفاعتهن لُترتجى. والغرائق جمع غرنوق: من طير الماء. ومعاذ الله أن ينطق الرسول بهاتين الكلمتين في وصف آلهة قريش الوثنية. وهى قصة دسها على السيرة النبوية الطاهرة بعض أعداء الإسلام ورواها عنهم بعض مؤرخي السيرة فى غفلة من أن الرسول - كما قال الله فى نفس سورة النجم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، وقال فى سورة المائدة: ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فكيف يكون معصوما بل كيف يكون رسولا وينطق كفرا؟ وما أشدها من فرية كاذبة.

وبلغ من عداة قريش للرسول ﷺ أن اتفق من بها من المشركين على مقاطعة محمد ومن يحميه من بنى هاشم وبنى المطلب وأن تعمل قريش على جوعهم فلا يشتري أحد منهم شيئا لهم ولا يبيع أحد منهم لهم شيئا، ولا يتزوج أحد منهم من قريش. وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى الكعبة لأول سنة سبع من البعثة وأمرؤهم بالنزول فى شعب أبى طالب بالجبال المحيطة بمكة. وظلوا فى الشعب سنتين إلى أن بادر نفر من قريش إلى الصحيفة فنقضها، وعاد الرسول وبنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة.

وعادت قريش إلى إيذاء الرسول وصحبه، وتحدثته بطلب معجزات حسية كما تشهد بذلك أواخر سورة الإسراء. وتوفى أبو طالب وخديجة، ورأى محمد

أن يعرض الإسلام على كبراء الطوائف من ثقيف فأغروا به عبيدهم وسفهاءهم يصيحون به ويرشقونه بالحجارة، فعاد إلى مكة. وكأنما أراد الله أن يعزّيه عن هذه الحادثة، فكتب له حادث الإسراء ليلاً إلى بيت المقدس على البراق مع جبريل وصلاته فيه، وكتب له أيضاً حادث المعراج وصعوده فيه إلى السموات السبع ولقاء بعض الرسل، وهبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء، وصلى بهم فيه. ويزعم بعض المستشرقين وأعداء الرسول أن قصة الإسراء والمعراج قصة خرافية، ورددت على ذلك بأن القرآن أشار إليها في مطلع سورة الإسراء. وكانت السيدة عائشة تقول إن الإسراء والمعراج جميعاً كانا بالروح فقط، واختلف العلماء هل كانا بالروح فقط، أو كانا بالروح والجسد معاً، وسواء كان الإسراء والمعراج رحلتين في المنام أو في اليقظة فلا جناح على من يعتقد أحد الرأيين، ويشهد للرأى بالروح فقط التنويم المغناطيسى ويشهد للرأى بأنهما كانا بالجسد والروح معاً انتقال الأصوات في هذا العصر على الأثير مسافات بعيدة في نفس اللحظة، وانتقال الأشخاص في الرحلات الفضائية إلى كواكب بعيدة عن الكرة الأرضية بعداً هائلاً، والله سبحانه قادر على أن يجعل الإسراء والمعراج لرسوله في المنام أو في اليقظة. وصلاة الرسول بالأنبياء في الإسراء والمعراج ترمز إلى وحدة الديانات السماوية وأنها انتهت إلى دين الإسلام الذي يهيمن عليها والذي يضع عن اليهود والنصارى ما يثقلهما في ديانتيهما من بعض الأوامر والنواهي الشديدة كما ذكر الله ذلك في سورة الأعراف.

ومضى الرسول يعرض نفسه والإسلام على القبائل في مواسم الحج، والتقى في أحد المواسم بستة من الخزرج من أهل يثرب وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وعادوا إلى يثرب، وأخذوا يدعون قومهم من الخزرج والأوس إلى الإسلام. واستدار العام وأقبل موسم الحج، فقدم فيه من الأنصار اثنا عشر رجلاً: عشرة من الخزرج واثنا من الأوس، ولقيهم الرسول ﷺ وأعلنوا إليه إسلامهم، وباع كلاً منهم على أن لا يشرك بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتي بيهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصى الرسول في

معروف. وبعث الرسول معهم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ليعلموا من أسلم من يشرب القرآن وليدعوا إلى الإسلام. وقاما بمهمتهما خير قيام، حتى إذا استدار العام وجاء موسم الحج قدم على الرسول من يشرب ثلاثة وثمانون رجلا وامرأتان وبايعوه البيعة الثانية الكبرى.

وبهذه البيعة الكبرى تنتهى المرحلة الثالثة من حياة الرسول التى غنى فيها بدعوة أهل مكة إلى الإسلام طوال ثلاثة عشر عاما، ودخلته طائفة من قريش، وكانوا قليلين بالقياس إلى كثرتها التى ظلت معارضة فى عنف للإسلام. ومنذ هذه البيعة الكبرى من أهل يشرب أخذ الرسول يأمر أصحابه بالهجرة إليها، وهاجر مثلهم وبدأ المرحلة الرابعة من حياته.

وكانت معه فى مكة فئة قليلة فأصبحت معه مدينة كبيرة وسكانها من الخزرج والأوس ومن نزل بها من المهاجرين، وكان أول ما غنى الرسول به بعد استقراره فى يشرب بناء مسجده، وكان ينقل إليه الحجارة وجعل قبلته من اللبن وسقفه من الجريد وعمده من جذوع النخل، ولما أتم بناء المسجد جعله دار عبادة وعلم وقضاء وتشاور. وبنى بجواره بيوته: وكانت تسع حُجَر وكان سقفها من جريد النخل. وكان بجوار المدينة ثلاثة حصون لثلاث قبائل يهودية هم بنو قَيْنُقَاع وبنو النَّضِير وبنو قُرَيْظَةَ، نزلوا بها حين طردهم الرومان من فلسطين. ورأى الرسول ببصيرته النافذة أن يسمّى أتباعه فى يشرب من المهاجرين والأنصار أمة، وهو عمل من أعظم أعماله وكان بدء تكوين الأمة الإسلامية، التى أصبحت فيما بعد من أعمم العالم الكبرى. وبحق جعل عمر - فى خلافته - الهجرة بدء تاريخ الإسلام. وسرعان ما جعل الرسول لهذه الأمة دستورا فيه المسلمون من المهاجرين والأنصار أمة واحدة يتكافل أفرادها. ويقرر الدستور حرمة الحياة وتحريم القتل وجعل عقوبته القصاص لا الأخذ بالشار، كما يقرر أن اليهود فى المدينة جزء من الأمة وبقاءهم على دينهم وأموالهم، وبذلك أقر الدستور حرية العقيدة، وهو جدير بأن يتدارسه رجال القانون فى عصرنا ويشرحوا مبادئه العالمية العظيمة.

وبذلك أصبح للإسلام أمة في الأرض، وستسرع في عصر الرسول ﷺ حتى تشمل الجزيرة العربية جميعها، ثم يتضاعف اتساعها فيما بعد حتى تصبح إمبراطورية إسلامية من أواسط آسيا شرقاً إلى إسبانيا غرباً. وأخذ الرسول يعيش يثرب في أمة إسلامية خالصة، ووضع لها مبادئ: مبدأ الإخاء الصادق بين المسلمين ومبدأ المساواة التامة.

فأما الإخاء فقد قال الله فيه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقال الرسول ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى". ومن أعظم صوره مؤاخاة الأنصار من الخزرج والأوس للمهاجرين القادمين عليهم من مكة، وقد تركوا فيها سكناهم وأموالهم، فوسعوهم في بيوتهم وأشركوهم في أموالهم وتوارثوها معهم دون ذوى الرحم من الأقارب إلى أن ألغاهما الله بعد موقعة بدر في قوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. وبقيت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فيما عدا التوارث، إذ ظلت بينهما بقية حقوق الأخوة وخاصة المواساة.

وأما المساواة فقد دعا الرسول والإسلام بقوة إلى أن أفراد الناس متساوون جميعاً أمام الله، ولا وسيط بينهم وبينه من أحبار وقساوسة وأساقفة ورهبان وغيرهم، وألغى الإسلام ما وجده من طبقات في الأمة ببايران والهند، فلا سيد ومسود ولا قومية ولا عصبية ولا طبقية. ويقول الرسول في خطبته بحجة الوداع: "لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا فضل لأسود على أحر ولا لأحر على أسود إلا بالتقوى". وبذلك ألغى الإسلام - لأول مرة في التاريخ - الجنسية والعنصرية والقومية والعصبية واللون، ولا انتماء إلا للدين.

ولم يستشعر الرسول طوال رسالته أى هالة قدسية أو زمنية من سلطان أو ملوك، وكان يردّد للصحابة أنه بشر وأنه لا يفترق عن أى صحابي، ومن قوله: إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد. وكان

يجالس أصحابه من الفقراء والمساكين ويؤاكلهم ويعود مرضاهم. ودائمًا كان يدعو أصحابه لاحترام آدمية المساكين والبشر جميعا.

والله يأمر المسلمين بالزكاة مرارًا وتكرارًا فى القرآن الكريم وفرضها الرسول على المسلمين فى السنة الأولى للهجرة، وهى صورة عظيمة من العدالة الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء بحيث يعطى الغنى من ماله سنويًا للفقراء حقًا معلومًا دون أى قهر أو حرمان من ماله وتصرفه فيه. وبذلك حلّ الإسلام مشكلة الفقراء والأغنياء فى المجتمعات الإسلامية مع جعله الزكاة وما يتبعها من الصدقة عبادة كعبادة الصلاة، تملأ قلوب المسلمين طمأنينة وسعادة.

وتزوج الرسول بالسيدة عائشة فى العام الأول للهجرة، وفُرض الأذان للإعلام بأوقات الصلاة، وكانت القبلة فيها إلى بيت المقدس حتى خمسة عشر شهرًا من مقامه بالمدينة، فجعلها إلى الكعبة بيت عبادة إبراهيم وابنه إسماعيل، ويزعم بعض المستشرقين أنه بدلّها حين رأى اليهود ينقضون مهادنته، وليس ذلك بصحيح فإن الله هو الذى بدلّها للرسول والمسلمين فى سورة البقرة ليكتمل استقلال الإسلام.

وليس لليهودية ولا النصرانية قبلة معينة فى الصلاة، بخلاف الإسلام فلاّتباعه قبلة الكعبة التى تؤخّد بينهم، والذى يتجهون إليها مع الصلاة خمس مرات كل يوم. وفُرض الصيام فى السنة الثانية للهجرة، وفُرضت زكاة الفطر، واحتدم الجدل مع اليهود، ونزل يثرب وفد من نصارى نجران، وكانما اجتمع بها مؤتمر للديانات السماوية الثلاث، وحاجّ الرسول اليهود كما حاجّ نصارى نجران وأفحمهم.

وتكثر الحروب فى هذه المرحلة الرابعة لحياة الرسول، ويقارن بعض المستشرقين بين حياته وحياة المسيح فيقولون إن المسيح عاش حياة روحية زاهدة، وأن حياة محمد تبدّلت فى المدينة فانصرف عن الزهد وعاش لتكوين دولة والمتاع بالحياة، ومعروف أن المسيح عاش فى سنوات رسالته الثلاث حياة محن وآلام

انتهت برفع الله له وإنقاذه، ولم يكن مجتمعه ولا بيئته فى حاجة إلى نظام سياسى أو اجتماعى إذ كان النظامان قائمين فى مجتمعه وفى الدولة الرومانية، أما مجتمع الرسول فكان فيه فراغ هائل للنظامين مما جعله يجاهد فى فرضهما على مجتمعه، ومع ذلك فإن عيسى إذا كان عاش ثلاث سنوات فى محن فإن الرسول عاش بمكة ثلاث عشرة سنة فى محن، ولو أنه مكث بها سنوات الهجرة العشر إلى نهاية حياته لما كُتب للإسلام أن ينتشر ولا أن يصبح ديناً ضخماً. وقد ظل الرسول فى يثرب - كما كان فى مكة - يعيش معيشة روحية زاهدة متقشفة.

ومن الخطأ أن يذكر مؤرخو السيرة النبوية للرسول سبعا وعشرين غزوة وسبعا وأربعين سرية أى كتيبة حربية، والصحيح أنه إنما حارب فى تسع غزوات، وكان يسير فى بعضها لعقد محالفات مع بعض القبائل فسمى مؤرخو السيرة هذه المسيرات غزوات، ونفس الغزوات التسع لم يحارب فى ثلاث منها، وهى: الأحزاب وقريظة وفتح مكة، ولم تكن السرايا ككائب للحرب إنما كان بعضها للاستطلاع ومعرفة نية قريش فى غزو الرسول وبعضها لنشر الإسلام والدعوة إليه. ولذلك رأيت أن تسمى بعوثاً لا سرايا.

ووضع الله ورسوله لحروبه سبعة قوانين حضارية رحيمة، وأول قانون فيها أن لا تكون عدوانية بل تكون دائماً ردّاً لعدوان. وثانى قانون أن أسرى الحروب لا يقتلون. والقانون الثالث أنه لا يمثل بقتلاهم. والقانون الرابع أنه لا توضع الأغلال فى رقاب الأسرى. والقانون الخامس إبطال الأخذ بالثأر ووضع قانون القصاص مكانه. والقانون السادس تحريم قتل الصبية والنساء والشيوخ والرهبان. والقانون السابع تحريم نهب زروع الأعداء. واستشعر المسلمون هذه القوانين فى جميع حروبهم بحيث نستطيع أن نقول إن حروب الرسول والمسلمين كانت دائماً حروباً حضارية رحيمة، بخلاف حروب المسيحيين حتى الحرب العالمية الماضية.

وأعدت قريش فى السنة الثانية للهجرة جيشاً كبيراً للهجوم على الرسول ويثرب، وعلم به الرسول وخرج إليه بجيشه فى شهر رمضان، والتقى به هو

وجيشه عند آبار بدر، وكانت تقام فيها سنوياً سوق. وهُزمت قريش هزيمة ساحقة قُتل فيها سبعون من صناديدهم، وأُسر سبعون، وبين من قُتلوا عُتاة أعداء رسول الله في مكة: أبو جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث، وجعل الرسول فداء الأسير من ألف إلى أربعة آلاف حسب قدرته المالية، وأطلق سراح فقرائهم.

وكان بمكة بسبب التجارة كثيرون يعرفون الكتابة بخلاف المدينة، فرأى الرسول أن يستغل الكتاب من الأسرى في تعليم غلمان المدينة الكتابة، وجمع الكاتبين في الأسرى وقال لهم إن كلاً منكم يستطيع أن يفدى نفسه من الأسر بتعليم عشرة من غلمان المدينة الكتابة، ورَجَّب نفر منهم بذلك، وتعلمها منهم زيد بن ثابت في طائفة من غلمان المدينة. وهى فكرة للرسول حضارية عظيمة.

ولما عاد الرسول من بدر إلى يثرب أخذ اليهود بدلاً من تهنتته بنصره يتحرشون به وبالمسلمين، فصمَّ بعض الصحابة على قتل حقاقهم وقتلوهم وجمع الرسول اليهود في سوق بنى قَيْنُقَاع - وكانوا صاغة وصناع أسلحة - وقال لهم: يا معشر يهود احذروا من الله أن يُنزل بكم مثل ما أنزل بقريش من النقمة في بدر، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنى نبي مرسل. فأجابوه: لا يغرنك يا محمد أنك لقيت في بدر قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. وعرف الرسول أنهم يُبَيِّتُون له وللمسلمين شراً وأنهم نقضوا العهد الذى بينه وبينهم. وتصادف أن أنصارية جلست إلى صائغ تفاوضه فى حليّة، واعتدى عليها يهودى فقتل مسلم الصائغ فقتلوه ولم يرفعوا الأمر إلى الرسول كما يوجب الدستور ليحكم بالقصاص. وعرف بنو قَيْنُقَاع أن الرسول والمسلمين لابد أن يحاربوهم فدخلوا حصونهم وأغلقوها، فحاصروهم الرسول والمسلمون خمسة عشر يوماً، وشفع فيهم عبد الله بن أُبَيّ فأمر الرسول بجلاّتهم عن يثرب فجلّوا إلى الشام. وسار الرسول بعد جلاّتهم خمس مسيرات استكشافية سماها مؤرخو السيرة غزوات. وتزوَّج على بفاطمة كما تزوّج الرسول بمحفصة بنت عمر فى شعبان من السنة الثالثة للهجرة وكانت صوامة

قَوَّامة. وتحدثت هنا عن القرآن الكريم وسوره المكية والمدنية وهيمنته على التوراة والإنجيل، وعرضت وجهها من إعجازه لم يتنبّه إليه الأسلاف.

وأخذت قريش تستعد للحرب؛ لغزوة أُحُد في شوال من السنة الثالثة للهجرة واشتركت فيها بعض القبائل، وصحب النساء الجيش. وعلم الرسول ﷺ بإعداد قريش لهذا الجيش، وعقد مجلسا حربيا للتشاور في لقاءهم يثرب أو لقاءهم خارجها، واتفق المجلس على لقاء الجيش القرشي خارج يثرب، وخرج الرسول مع الجيش إلى جبل أُحُد وعسكر فيه، ورجع عبد الله بن أبي مع صحبه من اليهود والمنافقين، فلم يشتركو في المعركة، وأقبل الجيش القرشي واصطفّ الفريقان، وأوصى الرسول ﷺ الرماة أن لا يتركوا أماكنهم. وانهزمت قريش في الجولة الأولى وأبلى فيها حمزة عم الرسول بلاء عظيمًا، وقُتل جميع حملة لواء قريش من بنى عبد الدار. وكانت هند زوجة أبي سفيان وعدت وحشيا الحبشي إن قتل حمزة - قاتل أبيها في بدر - بحربته مكافأة كبيرة، ورصده ورماه بحربته وخرّ البطل صريعًا. ولما رأى خالد بن الوليد الرماة يتركون أماكنهم كره عليهم، وانقلب انتصار المسلمين إلى هزيمة ومثلت هند بحمزة، وصنع صنيعها بالقتلى بقية النساء القرشيات. وأصابت الرسول بعض إصابات طفيفة، وكان طلحة ممن دافع عنه دفاعا عظيما. وانصرفت قريش فرحة بما تم لها في أُحُد من نصر، وتوعدت الرسول اللقاء على رأس الحول في بدر.

ورجع الرسول إلى يثرب، ولما صلّى الصبح أمر بلالا أن ينادى في الصحابة أن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج إلا من شهد القتال بالأمس، ومضى الرسول بأصحابه حتى بلغ حمراء الأسد، وأمرهم بجمع الحطب في النهار حتى إذا جاء الليل أمر كل رجل منهم أن يوقد نارا واشتعلت النيران ومالت الأرجاء حتى كان يخيل لمن يراها أن جيش المسلمين ألوف وأعداد لا تحصى. وكان جيش أبي سفيان لا يزال قريبا، وكان يتشاور في الرجوع إلى حرب الرسول، فلما جاءه الخبر بأن الرسول قريب منه وأنه في آلاف كثيرة أسرع بجيشه إلى مكة. ونجح الرسول في هذه الخدعة الحربية أعظم نجاح إذ أعاد إلى

أصحابه الثقة في بطولتهم وأن الجيش القرشي لا يزال يرهب أن يكون مصيره مصير جيش بدر.

وحدثت خيانات من قبائل لصحابة له ذهبوا في نفر منهم لهدايتهم. وحدثت بعوث ومسيرات للرسول وحُرِّمت الخمر تحريماً باتاً. وشمّت بالرسول بنو النضير قبيلة اليهود الثانية في يثرب بعد هزيمة جيشه في أحد، وحاولوا الغدر به، فحاصروهم وأجلاهم عن يثرب، وقسّم أموالهم وزروعهم بين المهاجرين. وقد يعجب بعض الناس لإجلاء الرسول بنى قَيْنُقَاع وبنى النضير عن المدينة. والإجلاء مكتوب على اليهود من قديم، فقد أجلى سرجون الثاني ملك آشور جزءاً منهم عن فلسطين سنة ٧٤١ ق. م. وطردهم بختنصر من ديارهم سنة ٥٨٦ ق. م. وبالمثل تيتوس إمبراطور روما سنة ٧٠ للميلاد وطردهم منها نهائياً الإمبراطور هادريان سنة ١٣٥ للميلاد.

وتزوج الرسول بزَيْنَب بنت خزيمة ثم بأم سلمة ثم بابنة عمته زَيْنَب بنت جحش، ويحمل عليه بعض المستشرقين لزواجه من زَيْنَب وهم مخطئون خطأ شديداً. وحدثت بعوث ومسيرات للرسول ﷺ، ثم كانت غزوة الأحزاب في شهر شوال للسنة الخامسة وفيها تأليب اليهود لقريش على الرسول وإعداد قريش جيشاً ضخماً لحرب الرسول وإشراكها فيه غطفان وبعض القبائل. وحفر الرسول ﷺ الخندق حول المدينة واشترك في الحفر، وفيها كان نقض بنى قُرَيْظَةَ لعهد الرسول، ورجوع المنافقين إلى يثرب، ومجيء جيش الأحزاب وحيلولة الخندق بينهم وبين جيش الرسول ويثرب. وقتل على بن أبي طالب عمرو بن عبد ودّ، وأقامت قريش والأحزاب أمام الخندق قريباً من شهر وليس بينهم وبين جيش المسلمين إلا الرمي بالنبل والحصا، وأخذوا ييأسون من أن تنشب معركة بينهم وبين المسلمين. وفي هذه الاثناء أخذ نعيم بن مسعود يخذل بنى قريظة وأبا سفيان عن الحرب. وهبّت على الأحزاب ريح عاتية أهلكت بعض الخيل والإبل ولم تعد تستمسك لهم خيام ولا تثبت لهم قِدر ولا تشتعل نار، فارتحلت قريش والقبائل جميعاً. ويثبت قريش أن تغزو الرسول ويثرب بعد هذه الغزوة.

وأمر الله رسوله بحرب بنى قريظة فنأدى في أصحابه لحصارهم، وحاصرهم الرسول بضعا وعشرين ليلة، واستسلموا لحكمه، فحكّم سعد بن معاذ فيهم، فحكم بقتل الرجال وسبى الذراري والنساء، ونفّد حكمه، وقسّم أموالهم: للفارس ثلاثة أسهم وقيل سهمان وللراجل سهم. وحكّم سعد بن معاذ على بنى قريظة بقتلهم جميعا لنقضهم عهد رسول الله كان ملوك اليهود يصنعونه بأعدائهم في صورة أشد عنفا، ففي الإصحاح الثاني عشر بسفر الملوك الثاني أن داود أخرج شعب مدينة ربة ووضعهم تحت مناشير ونوايرج وفوس من حديد، وطرح منهم جماعة في موقد كبير للآجر - وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون فلم يكن يكتفى بالقتل بل كان يمثّل بهم وي طرح طائفة منهم في الموقد الكبير للنار.

وتحدث بعوث متعددة ومسيرتان للرسول ﷺ، ويغزو بنى المصطلق ويتنصر عليهم ويتزوج جويرية بنت سيدهم لتحرير سبيهم، ويعتقون الإسلام، وتضطّر عائشة للتأخر عن الجيش في عودته إلى يثرب، ويكون إفك كاذب عليها ويرئها الله منه تبرئة إلهية عظيمة.

ورأى الرسول ﷺ رؤيا في النوم أنه دخل المسجد الحرام حالقا رأسه، فقصّها على أصحابه واستبشروا واشترى بُذْنًا (نوقا) هديّا للكعبة، واستتفر المسلمين لقضاء عُمْرة، وأحرم معه نحو ألف وخمسمائة، وكان إحرامه من ذى الحليفة، ولبس ثياب الإحرام، ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب وأمر المسلمين أن يجعلوا السيوف في أغمادها. وعسكر مع الهدى وجماعته عند شجرة الحُدَيْيَّة بالقرب من مكة، وجرت الرسل بينه وبين قريش إلى أن جاءه سهيل بن عمرو، فصالحه على أن ينصرف في هذا العام ويعود في العام التالي معتمرا ويدخل هو وأصحابه مكة بلا سلاح والسيوف في القُرب ويقيمون بها ثلاثة أيام ويخرجون. ويظلّ هذا الصلح عشرة أعوام يأمن فيها الناس بعضهم بعضا ومن جاء من الكفار إلى الرسول مسلما يرُدّه إلى قريش ومن جاء من المسلمين إلى قريش مرتدا لا يرُدّوه إلى المسلمين. وارتضى الرسول معاهدة سهيل بن عمرو للصلح، ونحر

هَدْيِهِ وَتَبِعَهُ الصَّحَابَةُ يَنْحَرُونَ هَدْيَهُمْ. وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَرُدَّ عَلَى قَرِيشٍ مِنْ هَاجَرْنَ إِلَى يَثْرِبَ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ.

وَأَعَدَّ الرَّسُولُ ﷺ جَيْشًا مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْحُدُودِ لَغَزْوِ خَيْبَرَ، وَكَانَ عِدَادُ الْجَيْشِ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةَ رَاجِلٍ وَمِائَتَيْنِ فَارِسٍ، خَرَجَ إِلَيْهَا فِي الْحَرَمِ مِنَ السَّنَةِ السَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَكَانَتْ ثَلَاثَ مَنَاطِقَ عَلَى رِجَالِ رَعُوسِ الْجِبَالِ: النَّطَاةُ وَالشَّقْ وَالْكُتَيْبَةُ، وَبَدَأَ بِالِاسْتِيلَاءِ عَلَى حِصُونِ النَّطَاةِ وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى حِصُونِ الشَّقِّ. وَفِيهَا صَنَعَ لِنِسَاءِ الْيَهُودِ وَبَنَاتِهِمْ مَكْرَمَةً عَظِيمَةً إِذْ حَرَّمَ عَلَى رِجَالِ جَيْشِهِ زَوَاجَ الْمُتَعَةِ بِالْيَهُودِيَّاتِ، وَكَانَ يَهُودُ خَيْبَرَ جَمَعُوا فِيهَا نِسَاءَهُمْ وَذُرَارِيَهُمْ، وَاسْتَوْلَى بَعْدَهَا عَلَى مَنَاطِقِ الْكُتَيْبَةِ، وَجَعَلَهَا الْخُمْسَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ مِنْ مَغَانِمِ خَيْبَرَ، وَقَسَمَ النَّطَاةَ وَالشَّقَّ عَلَى أَفْرَادِ الْجَيْشِ، وَجَاءَتْهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَّيِّ بْنِ أَخْطَبٍ زَوْجَةَ كِنَانَةَ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ الَّذِي قَتَلَهُ الْجَيْشُ مَرْحُومَةً، فَاصْطَفَاهَا لَزَوَاجِهِ بَعْدَ إِسْلَامِهَا وَتَحْرِيرِهَا. وَأَهْدَتْهُ زَيْنَبُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْيَهُودِيَّةُ زَوْجَةَ سَلَامِ بْنِ مَشْكَمٍ الْمُقْتُولِ شَاةً مَسْمُومَةً، وَمَعْجَرَدٌ أَنْ طَعَمَهَا عَرَفَ أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ، فَامْتَنَعَ عَنْ أَكْلِهَا. وَعَرَفَ أَهْلُ فَدَكِ الْيَهُودَ مَا حَصَلَ لَخَيْبَرَ فَاسْتَسَلَمُوا لَهُ، وَفِي طَرِيقِهِ مِنْهَا إِلَى يَهُودِ وَادِي الْقُرَى بَنَى بِصَفِيَّةٍ. وَفَتَحَ وَادِي الْقُرَى مِثْلَ خَيْبَرَ قَهْرًا. وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَزَوَّجَ بِهَا أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سَفْيَانَ. وَاتَّخَذَ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ مِنْ حَيْثُ الْمَنِيرِ.

وَأَرْسَلَ كُتَيْبَةَ إِلَى أَمْرَاءِ الْعَرَبِ: شِمَالًا إِلَى الْغَسَّاسَةِ وَجَنُوبًا إِلَى مَلُوكِ الْيَمَنِ، وَأَسْلَمَ نَصَارَى نَجْرَانَ وَحَاكِمَا عُثْمَانَ وَأَمِيرَ الْبَحْرَيْنِ وَأَهْلَهَا، وَأَمَرَ الرَّسُولُ أَنْ يَدْفَعَ الْجُيُوشَ هُنَاكَ الْجَزِيَّةَ مِثْلَ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَيَقْرُرُ الْقُرْآنَ مَرَارًا أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ عَالَمِي وَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مُرْسَلٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، مِمَّا جَعَلَ الرَّسُولُ يَدْعُو مَلُوكَ الدُّوَلِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ: مَلِكُ الْحَبَشَةِ وَمَلِكُ فَارِسَ وَقَيْصَرُ الرُّومِ وَالْمَقْوُوقُسُ حَاكِمُ مِصْرَ، وَرَحِبُ الْأَنْخِيرِ بِحَامِلُ كِتَابِهِ إِلَيْهِ وَيَعِثُّ لَهُ بِهَدِيَّةٍ. وَنَرَى مُؤَرِّخِي السِّيَرَةِ - لَغَفْلَتِهِمْ - يَرَوْنَ فَرِيَّةً عَلَى الرَّسُولِ دَسَّهَا الْيَهُودُ، وَهِيَ أَنَّ أَحَدَهُمْ سَحَرَهُ، وَكَانَهُمْ لَمْ يَقْرَءُوا آيَةَ سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فَكَيْفَ يَكُونُ رَسُولًا وَمَعْصُومًا وَيَسْحَرُهُ يَهُودِيٌّ! وَهِيَ فَرِيَّةٌ وَاضِحَةٌ.

وتكون بعوث ثم تحدث عمرة القضاء ويدعو إليها الرسول ويخرج إليها مع أصحابه في ذى القعدة من السنة السابعة ويدخلون مكة وتركها لهم قريش، ويؤدون فيها مناسك العمرة من إحرام وطواف وسعى ونحر هذى إلى الكعبة، ويتزوج الرسول ميمونة بنت الحارث، وذكر هنا - بالتفصيل - زوجات الرسول. وأقبل إلى المدينة خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص وأعلنوا للرسول إسلامهم.

وتحدث بعوث وغزوتان: أولاهما غزوة مؤتة الموجهة إلى الروم في الشام بجمادى الآخرة من سنة ثمان، وأوصى الرسول الجيش أن يتمسك بقوانين الحرب الإسلامية الحضارية فلا يغدر أحدهم بعدو ولا يخون في غنيمة ولا يقتل امرأة ولا صبيا ولا راهبا ولا كبيرا فانيا، ولا يقلعوا شجرة. وفوجيء الجيش في مؤتة بفلسطين بأعداد لا تحصى من جيش الروم ودارت المعركة فاستشهد أمراء الجيش الثلاثة: زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب، وأنقذ خالد بن الوليد الجيش وعاد به إلى المدينة. ورأى الرسول بعد هذه الغزوة أن يهرب القبائل النصرانية في الشمال، فأرسل إليهم حملة بقيادة عمرو بن العاص فأغار عليهم ودوَّخهم، وعاد بجيشه إلى المدينة.

وهاجر من مسلمي قريش إلى الرسول أبو بصير فلم يقبل هجرته إليه، لما جاء في معاهدة الحديبية من أن من يقدم على الرسول من قريش يرده إليها، فخرج إلى البحر الأحمر في طريق قوافل قريش وانضم إليه نفر من قريش ممن أسلموا مثله ولا يستطيعون الهجرة، فقطعوا الطريق على القوافل القرشية، فاستجارت قريش بالرسول وطلبت منه أن يقبلهم عنده، وبذلك نقضت قريش شرط إرجاع من يهاجر مسلما إليها، وكتب الرسول إليهم أن يقدموا عليه.

ثم حدثت فرصة ذهبية للرسول فإن قريشا حاربت مع حليفها قبيلة بكر بن عبد مناة قبيلة خزاعة حليفة الرسول، فنقضت بذلك عهدها معه، وسرعان ما أعد الرسول جيشا ضخما لغزو مكة مكونا من عشرة آلاف واتجه به في العاشر

من رمضان سنة ثمان من الهجرة إلى مكة مصمماً على فتحها، ولقيه في الطريق عمه العباس مسلماً مهاجراً إليه فصحبته غازياً معه. وعسكر الرسول بجيشه في مر الظهران على بعد خمسة أميال من مكة، ولم تكن قريش تعلم شيئاً عن جيش الرسول، ولكن ما إن عسكر في مر الظهران حتى علمت بقدومه في جيش ضخم، فتشاوروا وصمّموا على منعه وحره. وركب العباس عم الرسول بغلته وتجول بها آملاً أن يلقي أحداً من قريش ليعلمه بجيش الرسول وأنها لن تستطيع أن تمنعه من دخول مكة، وإذا هو يلتقي بأبي سفيان زعيم قريش فيفد به على الرسول ﷺ مساءً، ويبعث أبو سفيان مع صديقه العباس ويفد به على الرسول صباحاً فيعلن إليه إسلامه، ويكرمه الرسول فيجعل المنادين في مقدمة الجيش ينادون: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وتجمع قوم من قريش ليقاتلوا فبلغ ذلك الرسول فرتب جيشه، وأمر خالد بن الوليد بدخول مكة من أسفلها، ولقي عكرمة بن أبي جهل وجماعة معه يريدون القتال، فقاتلهم وقتل منهم ثلاثة عشر رجلاً فكفوا، وهو دليل للعلماء القائلين بأن مكة فتحت قهراً. ودخل الرسول مكة وهدم أصنام الكعبة، وأسلمت قريش، وقال الرسول لرجلها: اذهبوا فأنتم الطلقاء. أحرروا من الأسر، مما يدل على أن مكة فتحت قهراً، وحرر أهلها، وهي مكرمة له عظيمة، وخُصتْ بأنه لن يحدث فيها سبى ولا غنيمة بأمر الرسول ﷺ. وأرسل الرسول ﷺ بعوثاً حول مكة تدعو إلى الإسلام، وبعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى، وكان لها صنم بنخلة تعظمه قريش والعرب فهدمه. وبعث زيد بن سعد إلى صنم مناة بين مكة والمدينة فهدمه.

وعلم الرسول ﷺ أن قبائل هوازن تستعد لحربه بقيادة مالك بن عوف وانضمام ثقيف إليه. وقاتلها وجعلت هوازن له كميناً في مضيق وانهزم المسلمون في الجولة الأولى بسببه، ثم كرّ الرسول والمسلمون وهزموا هوازن، وأرسل غنائمها إلى الجعرانة. وحاصر الطائف ورفع الحصار. وجاءه وفد من هوازن، فردّ عليهم نساءهم وهي مائة كريمة له. ووَزَّعَ غنائم هوازن وأكرم في

أعطياته المؤلفة قلوبهم، ونزل إلى مكة لقضاء عمرة من الجعرانة، وولّى عتاب بن أسيد الشاب مكة، وبعث عمرو بن العاص إلى ابني الجُلندى بعمان فأسلما، وأخذ الجزية - حسب تعاليم الرسول - من الجوس.

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة وبُشِّرَ بمولد مارية القبطية لابنه إبراهيم واغتبط به، وتصادف أن جاءته وحفصة غائبة عن بيتها فلقى فيها فيه، ولم تلبث حفصة أن جاءت إلى بيتها، وغضبت للقاء الرسول مارية فيه، وحاول أن يسترضيها وأنبأت صديقتها عائشة وتخزنتا عليه، ونزلت في ذلك الآيات الأولى من سورة التحريم. وتخزنت زوجات الرسول عليه لأخذه لمن بالتكشف في المعيشة مع كثرة غائمه من خير وغير خير، وخيرهن بين الطلاق والرضا بمعيشته المتكشفة فأرتضينها جميعا.

وأرسل بعوثا لجباية الزكاة. ثم كانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة أَعَدَّها لحرب الروم واستنفر لها القبائل، وبلغ جيشه ثلاثين ألفا ومعهم اثنا عشر ألف بعير وعشرة آلاف فرس. ووصل بالجيش إلى مدينة تبوك في شمال الحجاز، وعلم أن جيش الروم تراجع من منطقة اللقاء في الأردن، وكان الجو حارا حاراً شديدة، فرأى العودة إلى المدينة، وكان ثلاثة تخلفوا عن الغزوة فيهم كعب بن مالك، وأقر بذنبه هو وصاحبه، فأجلهم رسول الله حتى ينزل القرآن الكريم بقبول توبتهم، وبعد مدة غير قليلة تاب الله عليهم.

وجاء إلى المدينة وفد ثقيف في رمضان من سنة تسع وأسلمت ثقيف، وهدم المغيرة بن شعبه صنم اللات. وأسلم حينئذ كعب بن زهير وأنشد الرسول مدحة له، فأهداه بردته، وكانت نهاية عبد الله بن أبي. وأبْدَى الرسول ﷺ في مرضه تسامحا عظيما له مع ما كان من نفاقه وكثرة أخطائه، وحضر جنازته. وجاء موعد الحج في السنة التاسعة، وكره الرسول أن يحج إذ لا يزال في مكة والجزيرة بعض الوثنيين فأناب عنه في الحج لهذه السنة أبا بكر. ونادى على بن أبي طالب في الناس بصدر سورة براءة وبما فيها من تحريم دخول المشركين المسجد الحرام. وأسلموا جميعا سريعا في مكة والجزيرة العربية بعد حجة أبي بكر.

وأقبلت إلى المدينة وفود عربية كثيرة تعلن إسلامها منها وفد المنذر بن ساوى أمير البحرين ووفد الجارود وعبد القيس النازلة على الخليج العربى ووفد طيى. وأكرم الرسول سفانة بنت حاتم الطائى، ووفد على الرسول أخوها عدي، وكان نصرانيا فآعلن إسلامه. وتعاقبت الوفود فى سنة عشر من اليمى وغير اليمى وأسلمت نجران النصرانية. وتوفى إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فى ربيع الأول سنة عشر للهجرة وعمره ستة عشر شهرا، وحزن الرسول لوفاته وقال: "تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب".

ثم كانت حجة الوداع فى ذى الحجة من سنة عشر، ويذكر مؤرخو السيرة كما تذكر كتب الحديث أنه أذن فى الناس بالحج، وحجّت معه جموع لا تحصى، وخرج من المدينة للحج فى الخامس والعشرين من ذى القعدة ومعه زوجاته وأهله وعامة المهاجرين والأنصار ومن حج معه من القبائل. وأحرم من ذى الحليفة وسار إلى مكة ليلى والناس قد أحرموا ويلبئون معه، وساق معه الهدى إلى الكعبة مائة بدنة، وقرن الحج إلى العمرة، وكان يصلى طوال الطريق قصرا. ودخل مكة من أعلاها، ودخل المسجد الحرام، وبدأ فيه بالطواف ثم سعى بين الصفا والمروة، وأقام بالأبطح ثلاثة أيام حتى يوم التروية فركب إلى منى، وصلى بها الظهر وبات بها وصلى فيها الصبح وركب منها بعد طلوع الشمس إلى عرفة وجعلها موقف المسلمين جميعا، وبعد صلاة الظهر والعصر بها مجتمعين خطب الناس خطبة حجة الوداع المشهورة. وركب إلى المزدلفة وصلى بها المغرب والعشاء وجمع منها حصا العقبة، وصلى بها الصبح وركب إلى منى وحلق شعره وتقدم إلى المنحر بها فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده، وترك نحر بقية المائة لعلى بن أبى طالب لينحرها. والنحر ذكرى لأضحية إسماعيل حين هم أبوه بدبحه كما هو معروف، وطاف طواف الإفاضة ثم عاد إلى منى وقضى بها أيام التشريق، ورمى الجمار فى أيام التشريق: سبع حصيات كل جمرة، وأيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر وهو عيد الأضحى، وطاف بالكعبة قبل الرحيل.

ونقف قليلا عند الأوامر والنواهي التي ضمَّنها خطبته في حجة الوداع، وأولها حرمة الدماء والأموال والأعراض، وتحريم الربا، وأداء الأمانة، وتحريم طلب الثأر، وحكم القتل، وتحريم النسيء وهو تأجيل بعض الأشهر الحرم، والتوصية بالمعاملة الرفيعة للنساء، وواجبات الأخوة بين المسلمين، والنهي عن الشقاق بينهم، وإبطال العنصرية إبطالا نهائيا فلا عربى وغير عربى ولا أبيض ولا أسود. ونزلت على الرسول في عرفة آية الدِّين (البقرة ٢٨٢) وآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أى بما أنزل في القرآن من أوامر ونواه وما أوجب الرسول منها في الحديث. وتمسك أصحاب المذهب الظاهري بهذه الآية في إبطال الإجماع والقياس وخالفهم المذاهب الفقهية الكبرى في الأخذ بهما.

ومرض الرسول ﷺ، وشكا من الصداع، واستأذن زوجاته في أن يمرض بيوت عائشة، وخرج إلى البقيع ليلا لتوديع الشهداء، واشتد به المرض، فأمر أن يصلى بالناس أبو بكر. ثم كان يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى وصدمة عمر حين سمع الخبر وخطاب أبى بكر للناس، واستخلافه للرسول وخطبته. وبعد إعداد الرسول ﷺ للدفن دخل الناس يصلون عليه جماعات ثم دخلت النساء ثم دخل الصبيان. طيب الله مثواه إلى يوم الدين.

الفصل الأول

الجزيرة العربية والعالم قديما

١

الموقع الجغرافى

شغل العرب من قديم جزيرتهم فى الجنوب الغربى لآسيا، وهى شبه جزيرة، وسموها جزيرة لأن الماء يحيط بها من ثلاث جهات، إذ تُطلُّ فى الغرب على البحر الأحمر. وفى الشرق على الخليج العربى وخليج عُمان، وفى الجنوب على خليج عدن والمحيط الهندى ويتسمى عنده باسم بحر العرب، وتتغلغل صحراؤها فى الشمال على حدود فلسطين وسوريا غربا والعراق شرقا، وتسمى شرقا بادية السماوة وغربا بادية الشام. وتنزل بها - وخاصة فى الغرب - الأمطار شتاء فتنبو بها النباتات والمراعى، مما هيا للعرب أن يقيموا فى أعاليها الغربية إمارة تدمر، وقضى عليها الرومان فى القرن الثالث للميلاد. وفى جنوبيها صحراء النفود التى تبتدى من واحة تيماء، وتشغل مساحة واسعة، إذ تمتد شرقا نحو ثلاثمائة ميل وهى تمتلى بكثبان الرمال الحمراء والمراعى الخضراء. وبالقرب من تيماء قرية دومة الجندل، وحين تقرب من العراق تمتد ذراعا لها متجها إلى الجنوب فتفصل بين نجد والبحرين بفيافٍ واسعة تسمى الدُّهْناء، وتحيط باليمامة وتتصل بالربع الخالى، وهو صحراء قاحلة شديدة الاتساع، إذ يبلغ نحو خمسين ألف ميل مربع، وتندمج فيها غربا صحراء الأحقاف فاصلة بين اليمن من جهة ونجد والحجاز من جهة ثانية. وتحفُّ بهذه الصحارى على الخليج العربى البحرين وهى

تشمل الآن الكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر، وكانت جنوبها عُمان وتمتد على الخليج العربى وخليج عمان وبحر العرب أو المحيط الهندى، ومن قرى البحرين هجر والقطيف والخط، ومن قرى عُمان مسقط وصُحار ودُبا. وإذا اتجهنا بعد عمان على المحيط الهندى غربا لقينا إقليم ظفار ومهرة والشَّحر ومعناه الساحل، ثم إقليم حضرموت، ثم اليمن فى الجنوب الغربى للجزيرة، ويتألف سطحها من ساحل خصب على البحر الأحمر هو تهامة اليمن وجبال موازية لها هى امتداد سلسلة جبال السَّراة ثم هضبة تُفضى إلى نجد ورمال الأحقاف وبها كثير من الأودية والسهول والزروع بفضل أمطار الرياح الموسمية؛ مما أتاح لسكانها أن يقيموا فيها قديما دولا ذات حضارة راسخة منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد، ومن مُدنها عدن وزَبيد وصنعاء ونَجْران، وتنمو فى جبالها وجبال حضرموت وظفار أشجار الكندر، وهو اللُّبان الذى اشتهر به جنوبى بلاد العرب.

وساحل الجزيرة على البحر الأحمر يسمى تهامة، وقد يضيق وقد يتسع إلى خمسين ميلا وكان العرب يسمونه الغُور لانخفاض أرضه، وهى أرض رملية شديدة الحرارة صيفًا، ونشأت على طولها موانى مثل الحديّدة ميناء صنعاء، والشَّعْبِيَّة وجُدَّة ميناء مكة، وينبع ميناء المدينة أو يثرب، والوجه ميناء الحِجْر عاصمة الثموديين منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وتُسمى الآن مدائن صالح نبيهم، وربما كانت هذه الميناء الموضع الذى أرسى فيه إليوس جالوس القائد الرومانى حاكم مصر بجيشه سنة ٢٤ قبل الميلاد، وهى الغزوة التى أراد أن يفتح بها بلاد اليمن التى كان يُسميها مؤرخو اليونان والرومان العربية السعيدة، وباءت الحملة بالفشل الذريع.

وتمتد فى شرقى تهامة من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال السَّراة فاصلة بين تهامة وهضبة نجد مكوّنة إقليم الحجاز المعروف بكثرة أوديته وحرَّاته، وإذا وُجدت فى هذه الحرَّات والأودية آبار وعيون آذنت بالحياة فيها مثل وادى مكة وحرَّة أو واحة يثرب، وشمالها إلى الشرق واحتا خيبر وفلّك وشمالها وادى

القرى، وفي الشمال من السلسلة «مدین» قرية النبی شعيب وقومه. ومن قرى الحجاز المهمة الطائف على بعد نحو خمسين ميلا إلى الجنوب الشرقي من مكة، قامت على جبل غَزْوان تحفُ بها أودية وآبار كثيرة هيأت لملكة نباتية مزدهرة فيها. وشمالى وادى القرى واحة تبوك، وشمالها واحة دومة الجندل. ونشأت فى الشمال الغربى لسلسلة جبال السراة إمارة عربية فى بطرا منذ القرن الثالث قبل الميلاد وظلّت حتى قضى عليها الرومان نهائيا سنة ١٠٦م.

وخلف سلسلة جبال السراة شرقا نجد الفسيحة التى تنحدر من الغرب إلى الشرق وتصل إلى حوض الفرات والحيرة وبها أسّس العرب إمارة لهم منذ القرن الثالث الميلادى، وظلّت حتى شملتها الفتوح الإسلامية. وتمتلى نجد بكشبان الرمال الحمراء والمراعى، وإذا اقتربت من العراق مدّت ذراعًا لها نحو الجنوب تسمى صحراء الدُّهْناء، وهى تفصل بين البحرين وواحة اليمامة الخصبة بزروعها، ومن قراها الحجر وهى أكبرها. وليس فى نجد جميعها نهر وهى نجد أو كشبان ومرتفعات وأودية غير ذات زرع إلا ما قد ينبت فيها من الكلاء أو المراعى. ولندرة الأمطار بها سموها غَيْثًا وحيّا (من الحياة) واستزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم، وإذا غابت الأمطار أجذبت الأرض وحلّ الهلاك على الأنعام والناس. ولذلك كان أساسا فى حياة أهل نجد الارتحال بحثا عن مرعى جديد لإبلهم وأغنامهم وما قد يكون عندهم من خيل، فلم يعرفوا الاستقرار ولا الاطمئنان لنزول حضارة فى خيامهم الراحلة أبدا؛ إنهم بدو عاشوا على الرحلة الدائمة إلا من عاش منهم فى واحة أو فى اليمن وزروعها. والنخلة أهم الأشجار فى واحات الجزيرة. وفى بوادى نجد تنمو بعض الأزهار مثل العرار وبعض الأشجار مثل السدر والحنظل وخاصة الغضا، وهو ضرب من الأثل، وسُمي به أهل نجد فيقال أهل الغضا. ومناخ الجزيرة فى جملته حارّ شديد الحرارة وخاصة فى الصيف، وتكثر فى نجد رياح السُّموم الصيفيّة التى تشوى الوجوه، وألطف رياحهم الرياح الشرقية ويسمونها الصُّبا.

العصر الجاهلي

لا يدل العصر الجاهلي على جميع الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده، إنما هو اصطلاح يطلق على الطور التاريخي الأخير للجزيرة العربية قبل الإسلام، وهو لا يتجاوز مائة وخمسين عاما قبل البعثة النبوية - كما لاحظ الجاحظ في أوائل كتابه الحيوان - مستدلا على ذلك بأن الشعر الجاهلي لا يتغلغل في التاريخ إلى أكثر من قرن ونصف. ويؤكد ذلك أنه ليس بين أيدينا أخبار ومعلومات عن الجزيرة بعد تدمير الرومان لبطرا في الشمال الغربي وتدمير في الشمال، إنما المعلومات والأخبار تأخذ في شئ من الوضوح بالنصف الثاني من القرن الخامس الميلادي. وكلمة الجاهلية ليست مشتقة من الجهل المضاد للعلم، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والطيش، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الطاعة والخضوع لله.

وفي هذه الحقبة نلتقى بإمارات عربية في أقصى الشمال وأقصى الشرق وأقصى الجنوب، وهي بالترتيب إمارة الغساسنة في شرقي الأردن ولم يتخذوا لهم حاضرة معينة إلى ظهور الإسلام، فتارة تكون حاضرتهم الجابية أو الجولان أو جلق بالقرب من دمشق؛ وفي ذلك ما يدل على أنهم ظلوا بدوًا يرحلون بجياعهم وإبلهم وأنعامهم. ويبدو أن الدولة البيزنطية ساعدت على قيام هذه الإمارة لتكون حاجزا بينهم وبين البدو وغاراتهم وليؤيدوها في حروبها ضد الفرس وعرب الحيرة المسمون باسم المناذرة.

إمارة

الغساسنة

وقد ساعد الفرس على تأسيس إمارة المناذرة في الشرق ليتخذوهم درعا يحميهم من غارات البدو، ولكي يتحولوا جنودا في جيشهم ضد البيزنطيين والغساسنة، وكانوا ينزلون في الخيام أولا، ثم تحولوا إلى قرية الحيرة التي يرويها

إمارة

المناذرة

نهر الفرات. وكلمة الحيرة تعريب لكلمة حرتا السريانية ومعناها المخيم أو المعسكر. وكانت تغلب على المناذرة النزعة البدوية مثل الغساسنة، وأكثر سكانها كانوا من القبائل العربية، وكان ينزل معهم فيها العباديون من النصارى. وفي أقصى الجنوب قامت إمارة كندة، ويبدو أن عشيرة من قبيلة كندة بحضرموت نزلت في شمالي الجزيرة بقبيلة بنى أسد قديما، واستطاعوا أن تكون لهم فيها الرياسة، ومن أمرائهم حُجْر والد امرئ القيس الشاعر المشهور. ولا غمضى طويلا في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي حتى تختل أداة الحكم في الإمارات الشمالية الثلاث، إذ قتلت قبيلة أسد حُجرا الكندي، وأنهت بذلك إمارة كندة في الشمال.

واختلفت الدولة البيزنطية مع المنذر أمير الغساسنة ونَفَثَهُ إلى صقلية سنة ٥٨١م، وثار ابنه النعمان عليهم ولقى نفس المصير سنة ٥٨٤م. وتمزقت دولة الغساسنة وتمزأت إلى إمارات، وضاق كسرى الثاني ملك الفرس بالنعمان أبى قابوس فاستدرجه إلى عاصمته المدائن وقتله، ونصب على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي، وبذلك انتهت إمارة المناذرة.

ويُجمع نَسَابُو العرب على أن قبائل الغساسنة وكندة فى بنى أسد وَلَحْمُ التى منها المناذرة جميعها ترجع إلى أصول يمنية، فإن الدولة الحِميرية حين ضعفت فى اليمن وحضرموت، وخاصة بعد سيل العرم الذى خرب سد مأرب هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال، من ذلك تنوخ ولحم فى الحيرة وإياد التى قصدت عشائر منها حوض الفرات، وانتقلت عشائر كثيرة من الأزد إلى عُمان، وظلّت بعض عشائرتهم فى اليمن، وهاجرت عشائر من كندة إلى منازل بنى أسد فى الشمال كما مرّ بنا، وهاجرت بجيلة إلى جنوبى الطائف، وهاجرت طيى الحضرمية إلى جبلى أجأ وسلّمى فى الشمال، والأوس والخزرج إلى يثرب، وهاجر الغساسنة إلى الشمال، ونزلت جنوبيهم قُضاعة وجُهينة وعاملة وبهراء وجذام وبلى، ونزلت قبيلة كلب شمالي دومة الجندل، ونزلت عذرة بالقرب من تيماء، واستقرت خُزاعة قبيل الإسلام فى منطقة مكة.

هجرات
القبائل اليمنية

ويقابل هذه القبائل القحطانية اليمنية، قبائل عدنانية مُضَرِيَّة، من أهمها قريش في مكة، وثقيف في الطائف، وبنى حنيفة في اليمامة، وتميم وضبة في صحراء الدهناء، وعبد القيس في البحرين، وبكر في الشمال الشرقي وعشائرهما عجل وذهل وشيبان، وتجاور قبيلة بكر قبيلة تغلب وتتوغل أكثر من بكر في الشمال الشرقي، وبجوارها النمر، وكانت تنزل قبيلة أسد في شمال نجد وتمتد عشائرها إلى تيماء، وبالقرب من مكة كنانة وهذيل، وفي نجد قيس عيلان ومن أهم قبائلها هوازن وسُلَيم وعامر وعشائرها كُليب ومُزَيْنَة وقُشَيْر وسعد، وشمالي المدينة غطفان وفرعها ذُبْيَان وَعَبَس.

القبائل
العدنانية

وكل هذه القبائل فيما عدا قبائل القرى والواحات كانت قبائل ظاعنة راحلة وراء مساقط الغيث وأماكن الكأ والعشب، وبذلك كانوا بدوًا راحلين لا يعرفون الاستقرار، إنما يعرفون الرحلة وقطع المسافات البعيدة والتعرض فيها للمخاطر والحروب. ولا نبالغ إذا قلنا إن حياتهم كانت حروبًا مستمرة، حتى ليكاد يوصف كل عربي بدوي في الجاهلية بأنه مقاتل بأسل شاكى السلاح، وهم دائما قاتلون أو مقتولون، ولذلك كان أكبر قانون آمنوا به قانون الأخذ بالشار، فهو شريعتهم المقدسة، ومثله التمسك بتقاليد القبيلة وأعرافها والتعصب لها عصبية مقدسة في السلم والحرب. وكانوا ديمقراطيين بحق فلا يتميز سيد القبيلة من أفرادها إلا بنجدته وكرمه وحيته للجوار وتحمله أكبر قسط في الديات، وهو الذي يقود القبيلة في الحرب ويعقد الصلح. وخطأ أن يُظن أن حياة العرب في القرى كانت تختلف عن حياة البدو في نجد، فقد شبت الحروب في يثرب بين الأوس والخزرج وكانت بينهما أيام حربية مشهورة مثل أيام القبائل في نجد. وحرى أن نعرف أن اليمن التي كانت تسود فيها حضارة راسخة زمن المعينيين والسبئيين، لما كفروا بربهم - كما في سورة سبأ - أرسل الله عليهم سيل العرم فدمر سدًا - أو خزان - مأرب، وبلغهم بجنتيهم وزروعهما وثمارهما جنتين تنبت فيهما أشجار البادية من الخمط أو شجر الأراك، والأثل والسدر أو شجر الغصاء، وكأنها أصبحت جزءًا من صحراء نجد، واستولى عليها الأحباش سنة ٥٢٥

قبائل
بدوية

قانون الأخذ
بالشار

حياة العرب
في القرى

للميلاد ثم الفرس سنة ٥٧٠ للميلاد إلى أن جاء الإسلام. ونمت فيها قبائل مثل خثعم وخولان ومذحج وزبيد وهمدان ومراد، وكأنا أصبحت الجزيرة العربية جميعها في العصر الجاهلي قبائل بدوية.

وكنزة العرب الجاهليين في الجزيرة العربية كانت وثنية تعتقد أن قوى إلهية تتبع في الكواكب وبعض مظاهر الطبيعة من صخور وأشجار، وتعبّدوا لأصنام وأوثان كثيرة، وفي القرآن ذكر لبعض آلهتهم كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ واللات: الشمس، والعزى: الزهرة، ومناة: صخرة على ساحل البحر الأحمر بين المدينة ومكة، وربما دل اسمها على أنها كانت إلهة الموت أو إلهة القضاء والقدر، ويقول الله جل شأنه: ﴿وَلَا تَدْرُونَ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، وود: القمر، ويؤلف مع اللات والعزى الثالوث المقدس عند أهل اليمن: الأب والأم والابن. وكان سواع صنم هذيل وكنانة، ويغوث صنم مذحج ومراد وهوازن، ويعوق صنم همدان ونسر معبود حمير. وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي تفصيل واسع عن الأصنام وعبادتها من القبائل. وكان العرب مع عبادتهم لآلهة وثنية متعددة يؤمنون بأن الله هو الرب الأعلى، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. وكانت ديانة الفرس المجوسية وما يتصل بها من عبادة النار شائعة قبل الإسلام في تميم وعُمان والبحرين والقبائل الشرقية.

وكان الشعر مزدهرا في العصر الجاهلي، فلكل قبيلة شعراؤها الذين يتحدثون عن مفاخرها وأمجادها الحربية الحماسية، وكانوا ينظمونه فخرا ومديحا وهجاء واعتذارا ورتاء ووصفا للطبيعة، ويزعمون أن لكل شاعر ربيّا أو ماردا من الجنّ ينفث الشعر على لسانه، ويروونه فوق طاقة البشر العاديين، كما كانوا يظنون أن له تأثيرا يشبه تأثير السحر، فيهدّدون خصوم القبيلة بهجائهم، وكأنا كانوا يظنون أنه لعنات تصيبهم، نرى ذلك عند زهير وغيره من شعرائهم. وكان

الشعر
الجاهلي

حظ القبائل المضربة من الشعر أكثر من حظ القبائل اليمينية، وكانوا يتناشدونه في أسواقهم، ويعرضونه فيها على حكام يحكمون للمتفوق منهم على منافسيه.

وكانت - في الجاهلية - طائفة تُدعى بالكهَّان تزعم معرفة المغيَّبات بما سُخِّر لها من الجنِّ الذين يكشفون لها الغيب وما يأتى به الغد، والواحد منهم يسمى كاهنا، ولكل كاهن تابعه - كما يزعمون - من الجن يخبره بما يريد. وكانوا يفرعون إلى الكهَّان لاستشارتهم في الأمور الخطيرة والمهمة كإعلان حرب أو قعود عن نصره أو أحلاف أو لكشف عن فعل إنسان أو تفسير حلم، وقد يتنبَّئون لهم بحدوث غزو أو بوقوع كارثة، وقد يقصدونهم للحكم في منافرة. وتحفظ كتب الأدب والتاريخ بطائفة من أقوالهم المسجوعة، وكانوا يعمدون فيها إلى الألفاظ الغريبة والموهمة ليتسع فيها عند السامعين التأويل.

الكهَّان

وكانوا يندون الأطفال وخاصة الإناث - لضيق معيشتهم - دون شفقة . وكانت النساء - مثل العبيد - لا حقوق لهن والرجل يتزوج منهن بأى عدد، وإذا مات عنها زوجها ورثها أهله كما يرثون متاعها.

وأد البنات

وللعرب - في الجاهلية - كثير من الخصال الكريمة وتجمعها كلمة المروءة التى تضم مناقبهم الحميدة من مثل الكرم وإكرام الضيف والحلم والوفاء وحماية الجار والعزة والشعور بالكرامة وإغاثة الملهوف والعفو عند المقدرة والأنفة وإباء الضيم والهوان والشجاعة فى الحرب والفروسية.

خصال
العرب

العالم فى عصر البعثة النبويَّة : أوائل القرن السابع الميلادى

إذا اتجهنا إلى شرقى الجزيرة العربية لقيتنا إيران وسكانها من الفرس الساسانيين وكانت عاصمتهم المدائن (طيشفون) على نهر دجلة، وكانت فى حرب من حين إلى آخر مع الدولة البيزنطية، وساعدوا فى إمارة الحيرة العربية

لتكون درعا لهم ضد أعراب نجد، ولتساعدهم في حروبهم ضد الدولة البيزنطية. وبالمثل اتخذت الدولة البيزنطية إمارة الغساسنة في شرقي الأردن لنفس الغرضين السالفين. وكانت دولة الفرس قد أخذت في الضعف منذ أوائل القرن السابع الميلادي، وكان الفرس مجوسا وثنيين يعبدون النار ويؤمنون بالديانة الزرادشتية وعقيدتها التي تجعل للعالم إلهين: مَزْدَا إله النور والخير، وأهرمن إله الظلمة والشر والتي تزعم أن النار طاهرة مقدسة؛ ولذلك أقام لها الفرس المعابد في كل مكان، إلى غير ذلك من تعاليم ضمّنها زرادشت في كتابه الأَقستا منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد. وظهرت عندهم في القرن الثالث الميلادي ديانة المانوية لداع يُسمّى ماني مزج فيها بين الزرادشتية والمسيحية والبوذية. وفي أواخر القرن الخامس ظهر عندهم داع جديد هو مَزْدَك وكان يؤمن بإلهي الخير والشر وتقديس النار ودعا دعوة شديدة إلى العكوف على اللذات والشهوات.

وكانت دولة كويتا تحكم - منذ القرن الرابع الميلادي - الأفغان وحوض السند وبعض أجزاء من الهند، وكانت برهمية، وازدهرت في عهدها اللغة السنسكريتية وأُلفت المهابهارتا والراميانا وهما مجموعتان رائعتان من القصص والأشعار والحكم، وقضى على هذه الدولة الهون. وفي القرن السابع الميلادي انتشرت البوذية في الهند من الصين ولقيت قبولا من أهلها وانتشرت معابدها فيها على الرغم من مقاومة البراهمة الهنود لها. وكان الأمراء في الصين يقاتل بعضهم بعضا إلى أن وحدتهم أسرة سو وضعفت، وخلّفتها أسرة تانج سنة ٦١٨ وظلت بها ثلاثة قرون، وهي التي أدخلت البوذية في كوريا واليابان، ومضت البوذية تتغلغل في اليابان وتؤثر في حياتها ومثلها آثارا عميقة.

وإذا اتجهنا من الجزيرة إلى الشمال الغربي التقينا بالإمبراطورية البيزنطية، وقد تأسست بيزنطة سنة ٦٦٠ قبل الميلاد، وأعاد قسطنطين إمبراطور روما بناءها، وسَمّاها باسمه القسطنطينية. وفي سنة ٣٩٥ للميلاد انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين: شطر غربي باسم الإمبراطورية الرومانية الغربية، وشرط شرقي باسم الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية. وبينما

أخذ القسم الغربى فى التدهور أخذ القسم الشرقى فى الازدهار، وبلغ أقصى اتساعه فى عهد جوستيان (٥٢٧-٥٦٥م)، إذ ضم إليه صقلية والشمال الإفريقى من تونس إلى المحيط ومصر وجزءاً من إيطاليا. وتولى بعده أباطرة ضعاف إلى أن ولى سنة ٦١٠ للميلاد هرقل (٦١٠-٦٤١م) وصمم على النهوض بدولته سياسياً وعسكرياً، وكان الفرس الساسانيون - منذ سنوات قليلة - استولوا على الشام ومصر، فأعلن عليهم الحرب، واستخلصهما منهم وردّهما إلى إمبراطوريته، وسيسقطهما العرب من يديه ويستولون عليهما فى بواكير فتحهم الإسلامية. وكانت تشيع فى إمبراطورية بيزنطة الثقافة الإغريقية أو الهيلينية، كما كانت تشيع فيها الديانة المسيحية، وخاصة المذهب الأرثوذكسى الذى ترأسه كنيسة بيزنطة.

وبينما كانت بيزنطة أرثوذكسية كانت روما - ولا تزال إلى اليوم - كاثوليكية وكانت تشيع مذهبها الكاثوليكي فى ديارها وعملت على نشره فى ديار الفرنجة بفرنسا وغربى نهر الراين. ولم يكن وسط أوربا وشرقها محدّد الملامح، وكانت به حروب متصلة بين الصقالة والألمان. وكانت تعيش فى إنجلترا دويلات مستقل بعضها عن بعض، ونزلت بها سيول من الألمان ودول الشمال الأوروبى وسيطرت عليها طويلاً، ولم يكن لها شأن يُذكر فى القرن السابع الميلادى. أما إسبانيا فكانت فى القرن السابع الميلادى تحت حكم القوط، وكانوا يحكمون فرنسا حتى حوض نهر اللوار، وغادروها إلى إسبانيا فى القرن الخامس الميلادى، وكانوا قبائل متبربرة من الألمان وغيرهم فزاحموا شعب الوندال فيها وزحّوهم إلى الجنوب ونسب إليهم باسم "فاندالوسيا" وعربّه العرب إلى الأندلس حين فتحوها. وظل القوط يحكمون إسبانيا مُتخذين طليطلة - كما اتخذتها روما قبلهم - عاصمة لها، وكان كثيرون من أهل إسبانيا مسيحيين تبعوا لروما حين اعتنقت المسيحية، إذ ظلت تحتلها طويلاً وأشاعت فيها لغتها ونزلها كثير من أسرها، ودخلها القوط ولم يتنصّروا سريعاً، إذ لم يعتنقوا الكاثوليكية إلا سنة ٥٨٧ للميلاد.

الأرثوذكسية
والكاثوليكية

إنجلترا

إسبانيا

٤

اليهودية والنصرانية والحنيفية

أ - اليهودية

كان اليهود في العصر الجاهلي منتشرين في اليمن والحجاز، هاجروا إليهما من موطنهم في فلسطين فرارا من اضطهاد قيصرية الرومان الذين كانوا يسيطرون على ديار الشام، ومعروف أن القيصر طيطوس Titus هدم لهم الهيكل المقدس سنة ٧٠ للميلاد وأن هديران بعده طردهم من فلسطين سنة ١٣٥ للميلاد، فلجأ كثيرون منهم إلى اليمن وإلى واحات الحجاز في يثرب وشمالي يثرب. واستطاعوا في اليمن أن يجعلوا في القرن السادس الميلادي أحد ملوكها يعتنق اليهودية وهو ذو نواس، ودفعوه إلى التكيل بنصاري نجران، وحفر شقوفا أو أخاديد في الأرض وملأها نارا وألقى بهم فيها، وسجل الله عليه وعلى أصحابه هذه الجريمة النكراء قائلا: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. وسرعان ما انتقلت دولة الحبشة المسيحية لإخوانهم في نجران، فقصت على دولة ذي نواس واستولت على اليمن، وظلت فيها نحو خمسين عاما إلى أن خلصها الفرس منهم سنة ٥٧٠ للميلاد، وظلوا بها حتى مجئ الإسلام.

وأهم من يهود اليمن يهود واحات الحجاز: يثرب وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء، وكان لهم في يثرب ثلاث قبائل: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، ونزل بيثرب بعدهم قبيلتان من اليمن هما الأوس والخزرج وفرضتا على اليهود سيادتهما. وكان اليهود يشتغلون بالزراعة في واحة يثرب والصياغة ونسج الأقمشة والحداة وصنع الأسلحة، وعملوا دائما على الإيقاع بين الأوس والخزرج، وكثيرا ما اشتبكنا في حروب. وتعرب يهود يثرب، فكانت العربية

لغتهم اليومية، ونظموا بها أشعارا روتها كتب الأدب العربى، ومع ذلك كانوا يحتفظون بلغتهم العبرية القديمة، وكانوا يتدارسون بها التوراة والمِشنة والزبور (مزامير داود) فى دار ندوة لهم يثرب تسمى المدراس. وعلى نحو ما تعرّب يهود يثرب تعرّب يهود فذك وخير ووادى القرى وتيماء، ونظم الشعر فيها غير شاعر، وأهم شعرائهم السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتيماء.

ب - النصرانية

كانت النصرانية معروفة فى اليمن منذ القرن الرابع الميلادى، إذ كان القياصرة وملوك الحبشة المسيحية يُرسلون إليها بعثات دينية تبشيرية، وانتشرت فى نجران بحيث كانت أهم مواطنها اليمنية، ومرت بنا نكبة الملك اليمنى لها واستيلاء الأحباش على اليمن، وقد بنى أبرهة واليهيم فى مدنها كنائس متعددة من أشهرها كنيسة القليس فى صنعاء، وهى تعرب لكلمة Eclysia اليونانية ومعناها الكنيسة، ويقال إنه "نقشها بالذهب والفضة والفُسَيْفَساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر.. ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة". وعمّت النصرانية بجنوب اليمن فى نجران.

فى اليمن

وانتشرت النصرانية فى الشمال الغربى للجزيرة وشرقى الأردن بين الغساسنة والقبائل العربية فى جنوبهم مثل عاملة وجُذام وقُضاعة وكلب ودومة الجندل وطبئ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أتباع يعقوب البرادعى المتوفى سنة ٥٧٨ للميلاد، وكانوا يذهبون إلى أن للمسيح طبيعة واحدة، ومن أجل ذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة أو الطبيعة الإلهية، إذ فى عقيدتهم أنه اتحدت فى المسيح الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية أى البشرية. وشاعت النصرانية فى بعض قبائل العراق مثل تغلب وإياد، وبالمثل شاعت فى الحيرة إمارة المناذرة اللخمين الوثنيين، واعتنقها بينهم العباديون، ويسدو أنهم ميّزوا أنفسهم بهذا الاسم من الوثنيين، فهم عباد الله، ولم يكونوا يعاقبه مثل عرب الشمال الغربى للجزيرة، بل كانوا نساطرة نسبة إلى نسطوريوس Nestorius المتوفى عام

فى الشمال
الغربى

فى تغلب
والحيرة

٤٥١ وكان بطريرك القسطنطينية (٤٢٨-٤٣١م) وذهب إلى أن للمسيح طبيعتين طبيعة إلهية بوصفه ابن الله، وطبيعة بشرية بوصفه ابن مريم العذراء، وتُسمَّى الأولى أقنوم اللاهوت والثانية أقنوم الناسوت. وتنصّر أخيرا من الهيئة الحاكمة آل المنذر آخر حكامهم على الحيرة أبو قابوس النعمان بن المنذر (٥٨٠-٦٠٢م) واستدرجه كسرى الثانى ملك الفرس إلى المدائن عاصمته وقتله. وبذلك انتهى حكم دولة المناذرة فى الحيرة كما مرّ بنا.

وكان بمكة فى العصر الجاهلى بعض الرقيق الحبشى النصرانى - وربما كانوا كثيرين كما كان بها بعض الروم النصارى وبعض الجوارى الروميات، وأيضا كان بها عبدان نصرانيان من عين التمر بالعراق. وتنصّر نفر من قريش فى أواخر العصر الجاهلى منهم ورقة بن نوفل (فيما قيل)، وبالمثل نفر فى يثرب، وينبغى أن لا نبالغ فى تصور من تنصروا من العرب فى الجاهلية، وحقا ذكر كثير من شعرائهم فى أشعارهم الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة، غير أنهم ظلوا لا يتعمقون فى المسيحية. وأهم شعراء الجاهلية المسيحيين عدى بن زيد العبادى فى الحيرة غير أننا لا نجد عنده فكرة التثليث المعروفة فى النصرانية، وهى أساس العقيدة المسيحية. وانقسم المسيحيون إزاءها فرقا كثيرة من أهمها الفرقان المار ذكرهما، وهما اليعاقبة والنساطرة، واشتهرت معهما النحلة الملكية التى تذهب إلى أن كلمة الله اتحدت فى عيسى أو بناسوته فى بطن مريم، وصار بذلك ابنا لله. والثالث عند المسيحيين هو الأب أصل الوجود والابن المسيح والروح القدس. ومن فرقهم بين العرب فى الجاهلية الركوسية وكانوا يقولون بأن الله اتحد بمريم فى حملها بعيسى، وبذلك كان الثالث المسيحى عندهم الأب والابن ومريم، تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

ج - الحنيفية بمكة

الحنيفية نسبة إلى إبراهيم الخليل الذى عاش فى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد، ولُقّب بالحنيف وهو الميل، ويقصد بالحنيف المائل عن دين قومه

الحنفاء

الوثنيين وعبادتهم للأصنام والأوثان إلى عقيدة التوحيد لله، واشتهر بذلك نفر في القبائل المختلفة مثل خالد بن سنان في بني عبس. واشتهر بمكة نفرٌ بأنهم حنفاء في أواخر العصر الجاهلي شكوا في دين قومهم الوثني ومالوا إلى الإيمان بالله ووحدايته، ولذلك سُموا أحنافا. وذكر منهم ابن إسحاق أربعة هم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث وزيد بن نفل، ويقول ابن إسحاق إنهم اجتمعوا في عيد لهم عند صنم من أصنامهم (لعله العزى) فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ التمسوا لأنفسكم دينا، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. فأما ورقة فاستحكم في النصرانية، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، وهاجر مع المسلمين إلى الحبشة مع زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وهناك تنصّر، وخلف رسول الله بعده على أم حبيبة، وتنصّر عثمان بن الحويرث، وأما زيد بن نفل فتوقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية، واعتزل الأوثان، وكان لا يأكل مما ذبح على الأوثان والنصب، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، ونادى في قريش بعيب دينهم الوثني. وكأنه كان بين القرشيين في أواخر العصر الجاهلي نفرٌ يتطلع إلى الحنيفية دين إبراهيم، وكانوا يُسمون من التمس دين إبراهيم وحج البيت حنيفا، ويقول الله لرسوله في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى ملة الإيمان بالله ووحدايته، ولذلك سُميت ملة الإسلام الحنيفية، وفي الحديث النبوي: "أحب الأديان إلى الله الحنيفية".

الفصل الثانى

مكة والكعبة وقريش

قبل الإسلام

١

موقع مكة

تقع مكة فى منتصف طريق القوافل الممتد بحذاء البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب بين فلسطين واليمن فى وادٍ متسع شَقَّتْهُ الطبيعة فى جبال السَّراة التى تحجز بين صحراء نجد فى الشرق وساحل البحر الأحمر المُسمَّى تهامة فى الغرب. والوادي تُحْفُ به جبال صخرية، ويأخذ شكل هلال طوله ضعف عرضه، وتنتهى الجبال شرقاً بجبل أبى قُبَيْس وغرباً بجبل قُعَيْقَعان، ويُسمَّى قاع الهلال المكون لمكة باسم البِطاح جمع بطحاء: المكان المتسع فى قاع الوادى، وفيه الكعبة المقدسة وبئر زمزم، وما وراء البِطاح مما يتصل بالجبال حول مكة يُسمَّى الظواهر.

والمسافة بين مكة والبحر الأحمر تبلغ نحو سبعين كيلومتراً، ومرفؤها عليه قرية الشُعَيْبِيَّة فى الجاهلية وقرية جُدَّة فى الإسلام إلى اليوم، ومن قديم يصلها هذا المرفأ بأريثيا والحبشة فى شرقى إفريقيا. ومع أن مكة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٨٠ متراً، فإن جوها أو مناخها فى الصيف حارٌّ حرارة شديدة، حتى ليصف ابن بطوطة الرِّحَالَة حرارتها فيه بأن حصباءها تشبه صفائح محمَّاة. وليس فيها ولا بقربها ماء جارٍ، ولذلك ليس فيها نخيل واحات الحجاز ولا أزهارها،

فهي وما حولها من الجبال جرداء، ويقلُّ فيها الماء قلة شديدة، لولا بئر زمزم الذي يَسْقَى من يلوذ بها، وهو ما جعل سقاية الحجاج فيها فيما بعد من الوظائف المقدسة.

وطبيعيٌّ أن لا يكون للمملكة النباتية في مكة مكان، إذ لا نبات ينبت فيها إلا بعض أشجار البادية مثل الشام والإذخر. والوحشة والعزلة شديدتان فوق جبالها ومنحدراتها إلى صحراء نجد ولا تسمع صوتا مطربا لطار، فأنت لا تسمع هناك إلا صفير الرياح الهوجاء يصلُّ أذنيك، ولا ترى إلا صخور الجبال السوداء، وكأنها فحم احترق من طول تلظُّيه بلهب حرارة الصيف الكاوية، وبرْد مكة مثل حرّها شديد قاسٍ في برودته.

ومكة إذن بلدة قاحل تحيط به صخور الجبال من كل جانب إلا في منافذ ثلاثة: منفذ يصلها بالطريق المؤدى إلى فلسطين في الشمال، ومنفذ يصلها بالطريق المؤدى إلى اليمن في الجنوب، وثالث يصلها بالطريق المؤدى إلى البحر الأحمر.

٢

مكة وبناء إبراهيم للكعبة

أ - تاريخ مكة

تاريخ مكة في القديم يرجع إلى آلاف السنين، ويبدو أن القوافل التي كانت تمر بها صاعدة إلى الشمال ومنحدرة إلى الجنوب اتخذتها ملاذا لراحتهما بسبب ما كان بها من بعض الآبار، فكانوا ينزلون بها يوما أو يومين أو بعض الأيام، ثم يرحلون. وربما نزلتها قبيلة جرهم في هذا التاريخ القديم.

وأول معرفة تاريخية حقيقية تصلنا عنها نزول إبراهيم الخليل أبي الأنبياء فيها بزوجه هاجر المصرية وابنها إسماعيل، وتركهما سريعا عائدا إلى مستقره في

التعريف

إبراهيم

فلسطين، وكان يختلف إليهما من وقت بعيد إلى وقت آخر. وقد ولد إبراهيم بالعراق لأب صانع لتمثيل الآلهة التي كان يعبدها قومه، ولما شبَّ عن الطوق أخذ يعجب لأبيه وقومه كيف يعبدون هذه الآلهة التي يصنعها أبوه بيده، وأخذ يراجع أباه وقومه في هذه العبادة الضالة، ويقول القرآن مصورا بحشه عن ربه الحقيقي: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وطالت عليه مراجعة أبيه وقومه، وهم ينكرون ما يسمعون منه. وانتهر إبراهيم يوما فرصة من قومه، إذ زاروا آلهتهم وتركوها وراءهم، فعمد إليها بفأسٍ يحطمها حتى حطمها جميعا ما عدا كبيرها، وعلّق الفأس برقبته. ورآها القوم محطمة فبهتوا وتشاوروا في الفاعل وأجمعوا على أنه إبراهيم الذي ينهاهم عن عبادتها، ورجعوا إليه يسألونه: هل هو الذي دمّرها؟ فقال لهم: بل دمّرها جميعا كبيرها والفأس لا تزال معلقة برقبته. وأخذ يعنفهم على عبادة ما لا ينفعهم شيئا ولا يضرهم، فأجمع أمرهم على أن يحرقوه بالنار. وسألوا ملكهم النمرود أن يأذن لهم أن يحرقوه، فأمر بإحراقه وأعدوا له النار وألقوه فيها، واستسلم لهم متوكلا على ربه، يقول الله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي دون أي حرارة أو إحراق له.

وظل قوم إبراهيم يحاجونه ويبادلونه وينكرون عبادته لله وحده، ويئس منهم، فأمره الله أن يغادرهم إلى فلسطين، ووعد - كما في كتابهم المقدس - أن يجعل منه أمة كبيرة وباركه ويعظم اسمه. وصدع إبراهيم لأمره وأخذ زوجته سارة ابنة عمه وابن أخيه أو أخته لوطا وكل ما ملكا من مقتنيات، وأتوا إلى

في
فلسطين

أرض فلسطين، وبنى بها مذبحاً للرب. وحدث جَدْبٌ شديدٌ بفلسطين - فرحل بسارة إلى مصر، وكانت جميلة، وخشى على نفسه أن يقتلوه ويأخذوها منه، فقال لها: قولي لهم إنك أختي، ومثّلتُ لدى ملك مصر وأعجب بها، وهم أن يتزوجها فعرفته أنها ليست أخت إبراهيم إنما هي زوجته، فاستدعاه ولامه لزعمه أنها أخته، وأهداهما أموالاً وهدايا كثيرة، وأمر أن يشيعهما رجاله وكل ما كان لهما. والمُظنون أن هذه الزيارة لإبراهيم وزوجته سارة إلى مصر كانت في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. واقترنت زوجته لها جارية مصرية تسمى هاجر. وكانت سارة لا تزال عقيماً ولم تنجب لإبراهيم ولداً منذ رجوعها من مصر، وكان قد مضى على أوبتئها منها عشر سنوات، فأشارت سارة على إبراهيم أن يدخل على هاجر لعله يُرزق منها بولد، فارتضى قولها، وأنجبت سريعاً له ابناً فسمّاه إسماعيل. وأخذت سارة ثغار منها غيرة شديدة ولما بلغ إسماعيل الثالثة عشرة حملت سارة بابنها إسحاق، وبشره الله به من زوجته سارة، وقال له عنه: إنى أكثر نسله كثيراً جداً، إذ يلد اثني عشر رئيساً، وأجعله أمة كبيرة. وفي الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين أن غيرة سارة أم إسحاق من هاجر المصرية وابنها إسماعيل اشتدت إلى أقصى حد، فقالت لزوجها إبراهيم: اطرده هاجر وابنها إسماعيل من خيامك. وشعر أن الحياة لن تطيب بوجود زوجته معها، فصمّم على أن يبتعد بهاجر وابنها واتجه إلى الجنوب حائراً أين يتركهما حتى وصل إلى وادى مكة، فرأى أن يتركهما فيه وترك لهما ما يتعيّشان به حيناً، وعاد أدراجه من حيث أتى. ونفذ الماء من القربة التى خلفها إبراهيم لها، واشتد بها وبابنها العطش، وأخذت تسعى بين الصفا والمروة تلتمس الماء وإسماعيل يبكى - وجعل الإسلام هذا السعى أحد أركان الحج ذكرى عزيزة للمسلمين -، فسمع الله صوتهما - كما فى الإصحاح الحادى والعشرين - ونادى ملاك الله هاجر من السماء، فقال لها: يا هاجر لا تخافى لأن الله قد سمع كلامكما، قومى، احملى الغلام وشُدِّى يدك به، لأن الله سيجعله أمة كبيرة، وهداها إلى بئر قريية منها، هى بئر زمزم، فحملت قُربتها إليها وملأها ماء، وارتوت منها هى وابنها. وكل

فى مصر

إبراهيم وسارة
وهاجرهاجر
وإسماعيل

ما مرّ بنا عن إبراهيم ونزوله بإسماعيل وزوجته هاجر بمكة يرويه المؤرخون الإسلاميون كما يرويه سفر التكوين في العهد القديم، مما يدل على أن تاريخ مكة في القديم يبدأ مع تاريخ إبراهيم في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. ويذهب بعض الباحثين إلى أن قبيلة جرهم سبقت الخليل إبراهيم وإسماعيل في النزول بها، وأكثر الروايات على أن إبراهيم نزل بها مع هاجر زوجته وإسماعيل ابنه، ثم نزلت بها سريعا جرهم حين رأت ماء ينبع فيها هو ماء زمزم.

ويرتبط إبراهيم بقصة رؤياه ذبح أحد ابنه إسماعيل أو إسحق عن أمر ربه، وأنه همّ بذلك في اليقظة، وطاوعه ابنه حين ذكر له أمر ربه، وبينما إبراهيم يحاول تنفيذ ذلك وإلقائه بابنه على الأرض أرسل له الله ملكا في نفس اللحظة ناداه: لقد صدقت الرؤيا التي رأيتها في الحلم، وإن ذلك لبلاء مبین لك، وقد فدينا ابنك بكبش عظيم، رآه إبراهيم قريبا منه فذبحه فدية لابنه. ومؤرخو المسلمين يختلفون فيه هل هو إسماعيل، وحدثت هذه القصة في منى بمكة، أو هو إسحاق وحدثت القصة في فلسطين، وفي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين أنه إسحاق. ولم يصرح القرآن الكريم في القصة باسمه، غير أن تسابع القصة فيه يدل على أنه إسماعيل، إذ تمضى بهذه الصورة: وقد سارا معا: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾. وبعد أن فرغ الله من بيان هذه القصة المتصلة برؤيا إبراهيم وفدائه لابنه قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهى بشرى ثانية لإبراهيم، بعد بشرائه بغلام حلیم أى بإسماعيل مع قصة رؤياه لذبحه، ولو كانت الرؤيا لذبح إسحاق لذكر اسمه أولا، ولم يقل جلّ شأنه ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ دون ذكر اسمه.

ب - بناء الكعبة

يبدو أن مكة كان بها من أقدم العصور بناء لعبادة الله، إذ يزعم بعض المفسرين أن آدم أول من بنى بها الكعبة وأن الطوفان قضى عليها، وبذلك يكون إبراهيم وإسماعيل مجتدين لها، وسواء صحت أسطورة بناء آدم أو لم تصح فإنه من المؤكد أن إبراهيم وإسماعيل بنياها في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد، إذ سجل ذلك القرآن الكريم في قوله عزّ شأنه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾. وكان إبراهيم يتزدد من وقت إلى آخر على إسماعيل وأمه في مكة، فأمره الله أن يبنى بها بيتا لعبادته بمعاونة ابنه إسماعيل، وأخبره بذلك في زيارة له، فرحب إسماعيل بالفكرة، وقال له: إني معين لك، وسرّ إبراهيم، وأخذ يبنى البيت في مكانه الحالي وسط المسجد الحرام، وفي سفر التكوين أن مبنى عبادته لله هو ويعقوب كان يسمى بيت الله. أما هذا البيت في مكة فكان يُسمى أيضا الكعبة في القرآن الكريم، ولا نعرف بالضبط متى أطلق هذا الاسم على بيت الله في مكة ولا من أطلقه.

إبراهيم
وإسماعيل
يبنيان الكعبة

وكان إبراهيم يبنى وإسماعيل ينقل إليه الأحجار وبنائها له، ولما ارتفع البناء عن قامة إبراهيم وصار أعلى من أن تطوله يده جاء إسماعيل لأبيه بحجر كبير يقف عليه للبناء، فاستخدمه ودار به حول البناء حتى أكمله. حينئذ توجه إبراهيم وإسماعيل إلى الله يدعوانه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وتقبل الله دعاءهما واستجاب لهما، فجعل البيت كعبة يحج إليها الناس من قريب ومن بعيد، وأرسل إلى إبراهيم ملكا يعلمه مناسك الحج، ويأمره أن يطهر البيت للطائفين والقائمين والركع السجود وأن ينادي للناس بالحج فيأتوه رجالا وركبانا. وقد يكون في ذلك دليل على أن جرهما كانت في مكة وحولها حينئذ. ويقول الله مشيدا ببناء إبراهيم للكعبة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا. وَاللَّهُ - جَلَّ شَأْنُهُ - يَقُولُ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ أُسِّسَ لِلنَّاسِ كَيْ يَعْبُدُوا رَبَّهُمْ فِيهِ هُوَ الْبَيْتُ الَّذِي بَبَكَّةَ أَى مَكَّةَ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْكَعْبَةَ أَقْدَمَ بَيْتَ عِبَادَةٍ صَحِيحَةٍ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾، وَقَدْ بَنَاهَا إِبْرَاهِيمَ حِوَالَى سَنَةِ ١٩٠٠ قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَبَنَى سَلِيمَانَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ قَبْلَ الْمِيلَادِ، فَالْكَعْبَةُ تَسْبِقُهُ بِنَحْوِ تِسْعَةِ قُرُونٍ. وَيَقُولُ اللَّهُ إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ دَالَّةٌ عَلَى قِدْسِيَّتِهِ، مِنْهَا (مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ) وَيُرَادُ بِهِ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ مَحَلُّ قِيَامِ إِبْرَاهِيمَ لِلصَّلَاةِ، وَمِنْهَا أَنَّ مَنْ دَخَلَ كَانَ آمِنًا، وَأَمَّنُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ وَحَيَاتِهِ أَعَزُّ شَيْءٍ لَدَيْهِ. وَفِي زَاوِيَةٍ مِنْ مَبْنَى الْكَعْبَةِ يُرَى حَجَرٌ أَسْوَدٌ، وَلَا يُعْرَفُ أَصْلُهُ، وَيُقَالُ إِنَّهُ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَبَلِ مَكَّةَ أَبِي قَبِيْسٍ، وَكَأَنَّهُ نَزَلَ، وَرَأَاهُ إِبْرَاهِيمَ فِي سَقُوطِهِ فَوَضَعَهُ فِي مَكَانِهِ مِنَ الْكَعْبَةِ. وَمِنْ قَدِيمٍ لِلْكَعْبَةِ غَطَاءٌ كَسُوهُ لَهَا، وَكَانَتْ قَرِيْشٌ تَكْسُوْهَا دَائِمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ أَوَّلُ سَادَنٍ أَوْ خَادِمٍ لِلْكَعْبَةِ، وَتَزَوَّجَ فَنَاءَ مِنْ قَبِيلَةِ جَرَهْمَ، وَرَزَقَ مِنْهَا بَاثْنَى عَشَرَ وَلَدًا، وَهُمْ آبَاءُ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ، وَكَانَتْ جَرَهْمُ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَابَةِ الْيَمْنِيِّينَ أَبْنَاءُ يَعْزَبِ بْنِ قَحْطَانَ. وَبِمَتُّ إِسْمَاعِيلُ مِنْ نَاحِيَةِ أُمِّهِ هَاجِرَ إِلَى مِصْرَ وَمِنْ نَاحِيَةِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى الْعِرَاقِ مَسْقُطُ رَأْسِهِ إِلَى فَلَاسْطِينَ. وَعَاشَ إِسْمَاعِيلُ بِمَكَّةَ طَوِيلًا إِذْ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ مِائَةً وَثَلَاثِينَ عَامًا. وَفِي مَبْنَى بِالْقُرْبِ مِنَ الْكَعْبَةِ قَبْرُهُ وَقَبْرُ أُمِّهِ هَاجِرَ، وَفِي مَبْنَى آخِرِ الصَّخْرَةِ الَّتِي اِغْتَلَاهَا إِبْرَاهِيمَ حِينَ ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ عَنْ قَامَتِهِ، وَأَتَاكَتْ لَهُ أَنْ يَتِمَّهُ وَيَكْمُلَّهُ.

سِدَانَةُ الْكَعْبَةِ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ

خَلَفَ إِسْمَاعِيلُ عَلَى سِدَانَةِ الْكَعْبَةِ ابْنَهُ نَابِتَ يُؤَيِّدُهُ إِخْوَتُهُ الْأَحَدُ عَشَرَ وَأَخْوَالُهُ مِنْ جَرَهْمَ، وَيَبْدُو أَنَّ السِّدَانَةَ بَعْدَ نَابِتَ خَرَجَتْ مِنْ يَدِ إِخْوَتِهِ إِلَى

أخوالهم من جرهم عن رضا منهم، واستحالت مكة سريعا إلى مركز مهم للقوافل مكة مركز للقوافل والحج المتجهة من اليمن إلى فلسطين شمالا والمنحدرة إلى اليمن جنوبا وإلى العراق شرقا وإلى البحر الأحمر غربا. وكان عرب الجزيرة يرحلون إلى الكعبة للحج منذ إبراهيم، ويشير الله إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى يقصدونه معظمين له، ولا ينصرف عنه قوم فى عام إلا ويخلفهم قوم آخرون. ومعروف أنه لم يكن بين الناس فى الجزيرة شريعة ولا ضرب على أيدى الظلمة والجناة ولا انتصاف منهم ولا رد للحقوق إلى أهلها، فجعل الله البيت لهم أمنا يصد القوى فيه عن الضعيف ولا ينتهك له مالا، ويرى الشخص قاتل أخيه فلا يمد إليه يدا بسلاح ولا يحاول أن يؤذيه أقل إيذاء لأنه فى بيت الله وحرمة. ويكرر الله فى القرآن هذه المنة العظيمة لأهل مكة منذ بُنيت فيها الكعبة، كما جعلها سوقا تجارية تُجلب إليها الثمرات من الشمال والجنوب، مما جعل مكة أشبه بقافلة تجارية كبيرة مقيمة، وتخرج منها القوافل مُيَمَّة اليمن أو الشام أو العراق، وتعود محمَّلة بعروض التجارة.

ونعجب أشد العجب، إذ تتحول جرهم بالكعبة من بيت لعبادة الله إلى بيت لعبادة الأصنام، ومعروف أنها يمنية وأن اليمن كانت وثنية تتعبد لثالوث من الكواكب هو اللات رمزا للشمس وود رمزا للقمر والعزى رمزا للزهرة. وليس جرهم وأصنام الكعبة بين أيدينا ما يدل على أن جرهما تبعت دين إبراهيم ووحّدت ربها وربما دعاها إلى دينه وعصته كما عصاه قومه وبقيت على عبادة الأوثان، أو ربما استجابت له ودخلت فى دينه ثم بعد قليل من الزمن أو كثير عادت إلى دينها الوثنى، وكأنها لم تستطع الإيمان بالله ووحدايته، أو لم تستطع عقولها أن تسمو هذا التسامى فعادت إلى عبادة اللات وود والزهرة الرامزة إلى كواكب تبصرها العين ليل نهار. ويؤكد أن عبادة الأصنام شاعت من قديم فى بلاد العرب: مكة وغير مكة، أن نجد هيرودوت المؤرخ اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد يذكر أن بلاد العرب تعبد إلهما يُسمَّى اللات، وذكر ديودور الصقلى الكعبة التى تعظمها العرب، ويقول مكسيموس تياروس فى القرن الثانى للميلاد إن العرب يعبدون

خزاعة تتولى
سدانة الكعبة

إلها يرمزون إليه ببناء مستطيل (يريد الكعبة) فيه حجر أسود. وجاء الإسلام، وللعرب في الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان من أكبرها اللات. وظل سَدَنَةُ جرهم يتولون أمر الكعبة، وتنبأ لها آخر سدانيتها من جرهم مضاض بن عمرو أن سدانيتها ستخرج من يدها إلى قبيلة يمنية نزلت بجوار مكة تسمى خُزاعة، وكان بالكعبة غزالتان من ذهب لعلهما أهديتا إليها، كما أُهدى إليها طائفة من الأموال، فرأى أن يعمق حفر زمزم وأن يدفن فيها الغزالتين والأموال، ودفنهما في قاعها وأهال عليهما الرمال آملاً أن يعود أمر سدانة الكعبة إليه وإلى قبيلته، وخرج من مكة مع قبيلته وبنى إسماعيل، أخرجتهم جميعاً من مكة خزاعة ومن ساعدها من بنى كنانة. ووليت خزاعة البيت وتوارث أبناؤها سدانته، ولم تحاول جرهم العودة إلى مكة وسدانة البيت الحرام، بل تركته وتركته مكة يائسة، وتولت خزاعة سدانته واحداً وراء واحد حتى منتصف القرن الخامس الميلادي.

٤

قُرَيْشٌ - غزو الحبش لها - انتعاش تجارتها

قريش من القرش، وهو التجمع. ويقول علماء النسب إنهم أولاد النَّضر بن كنانة وهو الجد الثاني عشر للرسول ﷺ في سلسلة نسبه إلى عدنان. ويبدو أن هذه القبيلة خرجت من مكة مع جرهم حين أخرجتها قبيلة خزاعة، غير أنها لم تذهب بعيداً عن الحرم، بل ظلت عشائر من حوله متفرقة غير متجمعة إلى أن جَعَّها قُصَيٌّ بن كلاب الجد الرابع للرسول، ولذلك سُمِّيَتْ قريشا.

ويُقال إن كلاباً كان قد أنجب ولداً قبله سَمَاهُ زهرة وتُوفَّى وقُصَيٌّ صغير، وتزوجت أمه بعد أبيه شخصاً من قُضاعة ففقلها مع قُصَيٍّ إلى منازل قبيلته جنوبى فلسطين. وشبَّ قُصَيٌّ في هذه القبيلة، وحدث أن وقع شجار بينه وبين شاب من قُضاعة فغیره بأنه ليس من قُضاعة. وسأل قُصَيٌّ أمه، فقالت له الحقيقة وأن قبيلة أبيه كلاب عند مكة، فرحل إليها وتعرف فيها على أخيه زهرة، وارتفع شأنه بين

الشباب من أمثاله لشمائله الطيبة، وتعرّف إلى سيد خزاعة سادن الكعبة حُلَيْل بن حُيَيْشَة وأعجب به، وزوّجه ابنته حُبَيّ. ولما حضرته الوفاة أوصى له بسدانة الكعبة وبذلك انتقلت سدانة الكعبة وولاية مكة إلى قُصَيّ، واجتمعت فيها عشائر قبيلته في منتصف القرن الخامس الميلادي وسُمّي أهلها منذ هذا التاريخ قريشا.

قصي
وسدانة الكعبة

وأمر قُصَيّ عشائر قريش ببناء دورهم حول الكعبة بعد أن أخرج خزاعة منها، وبنى فيها دارا واسعة سماها دار الندوة ليجتمع فيها سادة قريش من حين إلى حين للتشاور في أمور الحرب والسلم وما يكون من صلح أو خصام أو زواج أو فراق أو سفر وترحال، وجمع في يده حجابة البيت وهي مفتاحه، والرفادة، إذ فرض على قريش أن تجمع أموالا سنوياً لإطعام الحجاج وخاصة المحتاجين منهم، والسقاية إذ كانت آبار مكة قليلة فعرض على قريش أن ترويهم بمياه في قِرب يؤديونها إلى الحجاج، وجمع أيضا في يده اللواء وله قيادة الحرب مع رياسته لدار الندوة. وبذلك جمع قُصَيّ في يده كل مناصب الشرف في شتّى الدين والدنيا بمكة.

مناصب
السدانة

وأوصى قُصَيّ أن يتولى هذه المناصب بعده ابنه عبد الدار، غير أن أخاه عبد مناف وأبناءه هاشما وعبد شمس والمطلب ونوفلا نازعوا عبد الدار وأبناءه في تلك المناصب، وانفقوا على أن تبقى الحجابة واللواء والندوة بأيدي بني عبد الدار، والسقاية والرفادة بأيدي بني عبد مناف. وكان هاشم كبير إخوته، فجعلوا له سقاية الحجاج ورفادتهم أو إطعامهم مما يجمعه من قريش، وهو الذي سنّ لقريش رحلة قوافلها شتاء إلى اليمن، وصيفا إلى الشمال: الشام ومصر. وازدهرت تجارة مكة ازدهارا عظيما، وعقد هاشم معاهدة حسن جوار ومودة مع الإمبراطورية البيزنطية ومع أمير غسان في شرقي الأردن، وعقد أخوه: عبد شمس معاهدة تجارية مع الحبشة، وعقد أخواهما نوفل والمطلب معاهدتين مع الفرس ومع حمير في اليمن. وكانت القوافل تأتي من الجنوب محملة بالبخور والطيب واللبان والجلود وثياب عدن وتوابل الهند والصمغ والعاج ورقيق إفريقية، وتحمل من

هاشم وازدهار
التجارة

الشمال الأسلحة والقمح والزيت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية. وفي إحدى رحلات هاشم ومروره يثرب أعجب فيها بفتاة خزرجية فتزوجها وأنجب منها ولدا سماه شيبه، وعادت أمه به إلى يثرب.

ومات هاشم فخلفه أخوه المطلب في مناصبه. وزار المدينة وكان ابن أخيه شيبه بلغ أشده، فطلب إلى والدته أن يحمله معه إلى مكة، وقبلت وأردفه على بعيره وظن أهل مكة أن معه عبداً فسموه عبد المطلب، وغلب هذا الاسم عليه فدعى به ونسى اسمه شيبه الذي سُمي به منذ ولادته. وتوفي عم عبد المطلب فخلفه على مناصبه من السقاية والرفادة. وكانت تشيع في مكة أساطير عن بسر زمزم التي طمرها مضاض بن عمرو الجرهمي وطمر فيها غزالتى الذهب وسيوف مضاض، وأخذ عبد المطلب يبحث عن بسر زمزم ويحفر أماكنه في الحرم حتى واتاه الحظ يوماً، ونبع له ماؤها واستمر في الحفر حتى وجد الغزالتين والسيوف، واستشار القداح عند هُبَل، فخرجت بالغزالتين للكعبة والسيوف لعبد المطلب، فضرب السيوف بابا للكعبة، وجعل غزالتى الذهب حلية للحرم، وفاضت زمزم بماء وفيه يُسقى منه الحجاج.

حفر
بسر زمزم

وكان عبد المطلب قد نذر إن رزق عشرة أبناء وشبوا عن الطوق أن يذبح أحدهم لآلهة قريش، وتحققت أمنيته، فجمع أبناءه العشرة وذهب بهم إلى صاحب القداح بالكعبة، فكتب على عشرة قداح أسماءهم، فخرج قدح عبد الله أصغر أبنائه. وحزن عبد المطلب وهم أن يذبح ابنه عبد الله فتوسلت إليه قريش أن يبقيه حتى يسأل في النذر وفدائه عرافة يثرب، فأشارت عليهم أن يأتوا بعشرة من الإبل ويضربوا عليها القداح فإن خرجت عليه زادوها عشرا وضربوا القداح عليه وظلت تخرج عليه، حتى إذا بلغوا بالإبل مائة خرجت القداح عليها، ونُحرت الإبل جميعها طعاما سائغا مستطابا لأهل مكة.

نذر
عبد المطلب

وكانت الحبشة المسيحية قد استولت على اليمن سنة ٥٢٥ للميلاد كما مر بنا في حديثنا عن النصرانية في الجزيرة، وبني واليهما على اليمن أبرهة كنيسته وأمل أن ينشر بها المسيحية في اليمن والجزيرة العربية، غير أن أهل اليمن

قاطعوها وقاطعها معهم العرب الوثنيون. وعرف أنهم يحجّون سنويا إلى الكعبة بمكة، فرأى أن يهدمها حتى لا يحجّوا إليها أبدا، وأعدّ لذلك جيشا كبيرا يتقدمه راكبا فيلا ضخما. ووصل جيشه الحبشى إلى ضواحي مكة، وأرسل إلى أهلها من يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وأنه إنما أتى بجيشه لهدم الكعبة، ولم تكذ رسله ترجع إليه حتى فشا في جيشه الحبشى وباء أخذ يموت منه كثيرون، واضطر أن يعود سريعا مدحورا إلى عاصمة اليمن صنعاء، ومات أبرهة عند وصوله إليها مصابا بنفس الوباء. وقصّ القرآن الكريم هذا الحادث بقوله فى سورة الفيل مخاطبا الرسول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أى جماعات ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أى حبات مما يشبه حجارة من طين، وقيل إنها كانت تحمل ميكروب الجدري وأن قروحه انتشرت فى الجيش، فلم يدخل مكة ولا هدم حجرا من أحجارها ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ هذا الوباء ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أى جعلهم مثل ورق زرع أكلت البهائم أطرافه وتناثر من أفواهها وتحت أقدامها، كما صنع الجدري بجيش الحبشة، فتساقط منهم الجلد واللحم وباءوا بخسران مبین.

غزو
أبرهة لمكة

وزاد هذا الحادث مكة فى نفوس العرب الوثنيين تقديسا فوق تقديس، وزادت قوافلها التجارية التى تشق طرقها جنوبا إلى اليمن وشمالا إلى الشام ومصر وشرقا إلى الحيرة وإيران تجلّة فوق تجلّة، فكانت لا تُمسّ بأى أذى. وانتعشت تجارة مكة، ودانت لها القبائل العربية، إذ كانت راعية الكعبة ومبا بها من أصنامهم المقدسة، وكان لكل قبيلة صنم واحد إن لم يكن صنمان أو أكثر؛ مما أكّد مكانة قريش وزعامتها على العرب، إذ كانت تقوم على كعبتهم المقدسة وأعيادهم الدينية، كما كانت تقوم على أهم أسواقهم التجارية كسوق عكاظ ومِجَنَّة وذى الحجاز. ولم تكن أسواقا تجارية فحسب، بل كانت أيضا أسواقا تُعرض فيها سلع الشعّر، ويتبارى فيها الشعراء ويُحكم للمتفوق براعته. وبذلك هيأت مكة فى الجاهلية لحركة أدبية كبيرة سيطرت فيها لغتها - بحكم مكانتها الدينية - على لهجات القبائل، وأصبحت لغة الأدب الرفيعة.

انتعاش
التجارة

الفصل الثالث

محمد من الميلاد

إلى الزواج من خديجة

١

الميلاد والرضاع

عاشت مكة - بعد اندحار أبرهة والجيش الحبشى - فى رخاء عظيم، وكانت تعيش على التجارة التى ازدهرت فيها، وكان بها تجار أثرياء ثراءً مفرطاً، وكان بها فقراء فقراً شديداً، وكان أهلها يتجرون فى الأقمشة والروائح والحبوب والعبيد الأرقاء، وكانوا يعرفون البيع العاجل والآجل وأنواع المضاربات، وكانت النساء تشترك مع الرجال فى التجارة، وكان الأثرياء يُثقلون على العبيد فى الأعمال.

وكان سيد قريش التاجر الكبير عبد المطلب يتمتع فيها بمكانة عظيمة، ورأى أن يزوّج ابنه عبد الله - وكان من أجمل شباب مكة - فتاة من بنى زهرة: آمنة بنت وهب، وفرحت به وفرح أبوها بهذه المصاهرة الكريمة لأسرة سيد قريش، وتمّ زفاف العروسين سريعاً. وكان شباب قريش يشغف بالتجارة والخروج إليها فى رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، وخرج عبد الله مع بعض رفاقه القرشيين فى رحلة الصيف. وفى طريق عودته من الرحلة رأى أن يزور أخوال أبيه بنى النجار بيثرب، وقيل بل ذهب إليها ليمتار قمراً مما

عبد الله بن
عبد المطلب

بها من حداثق النخيل، ومرض عند أخواله، فتركه رفاقه ومضوا إلى مكة. وسألهم عبد المطلب عن ابنه، فقالوا له إنهم خلفوه مريضاً ييثر، فأرسل إليه أخوه الحارث ليرافقه في عودته، وذهب إليه سريعاً، ولم يكذب ييثر حتى عرف أن أخاه عبد الله تُوفّي، ورجع إلى أبيه بمكة ينعى إليه وإلى زوجته وأهله أخاه عبد الله.

وحزنت زوجته آمنة بنت وهب حزناً شديداً وتقدمت بها أشهر الحمل، وهي تشكو إلى الله بثها وحزنها، ووضعت ابنها يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، ورأت عيناه النور من حوله، وأرسلت أمه إلى جده عبد المطلب من يئسه بأن طفلاً ولد له، فامتلاً سروراً، وجاء إلى آمنة مُسرِعاً، وأخذ ينظر إلى حفيده باسماء، ولم يلبث أن حمّله، وانطلق به إلى الكعبة يباركه فيها، وردّه إلى أمه، وسماه: محمداً. واختلف المؤرخون في عام مولده، وجمهورهم يرى أنه كان عام فيل أبرهة سنة ٥٧٠ للميلاد. ولما كان اليوم السابع لميلاده، ويُسَمَّى عند العرب يوم العقيقة، أو لم جده عبد المطلب ابتهاجاً به وليمةً لقريش ذبح فيها جَزَورا، ودعا إليه كثيرين من أهلها، فحضرُوا وطعموا، وهنأوه بحفيده.

مولد محمد

وأرضعت آمنة وليدها سبعة أيام، وكانت متعبة، فأرضعته ثويبة جارية عمه أبي لهب أياما قلائل، وكانت أرضعت قبله عمّه حمزة بضعة أيام، فهو أخوه في الرضاعة. وكان من عادة أشرف قريش أن يبعثوا بأطفالهم الرُضّع إلى إحدى نساء البادية من حولهم، ليقضوا فيها مدة الرضاعة في حضانة إحدى نساء البدو، إذ كانوا يعتقدون أن جو البادية أصح من جو مكة وأحسن أثراً في نمو الأطفال. وجاء مكة النساء المراضع من بني سعد - إحدى قبائل بنى بكر من هوازن - يلتمسن أطفال الأشرف من قريش لإرضاعهم. وكان حظ مرضعة منهن تسمى حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية زوجة الحارث بن عبد العزى السعدى أن أقبلت على محمد تود لو ترضعه، ورضيت أمه آمنة أن تكون هي المرضعة السعدية له، وانطلقت به مع زوجها وقومه إلى بادية بنى سعد. وأخذت حليلة ترضعه مع طفل لها يسمى عبد الله أخاه في الرضاعة، حتى إذا أتم سنتين في الرضاعة

حليلة
مرضعة محمد

فطمته. وأخذ ينمو مع إخوته: عبد الله أخيه في الرضاعة والشيماء وأنيسة. ورأت حليلة بعد فطامه أن تعود إلى أمه آمنة، وعادت به إليها، وسألتها أن تزكّه معها ومع إخوته في الرضاعة لستين آخرين، ولم تنزل حليلة بها حتى رضيت برحيله معها وعادت به إلى خيامها، وأخذ يلعب ويلهو مع إخوته خلف الخيام. ولما بلغ نحو الثالثة من عمره قصَّ أخوه عبد الله قصة عجيبة على أبويه، قال: إنه كان مع محمد وراء غنم للأبوين، فرأى رجلين عليهما ثياب بيض، أضجعا محمداً وشقاً بطنه وأخرحاً منه مضغة سوداء. والقصة ضعيفة السند إذ رواها الطفل عبد الله أخو محمد في الرضاعة وهو في الثالثة من عمره ومعروف أن محمداً لم يلمس خوارق في رسالته فأولى أن لا يلمس خوارق في طفولته، ويبدو أنها نسجت تعليقا على الآية القرآنية: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ والآية إنما تشير إلى شرح الله صدر محمد بالرسالة النبوية الربانية.

وظل محمد في الرضاع مع إخوته من بنى سعد إلى الخامسة من عمره، وتعود أن ينام في أول الليل، ويستيقظ مع أنوار الصباح، ويرى طلوع الشمس وأضواءها تعم البادية طوال النهار من كل جانب، والرجال يعملون قليلا ويعودون إلى خيامهم ويجلسون أمامها القرفصاء، وكان يخرج مع إخوته ليرى الأغنام وهي تنتف بأفواهها الكأ والأعشاب من جلد الرمال، وكلبا ينبح هنا وهناك، وفي كل جانب من حوله بحر من الرمل ليس له ساحل، ولا ظل هناك بل دائما أضواء الشمس المحيطة المستقرة، وتنطفئ الشمس مساء وتنطفئ معها الحياة، وتعود إلى الوجود كل صباح. وتكرر الأيام والليالي متماثلة متشابهة. وتضمحل حليلة على العودة بمحمد إلى أمه آمنة، وفرحت به إذ رآته معها في الدار، وجزتها - وجزاها جده - خير الجزاء.

ودار العام، فرأت أمه آمنة أن تخرج بابنها محمد إلى يثرب في الصيف لتزور معه قبر أبيه عبد الله، وأخذت معها جارية زوجها: أم أيمن ورأى محمد البيت الذي مات أبوه فيه والمكان الذي دفن به، وغمره حزن شديد على أبيه. وظل مع أمه شهرا في يثرب عند أخوال جده من بنى النجار، ونعم بطبيعة المدينة وما

محمد مع أمه
في يثرب

يجرى فيها من قنوات المياه وما يحفُّ بها من جنات النخيل والحدائق التى تملأ البصر بهجة، وأهلها لا يعيشون مثل بدو بنى سعد على رعى الأغنام، وإنما يعيشون على الزراعة وما يجنونه من النخيل، وهم أيضا ليسوا مثل بنى سعد يتخذون بيوتهم من الخيام، وإنما يتخذونها من المنازل المبنية المرتفعة والحصون. وعزمت أمه آمنة على العودة إلى مكة ومعها أم أيمن، ولم يلبثوا أن فوجئوا بعاصفة ملتهبة من عواصف الصحراء، ومرضت آمنة، وربما لم تتحملها، ولم تلبث أن توفيت فدفنتها أم أيمن فى الأبواء، وتبعد عن المدينة نحو خمسة وعشرين ميلا. واستأنفت رحلتها مع محمد، والحزن تكتظ به نفسه شاعرا فى أعماقه بيئته الكامل لفقده أبويه جميعا.

٢

فى كفالة عبد المطلب وأبى طالب

عادت أم أيمن مع محمد إلى مكة وأخذت تخدمه وترعاه رعاية طيبة منذ السادسة من عمره، وكفله جده عبد المطلب لمدة سنتين فى آخر حياته، وكان يحنو عليه فيهما حنوًّا شديدا لوفاة أبويه. وكان من عادته أن يتخذ له مجلسا بجوار الكعبة يلقي فيه من يؤمونه من رجال قريش، وكان يُقرشُ بجلوسه فيه فراش، ويجلس أبنائه حول الفراش، وكان يخص محمدا بجلوسه معه على الفراش حبا له وإعزازا. وكان لا يأكل طعاما إلا أشركه معه فيه، ودائما كان يوصى أم أيمن به بمثل قوله: لا تغفلنى عن ابنى. ولما أحس دُنُوَّ أجله أوصى به عمه أبا طالب شقيق أبيه من أمه وأبيه معا فكفله بعده. وحزن محمد - لموت جده - وهو فى الثامنة من عمره وحزن أهله، إذ علّوا موته خسارة كبيرة لهم، ووزعت وظائفه الدينية بين ولدين من أبنائه، فأعطيت إلى ابنه العباس سقاية الحجاج، وأسندت إلى أبى طالب الرقادة، وهى جمع الإعانات المالية من أثرياء مكة وشرائه بها طعاما للفقراء من الحجاج ضيوف آلهتهم.

وانتقل محمد إلى بيت عمه أبى طالب وأخذ يعيش مع أبنائه، ويشترك معهم فى حياتهم وفى ألعابهم كعادة الصبية من لداته، وحاطه عمه أبو طالب أتم حياطة. ولا حظ يوما محمدا حين قُدِّمَ الفطور إليه وإلى أبنائه أنهم يتناهبون الطعام ويكفّ محمد يده، فرأى أن يعزله عنهم فى الفطور وأن يجعل له طعامه على حدة. وفى بعض أيامه كان يأتى بشر زمزم فيرتوى منه.

ومضت الأيام بمحمد بطيئة، وهو يلعب بمكة قريبا من داره مع الصبية من أبناء عمه وغيرهم. ولما بلغ العاشرة أخذ يختلف إلى سوق مكة ويرى التجار وهم يعرضون بضائعهم، وكان أهل مكة يعدُّون وصول قوافل التجارة من رحلة الشتاء فى اليمن ورحلة الصيف فى الشام وأحيانا من العراق أيام أعيادهم، يخرجون فيها لاستقبالها، وكان يخرج معهم غلمانهم للفرجة عليها، كما كان يخرج معهم محمد. وكان عمه أبو طالب الذى يرعاه تاجرا، وكان محمد كثيرا ما يتمنى أن يصحبه معه فى إحدى رحلاته التجارية بهذه القوافل، وكان يُكثر من أسئلة الراحلين فيها عن فيافى الصحراء التى يقطعونها والمدن والبلاد التى ينزلون بها، وكان شغفه برؤيتها يزداد من حين إلى حين، وكان كثيرا ما يسأل عمه عنها وعما زاره من البلاد، وكان يذكر له أمنيته فى أن يصحبه فى إحدى رحلاته.

رحلة محمد
مع عمه
إلى الشام

وجاءت الفرصة، ومحمد فى الثانية عشرة من عمره، إذ عزم عمه مع بعض شيوخ قريش على الاشتراك فى قافلة تجارية ذاهبة فى الصيف إلى الشام، فتوسَّل إليه أن يصحبه معه، وتردد أبو طالب فى أخذه معه لصغر سنه، ثم رأى أن يحقق لابن أخيه اليتم رغبته إرضاء له، وسرَّ محمد بذلك. وأمره ذات يوم بالاستعداد للرحلة فى الغد، وذهب أبو طالب بابن أخيه إلى القافلة، وقد امتطى بعيرا وأردفه وراءه، ومضت القافلة تقطع الفيافى صاعدة إلى الشام، وينظر محمد فى الصحراء حوله، فلا يرى إلا بحرا من الرمال ليس له ساحل، ولا شجر ولا ظل، ويُزيغ البصر ضوء الشمس نهارا فى كل جانب، ويضيئ القمر بضيائه الشاحب للقافلة مسيرتها الدائبة، وأغلب الظن أن محمدا رأى فى رحلته شمال الحجاز أطلال بعض المدن التى دمرها الله لقوم الرسولين صالح وشعيب لعصيانهم ربهم. ولم تتوقف

القافلة في فلسطين بل مضت مصعدة إلى الشمال، وبلغت بمحمد بلدة بُصْرى من أعمال مدينة دمشق وكان بها سوق يؤمُّه الناس من البلاد الخيطة القريبة والبعيدة للتجارة والبيع والشراء. وكان بجواره دير لراهب عربي من قبيلة عبد القيس على الخليج العربي يُسمَّى بحيرا، وكان نسطوريا مثل رهبان العراق يؤمن بأن للمسيح طبيعتين: طبيعة إلهية وطبيعة بشرية كما مرَّ بنا في الفصل الأول. وقدم هذا الراهب لرجال القافلة طعاما لعله زيت وبعض الخبز، ورأى معهم محمدا، وربما سأله الغلام عن دينه المسيحي ورهبنته. ويجعل مؤرخو السيرة النبوية من لقاء محمد لهذا الراهب قصة يذكرون فيها أنه رأى فيه علامات النبوة بل علامات الرسالة الإلهية، وحذّر أبا طالب من رؤية اليهود له حتى لا يرموه بسوء لما يعلمون في التوراة من أمر رسالته. ويبالغ بعض المستشرقين في تصور هذا اللقاء بين محمد وبحيرا الراهب، إذ يزعمون أنه عرّفه العقيدة المسيحية، وليس ذلك فحسب، بل عرّفه قصص جميع الأنبياء المذكورين في الكتاب المقدس، مما ذكره في القرآن الكريم، وهو افتراء شديد البهتان، إذ كيف يعقل أن غلاما لقي راهبا لقاء عابرا في أثناء رحلته مع قافلة قرشية وعرف منه كل ما جاء في الكتاب المقدس عن الأنبياء. وكان من حظ بحيرا الراهب أن خلّد اسمه لقاءه بمحمد، وإلا لضاع اسمه كما ضاعت أسماء مئات الرهبان قبله وبعده. وعاد محمد مع عمه إلى مكة، وعادت معهما قافلتهم.

بحيرا الراهب

وحدث حين بلغ نحو الخامسة عشرة من حياته أن نشبت حرب الفجار، سميت بذلك لأنه كان فيها قتال في الشهر الحرام الذي حرّم العرب على أنفسهم فيه القتال، وسببها أن عروة الرحال من هوازن ضمن عيرا تحمل بَرًا ومسكا وغيرهما للنعمان بن المنذر كي تصل إلى أسواق مكة، وفي حوار له مع البراء الكنانى قال له البراء أتحميها على كنانة، وكانت تنزل بجوار مكة وحليفة لقريش، فقال له عروة: نعم وعلى الخلق جميعا، فأسرّها البراء في نفسه، وانتهز منه غفلة وقتله، وأخذ غيره أو قافلته، فشبت الحرب بين هوازن من جهة وكنانة ومعها قريش من جهة ثانية، وظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين أربع سنوات

حرب الفجار

فيما يقال. وذكر محمد هذه الحرب - وهو رسول - فقال: حضرتها مع عمومتي ورميتُ فيها بأسهم، ولا أحب أني لم أكن فعلت.

وعقب انتهاء حرب الفجار تداعت قبائل من قريش إلى حلف لنصرة كل مظلوم بمكة، واجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وزُهرة وتيم في دار عبد الله بن جُدعان سيد بني تيم، وتعاهدوا أن ينصروا المظلوم بمكة حتى يُردَّ إليه حقه، وسمَّيَ قريش هذا الحلف حلف الفضول، لأنه يرد الحق إلى أصحابه المظلومين. وُروى عن الرسول في أثناء رسالته أنه قال: لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً لو دُعيت إليه في الإسلام لأحبيت: تحالفوا أن تُرد الفضول على أهلها وأن يأخذوا على يد الظالم.

٣

رَعَى الغنم - التجارة

أ - رعى الغنم

كان محمد في صباه وأوائل شبابه يرعى غنم أهله وأهل مكة، وكان قد عرف رعيها مبكراً في بادية بني سعد مع إخوته في الرضاعة، فلما رجع من رحلة الشام أخذ يرعاها لبعض أهله وبعض القرشيين على قراريط، والقيراط معيار في الوزن يقال إنه أربع قمحات. وروى عنه ﷺ أنه قال: ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، وعنه أنه قال: بُعث داود وهو راعي غنم، وبعث موسى وهو راعي غنم، وفي سورة طه أن الله - جلَّ شأنه - سأل موسى عن عصا بيده فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَاسِيَّ غَنَمِي﴾ أي أنه يعتمد عليها ويهش بها الشجر ضارباً له فيتساقط ورقه ليأكله غنمه الذي يرعاه. ويبدو أن محمداً ظل يرعى الغنم حتى بلغ نحو العشرين من عمره، وانتقل منه إلى العمل في التجارة.

ب - التجارة

وكان محمد قد نشأ بمكة في أسرة تاجرة، وكان عمه أبو طالب الذى يعيش في بيته تاجرا، وكان يغادرو ويروح بين تجار مكة وأبنائهم وكان ينظر إليهم وخاصة إلى من يرحلون مع القوافل للتجارة في غير قليل من الإعجاب، وكان قد فُطِرَ على الزهد في المال وطلبه للاستمتاع بالحياة، فاكفى في آخر صباه وأوائل الشباب برعى الأغنام وما تدره عليه من مال قليل. ولا شك أن نفسه في شبابه كانت تحدته أحيانا بالعمل في التجارة مثل لداته من شباب قريش، ولم يكن ذا مال كثير يستطيع الاستقلال به في التجارة، فرأى أن يشترك مع أحد شباب قريش واختار شابا يسمى السائب بن أبى السائب، فاشترك معه في بضائع يبيعانها لبعض التجار على أن يقتصما ما يكتسبان، وأثنى عليه لأصحابه - فيما بعد - وقال إنه كان شريكا سمحا في خلقه معى ومع من يشتركون من البضائع، وجاءه يوم فتح مكة، فعرف له رفقته القديمة ورحب به وأثنى عليه، وكان مما قاله فيه: نعم الشريك السائب كان لا يشارى ولا يمارى أى لا يجادل ولا يلج في جداله. وكان عمل محمد بالتجارة دافعا له أن يفد على أسواق مكة، وخاصة على سوق عكاظ، وحدث أنه رأى فيه قُسن بن ساعدة الإيادى أسقف نجران على بعير يعظ الناس وروى موعظة له.

أسقف نجران

واشتهر محمد بين التجار بأمانته ولُقِبَ بلقب «الأمين»، وأخذ كثيرون منهم يرغبون في أن يعمل لهم، وكان ممن سمع به السيدة خديجة بنت خويلد، وكانت ذات شرف ومال كثير، وتزوجت مرتين في بنى مخزوم، وتوفيا عنها وورثتهما وزاد مالها ثراء على ثراء، وكانت راجحة العقل، فخطبها بعض كبار قريش فردتهم، وعملت على تنمية ثروتها، فكانت تستأجر رجالا من قريش ليتجروا في مالها، وتصادف أن استأجروا لها محمدا فأرسلته إلى سوق حُباشة بتهامة مع بعض مال لها واستأجرت معه رجلا آخر، ربما كان السائب السابق ذكره، فكانا يعودان إليها بريح وفير عرفت فيه ما يتميز به محمد من أمانة وصدق. وكانت تُعدُّ بعض الرجال للخروج مع تجارتها في رحلة الصيف إلى الشام، وبلغ محمد

الأمين
وتجارته لخديجة

الخامسة والعشرين من عمره، فقال له عمه أبو طالب - وقد علم أن خديجة تجهز لخروج تجارة لها مع قوافل الصيف - يا ابن أخي إنك تعرف أنني قليل المال وقد اشتد علينا الزمن فهل تمنع في أن أسأل خديجة أن تشارك هذا الصيف لتسجر في مالها بالشام، فقال له: اصنع ما تحب. فذهب أبو طالب إلى خديجة، وعرض عليها أن تستأجر محمداً، فرحبت بعرضه، وقالت له إنني سمعت عنه صدق حديثه ووفرة أمانته، ورأيت منه ذلك في استجارى له بسوق حباشة في تهامة، وسأعطيه ضعف ما يأخذه الغرباء منى. ورجع العم إلى محمد يشره بقبولها استجاره ومضاعفة أجره، ويقول له إن هذا الرزق ساقه الله إليك. ورأت خديجة أن ترسل معه في رحلته غلامها ميسرة.

وانطلقت القافلة في رحلة الصيف بمحمد وميسرة وما معهما من عروض التجارة مصعدة إلى الشام ومن حولها الصحراء المترامية، والقافلة تمنع في السير بمسالكها الوعرة، والشمس ترسل بأشعتها الملهبة، والقمر يتهادى بأضوائه الشاحبة، ومحمد يستمتع بلذة التأمل في الكون وما فيه من جمال، وهي لذة بدأها منذ نشأ في بادية بني سعد. ومرت القافلة بديار ثمود ومدين التي رآها في رحلته مع عمه، وهو في الثانية عشرة من عمره، ومر بمدين فلسطين، وسمع أجراس الكنائس، ولا بد أنه فكر في العقائد الدينية وخاصة عقيدة قريش الوثنية، وعقائد أهل الديانات من النصارى واليهود، ويبدو أنه رفض الوثنية من صغره، إذ أثر عنه قوله إنه لم يسجد لصنم قبل مبعثه ولا عبَدَ اللات والعزى معبودى قريش ولا غيرهما من آلهة العرب الوثنيين في الجاهلية. وبلغت القافلة بصرى من أعمال دمشق كقافلة عمه السابقة ونزلت بالقرب من دير بحيرا، وتحدث محمد مع بعض رهبانه فيما يقال. واختلف إلى سوق بصرى عارضا ما معه من تجارة خديجة وربح فيها ربحا وافرا، أكثر مما ربحه من استأجرتهم قبله لتجارتهما، وابتاع خديجة ما طلبته من المعروضات في السوق. وعاد إلى مكة وقت الظهيرة، وتصادف أن كانت خديجة في غرفة بأعلى دارها مع نفيسة بنت منية وبعض صواحبها، ونزلت إليه حين دخل منزلها واستقبلته استقبالا طيبا، وقصَّ عليها أخبار رحلته وما ربح

من تجارته وما جاءها به من معروضات الشام، وكانت تسمع حديثه منصتة مغتبطة، وزاد في اغتباطها أن ما جاء به من عروض التجارة ربحت فيه ضعف ما كانت تربحه ممن كانت تستأجرهم لتجارتهما قبله، فضاعفت الأجر الذي سُمته له شاكرة ومشية.

٤

الزواج من خديجة

كانت خديجة سيدة شريفة تحسن وزن الأمور وتصريفها في إحكام ودقة وروية، وكانت قد بلغت سن الأربعين، وحاول خطبتها بعض كبار قريش شرقاً ونسباً فردتهم جميعاً، وكانت أكثر نساء قريش مالا، وحين تحدث إليها محمد بعد رحلته أعجبت بأمانته وازدادت معرفتها به لما كانت تسمع من حسن خلقه، وكأنما أراد الله لها الكرامة والخير، فودت لو أن هذا الشاب القرشي الشريف طلب خطبتها إذن ما كانت لترده. وعرفت ذلك منها نفيسة بنت منية صاحبها وأنها ترغب في الاقتران به، فعرضت عليها أن تذهب إليه حاملة رغبتها في الزواج به ولقيته، وتحدثت إليه وقالت في تضاعيف حديثها له: لماذا لا تتزوج؟ وما يمنعك من الزواج؟ فقال لها: ما بيدي من المال ما أتزوج به، فقالت له: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ فقال لها: ومن هي؟ وكيف لي بذلك؟ فأجابته: خديجة أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا، وكان قد شعر لها بشئ من المودة، غير أنه لم يكن يفكر في أن يخطبها للاقتران بها لما يعرفه من ردها لأشراف قريش، وسأل نفيسة هل ترضى به؟ فأجابته على ذلك، فأعلن لها قبوله للزواج منها. وألبأتها نفيسه بموافقتها، والتفت به سريعا، وقالت له: "ابن عمّ إني قد رضيت بك لقرابتك لي ومكانتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك". وسرّ محمد وذكر ذلك لأعمامه، وحددت له الوقت الذي يحضرون فيه لخطبتها والزواج منها

وعرّفت عمها عمر بن أسد وأهلها به، لأن أباهما خويلدا كان قد مات قبل حرب الفجار، مما يكذب ما يُروى من حضوره زواجها.

وكانت عادة أشراف الجاهلية إذا اجتمع الأهل لاقتزان زوجين أن يُقدم الزوج إلى العروس وأهلها أبواه أو أحد أعمامه وأقربائه، ولما اجتمع الأهل قام عم محمد: أبو طالب، فخطب خديجة لابن أخيه محمد قائلاً: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ونسل إسماعيل، وجعلنا حَصْنَةَ بيته وسدنة حرمه، وجعله حرماً آمناً.. ثم إن ابن أخى محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل بُلاً وفضلاً وشرفاً، وإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظل زائل.. وقد خطب إليكم رغبة فى خديجة، ويدل لها من الصداق عشرين بَكْرَةً (ناقة). وأجابه عمها عمر بن أسد: هذا الفتى الممام لا يُقرع أنفه أى أنه كفاء كريم لا يُردّ. وتمّ الزواج السعيد.

الفصل الرابع

من صفة محمد وخديجة

إلى المبعث

١

صفة محمد وخديجة

أ - صفة محمد

كان محمد ربعة بين الطول والقصر، قوى البنيان، عريض الكتفين، ضخيم الرأس، ذا شعر شديد السواد، يميل إلى التجعد قليلا، منبسط الجبين فوق حاجبين سوداوين متصلين، وعينه الكبيرتان السوداوان تلمعان من خلال أهدابه الطويلة، وكان أنفه مستويا دقيقا، مفلج الأسنان، وكان شاربه دائما محفورا لا يخفى فمه، وكانت أسنانه ناصعة البياض، وكان دائما يحمل لها السواك في الحل والترحال وأينما ذهب ليحافظ عليها، وكان طويل العنق عريض الصدر، غليظ الكفين والقدمين. وكان دائما بشوشا طلق الوجه، يسلم على من يصادفه بغير قليل من المودة، ولا يسحب يده من مصافحته أولا، أدبا كريما منه. وكان عذب الحديث ولا يتكلم إلا إذا كانت هناك حاجة للكلام، ولا يتحدث ثرثرة، وكان دمثا حسن الخلق أمينا غاية الأمانة، ولذلك لقبته قريش بلقب الأمين، وكان حيا غاية الحياء، حتى قال فيه أحد الصحابة إنه أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان لا يذم أحدا ولا يعيبه، وكان يعفو ويصفح حتى عن أعدائه. وكان محمد متواضعا

شديد التواضع، وكان دائما يردد أنه بشر لا يتميز عن أصحابه، وخرج على نفر منهم فوقفوا له تحية، فنهاهم عن ذلك قائلا: "لا تقوموا لي كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا". وبصفه الله في آخر سورة التوبة بأنه ﴿رَّءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، والرافة عاطفة نحو من يصيبه أى ضرر، فيشعر بالشفقة عليه ويحاول إزالة الضر عنه ودفع المكروه، والرحمة توجب الشفقة على الإنسان المصاب بضرر وتزيد الإحسان إليه. ويصف الله محمدا في سورة القلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ والخلق: الصفات والسمائل الكريمة، والخلق العظيم الخلق المثالي الرفيع، وهى شهادة ربانية ثمد بأخلاقه الخيرة وسمائله الحميدة. ويقول ابن حزم فى كتابه «الأخلاق والسير فى مداواة النفوس»: "من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه".

ب - صفة خديجة

كانت خديجة بنت خويلد من بنى أسد مثلاً رفيعاً بين نساء مكة ذات شرف وطهارة نفس، وعلى شئ من الجمال، عاش معها الرسول كزوجين متحابين هاتين سعيدين، وكانت له دائماً عوناً يجدها السكينة والطمأنينة والهدوء والإخلاص الذى لا يماثله إخلاص والوفاء والحب والسعادة. وحزن لوفاتها حزناً شديداً، وكان وفيّاً لها أعظم الوفاء، إذ دائماً يذكرها ويشئ عليها أحسن الثناء، وتقول عائشة: "ما غرت على أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت من خديجة وما رأيتها، ولكن النبى كان يكثر ذكرها، وربما يذبح الشاة ثم يقطعها أجزاء ثم يبعثها إلى صديقات خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن فى الدنيا إلا خديجة، فيقول إنها كانت.. وكانت.. وكان لى منها ولد". وكانت خديجة زوجة مثالية، فطبعي أن يفى الرسول لذكرها وفاء جماً، وعرف الله عونها لرسوله فى حياته وفى إبلاغ رسالته، إذ روى فى الصحيحين أن جبريل أتى النبى فقال له: اقرأ على خديجة السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب (لؤلؤ).

وهو شرف لها لا يماثله شرف، وظلت خديجة فترة تشرك محمدا معها في تجارتها وتدبير أموالها. وكان يختلط بأنداده من قريش غير مترفع عنهم بما أسبغت عليه خديجة من سعة المال. وظل على عادته متواضعا يقبل على محدثه ويحسن الإصغاء له، ولا يدخر وسعا في عون من يحتاج إليه، ويعامل الناس في التجارة بغاية الأمانة، فيصدقهم في ثمن ما يشترونه وفي ربحه منه ربحا معتدلا في غير مغالاة، وهي أمانة كان يتسع بها لعمل كل ما فيه خير للقرشيين. أما خديجة فقد اطردت حياته معها بالمودة الصافية والمحبة الهنيئة غاية الهناءة.

في تجارة
خديجة

٢

بناء الكعبة

كان ارتفاع الكعبة منذ إسماعيل تسع أذرع ولم تكن مسقوفة، فكانت التحف التي تُهدى إليها معرضة للنهب والسرقة. وتصادف حين بلغ محمد الخامسة والثلاثين أن انحدرت إليها من الجبال الحيطّة بها سيول صدّعت جدرانها. وفكرت قريش أن تسرع بنائها، وخاف كثيرون - إذا هدموها - أن تغضب عليهم آلهتها وأهنتهم، ولكن التصدع للجدران كان شديدا وكان لابد من الإسراع بهدمها وبنائها من جديد، فتقدم الوليد بن المغيرة، وقال للقرشيين: أنا أتقدمكم في الهدم وأخذ المعول واتجه إلى رب الكعبة في رأيه، وقال إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم جانبا من الركن اليماني، وتربّص القرشيون طوال الليل ينتظرون ما تصيبه به الآلهة، فإن أصابته بشيء لم يهدموها وردوا ما هدموه إلى أصله، وإن لم يصبه شيء كان ذلك دليلا واضحا أنها ترضى عن الهدم. وأصبحوا ولم يمس الوليد شيء، وصار إلى موضع هدمه، وأخذ في الهدم، وهدم الناس معه، حتى أفضوا إلى حجارة خضر هي الأساس الذي وضعه إبراهيم، فجعلوها أساس البناء الجديد للكعبة. وتصادف أن حطم بحر القلزم سفينة أمام جدة: ميناء مكة كانت مملوكة لرومي فاشترى المكيون خشبها منه للانتشاع به في بناء الكعبة،

وكان همكة نَجَّار قبطى فساعدهم فى تسوية الخشب وإعداده للبناء، وأخذت قريش تنقل للبناء أحجار الجرانيت من الجبال المجاورة، وأوصى غير قرشى أن لا يدخلوا فى بنائها من كسبهم إلا طيبا، فلا يدخلوا فيه صداق بَغْيٍ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس. وأخذوا فى بنائها حتى بلغوا موضع الركن فاختصموا خصومة شديدة، إذ أرادت كل قبيلة أن يكون لها شرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه دون غيرها، واشتدت الخصومة وتحالفوا وأعدوا للقتال، وتحالف بنو عبد الدار وبنو عدى على الموت وأن يمنعوا أى قبيلة من أن تنال هذا الشرف وحدها وتؤكد لتحالفتهم جاء بنو عبد الدار بجفنة مملوءة دما وغمسوا مع بنى عدى أيديهم فيها فسموا «لَعَقَةُ الدَّم».

وظلت قريش فى هذا الخلاف المحتدم أربع ليال أو خمسا ثم اجتمعوا فى المسجد بجوار الكعبة وتشاوروا، فوقف بينهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى أكبرهم سنا، وقال: يا معشر قريش اجعلوا الحكم بينكم فيما تختلفون فيه من أمر الحجر الأسود لأول من يدخل من باب الصفا فى المسجد، وارتضوا رأيه، وكان محمد أول من دخل فلما دخل قالوا هذا «الأمين»، هذا محمد، رضينا بحكمه، فقال لهم ما الخبر؟ فأخبروه، ففكر والعيون متجهة إليه تنظر ما يكون حكمه، فطلب إليهم أن يأتوه بثوب واسع، ونشره، وأخذ الحجر الأسود فوضعه بيده فيه، ثم قال لتأخذ كل قبيلة قرشية بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا وحملوه جميعا حتى بلغوا موضعه، فأخذه محمد من الثوب ووضعه فى موضعه من البناء. وبذلك انتهت الخصومة وانفض الشر. وفى هذا الصنيع محمد دلالة قوية على حصافة عقله وقدرته على حل المشاكل بطرق سهلة، وفيه أيضا ما يدل على ما كان له من مكانة رفيعة فى قريش، إذ ارتضته حَكَمًا فى شر مستطير بين قبائلها وعشائرها وارتضت حكمه السديد.

وأتمت قريش بناء الكعبة، وزادت فى ارتفاعها تسع أذرع، فجعلته ثمانى عشرة ذراعا، وسقفوها حتى لا يتسور حائطها اللصوص الطامعون فى نهب نفائسها وتحفها المهداة إليها، وجعلوا فى ركنها الشأى دَرَجًا يُصعد به إلى

حكم محمد
فى حل
الحجر الأسود

سطحها، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يُصعد إليها إلا في درج أو سلم، ليدخلوا فيها من شاءوا ويمنعوا من شاءوا. ولما احتزقت في عهد عبد الله بن الزبير وأعاد بناءها زاد في ارتفاعها تسع أذرع فأصبح سبعا وعشرين ذراعا، وألصق بابها بالأرض.

٣

أبناء محمد وبناته

ولدت خديجة محمد ابين هما القاسم وعبد الله ولُقّب بالطيب والطاهر فالتبس الأمر على بعض كتّاب السيرة فقالوا إنها ولدت له أربعة بنين: القاسم وعبد الله والطيب والطاهر، والصحيح أن الطيب والطاهر لقبان لعبد الله وأنها لم تلد له أبناء سوى القاسم أول الأولاد وكان محمد يُكنى به، وعبد الله أخيه، وماتا جميعا طفلين في الجاهلية قبل أن تستكمل خديجة رضاعتهما، ولا شك في أن محمدا وخديجة حزنا لموتهما حزنا عميقا. ورُزِقَ في السنة الثامنة للهجرة من الجارية مارية القبطية هدية المقوقس حاكم مصر طفلا سماه إبراهيم، وعاش ستة عشر شهرا وتوفي.

القاسم
وعبد الله

إبراهيم

ورُزِقَ محمد وخديجة من البنات بأربع في الجاهلية: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وكلهن أسلمن وهاجرُن، وكبراهن زينب ولدت لمحمد في الثلاثين من عمره، ونشأت في بيت تساعد أمها به في شئون الدار وتُدربها عليها. ووَدَّ غيرُ شاب من قريش لو اقترن بها، وتقدم إليها ابن خالتها أبو العاص ابن الربيع، وكان من صفوة شباب قريش شرفا ومالا. وأتاحت له خالته خديجة لقاءً بمحمد ليعرض عليه الأمر، وخلا به فقال له: إنني أرغب في الاقتران بزينب، فأمهله حتى يسمع من زينب وأمها رأيهما واتفقوا جميعا على قبول خطبته وأنه نعم الصهر الكف، فعاد محمد إلى أبي العاص ينيته بالقبول. ومضى أبو العاص يعدّ بيته لزوجته العزيزة، وتم الزفاف، ورافق محمد وخديجة ابنتهما

زينب

زينب إلى بيت أبي العاص، وودّعا الزوجين مهنيين لهما مباركين. وكان أبو العاص يتجر إلى الشام وغير الشام مع أنداده من شباب قريش حتى أصبح من أثرياء القرشيين. وعاش الزوجان الشابان سعيدين بزواجهما هاتين.

وعرض محمد على أبي العاص الإسلام، فلم يبد موافقته ولا رفضه، بينما أسلمت زينب وظل أبو العاص على دين آباءه، وظلا يعيشان معا إذ لم يكن الأمر بالترقة بين الوثني وزوجته المسلمة قد أصبح نافذا. ومَرَّت الأيام وهاجر الرسول إلى يثرب واتخذها مقاما، ثم كانت غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وشارك فيها أبو العاص مع قريش، وأُسِرَ من قريش كثيرون كان من بينهم، وجعل الرسول فداء الأسير القرشي من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف، وأرسلت زينب في فداء أبي العاص قلادة لها من جَزَع ظفار كانت أهدتها أمها إليها في زواجها، مع أخيه عمرو بن الربيع، وقدمها إلى الرسول قائلا إن زينب بعثني بهذه القلادة في فداء أخي أبي العاص، فرق لها رسول الله ﷺ وقال لصحابته: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا إليها قلادتها فعلنم، فقالوا جميعا: نعم، وأطلق أبو العاص وردّت إلى زينب قلادتها. وطلب الرسول إلى أبي العاص أن يخلي سبيل زينب فوعده بذلك، وسرعان ما أرسل الرسول إليه زيد بن حارثة مولاه ورفيقا له ليصحب زينب في رحلتها من مكة إلى يثرب. وظل أبو العاص في مكة يرعى تجارته حتى كانت السنة السادسة للهجرة، فخرج في قافلة لقريش بتجارة له ولبعض القرشيين، ولقي القافلة زيد بن حارثة مولى الرسول ومعه مائة وسبعون راكبا، فظفر بالقافلة وأسر ممن كان في حراستها أبو العاص بن الربيع. فلما قربوا من يثرب فرّ أبو العاص منهم لاجئا إلى زوجته في غبشة الفجر وسمعت أذان الصبح، فصاحت: "أيها الناس إني أجرت أبا العاص بن الربيع"، وسمعا كل من كان في المسجد وسمعا الرسول، فقال لمن حوله: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال: أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشئ من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، ثم قال: المؤمنون يدّ على من سواهم يحير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجارت. وردّ الرسول على أبي العاص كل ما أخذ له في القافلة من مال، فعاد

زينب وفداء
أبي العاص

إلى مكة وردَّ إلى كل صاحب حقِّ حقَّه، وأعلن في التَّوَّابِ إسلامه بمكة، وقدم المدينة مهاجراً، وعاش مع زوجته وولديهما على وأمامة، وما توافى السنة الثامنة للهجرة حتى تَوَفَّى وتفارق زوجها وولديها فراقاً لا لقاء بعده، ويلحق بها أبو العاص في السنة الثانية عشرة للهجرة.

وولدت خديجة محمد بعد زينب ابنته رقية، وبعدها بنحو سنتين ولدت له أم كلثوم، ونشأنا تحظيان بحب أبيهما وحسن رعايتهما لهما، وفوجئ الأبوان - حين أدركنا وبلغنا سن الزواج - بأبي طالب عم محمد يخطب الابنتين لعُتَيْبَةَ وَعُتْبَةَ ابني أخيه عبد العزَّى بن عبد المطلب الملقب بأبي لهب زوج أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب. وطلب منه محمد أن يعطيه فرصة ليسأل أمهما خديجة والفتاتين، وتردَّدت خديجة لما تعرف عن أم جميل من سوء الخلق، واقنعها محمد بأن عتيبة وعتبة من ذوى الرحم ومن شباب قريش الأعماد، وتمَّ الزفاف للفتاتين على ابني عم محمد، وعاشا في بيت أبي لهب فترة، وأخذتا تشكوان لأمهما سوء معاملة أم جميل. ولم يلبث أبوهما أن أُرْسِلَ لقريش والناس برسالة إلهية، وأخذ يدعو القرشيين للإيمان بها، حينئذ انقلب العم وزوجه الشريرة إلى عدوين حقوقين لمحمد وأقنعا ابنيهما بانفصال كل منهما عن زوجته ووردهما إلى أبيهما. وحدتا الله أن تخلصنا من سجن أم جميل، وعادتنا إلى دار الأبوين نعمان فيها باللطف والعطف البالغ.

رقية
وأم كلثوم

وتزوجت رقية بعثمان بن عفان الشاب الأموي الثرى أحد السابقين إلى الإيمان برسول الله ورسالته، وكان وجهه يمتلى بالبشر وكانت رقية جميلة، ويُروى أن الرسول أرسل بهدية مع رسول إليهما فأبطأ في عودته إليه، فقال له: إن شئت أخبرتك بسبب تأخرك لقد وقفت تنظر إلى عثمان ورقية من حسنهما. ولما كثر الإسلام في قريش أخذت القبائل القرشية تعذب من أسلم منها وتصبُّ عليه كثيراً من البلاء، وتماذت في ذلك، فقال الرسول لأصحابه: اخرجوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً مسيحياً لا يُظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى

زواج رقية
بعثمان

الله بدينهم. وكان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيَّ عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. وبعد نحو ثلاثة أشهر شاع بين المهاجرين خطأ أن قريشا كَفَّت عن إيذاؤها للمسلمين، فعادت جماعة إلى مكة، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية، فبقيا بها مع رسول الله ﷺ، وكان عثمان من أوائل المهاجرين إلى المدينة، ونزل مع زوجته رقية على أوس بن ثابت. وتصادف أن مرضت رقية مرضاً شديداً في الإعداد لغزوة بدر، وتُسلم روحها إلى بارئها يوم إعلان النصر. وبعد أربع سنوات يلحق بها ابنها عبد الله من عثمان وعمره ست سنوات.

زواج عثمان
بأم كلثوم

ويتزوج عثمان بعدها بأختها أم كلثوم، وتنتقل إلى بيته ويعيش الزوجان هائنين. وتتوالى انتصارات الرسول، وتُفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وتستسلم الجزيرة العربية له ولدينه. ويدور العام فتلحق أم كلثوم بأختها في شهر شعبان سنة تسع للهجرة.

فاطمة

زواج علي
بفاطمة

وولدت خديجة لحمد وهو في سن الخامسة والثلاثين ابنته فاطمة، وعاشت مع أبيها وأسلمت حين وعت ما يقوم به أبواها وأخواتها من الصلاة، وقاست مع أبيها مقاطعة قريش لهما ولبنى هاشم وبنى المطلب وحصارهما في شعب أبي طالب خارج مكة سنتين أو ثلاث سنوات متعاقبة، وحزنت لموت أمها، وكان أبوها يخصُّها بحنو شديد، لأنها صغرى بناته. وهاجر أبوها منفرداً مع أبي بكر، ولم يلبث الرسول أن أرسل زيد بن حارثة مولاه ورفيقاً معه ليحمل إليه ابنتيه: أم كلثوم وفاطمة وزوجته سودة بنت زمعة، وعِشْنَ مع الرسول. وكانت فاطمة قد بلغت السابعة عشرة من عمرها، وتقدم إلى خطبتها علي بن أبي طالب وارتضته وارتضاه أبوها وتمَّ عقد الزواج في شهر رجب من السنة الأولى من الهجرة. ولم يكن عليّ موسراً فكانا يعيشان معيشة شظف، وعوّضهما الله عنها معيشة حب وعطف متبادلين، ولم تلبث في السنة الثالثة للهجرة أن ولدت لعلي ابنه الحسن، وأعقبته في السنة الرابعة بابنه الحسين، وظلَّ الرسول يسبغ عليهما حبه وعطفه، وفي السنة الخامسة ولدت زينب، وولدت بعدها لعلي رقية وأم كلثوم، وبذلك

سَمَّتْ بناتها بأسماء أخواتها الثلاث ذكرى عزيزة لها. وشهدت فاطمة فتح مكة الكبير لأبيها وجعله من قبائل العرب المتنافرة أمة موحدة كبرى، وكان يفرح بها فرحا لا حد له حين تزوره مع ابنيها الحسن والحسين وبناتها، وبالمثل حين يزورها، وكان كثير العطف على الحسن والحسين، ويقول إنهما سيदा شباب أهل الجنة. ولحقت فاطمة بأبيها بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى على الأرجح بستة أشهر.

٤

تَحَنُّتُ مُحَمَّدٌ - بَدَأَ نَزُولُ الْوَحْيِ

أ - التَحَنُّتُ وَالْخُلُوةُ فِي غَارِ حِرَاءَ

لا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد بين العرب في أنحاء الجزيرة العربية نفرا يشككون في عبادة قبائلهم لألهتهم الوثنية وما يتصل بها من الأصنام والأوثان قائلين إنها حجارة لا تضر ولا تنفع مثل خالد بن سنان في بنى عبس، وأمّية بن أبى الصلت في ثقيف، وأبى قيس بن أبى أوس في يثرب، وقُصَّ بن ساعدة أسقف نجران وسمعه محمد في سوق عكاظ يعظ الناس. وسمّاهم العرب - كما مرّ بنا - أحنافا جمع حنيف الذي وصف الله به إبراهيم في القرآن مرارا دلالة على ميله عن دين قومه الوثنيين، وكأنهم كانوا مثله يميلون عن دين آبائهم، ويعبدون الله وحده. ومنهم أربعة من قريش مرّ بنا ذكرهم في حديثنا عن الحنيفية وهم ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وزيد بن نَفِيل.

وليس من ريب في أن محمدا سمع عما يقوله بعض الأحناف القرشيين في الدين، ولقى بعضهم وتحدث معه، غير أنه ليس من ريب أيضا في أن الله ألهمه منذ بواكير شبابه ضلال ما فيه قومه من الشرك. ويشير القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾. ورأى بعض

الأحناف يتعبدون أياما في بعض الكهوف حول مكة، فرأى قبيل مبعثه بسنوات أن يتحنث أى يتعبد لربه طوال شهر رمضان من كل سنة، واختار لتعبده غار حراء: كهفا صغيرا يبعد عن مكة نحو ثلاثة أميال في الشمال الشرقي منها، وهو كهف موحش منعزل عن الناس والعمران خلف صخرتين عند مدخله، ويعمّه ظلام شديد. وكانت خديجة من وقت إلى آخر تزوده بما يكفيه من الطعام والشراب.

التأمل
في الكون

وكان محمد يجد متاعا في خلوته بهذا الغار، إذ كان يتيح له التأمل الطويل في حياة الكون والناس وصلة هذه الحياة بموجدتها وخالقها، وتشرق الشمس وترسل بأشعتها الذهبية في الكون نهارا، ويظلم الليل ويشرق فيه القمر بأشعته الفضية، ولكن ما الشمس؟ وما القمر؟ وما السماء؟ وما هذه القبة الزرقاء التي تسبح فيها الكواكب والنجوم؟ وما هذا النظام الذي يعم الكون وجميع كائناته؟ وما المطر الذي يحيى الأرض ويملؤها بالزروع البهيحة؟ وما الإنسان في دنياه وما ينزل به من خير أو شر؟. إنه - في خلوته - يريد أن يخترق الحُجُب ليعرف أسرار الكون وأسرار حياة الناس من حوله، وما الذي أدى بقومه إلى معتقداتهم الوثنية وأن آلهتهم الحجرية من مثل هُبَل واللات والعزى وأصنامهم تدفع عنهم الشر وتجلب إليهم الخير. وكل ما في الكون له سنن ثابتة، وكل ما في الوجود يدل على أن وراءه صانعا وخالقا عظيما، وليس الجبل الضخم بأدلّ عليه من الحصة الصغيرة، ولماذا كان بعض الحيوانات إنسياً وبعضها وحشياً قاتلا؟ إنه ليتمنى أن تُكشَف له الحُجُب ليعرف خالق هذا الكون وصانعه ومدبره.

ب - بدء نزول الوحي

الرؤيا
الصادقة

تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. وواضح أنها عدت الرؤيا الصادقة في النوم وحيا من الله لرسوله وإلهاما له. وظل هذا الإلهام - أو الرؤيا الصادقة في النوم - يلزم

الرسول طوال حياته كرؤياه المشهورة قبل فتح مكة بنحو عامين أنه سيدخلها مع أصحابه آمنين محلّقين رءوسهم ومقصّرين، وفي ذلك يقول الله في سورة الفتح مبشرا رسوله بفتح مكة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾؛ والإلهام بذلك للرسول كما يكون في اليقظة يكون في النوم. وتسترسل عائشة قائلة: إنه حُبَّ إلى الرسول الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنّث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يعود إلى أهله، لتزوّده خديجة، حتى فجّاه الحلق وهو في غار حراء.

وكانت تجربة عجيبة لقرشي منعزل في كهف من كهوف جبال مكة، إذ كان نائما بالكهف في إحدى ليالي رمضان سنة ٦١٠ للميلاد، وهي ليلة القدر أى الشرف والفضل، وكانت في السابع عشر من رمضان ومحمد في سن الأربعين من عمره، وفيها يقول القرآن إنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ.. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، وأيقظه من نومه صوت واضح، وهب من نومه مدعورا، فرأى ملكا في صورة رجل واقفا أمامه. ومَرَّت لحظة صمت، وقال له الملك ﴿اقْرَأْ﴾ فقال له: ما أنا بقارئ - قال الرسول: فأخذني، فغطّني أى فضمّني وعصرني عصرا شديدا، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال لي: ﴿اقْرَأْ﴾ فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ﴾ قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ دم غليظ في تكون الجنين بالرحم ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. واختفى جبريل على الأثر، واضطرب محمد؛ أهذا ملك من ربه أو هو ربي من الجن الذين كان يزعم كهان الجاهلية أنهم يرونهم؟ وكان لا يدري أهذا حلم أو حقيقة أو أصابته جنّة. وما إن تفلّنت بعض أضواء الفجر إلى الغار حتى انطلق من الغار إلى مكة. ودخل على زوجته خديجة فزعا وقصّ عليها ما رآه، وشعرت بما تمّلكه من خوف ورعب، وكانت

نزول الوحي

سيدة حصيفة، فرأت أن تُزيل من نفسه مخاوفه وحيرته، فقالت له في إيمان صادق: أَبْشِرْ يا ابن عمي واثبت إنك ستكون نبيّ هذه الأمة. فكرر عليها: إني خائف إني خائف. فقالت له تطمئننه: إن الله لن يخذلك أبداً، إنك لتصل الرحم (الأقارب) وتحمل الكلّ (الضعيف) وتكسب المعدوم (الفقير) وتقرى (تطعم) الضيف، وتعين على نوائب الحق. فأنحسرت عنه مخاوفه، وشكرها، وراح في نوم عميق.

خديجة تبشر
محمدًا بالنبوة

الفصل الخامس

من المبعث إلى إيذاء الرسول وأصحابه

١

المبعث

نازعت خديجة الوسوس حين ذكر لها الرسول خبر نزول الملك عليه وما أوحى به إليه من مطلع سورة اقرأ، وكانت شديدة الحب له والإخلاص، وأخذت تعرض على نفسها ما قصَّ عليها وتستعيد كلماته والآيات التي وعها في صدره. وفكرت في أن تأخذه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي اشتهر بتحنُّفه، وقيل بل تنصّر وعرف الإنجيل، وكان قد أسنَّ. وانطلقت بالرسول إليه، وحدثته بما رأى محمد وسمع، وتلت عليه الآيات التي تلاها وقالت له: اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا رأيت؟ فأخبره بكل ما رأى، فأطرق يفكر لحظة ثم قال: قُدُّوس قُدُّوس! والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني لقد أتاك الناموس (أي جبريل) الذي كان يأتي موسى يا ليتني فيها (أي في مكة) جدِّعًا (أي شابًا) ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله: أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُوْدِي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا (قويا شديداً) . وكأنما كان ورقة ملهما، أو قل إن الله ألهمه أن يقول ذلك للرسول حتى يؤمن بأنه نبيُّ الأمة، وسيرد قوله فيما يلي، إذ خرج الرسول في

ورقة

ابن نوفل

يوم بعد ذلك للطواف بالكعبة، فلقى ورقة بن نوفل ورَّحَّبَ به، وقال له: "والذى نفسى بيده إنك لنبىُّ هذه الأمة لقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكدِّبنَّ، ولتؤدِّبنَّ، ولتُخرِجنَّ، ولتُقاتلنَّ، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصُرَنَّ الله"، وأدنى منه رأس الرسول فقبله.

وتوفى سريعاً ورقة وانقطع الوحي عن الرسول فترة، ومن كتاب السيرة النبوية من يطيلها حتى يجعلها سنتين ونصفاً، ومنهم من يجعلها خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أيام، والصحيح - كما روى عن ابن عباس - أنها كانت أربعين يوماً، وحزن الرسول فيها حزناً شديداً وألمت به ظنون كثيرة مخافة أن ينقطع عنه الوحي الذى أنعم الله به عليه. وكان يتردد على غار حراء، لعل الملك ينزل عليه فيه ثانية، ولم ينزل، فكانت نفسه تضيق به ويغتم غمّاً شديداً، وكان يذهب إلى رءوس الجبال لا ليتردى منها كما يقول بعض كتاب السيرة، وإنما تشوقاً وتلهفا لرؤية جبريل وعودة الوحي إليه من السماء. وفى آخر تلك الفترة تبدى له جبريل بين السماء والأرض، فناداه قائلاً: يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل، وتراءى له فى كل آفاق السماء، فامتألاً منه رعباً كما امتألاً فى غار حراء، وسقط إلى الأرض من شدة الهول، وذهب إلى خديجة مرتعداً يقول: "دثرونى (غطونى) دثرونى" ونزل جبريل عليه بمطلع سورة المدثر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَتِبَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ والمدثر: لا بس الدثار: ثوباً فوق ثوب، وقيل المدثر فى الآية حقيقة، وقيل إنه مجاز أى المأمور بالنبوة وإنه حينما أوحيت إليه هذه الآيات لم يكن نائماً ولا مضطجعاً، وأمر بالمبادرة إلى إنذار قومه وتكبير ربه وتطهير ثوبه، وقيل ليس المراد بالتطهير هنا تطهير الثوب أو الجسد، وإنما تطهير النفس من الرذائل. والمراد بالرجز عبادة الأوثان والأصنام، ومعروف أن الرسول لم يتعبد لوثن ولا لصنم قبل رسالته، وكان المراد تعليم ذلك لمن يتبع دينه من المسلمين. وحوى الوحي وتتابع بعد سورة المدثر. وحين نزلت عليه هذه الآيات التفت إلى خديجة وقال لها: انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأدعوهم إلى الله وعبادته.

انقطاع

الوحي مدة

عودة الوحي

وجبريل

المسلمون الأولون

كانت خديجة أول من آمن بمحمد ونبوته كما يتضح من حديثه السابق معها حين جاءها يرتجف حاملاً الآيات الأولى من سورة «اقرأ»، فقالت له حينئذ: «إنك لنبى هذه الأمة»؛ لذلك كان طبعياً أن تكون أول من آمن بنبوته ورسالته. وعلم جبريل الرسول الوضوء والصلاة فعلمهما خديجة، وصلياً معاً. وكانت خديجة نعمة الزوجة، وكأماً أهداها الله إليه لتؤازره وتثبتته حين نزل عليه الوحي، ويلهمها الله أن تذهب به إلى ابن عمها ورقة ليؤيده ثباتاً وإيماناً بأنه نبي الأمة، وطوال رسالته وهى تعيش معه، كان لا يسمع من خصومه شيئاً يكرهه من رد عليه أو تكذيب يحزنه إلا فرّج الله بها عنه، وإذا قصّ عليها ما سمعه فإنها كانت دائماً تثبته، وتقول له: إنك نبي الأمة. وتهوّن عليه أمر الناس حتى انتقلت إلى جوار بارئها. وأكرمها الله فى حياتها، إذ قال الرسول لها فى حديث: هذا جبريل يقرئك السلام من ربك. وبشرها فى حديث ثان بأن لها فى الجنة بيتاً من ذهب، وفى بعض الروايات بيتاً من قصب أى لؤلؤ. وكانت الصلاة فى أول الأمر ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين بعدها إلى أن فرضت خمس صلوات فى ليلة الإسراء والمعراج قبيل الهجرة.

خديجة

وكان فى دارهما غلامان يقيمان مع محمد وخديجة، أما أولهما فعلى بن أبى طالب ومرة بقرش أزمة شديدة وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال فقال محمد لعمه العباس بن عبد المطلب: إن أخاك أبا طالب كثير الأولاد وحرى أن تخفف عنه من عبء عياله فأخذ أنا صبيّاً من أولاده وتأخذ أنت صبيّاً آخر، فكفل تربيتهما عنه. ورضى أبو طالب، فكفل العباس جعفرًا، وكفل محمد عليّاً، وكان فى نحو العاشرة من عمره حين نزل الوحي على الرسول، ورأى محمداً وخديجة يصليان، فوقف حائراً، وسأل الرسول بعد إتمام صلاتهما عن الأمر،

على بن
أبى طالب

فقال له الرسول: إن الله بعثنى نبياً وأمرني أن أدعو الناس إلى الإسلام والإيمان بوحديته وإنكار عبادة الأصنام، ودعا علياً إلى اعتناق الإسلام فقال له: أمهلني حتى أشتاور أبي، وظل ليله مضطرباً يفكر، وفي الصباح قال للرسول: إنني لست محتاجاً لمشاورة أبي، وقال قوله المأثورة: "لقد خلقني الله من غير أن يشاور أباً طالب، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله". وأعلن له إسلامه وفرح به الرسول.

والغلام الثاني الذي كان يعيش في بيت الرسول مع علي بن أبي طالب زيد ابن حارثة بن شراحيل الكلبي، كانت أمه خرجت به صبياً تزور أهلها، فضلَّ منها في الطريق، فالتقطه شخص وباعه في بعض أسواق العرب، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة فوهبته لزوجها محمد قبل مبعثه. وطابت لزيد المعيشة عند محمد وخديجة. وظل أبوه يبحث عنه حتى عرف أنه عند محمد، وخبره محمد أن يبقى عنده على الرحب والسعة أو يرحل مع أبيه حارثة، واختار زيد البقاء مع محمد، فانطلق إلى الملاء من شيوخ قريش وأشهدهم أنه ابنه بالتبني، وظل معروفاً باسم زيد بن محمد حتى أبطل الإسلام التبني. وشاهد زيد محمداً وخديجة يصليان فسألهما - كما سألهما علي - ما هذه الصلاة؟ فعرفه الرسول بأن الله أرسله إلى الأمة بدين الإسلام وفرض فيه هذه الصلاة ودعاه إلى اعتناق هذا الدين والإيمان بوحداية الله، فلبَّاه تَوْأً وهو غلام، وأسلم وحسن إسلامه.

وكان أبو بكر بن أبي قحافة صديقاً مخلصاً للرسول قبل مبعثه، وكان من عشيرة تيم القرشية ورجالاتها، وكان تاجراً موسراً كريماً ومألماً لقريش يألّفونه لتجارته ويُسِّره وحسن مجالسته، فرأى الرسول أن يكون أول من يعرض عليه الإسلام، وما إن عرضه عليه - وهو يعلم صدق الرسول وأمانته - حتى لبَّاه تَوْأً. يقول الرسول ما إن عرضت الإسلام على أحد إلا كان عنده فيه توقف ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما توقف عنه حين ذكرته له ولا تلبَّث ولا تردَّد. وسرعان ما أخذ يؤازر الرسول في الدعوة إلى دينه وإلى الله وتوحيده. واختلف كتاب السيرة في أول من أسلم من قريش هل هو علي بن

زيد
ابن حارثة

أبو بكر

أبى طالب أو هو أبو بكر بن أبى قحافة. وعلى حين دخل فى الإسلام لم يكن وثنيا وأسلم، إذ كان صبيا وكان يتبع الرسول فى جميع أحواله، مما يجعلنا نقول إن أبا بكر أول رجل من رجالات قريش آمن برسالة محمد ودعوته إلى عبادة الله وتوحيده والإيمان باليوم الآخر. ليس ذلك فقط، فإنه أخذ تَوًّا يدعو من وثق به إلى اتباع الرسول، واستجابت له جماعة، منهم عثمان بن عفان من بنى أمية ابن بنت عمه رسول الله أم حكيم بنت عبد المطلب، والزبير بن العوام بن خويلد ابن عمه الرسول صفية بنت عبد المطلب وابن أخى خديجة، وعبد الرحمن بن عوف من بنى زهرة عشيرة آمنة أم رسول الله، وسعد بن أبى وقاص بن أهيب الزهرى ابن عم آمنة، وطلحة بن عبيد الله ابن خال أبى بكر، وجميعهم من العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة. وحين أسلموا جاء بهم أبو بكر إلى الرسول، فعرض عليهم الإسلام، فأسلموا وصلُّوا، وهم مع الثلاثة الذين سبقوهم إلى الإسلام: أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة: الثمانية الذين سبقوا الناس إلى اعتناق الإسلام وصدَّقوا بما جاء به رسوله من عند الله.

عثمان والزبير
وابن عوف
وسعد وطلحة

٣

الجهر بالرسالة

ظل الرسول ﷺ يدعو الناس سرًّا إلى الإسلام ثلاث سنوات، وكان يأمر فيها من أسلم أن يصلى صلاته متخفيا من قريش فى بعض شعاب الجبال بمكة حتى لا يتعرض إلى إيذاء سفهائها الوثنيين. وظل فى هذه السنوات يعمل فى التجارة كما كان يعمل فيها قبل الرسالة، وهو فى أثناء ذلك يدعو من اطمأن إليه من قومه إلى الإسلام.

وطبَّعىُّ أنه كان يعرف من دعاه إلى الإسلام بسعاليمه الكبرى وفى مقدمتها وحدانية الله وعبادته والصلاة له والإيمان باليوم الآخر وبالملائكة والرسول

وبالأخوة بين الناس والمساواة. وكانت مكة تموج بالرفيق الإفريقي والحبشي، فكان ذلك صدمة كبرى لسادتها أمام عبيدهم وإمائهم. ومن يدخل في هذا الدين الذي سُمّي بالإسلام يصبح مسلماً أمره إلى ربه يوحدّه ويرفض رفضاً باتاً عبادة الأصنام والأوثان. ولم ينتحل الرسول لنفسه أى صفة قدسية أو إلهية كما صنع اليهود بأخبارهم المقدسين، وكما صنع المسيحيون بتأليهم لعيسى وتخليهم للثالوث الإلهي.

من أوائل
المسلمين

وتعاليم الإسلام - بذلك - سهلة بسيطة، ومن اعتنقوه سريعا أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد ابن عمّة الرسول برة وزوجته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي أسلم بعد عشرة أنفس وكانت داره بالقرب من الصفا فاختارها الرسول مكانا منعزلا للاجتماع بأصحابه، وعبد الله بن مسعود وقيل كان من العشرة السابقين، وسعيد بن زيد ابن عم عمر بن الخطاب وزوجته فاطمة أخت عمر، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول، وعبد الله بن جحش ابن أميمة عمّة الرسول، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وعائشة أختها وهي صغيرة، ومعنى ذلك أنها هاجرت، وهي في نحو العشرين من عمرها وتزوجها الرسول في السنة الأولى من الهجرة. ولعل ما ذكره ابن هشام من ذلك في السيرة يخطئ زعم ما قيل من أن الرسول تزوجها وهي بنت تسع. وظل الرسول يجتمع بأصحابه في دار الأرقم حتى بلغوا نحو الأربعين.

دعوة
العشيرة

وحينئذ نزل الوحي على الرسول بالدعوة إلى الإسلام جهرا في غير استخفاء قائلا له: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. وفكر الرسول كيف ينبئهم برسالته، وكيف يعرض لعشيرته إنذار الله الكافرين ووعيده لهم، وفي حديث عائشة أم المؤمنين وابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية دعا الرسول قريشا فجعل ينادى: يا بني فهر يا بني عدي، وظل ينادى بطون قريش فاجتمعوا، فمضى ينادى: يا بني عبد شمس أنقلذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقلذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقلذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقلذوا أنفسكم من النار، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا،

يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا. وكانت الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله وإلى العمل الصالح، إذ جمع الرسول في إنذار عشيرته بين المشرك والمؤمن لأنه أنذر عمته صفية وابنته فاطمة وكانتا مسلمتين. ووجه المدعوون. فرأى أن يدعوهم إلى طعام، فلما طعموا أخذ يذرههم ويخوفهم من عذاب الله، فبادره عمه أبو لهب بقوله: هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك فلا تخرج على دين قومك وإياك وغضب العرب، فإن قريشا لا تستطيع مقاومتهم، وأولى لك أن ترجع إلى دين آبائك، وأهاب بالاجتماعين أن ينفضوا.

وانصرف الجميع. ولم يئأس الرسول من عشيرته فدعاهم ثانية إلى داره في يوم، ولما طعموا قال لهم: ما أعلم عربيا جاء قومه بأفضل مما جئكم به؛ جئكم بخير الدنيا والآخرة: أمرني ربي أن أدعوكم إلى طاعته. ويُقال إن بعض عماته أشرن عليه أن لا يدعو عمه أبا لهب، ولكنه دعاه آملا أن يهديه الله فيؤمن به وبرسوله. حتى إذا فرغت العشيرة من الطعام بادرهم الرسول بقوله: إن الرائد لا يكذب أهله، ولو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم.. إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إلى الإسلام، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وإني أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها للجنة أبدا أو للنار أبدا. وتكلم عمه أبو طالب بكلام طيب غير أن نفسه لا تطاوعه على فراق دين أبيه عبد المطلب، ثم قال له: مع ذلك سأظل أمنعك وأحوطك من قريش. أما عمه أبو لهب فهاج وماج وعاد إليه سفهه وحمقه، وقال لمن حوله: لا تتركوه في الدعوة إلى دينه، وخذلوا على يديه، وتعرضت له أخته صفية عمة الرسول - وكانت قد أسلمت - فقالت له: أيحسن بك خذلان ابن أخيك؟ ألا يسرك أن يخرج من ذرية عبد المطلب نبي؟ وهاج غضبا، وقال لها: وما العمل لو هبت بطون قريش جميعها ضده، وساعدها العرب، فقال أبو طالب: لنمنعه ما بقينا.

ولم تلبث أن نزلت على الرسول آية سورة الحجر، وهى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ بِمَا تُوَمَّرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهو أمر صريح بالجهار بالدعوة لا لعشيرته فحسب، بل لجميع بطون قريش من عشيرة الرسول وغيرهم ومن قبائل العرب. ورأى الرسول أن يتجه بدعوته إلى أهل مكة جميعاً، فصعد الصفاً ونادى: يا صباحاه! يا صباحاه! يا معشر قريش، وكرّر النداء، فاجتمعوا إليه وأخذوا يسألونه ما الأمر؟ فقال لهم: رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً مغيرة أقبلت (أى أنها تريد الإغارة على مكة) أكتنم مَصَدَّقِي؟ قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط، قال: فإنى نذير لكم - أرسلت إليكم - بين يائى عذاب شديد. يا بنى عبد المطلب! يا بنى عبد مناف! يا بنى زهرة! يا بنى تيم! يا بنى مخزوم! يا بنى أسد! إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله. يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإننى لا أغنى عنكم من الله شيئاً، إن مثلى ومثلكم كمثلى رجل رأى عدواً يريد الإغارة على أهله، فجعل ينادى - محذراً أهله - يا صباحاه! يا صباحاه! أتيتم أتيتم، فنبه أهله. ونهض عمه أبو لهب حانقاً غاضباً صائحاً به: تباً لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا! وصرف الناس. وكانت زوجته أم جميل لا تقبل عنه عداوة للرسول ودينه الحنيف، وكانت تثير عليه قومها وكانت تقرض الشعر فى ذمه، وأخذ أبو لهب حجراً بيده وحاول أن يمنعه من الكلام ولكن الله سلّم، فأسقط الحجر من يده. ولم يلبث الوحى أن نزل على الرسول بقوله تعالى ردّاً على أبى لهب بنفس ألفاظه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أى هلكتا وخصّ الله يديه لحملهما الحجر الذى كان يريد أن يرميه على الرسول ﴿وَتَبَّ﴾ إعادة للدعاء عليه بما يشمل جسده كله ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ أى لن ينفعه ماله من الله شيئاً وأيضاً ماله الذى كسبه بنفسه ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾. وذكر الوحى امرأته فقال: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أى حطبت الفتن تحاول إيقادها ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أى دائماً فى جيدها حبل متين تشدُّ به هذا الحطب وحزمه.

الدعوة جهراً
لجميع الناس

ومضى رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام أتم دعوة، يدعو الكبير والصغير والحر والعبد إذ كان في مكة عبيد كثيرون، والرجال والنساء والأسود والأحر.. وأولا كان جَهْرُ الرسول بهذا الدين صدمة كبرى لقريش بل صدمات لأنه يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد، فإن في ذلك ضياعا لمكانة مكة الدينية في الجزيرة العربية، وضياعا - بالتالي - لولاء العرب لها، إذ كان بها الكعبة التي اتخذوها دارا لأصنامهم جميعا، وكانوا يحجُّون إليها سنويا، وكان سدة الكعبة جميعا من قريش، فهي القائمة على حماية أصنامها وما يقدم إليها من عبادة وقرابين. وسبب ثان هو أن العصف بهذا الدين الوثني من شأنه - لو حدث - أن يضعف تجارة مكة التي تعيش منها، فإن القبائل ستتهب قوافلها التجارية التي كانت تمنعها منهم وتحميها مكانة مكة الدينية. وأيضا فإن حجَّهم السنوي إلى مكة لتقديم النذور والقرابين إلى آلهتهم سيتوقف ويتوقف معه اختلافهم في أثناء الحج إلى أسواق مكة التجارية في مِجَنَّة وذى الحِجَاز وعكاظ. وسبب ثالث هو أن الإسلام يدعو إلى المساواة بين السادة والعبيد الذين يعملون لديهم كآلات مُسَخَّرَة دون أجر أو جزاء، وشعر السادة أن في ذلك خطرا شديدا على سيادتهم للعبيد.

معارضة
وعداء

أحسن كبراء قريش وأثريائها الوثنيون بهذه الصدمات الكبرى إحساسا قويا عميقا فبادرت كثرتهم إلى معارضة الرسول، واستحالت المعارضة عند كثير من السادة إلى عدااء شديد للرسول ودينه الخفيف، ورأى بعض ساداتهم وكبرائهم أن يكلموا عمه أبا طالب الذي يعلن حمايته له - وظل يؤمن معهم بدينهم - فقالوا له: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا، وسفَّه أعلامنا، ودعا آباءنا ضالين، فإما أن تكفَّ عنا، وإما أن تخلَّى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ليَّنا وردَّهم ردًّا جميلا.

قريش ترسّط
أبا طالب

وظل رسول الله ﷺ - يدعو بقوة - إلى دين الله ودخل فيه كثيرون من قريش ورقيقهم. فذهب ثانية بعض كبرائها إلى أبي طالب، وقالوا يا أبا طالب: إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك عن دعوته فلم

تنهه، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا فإما أن تكفَّه عنا، وإما ننازله (نحاربه) وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا، فعظم على أبي طالب غضب قومه ولم يطب نفسا بخذلان رسول الله، فبعث إلى الرسول فأتاه، فقال له: يا ابن أخي إن قومك جاءوني - وذكر له ما قالوه - فأبقى عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلني ما لا أطيق. وفكر الرسول لحظة، ثم قال في إصرار ما يماثله إصرار "يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته".

وإنها لعظمة: إحساس الرسول بقدسية ما كلفه الله به من تبليغ رسالته إلى الناس. ووقف عمه أبو طالب مذهولا أمام ابن أخيه وما سمع من إرادته الحازمة في أنه لن يتراجع ولن يتخاذل في الدعوة إلى دين الله ما عاش وظل حيا. وأمام هذا التصميم الحاسم لاستمرار الرسول في دعوته وأنه لن يكفّ عنها أبدا هتف به عمه أبو طالب قائلا: "اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء تبغضه أبدا".

وأعلم أبو طالب قريشا بروعة ما قاله معبرا عن صدق عزيمته في تبليغ الناس دعوته مهما نزل به من الخطوب وأنه عاهده على نصرته وحمائته، فجئن جنون أعداء دعوته من قريش، وسلطوا عليه سفهاءهم من الشعراء: النضر بن الحارث وهبيرة بن أبي وهب وأبا سفيان بن الحارث وأم جميل زوجة أبي لهب، يهجون الرسول، ويسمع أشعارهم المشركون في مجالسهم ويهللون لها، ويغنيهم بها المغنون، فأنزل الله فيهم: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وهو ذم لأتباعهم يتحملون وزره، والغاوي الضالّ شديد الضلال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي أنهم يقولون الشعر وينظمونه في أغراض مختلفة من الهجاء والمديح والغزل ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، فهجاؤهم للرسول وللمسلمين إنما هو كذب وافتراء ويهتان عليه وعلى أصحابه، وهو ذم واضح لشعراء المشركين وما يتفوّهون به من هجاء ضالّ. والآيات تردّ بوضوح على من كانوا يقولون من قريش إن القرآن شعر، فقال الله لهم إن الشعراء كذّابون

السفهاء
من الشعراء

أَفَاكُونَ وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ كَذَابًا أَفَّاكًا. وكانوا يقولون: إن القرآن سحر ولذلك يدفع الناس إلى الإيمان بسحره وإن محمدا ساحر. فنزلت سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أى ابلاج الصبح، والمراد الرب الميّن للحق وهو القرآن من الضلال أى الشرك ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أى من كل مخلوقاته من الإنسان والحيوان والزواحف ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أى من شر الأفعوان إذا تجمع للدغ إنسان، وقيل هو الليل إذا اشتدت ظلمته لما يكون فيه من السباع والهوام المؤذية ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ وهن الساحرات اللاتى ينفخن فى عقد خيط يحاولن فى وهمهن إيذاء شخص، ويصفهن الله بأنهن شريرات فى أنفسهن ولا يعنى ذلك أن نفخهن وما يوهمن به الناس أنه سحر له تأثير سحرى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أى ومن الحاسد الشرير لأن شره له تأثير على المحسود. والله يعلم رسوله فى هذه السورة أن يستعيذ به إزاء شر كل من ينبغي أن يتقى شره من الكائنات الشريرة ومن الأفاعى أو من الليل الذى يكثر فيه حدوث الشر، ومن شر النساء الساحرات، ومن شر الحساد أى كل شر يمكن أن يتعرض له، فهو حاميه وحارسه من كل شر يؤذيه. وكانوا يقولون إنه كاهن يعلى عليه شيطان قرآنه، فرد الله عليهم فى سورة الحاقة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ. وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ﴾. ثم أنزل عليه سورة المعوذة الثانية: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ﴾ والله يعلم رسوله أن يستعيذ ويلوذ برب الناس متعهدهم بالتزبيه وتبدير شئونهم وتولى أمورهم شقاء وسعادة ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ أى من شر صوت الشيطان الخفى المزعوم أنه يوسوس للكهان ﴿الْخَنَاسِ﴾ المخفى ﴿الَّذِى يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ بالكفر والأعمال السيئة ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أى من الشياطين والكهان. وفى هذا الأمر الربانى التعليمى إشارة واضحة إلى أن الله - تعالى - معيد الرسول من الكهان وشياطينهم وعاصمهم منهم وأن الرسول متمم رسالته الهادية للناس إلى عبادة الله المنقذة لهم من خرافات الوثنية واعتقاداتها الآثمة.

قول المشركين
إن القرآن
سحر

وبينما كان الرسول يطوف بالكعبة يوما اعترضه الوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف والأسود بن المطلب والعاص بن وائل من كبار أعدائه، فقالوا له: تعال نعدل بين ديننا ودينك: نعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان ما نعبد من آلهتنا خيرا مما تعبد كنا قد أخذنا بحظنا من عبادتنا وإن كانت عبادة إلهك خيرا من عبادة آلهتنا كنت قد أخذت بحظك من عبادة إلهك، فقال: معاذ الله أن أشرك بربى غيره في عبادته، ولم يلبث أن نزل عليه الوحي بالسورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾. وذهب رسول الله ﷺ في اليوم التالي إلى المسجد الحرام وفيه كبار قريش وشيوخها فقرأ عليهم السورة، فعرفوا أنه لن يعترف أبداً بآلهة أصنامهم في الحال والاستقبال ويتسوا من أن يخلط دينه بشئ من عبادتهم الوثنية الكافرة. وحينئذ عمدوا إلى إيذائه وإيذاء أصحابه.

٤

إيذاء الرسول وأصحابه

أخذت قريش - منذ جهر محمد بدعوته - تحادّه وتغاضبه، وما كان يقع في خلدها أن محمداً الدمث الوديع الأمين يتحول لها إلى بشير ونذير، يرشدها إلى الهدى بما يأتيه من ربه، ولو نجحت دعوته في رأيهم للذهبت هباءً مكنةً في العرب، وبالتالي مكانتهم، ولباعت تجارتهم بالخسران كما أسلفنا، ولشار بهم رقيقهم وطالبوهم بما طالبهم به الإسلام من المساواة بين السادة والعبيد. ولم يلبث سادة قريش وكبرائها أن نابذوه وجاهروه بالعداوة وإظهار البغضاء، وكان من أشدهم في ذلك أبو جهل بن هشام المخزومي، ورآه يصلي خلف المقام، فقال له: ألم أنهك عن هذا، ولم يلبث الوحي أن نزل بقول الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾. أن رآه استغنى والطغيان: التعاضم والاستعلاء، فهو إنما

عداوة
أبى جهل

يستعلى ويتعاضم لشرائه ﴿إِنَّ إِلَيَّ رُبُّكَ الرُّجْعَى﴾ أى أنه سيلقى عند الله جزاءه. وقال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأَنَّ على عنقه فقال الله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى. أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ أى أينهاه عن الصلاة وهو على الهدى الربانى وأمر بالتقوى، ثم قال الله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى. أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾؛ والله يقول: إن أبا جهل سيظل يكذب الرسول وسيتصف الله منه. ورأى أبو جهل الرسول مرة ثانية يصلى عند الكعبة، فقال له: يا محمد ألم أنهك عن هذا وتوعدده، فأغلظ له الرسول القول، فقال أبو جهل: يا محمد بأى شئ تهددنى؟ أما والله إنى أكثر هذا الوادى ناديا، فأنزل الله على رسوله بقية سورة العلق: ﴿كَلاَّ﴾: ردعا وزجرا لأبى جهل ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ والسفع: القبض أى لنقبضن على ناصيته وندفع به إلى النار، ووصف الناصية بأنها كاذبة خاطئة، وهو وصف لصاحبها وأنه كاذب خاطئ ﴿فَلْيَنْدِعْ نَادِيَهُ﴾ أى أهله وعشيرته ﴿سَنَدْعُ الزَّبَالِيَةَ﴾ أى ملائكة العذاب ليأخذوه إلى جهنم ﴿كَلاَّ لَا تُطْعَمُهُ﴾ واثبت على ما أنت عليه من عبادة ربك ﴿وَاسْجُدْ﴾ أى واطب على سجودك وصلاتك ﴿وَاقْتَرِبْ﴾. وفى الحديث النبوى: "أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد".

وعن عم الرسول العباس بن عبد المطلب قال: كنت يوما فى المسجد الحرام فأقبل أبو جهل، فقال: إن لله علىَّ إن رأيت محمدا يصلى أن أطأ على عنقه، فخرجت إلى رسول الله حتى دخلت عليه، فأخبرته بقول أبى جهل، فخرج من داره غضبان حتى دخل المسجد، فعجل فلم يدخل من الباب، بل اقتحم الحائط، فقلت هذا يوم شر، فدخل رسول الله فقرا على القوم المجتمعين ومعهم أبو جهل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ شأن أبى جهل قارنا: ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ حتى بلغ آخر السورة وسجد، وأبو جهل لا ينبس بكلمة بل خرس خرسا تاما، وهو يسمع ذم القرآن له وتهديده. وعن عثمان بن عفان: كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده فى يد أبى بكر، وفى حجر الكعبة ثلاثة

نفر جلوس: أبو جهل بن هشام وعقبة بن أبي معيط وأمّية بن خلف، ومضى رسول الله في طوافه، فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فدنوت منه، حتى كان بيني وبين أبي بكر، وطفنا معا وحين حاذاهم قال أبو جهل: والله لا نصلحك أبدا وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا، وصنعوا في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع وثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، فدفعت في صدره فوقع على الأرض، ودفع أبو بكر أمّية بن خلف، ودفع رسول الله عقبة بن أبي معيط، وقال: أما والله لا تتتهون، حتى يحل بكم عقاب الله. قال عثمان: فوالله ما منهم رجل إلا أخذته رعدة. وقتل ثلاثتهم في غزوة بدر: ذبحهم الله بأيدينا.

عداوة عقبة بن
أبي معيط وأمّية
ابن خلف

وبسبب إحدى إساءات أبي جهل للرسول أسلم عمه حمزة بن عبد المطلب، فقد مرّ أبو جهل بالرسول ﷺ عند الصفا فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ولم يحبه الرسول بكلمة، وجارية تسمع صنيعه. ومضى أبو جهل إلى مجتمع قومه حول الكعبة ومضى الرسول إلى داره، وأقبل في التوحمزة بن عبد المطلب متوشحا سيفه راجعا من صيد له، وكان إذا رجع من صيده طاف قبل ذهابه إلى داره بالكعبة ومر بنادى قريش ومجتمعهم فحدث معهم، وكان أعزّ فتيان قريش وأشدّهم شكيمة (أنفة)، ورأته الجارية فقالت له: أرايت ما لقى ابن أخيك محمد من أبي جهل؟ لقد كان ههنا عند الصفا وحده جالسا، فأذاه أبو جهل وسبه وبلغ منه ما يكره، وانصرف إلى نادى القوم بالكعبة، فغضب حمزة غضبا شديدا، لما أراد الله به من كرامته، ودخل المسجد باحشا عن أبي جهل، وراه جالسا في نادى القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع قوسه، فضربه بها فشجّه (شقّ جلد رأسه) شجّة شديدة، ثم قال له: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فردّ على ذلك إن استطعت، فقام رجال من عشيرة بني مخزوم لينصروه ضد حمزة، فقال لهم: دعوا حمزة فإنى والله قد سبّيت ابن أخيه سبّا قبيحا. وباع حمزة ابن أخيه رسول الله على دينه ونصرته، ولما عُرِف إسلامه قالت قريش إن محمدا قد عز وامتنع، فكفوا عن بعض ما كانوا يؤذون به الرسول.

إسلام حمزة

وكان عقبة بن أبي مُعَيْطٍ أشدَّ القرشيين إيذاءً للرسول ﷺ، ومن إيذائه ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: بينما رسول الله ﷺ في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيْطٍ، فوضع ثوباً - وقيل حبلاً - في عنق رسول الله، فخنقه به خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن رسول الله، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. ولما أمر رسول الله ﷺ بقتله من بين أسرى قريش في غزوة بدر قال له: أقتلني من بين سائر قريش؟ قال الرسول: نعم، ثم أقبل على أصحابه، فقال: أندرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقي، وجعل يغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عيني تسقطان. ثم مرة أخرى جاء بسلاشاة (ما يكون مع جنينها من القدر) فألقاه على رأسي وأنا ساجد خلف المقام، وغسلته عن رأسي فاطمة.

إيذاء عقبة

وإذا كان مثل هذه الصور من إيذاء عقبة بن أبي معيط للرسول ﷺ وإيذاء أبي جهل، وله سند يحوطه من عمه أبي طالب ومن قومه بنى هاشم وبنى المطلب، فما بالناس بما كان يقع من صور الإيذاء على المسلمين ممن لا سند لهم يمنعهم ويحميهم، وخاصة المستضعفين من الأحرار والأرقاء من العبيد والإماء، وقد بادر عمار بن ياسر حليف بنى مخزوم فأسلم هو وأبوه وأمه سمية فكانوا يلقونهم على حجارة بطحاء مكة في شدة الحر، إذ تستحيل إلى صفائح محمّاة، ويتمسكون بالإسلام أشدَّ التمسك ومات ياسر في أثناء تعذيبه ومثله زوجته سمية طعنها أبو جهل بحربة فماتت. وكان بلال بن رباح عبداً لأمية بن خلف عدو الله ورسوله، فكان يلقيه في شدة الحر على صفائح الحجارة بمكة ويلقى على صدره الصخر الثقيل وهو يقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ، ورآه أبو بكر وهو يعذبه فاشتراه وأعتقه. ومثله أبو فكيهة، وكان مواليه من بنى عبد الدار يعذبونه نفس العذاب فاشتراه أبو بكر وأعتقه. وكانوا يعذبون من أسلم من إمائهن، فكان أبو بكر يشتري من تعذب منهن ويحررها، منهن حمالة أم بلال وزينة جارية بنى عدى قوم عمر، وكان يعذبهما قبل إسلامه، والنهدية جارية لامرأة من بنى عبد الدار،

تعذيب

عمار بن ياسر

تعذيب بلال

شراء أبي بكر

للمعذبين من

الإماء والعبيد

ومنهن أم عبيس جارية بنى تيم. وقال لأبى بكر أبوه: يا بُنى أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أعتقت قوما جُلداً يمنعونك، فقال له أبو بكر: إني أريد ما أريد، وفيه نزل الوحي بقوله تعالى في سورة الليل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أى النار ﴿الْأَتَقَى﴾ الذى يُؤْتَى مَالُهُ يَتَزَكَّى ﴿أى أبو بكر الذى ينفق ماله فى وجوه البر من مثل عتقه للمعذبين من العبيد والإماء وتحريرهم، يريد أن يتزكى به ويتطهر﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ ﴿بما ينفق من ماله﴾ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى. إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿أى أنه ينفق ما ينفق ابتغاء رضا الله﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿بما يعطيه له ربه فى الآخرة. ولم يعد الله أحدا بهذا الوعد سواه وسوى رسول الله فى سورة الضحى.

الفصل السادس

من الهجرة إلى الحبشة إلى حصار الرسول والمسلمين في الشعب

١

الهجرة إلى الحبشة

أخذ الإسلام - كما أسلفنا - ينتشر بمكة وقلقت قريش قلقاً شديداً وأخذت قبائلها تعذب من آمن به وتؤذيهم ضربوا مختلفة من الإيذاء ليردوهم عن دينهم، فأشار الرسول ﷺ على أصحابه أن يتفرقوا في الأرض قاتلاً لهم: إن الله تعالى سيجمعكم بعد حين، فسألوه إلى أين نذهب؟ فقال: إلى أرض الحبشة (المسيحية) فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه. فهاجر المسلمون إلى أرض الحبشة هجرتين كانت أولاهما في شهر رجب سنة خمس من المبعث، وكان عدد المهاجرين فيها أحد عشر رجلاً وقيل بل اثني عشر، ومع أربعة رجال منهم - وقيل بل خمسة - زوجاتهم، وكان منهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة هارباً عن أبيه بدينه، ومعه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو مُسلمةً مراغمةً لأبيها فارةً عنه بدينها، وأبو سلمة بن عبد الأسد ومعه زوجته أم سلمة بنت أبي أمية، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود. وخرجت هذه الجماعة من المسلمين متسللة سرا حتى انتهت إلى الشَّعْبَةِ

(ميناء مكة قديماً على البحر الأحمر)، منهم الراكب ومنهم الماشى، فوفق الله لهم سفينتين للتجار حملوهم فيهما بنصف دينار. وخرجت قريش في إثرهم حتى جاءت البحر حيث ركبوا فلم يجدوا أحدا منهم. ونزلوا بأرض الحبشة في خير دار بخير جوار. وبعد ثلاثة أشهر جاءتهم أخبار كاذبة بأن قريشا دخلت في الإسلام، فظنوا أنهم أصبحوا آمنين فعادوا إلى مكة، ونالهم منها عنتاً شديداً وإيذاء أشد، فرجع نفر منهم في ثلاثة وثمانين من الصحابة إلى الحبشة فراراً بدينهم من إيذاء قريش.

وكان من المهاجرين إلى الحبشة الكثيرين في هذه الهجرة الثانية جعفر بن أبي طالب ومعه زوجته أسماء بنت عميس، وولدت له هناك ابنه عبد الله وأخوين له، وعبد الله بن مسعود، وعتبة بن غزوان حليف بنى نوفل وعبد الله بن جحش ابن عمه رسول الله، وأخوه عبيد الله ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان وتنصّر وفارقت هناك، وتزوجها رسول الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وفراس بن النضر بن الحارث فرّ بدينه من أبيه، والمقداد بن الأسود، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، وهشام بن العاص أخو عمرو، والسكران بن عمرو وامراته سودة بنت زمعة، التي توفي عنها فيما بعد وتزوجها الرسول، وعمار بن ياسر.

وأقام المهاجرون جميعاً من هؤلاء وغيرهم عند النجاشي في أحسن جوار، وقلقت قريش لنزول هذا الجمع الكبير عنده، وخافت مغبة ذلك، وأن يؤول إلى استشارة النجاشي وغزوه لمكة، ورأت أن تُرسل إليه سفيرين مرتين: مرة عند نزول هذا الحشد بالحبشة، ومرة ثانية بعد هزيمة قريش المرة في غزوة بدر الكبرى، وكان عمرو بن العاص سفيراً في المرتين، ومعه في إحداهما عمارة بن الوليد وفي الأخرى عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميان. وبعثت قريش مع سفيريهما في المرتين إلى النجاشي وبطارقته هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أهم ما يأتيه منها الأدم (الجلد) فجمعوا له ولبطارقته أدماً كثيراً، وقالوا لسفيريهما أعطيا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلّمنا النجاشي ثم قدّمنا إليه هداياه، وسلاه

سفيران لمكة
إلى النجاشي

أن يُسلّم المهاجرين إليكما. وقدمنا على النجاشي فلم يبق بطريق إلا قدما إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم النصراني وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك أشراف قومنا لئلا يذوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأنشروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم. ولقينا النجاشي وقال له عن المهاجرين ما قالاه للبطارقة، وحاول البطارقة أن يقنعوا الملك بتسليمهم فأبى إلا أن يسمع من المهاجرين رأيهم فيما يقول السفيران القرشيان. ولم يلبث أن استدعاهم واستدعى أساقفته ونشروا أناجيلهم حوله، وسأل المهاجرين: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين إحدى الملل؟ وتولى الإجابة عن المهاجرين جعفر بن أبي طالب، إذ قال:

"أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونقطع الأرحام ونؤسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّد ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه: من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة. وعدّد جعفر عليه تعاليم الإسلام، ثم قال: فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا، وحرّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردّونا من عبادة الله إلى عبادة الأوثان وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك".

جعفر بن أبي
طالب يجيب
النجاشي

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به رسولكم عن الله من شيء؟، فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فأقرأه عليّ، فقرأ عليه صدرا من سورة مريم فيه قصتها وقصة ابنها الرانية في حملها به وميلادها له وكلامه في المهدي، فبكى النجاشي وبكت الأساقفة، وقال النجاشي إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة (نافذة مضيئة) واحدة، واتجه إلى سفيري قريش فقال لهما: والله لا أسلمهم إليكما. وفي اليوم التالي عاد عمرو بن العاص فغدا على النجاشي، وقال له: إنهم يقولون في عيسى إنه عبد فأرسل إليهم وأسأله عما يقولون فيه. فأرسل إليهم وحضروا وسأله ماذا تقولون في عيسى، أجابه جعفر بن أبي طالب: نقول فيه ما قال الله وما جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء. فضرب النجاشي يده إلى الأرض، وأخذ منها عودا وخطّ به على الأرض، وقال: إن هذا لا يعدو ما جاء به عيسى، وعاش المهاجرون في أرضه معيشة طيبة كلها أمن وسلام.

ولما سمع هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة بهجرة الرسول إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا وثمان نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبت قريش سبعة لم تأذن لهم في الهجرة إلى المدينة، وحضر غزوة بدر الكبرى منهم أربعة وعشرون رجلا. وفي السنة السادسة للهجرة كتب رسول الله ﷺ رسالة إلى النجاشي يدعوه فيها إلى الإسلام. وكان عبيد الله بن جحش قد تنصّر ففارقه هناك زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فطلب الرسول من النجاشي أن يزوجه لها، وتولى تزويجها منه خالد بن سعيد بن العاص، وطلب الرسول منه أيضا أن يرسل إليه من بقى عنده من المهاجرين ويحملهم إليه في بعض السفن ففعل. وقدموا إلى المدينة مع جعفر بن أبي طالب، فوجدوا الرسول في فتح خيبر، فشخصوا إليه، فوجدوه قد أتم فتحها، واستقبلهم الرسول وفاتحو خيبر استقبالا طيبا مرحّبين، وكلم الرسول المسلمين الفاتحين أن يدخلوهم في سهام الغنيمة من خيبر فأدخلوهم.

عودة بعض
المهاجرين إلى
الرسول

عقيدة الإسلام - إسلام عمر

أ - عقيدة الإسلام

الإسلام خاتمة الديانات السماوية، وأصل معناه اللغوي الخضوع والانقياد والله - جل شأنه - هو الذى سَمَّاه بهذا الاسم فى مثل قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ومنه سُمِّي أتباع الرسول باسم "المسلمين والمسلمات" أى المتقادين لله الخاضعين له المستسلمين لأوامره ونواهيه وتعاليمه فى شريعة الإسلام. واشتق الله - عز شأنه - منه كلمة: "السلام عليكم" تحية يومية يتبادلها المسلمون فيما بينهم، وسَمَّى الله نفسه ﴿السَّلَام﴾ إشارة إلى أنه يدعو إلى أن يعم السلام بين الناس جميعا.

وأول أسس عقيدة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فكل ما كان يؤمن به العرب من تعدد الآلهة باطل. وفكرة التثليث وما ترتب عليها من شيع وأن المسيح ابن الله خطأ محض، يقول الله فى سورة النساء: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

والقرآن مع ذلك يعطف على الرسول عيسى ويذكر معجزاته وأنه لم يقل لأتباعه: "اعبدونى"، إذ عُبد بعد وفاته كما فى آخر سورة المائدة. والله ليس منزهاً فقط عن شبهه بالإنسان فى أن يكون له ولد بل هو منزّه تنزيهاً مطلقاً عن هذا الشبه، كما قال فى سورة الأنعام: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. وهو موجود مع الإنسان فى كل مكان،

حتى إنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أى إنه يعلم حتى النظرة الخائنة وما يخفى فى الصدور والسرائر من النوايا الخيرة والشريرة. والله بذلك موجود مع المسلم فى كل ما يأتى ويذر من الأعمال. وهذه الفكرة جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية.

والأساس الثانى من عقيدة الإسلام شهادة أن محمداً رسول الله، وكرّر الله فى القرآن أن محمداً رسوله، ويقول له: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أى القرآن ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الشريعة الإسلامية، إذ القرآن يذكر أصول الدين وأحكامه فى كثير من الآيات مجملة دون تفصيل، والحديث النبوى هو الذى يفصلها، فيقول القرآن مثلاً: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ والحديث يفصل أوقاتها وكيفيتها بدقة. وكان الرسول ﷺ يأمر بنشر الحديث وإذاعته فى الناس حتى يقفوا وقوفاً بيننا على أوامر الإسلام ونواهيه. وكان المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ يتداولون الحديث ويبلغونه مع كتاب الله جميع الأمصار والأقطار.

والأساس الثالث الإيمان بأنه وراء هذا العالم المحسوس الذى نشاهده عالم غيبى به نوعان من الأرواح خير نورانى سماوى، وشرير، والخير الملائكة الذين ينزلون بالوحي على الرسل مثل جبريل ونزوله بالقرآن الكريم على الرسول ﷺ، ومنهم من يتوفون الناس، ومن يكتبون أعمالهم كما قال الله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

والأساس الرابع الإيمان برسل الله السابقين وكتبه السماوية، ويأمر الله بذلك المسلمين قائلًا فى سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ويقول الله فى سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وبلغ من قصصهم عليه فى القرآن خمسة وعشرين، وأهمهم موسى صاحب التوراة وعيسى

صاحب الإنجيل. والقرآن - كما قال الله في سورة الأعراف -: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ... وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أى يمحو عنهم ما جاء فى شريعتيهما من التكليف الشاقة ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى الأعمال المؤلمة. والقرآن بذلك يسيطر على ما سبق من الشرائع كما قال جلّ شأنه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ إذ يفرض سلطانه على جميع ما سبقه من شرائع سماوية.

والأساس الخامس الإيمان بالمعاد وأن الناس جميعا سيبعثون بعد موتهم بأجسامهم ليحاسبهم الله على أعمالهم فى دنياهم فإما إلى الجنة وإما إلى النار. وجادلت قریش الرسول طويلاً فى البعث بالأجساد وردّ الله عليهم فى سورة الإسراء قائلاً: ﴿وَقَالُوا أَنَدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أى خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أى يحركونها حركة استهزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

والأساس السادس أداء عبادات عملية لله جل جلاله، وأولها فريضة الصلاة فرضت فى أوائل نزول الوحي بمكة، وثلاث فرائض أخرى فى عبادة الله فرضت بالمدينة، وهى فريضة الزكاة، وفريضة صيام شهر رمضان، وفريضة الحج.

والأساس السابع تمسك المسلم بمكارم الفضائل الفردية والاجتماعية من مثل الكرم، والشجاعة، والعدل، والعلم، والعمل الصالح، والتسامح والصفح، والوفاء بالعهد، وبر الوالدين والزوجة والأبناء والأقارب، والشعور بالكرامة والعزة، وقول الحق حتى على نفسه، والصدق فى جميع الالتزامات والمعاملات، والتواضع الخمود، والصبر فى الحزن والخطوب، والحلم وضبط النفس، والمروءة وعون المحتاج وإكرام الجار، ولا يقول عن أخيه المسلم إلا الكلمة الطيبة، والرفقة والرحمة بالإنسان والحيوان مع اجتناب المحرمات وكبائر الإثم وصغائره.

تلك أصول عقيدة الإسلام التي تقوم على شريعة توحيد الله ونقض كل ما آمن به العرب في الجاهلية من آلهة متعددة وأصنام. وأحكم الإسلام الروابط بين أفراد الأسرة وأوصى بالرفق في معاملة المرأة وأن تقوم العلاقة بين الزوجين على أساس المودة والرحمة. وبينما لم تقس اليهودية والمسيحية نظام الرق أوصى الإسلام بتحرير الرقيق أو العبيد وجعله كفارة للذنوب الكبرى والصغرى مثل الحنث في اليمين.

ب - إسلام عمر

كان عمر بن الخطاب طويل القامة حتى كان يبدو وهو جالس مثل رجل واقف، وكان فتي شديد المراس مفتول العضل حاد الطبع سريع الغضب عطوفا لأهله، وكان شديد الأذى للمسلمين رجالا وإماء. فلما رأهم يهاجرون إلى الحبشة تاركين ديارهم وموطنهم أصابه اكتئاب شديد وغير قليل من الحزن تُصوره أم عبد الله بنت أبي خيثمة، قالت:

"كنا نُعد للرحيل إلى أرض الحبشة، وقد خرج عامر (زوجها) في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على - وهو على شريكه - قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا. فقال: إنه للانطلاق (أي للهجرة) يا أم عبد الله؟ قلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا. فقال: صحبكم الله. ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف، وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا؟ فقال: أطمعت في إسلامه؟ فقلت: نعم. فقال: لن يسلم أبدا. يأسا منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام والمسلمين".

وأثارت هذه الهجرة عمر وملائته سخطاً على الرسول الذى فرّق قريشا وحارب دينها وسبّ آلهتها، وحاول أن يتصدى له يوماً فى طريقه إلى المسجد الحرام فوجده قد سبقه إلى المسجد، فقام خلفه مستتراً منه، فاستفتح يتلو سورة الحاقة وعمر يسمع، فجعل يعجب من تأليف القرآن، وقال فى نفسه: هذا والله كما قالت قريش إنه شاعر، وإذا محمد يتلو فى السورة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ﴾ فقال عمر فى نفسه: إنه قول كاهن، فقرأ الرسول: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ إلى آخر السورة، قال عمر: فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع.

وفى إعلان عمر لإسلامه ثلاث روايات فى كتب السيرة: إحداها رواها ابن هشام عن ابن إسحاق فى سيرته، وهى التى اشتهرت. والروایتان الثانية والثالثة عن عمر نفسه، وأولاهما عند ابن هشام عن ابن إسحاق، وليست دقيقة والثانية عن أسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ، رواها ابن سيد الناس فى السيرة النبوية التى سماها: «عيون الأثر فى فنون الشمائل والمغازى والسير» وهى ذات سند وثيق ذكره بدقة ابن سيد الناس، ممن سمع الخبر عن أبى الفداء إسماعيل بن عبد الرحمن إلى أن انتهت بالسند إلى عمر عن طريق أسامة بن زيد؛ وهى لذلك تُعدُّ أوثق الروايات فى إسلام عمر، ومقدمة هذه الرواية تتفق مع مقدمة ابن إسحاق، غير أن مقدمة ابن إسحاق أكثر تفصيلاً. وهى تذكر أن عمر خرج من داره متوشحاً سيفاً يريد أن يقتل الرسول حتى تستريح قريش ويعود إليها اتّلاف جماعتها. وتتفق هذه الرواية لابن إسحاق مع رواية أسامة بن زيد المذكورة فى أن عمر لقيَ فى طريقه نعيم بن عبد الله - وكان مسلماً ويخفى إسلامه خوفاً من أذى قريش - وسأل عمر عن قصده وعرف منه ما عزم عليه، فقال له ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم، فقال له: وما ذاك؟ فقال نعيم: إن أختك فاطمة وزوجها ابن عمك سعيد بن زيد قد أسلما، فعليك بهما. فغضب عمر، وذهب إلى دار أخته وصهره ومعهما خباب بن الأرت يقرئهما فى رواية ابن إسحاق سورة طه، وفى رواية أسامة بن زيد أنه كان معهما رجلاً، يقرآن معهما

خباب بن
الأرت يقرئ
سعيد بن زيد
وزوجته

الصحيفة. ولما دنا عمر من الباب سمعوا حسه، فتغيب خباب أو تغيب الرجلان في غرفة، وعرف من أخته وزوجها أنهما أسلما فبطش بهما، وسال الدم من أخته فرقاً لها وقال أعطني الصحيفة التي كنتم تقرأونها، وكان كتاباً فأعطتها له كما في رواية ابن إسحاق، وكان فيها صدر سورة طه، وقالوا له أو قالت أخته: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل فقد أسلمنا. يقول عمر في رواية أسامة:

"فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير، ونظرت فإذا بكتاب في ناحية من البيت، فقلت لأختي: ما هذا الكتاب؟ فأعطني، فقالت له: لا أعطيكه لست من أهله، أنت لا تغتسل ولا تتطهر، وهذا لا يمس إلا المطهرون. ويقول عمر: ولم أزل بها حتى أعطني، فإذا فيه «سورة الحديد» فقرأت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فلما مررت بالرحمن الرحيم دُعرت ورميت الصحيفة من يدي، ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. يقول عمر: وكنت كلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل دُعرت ثم ترجع إلى نفسي إلى أن بلغت: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ. وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فخرج من كانوا مختفين، وكبر الجميع استبشاراً بما سمعوا مني وحمدوا الله، ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشِر فإن رسول الله ﷺ دعا فقال: اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين: إما أبو جهل بن هشام، وإما عمر بن الخطاب، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشِر. ولما أن عرفوا مني الصديق قلت لهم: أخبروني بمكان

قراءة عمر
لأول سورة
الحديد وشعره
بأنه في
الحضرة الإلهية

رسول الله ﷺ قالوا هو فى بيت فى أسفل الصفا وصفوه. يقول عمر: فذهبت إلى البيت، وقرعت الباب، فقيل مَنْ هذا؟ قلت: ابن الخطاب، وكانوا يعرفون شدَّتى على رسول الله ﷺ ولم يعلموا إسلامى، فلم يجزئ أحد أن يفتح الباب، فقال رسول الله ﷺ: افتحوا له، فإن يرد الله به خيراً يَهْدِهِ، ففتحوا لى، وأخذ رجلان بعضدى حتى دنوت من النبى ﷺ، فقال: أرسلوه، فأرسلونى (فأطلقونى) فجلست بين يديه، فأخذ بجميع ردائى، ف جذبنى إليه وقال: أسلم يا ابن الخطاب. اللهم اهده. فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فكبر المسلمون تكبيرة سُمعت بطرق مكة. وكان الرجل إذا أسلم استخفى أو ضُرب، فقلت فى نفسى: لا أحب أن لا يصيبنى ما يصيب المسلمين. وذهبت إلى خالى أبى جهل وقرعت الباب عليه فقال: من هذا؟ قلت ابن الخطاب، فخرج لى، فقلت له: أشعرت أنى قد صبأت (أى أسلمت) قال: نعم. ثم قال: لا تفعل. فقلت: بلى قد فعلت. فأغلق الباب دونى، وفى رواية أنه ضرب الباب فى وجهه، وقال له: قَبْحَكَ الله وقَبْحَ ما جئت به. وانصرف عمر فقال له رجل: أتحب أن يعلم الناس إسلامك؟ قلت: نعم. فقال له: إذا جلس الناس فى حِجْر الكعبة واجتمعوا أتيت فلانا (قيل جميل بن معمر) وكان معروفا بأنه لا يكتُم السر، فاقترَب منه، وقل له سرّاً إنك قد صبأت. قال: فلما اجتمع الناس فى الحِجْر دنوت من الرجل وأسردت إليه أنى قد صبأت، فرفع الرجل صوته عالياً إن عمر قد صبا، فاجتمع عليه القرشيون يضربونه وهو يضربهم.

وقال عبد الله بن مسعود: كنا نصلى فى شعاب مكة مستخفين، فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه. وقد عزَّ المسلمون بإسلامه وإسلام حمزة عم الرسول، وعرفوا أنهما سيمنعان الرسول ويتصفون بهما من قريش.

قصة الغرائيق

ذكر بعض أعداء الإسلام هذه القصة مع رجوع المهاجرين الأولين إلى مكة بعد ثلاثة أشهر من هجرتهم لما سمعوا من إسلام عمر وصلاته مع المسلمين في الكعبة، فظنوا أن قريشا راجعت نفسها ولم تعد إلى الخصام مع المسلمين. ودس بعض الزنادقة من أعداء الإسلام - كما قال ابن إسحاق في السيرة النبوية - قصة الغرائيق. وخلاصتها أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم وقد اجتمع إليه في الكعبة كثير من مشركي قريش وكفارهم، فلما بلغ قوله تعالى فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ تلاهما بقوله المكذوب عليه "تلك الغرائيق العُلا. وإن شفاعتهن لرتجى". واستعيرت الغرائيق لهذه الآلهة وهى من طير الماء. ومعاذ الله أن ينطق الرسول بهاتين الكلمتين فى وصف آلهات الوثنيين من قريش مثنيا عليهن هذا الشئ، وقائلا إنهن يشفعن للمذنبين عند الله، وهو إنما أرسل لهدم هذه الوثنية ونشر توحيد الله فى الأرض. فهل يُعقل أن يهدم بنفسه توحيد الله أساس دينه ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾. وتماذى واضعو هذه القصة فى كذبهم فقالوا إن الرسول حين أنهى السورة سجد وسجد معه القرشيون قائلين إنه ذكر آلهتنا بخير، إذ جعل لها نصيبا وهو الشفاعة، ونحن معه. وبذلك زال الخلاف بينه وبينهم. ويقولون إن ذلك شاع فى الناس حتى بلغ المهاجرين الأولين فى الحبشة فعادوا. وهى قصة مكذوبة وضعها بعض الزنادقة على الرسول كما يقول ابن إسحاق، إذ كيف يشيد بآلهة الوثنيين ودينهم الذى بُعث لنقضه وبطلانه، فضلا عن أنه نبي معصوم كما جاء فى سورة المائدة (الآية ٦٧). وكلمة الغرائيق جمع غرنوق، لم ترد على ألسنة العرب فى شعرهم الجاهلى، ومستحيل أن ينطق الرسول بالكلمات السابقة فينقض أساس دينه، وهو التوحيد لله جل شأنه الذى أرسل لنشره. وزعم واضعو القصة من أعداء الرسول والإسلام أن جبريل عاتبه وأن الله يقول فى ذلك:

نقض القصة

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ أَلْدَىٰ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا. وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ تَرَكْنَا إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾
والآيتان من سورة الإسراء، وهى عند الجمهور مدنية فلا علاقة لهما بمكة التى نزلت فيها سورة النجم؛ فكيف تُتخذ الآيتان دليلا على أن الرسول أضاف إلى سورة النجم ما زعموه من البهتان والضلال؟. ونفس السياق الذى ذكرت فيه آلهة قريش بالسورة يكذب هذا الافتراء، فقد كانت الآيات قبلها فى سورة النجم تتحدث عن الوحي بالقرآن الذى يدعو إلى توحيد الله، ثم ذكرت آلهتهم، وقال الله تعالى عقبها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أى الإيمان بوحداية الله. وهذا السياق للآيات فى سورة النجم يؤكد أن قصة الغرائق قصة كاذبة.

وحاول بعض المفسرين - غفلة - أن يربط بين قصة الغرائق الكاذبة وبين قوله تعالى لرسوله فى سورة الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾. ويرى ابن عباس أن سورة الحج مدنية، وإذن فلا صلة بينها وبين سورة النجم المكية. وقد زعم من ارتضوا القصة أن معنى ﴿تَمَنَّى﴾ فيها قرأ ومعنى ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فى قراءته، وبذلك يوجّه معنى عبارة: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى: إلا إذا تلا ما أوحى إليه ألقى الشيطان ما ليس فيه، والآية لا تدل على هذا التأويل البعيد. ومعناها الواضح أن الله جلّ شأنه - لم يرسل نبيا ولا رسولا ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ الخروج بقومه من ظلمات الجهالة والكفر إلى أضواء الهداية والإيمان بتوحيد الله ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ ما يوسوس به لقومه من رفض رسالته والكفر بها والضلال ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أى يزيله ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ التى أنزلها ويؤمن بها من

ربط بعض
المفسرين بين
القصة
وآية فى
سورة الحج

يهديهم إلى صراطه المستقيم. ويقول الله في الآية الثانية ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ من الوسوس ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى شك ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ من الكفار ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ من المشركين ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى لفى عدااء شديد للرسول. والآيتان ليس بينهما وبين فرية: "تلك الغرائق العلاء. وإن شفاعتهن لرتجى" أى صلة. ومع تلفيق أعداء الرسول للفرية، حاولوا تبريرها بأن الرسول كان يُشفق على أصحابه ويأسى لهم مما يلقون من تعذيب قريش لهم مما جعله يرشدهم إلى النجاة منهم بالهجرة إلى الحبشة. ولأن لقريش وتقرب إليها بما أضافه من قصة الغرائق إلى سورة النجم أملا فى أن تكف قريش عن إيذاء أصحابه. وكيف يفترى محمد على ربه هذه الكلمات الكافرة وقد أنزل عليه فى نفس الفترة سورة الحاقة، وفيها عن رسوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ أى لعذبناه وقطعنا منه الشريان التاجى فمات تَوًّا.

واتخذ بعض المستشرقين من قصة الغرائق الكاذبة برهانا قويا على صحتها زاعمين أن المهاجرين الأولين إلى الحبشة رجعوا من هجرتهم بعد ثلاثة أشهر، وما كانوا ليرجعوا لولا أنهم علموا بقصة الغرائق وتأكدوا من صحتها، وهو ظن المستشرقون والقصّة محمول على قصة كاذبة، والحقيقة أنهم رجعوا - كما قلنا - لما علموا من إسلام عمر وأنه قاتل قريشا حتى أرغمها على قبول صلاته وصلاة المسلمين معه فى المسجد الحرام، بعد أن كانوا يستخفون فى صلاتهم ببعض شعاب مكة. ومما يقطع بكذب هذه القصة وافترائها على الرسول قول الله له فى سورة المائدة: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فكيف يكون رسولا معصوما - كما أسلفنا - والشيطان يسيطر عليه ويرغمه على أن يدخل فى تلاوته لكلام الله كلام الشيطان؟ ورسالته إنما هى حرب عليه وعلى دين قريش والعرب الوثنى وأهنتهم وأصنامهم؟ وهى بلا شك قصة كاذبة ولا صلة بينها وبين الآيات التى ظن بعض المفسرين أنها تسندها؛ قصة وضعها أعداء الإسلام الذين يحاولون الكيد له فى كل عصر.

حصار الرسول والمسلمين في الشَّعْب

أخذت قريش تقلق قلقاً شديداً بعد إسلام عمر بن الخطاب وحزمة عم الرسول، وازداد قلقها حين أرسلت عمرو بن العاص وصاحبه إلى النجاشي في سفارته الثانية حين كثر المهاجرون إلى الحبشة، إذ هاجر إليها - كما مرّ بنا - ثلاثة وثمانون من المسلمين وكان معهم ثمان عشرة من النساء. وبينما سادة قريش مجتمعون يوماً في ناديهم، إذ أحدهم وهو عتبة بن ربيعة - يعرض عليهم أن يذهب إلى محمد ويفاوضه في أن يكف عن دعوته وسب آلهتهم ويعرض عليه أموراً ينظر فيها لعله يستجيب إليهم. وذهب إليه، وكان مما قاله للرسول: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به تشريفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك تابعا من الجن تراه ولا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ منه. وقال له الرسول بأدبه العظيم: هل فرغت يا أبا الوليد؟ فقال: نعم. قال: فاسمع مني. وتلا عليه الرسول صدر سورة فُصِّلَتْ، وقيل بل السورة جميعها، وانبهر عتبة بما سمع من القرآن المعجز بآياته، ورجع إلى قومه يقول: والله ما هو بساحر ولا شاعر ولا كاهن. ولم يرفقهم قوله ولا رأيه: أن نترك للعرب محمداً فإن تغلب عليه العرب استزاحت قريش منه، وإن تغلب على العرب فلقريش فخاره. ولم يعجب قريشا رأى عتبة، وعادت إلى عداة أصحابه وإيذائهم. واشتد قلقها إذ قد يدفع المسلمون الكثيرون المهاجرون إلى الحبشة النجاشي إلى غزو مكة على نحو ما حاول أبرهة والى الحبشة على اليمن - من قبل - غزوها.

سفارة عتبة
ابن ربيعة
إلى الرسول

وظلت قريش تفكر في أمر محمد وأتباعه الذين يزدادون يوماً بعد يوم وأبو طالب وبنو هاشم يحمون محمداً، وهو مستمر في إفساد أبنائهم ونسائهم عليهم

مقاطعة الرسول
وأصحابه

كما يقولون. واستقر رأيهم على أن يبعدوا محمداً عن مكة حتى يحولوا بينه وبين إقبال الناس على دينه، وأخذوا يتشاورون في ذلك، وانتهى رأيهم إلى مقاطعته ومقاطعة من يحمونه من بنى هاشم وبنى المطلب، فلا يتزوج أحد منهم من قريش، ولا يتزوج أحد من قريش منهم، وأن تعمل قريش على جوعهم فلا يبيع أحد منها شيئاً لهم ولا يشتري منهم شيئاً، وقالوا إنه لا بد من حصارهم وحصر النبي معهم في مكان منعزل عن مكة بحيث لا يلقي من يؤثر فيهم ويتبعونه، ورأوا أن يكون المكان شعب أبي طالب في الجبال خارج مكة، واتفقوا على أن يكتبوا بذلك صحيفة يُسجّل فيها هذا العقد ويُعلّق في جوف الكعبة توكيداً له وتوثيقاً. وبمجرد أن علقت قريش الصحيفة في جوف الكعبة انحاز بنو هاشم وبنو المطلب ومعهم الرسول إلى شعب أبي طالب، ولم يدخل معهم في الشعب أبو لهب بن عبد المطلب، فقد بقي مع قريش بمكة مظاهراً لها ضد الرسول وعشيرته من بنى هاشم.

وكان في الصحيفة أن لا يقبلوا من الرسول وبنى هاشم وبنى المطلب صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة. وضيقت قريش عليهم الحصار وشددته وقطعت عنهم الأسواق، حتى يجيعوهم ويضطروهم إلى تسليم الرسول لهم. وظلت على هذا الحصار سنتين وقيل ثلاثاً. وكان أبو طالب يخاف طوال هذا الحصار على رسول الله من أن أراد به شراً أو غيلة، فإذا نام الناس أمر أحد بنيهِ أو إخوته أو بني عمه أن ينام في فراش الرسول، ويأمر الرسول أن ينام في فراشهم.

قرشيون
يساعدون
المحاصرين

وشعر بعض رجال من قريش بما أنزلت بالرسول وعشيرته من بلاء شديد، فكانوا يرسلون إلى هؤلاء المحاصرين ما يستطيعون من الطعام، وكان ممن يأتيهم هشام بن عمرو فكان يحمل بعيراً طعاماً كثيراً ليلاً ويتجه به إلى الشعب، ويخلع الخبل الذي يسحبه به ويدفعه إلى أول الشعب فيأخذ المحاصرون ما يحمل من الطعام. وعلمت بما يصنع قريش فأغلظت له القول، ويقال أن أبا سفيان قال لهم: دعوه؛ رجل وصل آله ورحمه، ولو فعلنا مثلما فعل لكان خيراً لنا. وممن كان يصنع صنيعه بحمل الطعام سراً إلى المحاصرين حكيم بن حزام، ورآه أبو جهل

ومعه غلام يحمل طعاما للسيدة خديجة في الشعب، فقال له: أتذهب بطعام لبنى هاشم في الشعب، لا بد أن أفضحك بمكة، وحضرهما أبو البخزري بن هشام فقال لأبى جهل: مالك وماله؟ طعام كان لعمته خديجة عنده، نخل سيله. وتشاتما.

وكان هشام بن عمرو أكثر قريش ضيقا بما يحدث للرسول وبنى هاشم وبنى المطلب من هذا الحصار الشديد، فذهب إلى زهير بن أبى أمية، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: أيرضيك أن تأكل الطعام وتلبس ما تشاء من الثياب وتتزوج النساء، وأخوالك - كما تعلم - لا يتسعون شيئا ولا يشتري منهم شئ ولا يتزوجون من قريش ولا يتزوج أحد منهم؟ ولو كانوا أخوال أبى جهل ثم دعوته إلى ما دعاك إليه في أخوالك ما أجابك إليه أبدا. وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة وأن يستعينوا في ذلك بمن يقنعونه سرا بنقضها، واتفق معهما على نقضها المطعم بن عدى وأبو البخزري بن هشام وزمعة بن الأسود. وغدا زهير فطاف بالكعبة سبعا ثم نادى في الناس: يا أهل مكة أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى لا يشترون ولا يبيعون شيئا، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة، فصاح به أبو جهل، وأيد زهيرا أصحابه: هشام ابن عمرو والمطعم بن عدى وأبو البخزري وزمعة، وقام المطعم فأحضر الصحيفة وشقها فوجد الأربعة قد أكلتها إلا فاتحتها: "باسمك اللهم". ورضيت قريش بصنيعهم، وعاد الرسول وأبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب إلى دورهم في مكة وباعوا واشتروا في أسواقها، وظل الفريقان من قريش ومن الرسول وصحبه على موقفهما قبل المقاطعة.

فك الحصار

الفصل السابع

مواقف قريش وأحداث مختلفة

١

مواقف قريش

مضى رسول الله ﷺ في دعوة قريش إلى الإسلام، وظلت تُنزل بمن يُسلمون الأذى، وظلت تلج فيما هي عليه من الكفر والضلال، والرسول ﷺ لا يئأس من هداهم، مما جعله يتلو عليهم مرارًا وتكرارًا آيات القرآن الكريم التي تدفع من يستمع إليها ويتدبرها إلى اعتناق الإسلام. وكان المصمّمون على الكفر منهم يُعرضون عن الاستماع إلى الرسول، ويقولون له: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ أَىٰ أَغْطِيَةٍ﴾ ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ فينبه وبينهم حجاب ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أَىٰ صمٌّ فهم لا يسمعون، ويقول الله بعد ذلك في نفس سورة فصلت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. والآية تسجل على أئمة الكفر القرشيين: أنهم كانوا لا يزالون يبهون عامة الكفار من حولهم أن يستمعوا إلى القرآن خشية أن ترقّ قلوبهم عند سماعه، وينصحوهم أن يقابلوه بلغو وأصوات تغمر صوت الرسول ﷺ حتى يصرفوا عن الرسول من في قلوبهم بقية من رشد، فكانوا يصفّرون ويصيحون على الرسول، ظنا منهم أنهم يستطيعون بذلك صرف من يتأثر بالقرآن ويعلن اتّباعه للرسول. وباء عملهم بخسران مبین، إذ ظل كل يوم أو من يوم إلى يوم يداخل القرآن قلوب من يستمعون إليه ويؤمنون بالله ورسوله.

وحارت قريش في أمر الرسول، وألحَّت عليه وعلى أصحابه في تعذيبهم وهو ثابت على عقيدته، وبالمثل أتباعه لا يتزحزون عنها، وعادوا فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة سفيرا بعروض كبيرة من المال ومن الإمارة على مكة والمكة، وهو يرفض جميع صور الإغراء مهما عظمت، مُتمسك أقوى تمسك برسالته، حتى يقول لعمه أبي طالب - كما مر بنا - : "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت الدعوة إلى دين الله"، فقد آمن بأن ما كلفه الله من تبليغ هذا الدين للناس لا يجوز أن يقبل فيه أى مساومة، وأنه لن يجيد عنه مهما نزل به من الخن والخطوب، ومهما أغرته قريش بعروضها وأموالها. ويقول الله مصورا صلابة موقفه إزاء عروضهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وهو تهكم بهم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ذى الجلال وإنه لأجر عظيم.

وكان من كبراء قريش الكافرين خمسة يهزأون بالرسول ويسخرون منه كلما تلا القرآن هم الوليد بن المغيرة والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والعاصي بن وائل والحارث بن غيطلة، فانزل الله على رسوله تسليية له آية سورة الرعد: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، فإنه أملى الخمسة أى أمهلهم، إذ ماتوا جميعا قبل هجرة الرسول إلى المدينة بضروب من البلاء والعمى كما فى كتب السيرة عقابا لهم. وكرّر الله هذه التسليية للرسول فى سورتي الأنعام والأنبياء قائلا فيهما: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. والله جل شأنه يقول إن الاستهزاء بالرسول قديم، وذكر له استهزاء قوم نوح به فى قوله عنه: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ وكفاه الله عنهم بما سلط عليهم من الإغراق.

المستهزئون
بالرسول

ورأت قريش أن كل ما تتخذه ضد الرسول وأصحابه من إيذاء لا يجدى ولا يفيد فى رده عن الدعوة لدين الله، فعمدت إلى تحديه بطلب معجزات منه لا يستطيعها البشر، من مثل معجزات موسى وعيسى. وعن ابن عباس أن كفار قريش من مثل أبى جهل وابن أبى أمية جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبى

طلب معجزات
حسية من
الرسول

ﷺ قائلين له: اسأل ربك أن يوسع جبال مكة، ويسيرها بعيدا عنها حتى تتسع أرضنا فإنها ضيقة ونزرعها، أو قرب إلينا الشام فإننا نتجر إليها، أو أخرج قُصَيًّا من قبره نكلّمه. فأنزل الله على رسوله قوله في سورة الرعد: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لَّهَ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، والله يرد عليهم بأنه لم ينزل على رسوله قرآنًا يسير الجبال أو يحيل أرضا به قطعا مزروعة أو يحيى موتى ويكلّمهم. وكل ما يكون أمره بيد الله، ولو شاء إحداث أى شئ لفعله. ويذكر الله عددا من المعجزات طلبها كفار قریش من الرسول تعجيزا له في سورة الإسراء، يقول: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَالًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾؛ وهم بقولهم ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ يريدون التهكّم على الرسول.

وأول معجزة طلبوها حتى يصدّقوه في زعمهم شقُّ أرض مكة بحيث يتفجر منها نبعٌ كبير يسقى أهل مكة جميعا، وطلبوا منه معجزة ثانية لا تخصهم بل تخص الرسول، إذ طلبوا إليه أن تكون له جنة مكتظة بالنخيل والعنب، ويفجر فيها الأنهار، ونحن لا نبتغي ذلك لأنفسنا وإنما نبتغيه لك. وانتقلوا من طلب معجزتين فيهما نفع لهم وللرسول إلى معجزة تضرّهم ضررا شديدا، وهى أن يسأل الله أن يسقط عليهم كِسْفًا أى قطعا من العذاب، كما قال - جلّ شأنه - ﴿إِنْ نَّشَأْ لَّخَسِفَ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ يُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾. ومعجزة رابعة طلبوها من الرسول أن يأتى لهم بالله وجماعة من الملائكة. ومضوا في تحدّثهم وطلبوا إليه أن يكون له بيت جميل مزخرف. وآخر ما طلبوه فى الآيات من معجزات أن يرقى فى السماء ويصعد فيها وينزل عليهم منها كتابا يقرءونه يشهد له بأنه بلغ السماء، وفى السيرة أن قاتل ذلك ابن عمته عبد الله بن أبى

أمية. والمعجزات المطلوبة تحمل صورا شديدة من التهكم بالرسول، ويعلمه الله أن يردّ عليهم بقوله متعجبا منهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ إني لشديد التعجب مما تطلبونه مني فكيف أصنع في الأرض ما ليس فيها من ينبوع وجنة وأنهار وبيت مزخرف، وكيف أسقط عليكم كسفا من السماء، وكيف آتى بالله والملائكة، وهل أنا إلا رسول وبشر مثلكم. وإذا كانوا حقا مخلصين فأمام أبصارهم وأسماعهم معجزة القرآن التي ليس لها سابقة ولا لاحقة في تاريخ الإنسانية، وقد تحدّاهم الله مرارا وتكرارا أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا عجزا تاما لبيانه وبلاغته. ويقول الله لرسوله لو أيّدناك بمعجزات مادية - كما يريدون، كما حدث على يد موسى من مثل شق البحر لنجاة قومه وغير ذلك من آياته التسع المذكورة في سورتي الأعراف والإسراء وكما حدث لعيسى من إحيائه الموتى - لكذبوك كما كذب الرسل السابقين أقوامهم؛ وفي سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وفي نفس السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أى مواجهة ومعابنة ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، ولذلك اختار الله لرسوله أن لا يكون الإقناع بدينه قائما على معجزات مادية إنما يكون قائما على العقل وتدبر آيات القرآن وآيات الكون الربانية (كما أوضحنا ذلك في كتابنا الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة). وإن ذلك لما يزيد الرسول على الرسل السابقين عظمة فوق عظمة. ومما يعلى من شأن الرسول حقا بالقياس إلى سابقيه من الرسل أنه ظل طوال رسالته يعلن أنه بشر وأنه لا يعتمد على معجزات مادية في إثبات رسالته، ودائما يردد أنه ليست له صفات إلهية أو قدسية، إنه بشر مثل أى بشر من معاصريه، بشر يردد ما أوحاه الله إليه من كلامه وأوامره ونواهيه. وكان ينهى أصحابه عن أن يقوموا له إذا خرج عليهم أو يعظموه بأى صورة من صور التعظيم، وكان يقول: "لا تثنوا علىّ كما أثنت النصارى على ابن مريم وقالوا إنه ابن الله، إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد"، كما أسلفنا، فكان لا

معجزة القرآن

الرسول بشر

يستشعر أى عظمة أو تجلة أو قدسية. وهذه إحدى الفروق التى تفصل بين دين الإسلام ودين اليهودية الخرفة التى تقدرس الأخبار وتقول "عزيز ابن الله"، ودين النصرانية الخرفة التى تقدرس الرهبان وتقول "عيسى ابن الله"؛ والإسلام بذلك ينهى عن عبادة الأشخاص وقدسيته.

وكان فى قريش شيطان يسمى النضر بن الحارث كان يعادى رسول الله. وفى السيرة لابن هشام أنه كان قد قدم الخيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار (من أبطالهم)، فكان إذا تلى عليه القرآن قال: (أساطير الأولين). وكان إذا جلس رسول الله مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه مما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا - والله - يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلّموا إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا منى؟. وأرسلته قريش مع عقبة بن أبى معيط إلى أخبار يهود المدينة ليقتصا عليهم أخبار الرسول ويسألهم عن رأيهم فيه لما لهم من العلم بالأنبياء وكتبهم، فقلدما المدينة وسألا أخبار اليهود عن الرسول ووصفا لهم أمره وأخبارهم ببعض قوله، فقالوا لهما سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟، وسلوه عن الروح ما هى؟ فإن أخبركم بهن فهو نبي وإن لم يفعل فهو متقول. وعاد النضر وعقبة وأخبرا قريشا بما قاله أخبار اليهود، وجاءت الرسول جماعة منها، فسأله عن هذه الثلاثة، فأجلهم إلى الغد وغاب عنه الوحى خمسة عشر يوما ثم جاءه بسورة الكهف، وفيها الجواب عن الفتية وهم أهل الكهف، وتشغل فيها قصتهم الآيات من التاسعة إلى السادسة والعشرين، وفى آخر السورة قصة الرجل الطواف، وهو ذو القرنين. وأما الروح فأنزل الله فيها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، غير أن هذه الآية فى سورة الإسراء النازلة على الرسول قبل سورة الكهف؛ وبذلك

إيداء النضر
ابن الحارث
للرسول

إرسال
النضر وعقبة
لأخبار اليهود

ترجّح هذه الرواية رواية أخرى عن ابن إسحاق، قال السهيلي في الروض الأنف أنه ذكر فيها أن رسول الله ﷺ قال لقريش حين سأله عن الروح هو جبريل وقد ذكر في القرآن مراراً بهذا الاسم وهو من ألقابه.

وكان بمكة غلام رومي نصراني كان مولى لعامر بن الحضرمي اسمه جبريل كان يصنع للقرشيين السيوف، وكان يقرأ من الإنجيل بعض دعائه، وكان قد أظهر الإسلام، وكان الرسول حين قاطعته قريش يجلس إليه أحياناً ليعرفه ببعض تعاليم الإسلام، فعكس الموقف بعض القرشيين، فقالوا إنه يعلم الرسول ما يقوله من القرآن، وأنكر الله عليهم هذا الاتهام الكاذب قائلًا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ أي يميلون عن الحق ﴿إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا﴾ أي القرآن ﴿لِّسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وهو تمويه كاذب لا يمثله تمويه.

ومن عناد بعض القرشيين ومكابرتهم وصفهم للرسول بأنه ليس من عظماء القريتين: مكة والطائف، وهو لذلك لا يستحق في رأيهم أن يكون رسولاً يُنزل عليه القرآن كما حكى الله عنهم بقوله في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ أي هلاً ﴿نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾. ويُقال إن الرجلين اللذين كانا يقصدانهم الوليد بن المغيرة المخزومي عظيم مكة وعروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف، ورد الله عليهم موجهها الخطاب إلى الرسول تأنيساً له ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ متهمينهم بأنهم يستخفون بالرسول، وكأنهم يجعلون اختيار الرسل بيدهم، وإنما هو الله الذي يختار من يشاء رحمة بعباده، إذ هو صاحب الأمر كله والتدبير، ويقول: ﴿لَنَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ﴾ ودبرناها فمنهم أقوياء وضعفاء وأغنياء وفقراء ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا﴾ بحيث يصبح مسخراً له. ويختتم الآية بقوله: ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ﴾ في اختياره لك لخاتمة رسالاته ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الأموال التي يجعلونها معيار عظمة الرجال. ومجمل معنى الآيات أنهم إذا كانوا لا

تهكم القرآن
بقريش

يقسمون معيشة الناس فكيف يقسمون رسالات الرسل ويختارون لها من يشاءون؟ وهو تهكم واضح في استخفافهم بالرسول. وإنما عرضنا هذه المواقف المختلفة لقريش ضد الرسول ﷺ ليتضح مدى عنادها وطغيانها وتحديها له، ومدى صبره على شياطينها - من أمثال النضر بن الحارث - وعلى دعاويها الكاذبة.

٢

وفاة أبي طالب وخديجة

توفي أبو طالب وخديجة في عام واحد، وكانت وفاتهما بعد عشر سنين مضين من المبعث قبل مهاجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين. توفي أبو طالب في أول ذى القعدة وتوفيت بعده خديجة بثلاثة أيام، وقيل غير ذلك. ولما اشتكى أبو طالب وأشرف على نهاية أجله قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه عهدا وليعطه منا عهدا، فإننا والله ما نأمن أن يتزونا أمرنا. ومشى بعض كبرائهم إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرنا ما ترى وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعنا وخذ لنا منه، وخذ له منا، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه. فبعث إليه، فقال له: يا ابن أخي هؤلاء أشرف قومك: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب، وقد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: يا عم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم. فقال أبو جهل: نعم، وأبيك وعشر كلمات. قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا، إن أمرك لعجب. ثم قال بعضهم لبعض: والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما

تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا، فقال أبو طالب للرسول: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا. فلما قال ذلك طمع رسول الله ﷺ في إسلامه ونطقه بشهادة التوحيد، فجعل يقول له: أى عمى فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة، فقال له: يا ابن أخي والله لولا مخافة السبِّ عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أنى إنما قتلها جزعا من الموت لقلتها لأسرك بها. ولما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال له الرسول: يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ ولم يزل رسول الله ﷺ يعرض شهادة توحيد الله عليه، وأبو جهل وابن أبى أمية يعرضان عليه مقاتلتهما حتى كان آخر ما تكلم به: إني على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال الرسول أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنزل الله عليه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾. ونزل على الرسول ﷺ فى أبى طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

أبو طالب
عند الوفاة

ولم تنزل بالرسول هذه الفاجعة وحدها، فبعد ثلاثة أيام من وفاة أبى طالب توفيت زوجته خديجة التى أحبته حبا صادقا منذ زواجه بها وأخلصت له إخلاصا لا يماثله إخلاص. ولما نزل عليه الوحي وجاءها منزعا أشد الانزعاج قالت له: أبشر يا ابن عمى واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنك لنبي هذه الأمة ولن يخزيك الله أبدا. واستحالت له وزيرة تشد أزره فى رسالته، وتحمل معه اضطهاد قريش له، وظلت - حتى أنفاسها الأخيرة - تؤازره بكل ما تستطيع من عطف. وكان الرسول - منذ تزوجها - يكنُّ لها حُبًّا عميقا، وظل يذكرها بعد وفاتها ويعطف عطفًا شديدا على كل قريب أو قريبة لها. وهى مثال فريد للزوجة الحصيفة الراجحة العقل والفكر، ويكفى فخرا لها أنها منحت الرسول الثقة فى رسالته التى يدين بها واحد من كل خمسة فى العالم اليوم، وبدون ريب كانت

وفاة خديجة

عام الحزن

السيدة الأولى في حياته ذات الأفضال الكثيرة عليه. وحزن الرسول عليها وعلى عمه أبى طالب حزنا شديدا وسمى عام وفاتهما عام الحزن الذى فقد فيه خديجة ملاك الحب والبر والطهارة، التى كانت تهوّن عليه كل ما يلُمُّ به من أزمات وخطوب، والثى كانت تضى على من إيمانها ما يزيده عزيمة صادقة، كما حزن على فقد عمه أبى طالب الذى كان سندًا له وملاذا وجَمَى ضد خصومه القرشيين.

ولما توفى هذان النصيران العظيمان اشتد أذى قريش على الرسول وأصحابه، من ذلك أن سفيها من سفهاء قريش اعترضه فى مسيره ورمى على رأسه ترابا، فدخل إلى داره والتراب على رأسه، فقامت إليه ابنته فاطمة وأخذت تغسل عنه التراب وهى تبكى، وتوجّه إليها متأثرا، وقال لها: لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك وحافظه.

٣

الخروج إلى الطائف

كثر إيذاء قريش للرسول وأصحابه بعد وفاة أبى طالب وخديجة، ففكر أن يتجه بدعوته إلى ثقيف بالطائف ملتصقا منها النصرة على قريش وآملا أن تدخل فى دين الله. ولم يلبث أن خرج إليها وحيدا منفردا لا يعلم بخروجه إليها أحد فى شوال من السنة العاشرة من المبعث، والشُّقَّة بين مكة والطائف ليست قريبة بل بعيدة إذ تبلغ أكثر من خمسين ميلا، وقطعها رسول الله ماشيا على قدميه حتى لا تعلم قريش مقصده. وكانت الطائف حينذاك مقر عبادة اللات، وكانت تعظم صنمها، وجعلت له بيتا وسدنة، وكانت قريش وكثير من العرب يعظمونه، وكانت بين قريش وثقيف صلات مصاهرة ورحم متبادلة وكان سادة مكة يصيِّفون بها لارتفاعها وكان لبعضهم فيها بساتين وحدائق.

ونزل رسول الله ﷺ الطائف، وقصد نفرا من ثقيف هم سادتها وأشرافها وهم ثلاثة إخوة من أبناء عمرو بن عمير بن عوف، وهم عبد ياليل ومسعود وحييب، وعند أحدهم زوجة من قريش من بنى جحج، فجلس إليهم، وكلمهم فيما جاء له من دعوتهم إلى الإسلام ونصرته على من خالفه من قومه، فأغلظوا له فى الكلام، وقال له أولهم ساخرا إنه يهلك ثياب الكعبة إن كان الله أرسله، وقال الثانى: ما وجد الله أحدا يرسله غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولا من الله - كما تقول - لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغى أن أكلمك. فقام رسول الله من عندهم يائسا من دخول ثقيف فى الإسلام، وخشى أن يُعلموا قريشا بما كان من أمره، فتقدم إليهم راجيا أن يكتموا عليه ما كان بينه وبينهم من دعوته لهم إلى الإسلام ونصرته ضد قريش. ويبدو أنهم كانوا حريصين على إذاعة الأمر إرضاء لسادة قريش، وقد أسرعوا فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وقعدوا له صقن على طريقة، فلما سار بين صفيهم محاولا المرور جعل لا يرفع رجلا عن الأرض ولا يضعها إلا رشقوها بالحجارة حتى دُميت رجلاه وتخطبت نعلاه بالدماء، وكان إذا أزلقته الحجارة قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى عادوا إلى رجمه بالحجارة ضاحكين. وخلص منهم، ورجلاه تسيلان دما، واحتفى منهم ببستان من بساتين الطائف، فاستظل منه بشجرة وهو مكدود موجع، وكان البستان ملكا لعتبة وشيبة ابني ربيعة، ورآهما فيه، فكره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله، ولما اطمأن فى مكانه اتجه إلى ربه بالدعاء ضارعا شاكيا قائلا: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة هيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى، أو إلى عدو ملكته أمرى. إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".

دعاء الرسول
ربه

وأثر منظره وما أصابه من الإعياء والتعب في صاحبي البستان: عتبة وشيبة ابني ربيعة وتحركت له الرحمة في نفسيهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قِطْفاً (عنقوداً) من هذا العنب فضعه في طبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. فصعد بأمرهما وأقبل بالطبق حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، وقال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: "بسم الله" ثم أكل. فنظر عدّاس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت يا عدّاس؟ وما دينك؟ فقال له: أنا نصراني من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ: من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متى، قال له عدّاس: ما يدريك ما يونس بن متى، فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي كان نبياً، وأنا نبيّ، وأخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس. فأكبَّ عدّاس على الرسول يقبّل رأسه ويديه وقدميه. ولما جاء عدّاس عتبة وشيبة ابني ربيعة قالوا له: ويلك مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ فقال لهما: ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبيّ، فقالا له: ويحك يا عدّاس لا يصرفك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

عدّاس
والرسول

وانصرف الرسول من الطائف يائساً من قبول ثقيف للإسلام، وأخذ طريقه إلى مكة، ولما انتهى إلى جبل حراء أرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي ليحيره حتى يبلغ رسالة ربه، وأجاره، فدخل مكة، وأقام بها، وجعل يدعو إلى الإسلام. وفي حديث لعائشة أم المؤمنين أنها قالت لرسول الله ﷺ بعد يوم أُحُد هل أتى عليك يوم أشد من يوم أُحُد؟ فقال لها: "لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت يوم ثقيف، إذ عرضت نفسي على عبد ياليل، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب (موضع بين مكة والطائف) فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث الله لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك

الجبال، فسلم على وقال: يا محمد أنا ملك الجبال وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بما شئت، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: لا بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يُشرك به شيئاً. وإن فى هذا الرجاء ما يصور عظمة الرسول ورحمته بأمته وبخلق جميعاً، وشهد الله بذلك له، إذ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. وكان كلما اشتدت عليه قريش بالأذى تضرع إلى ربه قائلاً: "اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون".

٤

الإسراء والمعراج

أ - الإسراء

أُسْرِى ليلاً برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وذكرت روايات متعددة فى هذا الإسراء أن جبريل أتى للرسول بالبراق ذات ليلة - وهى الدابة التى كان يحمل عليها الأنبياء قبله، وحين كانت ترفع حافرهما فى مسيرتها تضعه فى منتهى طرفها - فحملته، وسارت به وجبريل يريه آيات الله فيما بين السماء والأرض، والبراق يسبح فى الهواء حتى أمره جبريل بالهبوط، فهبط على جبل سيناء الذى كلم الله موسى عليه، وصلى به الرسول، وارتحل ثانية على البراق، وبعد قليل أمر جبريل البراق بالهبوط، فهبط فى بيت لحم حيث ميلاد عيسى، وصلى الرسول، ثم استأنفت الرحلة، وأمر جبريل البراق بالهبوط، فهبط فى بيت المقدس، ووجد فيه الرسول إبراهيم الخليل وموسى - فى بعض الروايات - ورحباً به وصلى بهما. ثم أتى بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه حمر، وإناء فيه ماء. قال رسول الله ﷺ: فسمعت قائلاً يقول حين عرضت الآنية على: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الحمر غوى وغويت أمته، وإن أخذ اللبن هدى وهُديت أمته، فأخذت إناء اللبن فشربت منه، فقال لى جبريل عليه السلام: هُديت وهُديت أمتك يا محمد. وعاد إلى مكة فى

رحلة الرسول
على البراق إلى
بيت المقدس

نفس الليلة. فلما أصبح أخبر الناس بإسرائه ليلاً، فكذبته قريش، وافتن بعض المسلمين فارتدوا، وذهب رجال من قريش إلى أبى بكر، فقالوا له: إن محمدا يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس ثم رجع فى ليلة واحدة، فقال أبو بكر لهم: أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لمن كان قال ذلك لقد صدق، إني أصدق به بأبعد من ذلك، أصدق به بخبر السماء. وبذلك سُمي الصديق، ويقول الرسول لما كذبه سألوه عن المسجد الأقصى فجلاله الله له وجعل يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه.

وأنزل الله فيمن ارتد عن الإسلام قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، وكذب بعض المستشرقين رحلتى الإسراء والمعراج وقالوا إنهما خرافة؛ متناسين أنهما معجزتان ربانيتان لرسول الله، وقد أشار القرآن إلى رحلة الإسراء فى مطلع سورتها قائلًا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وكلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ فى أول الآية تدل على أنه سليلها شئ عجيب وهو هذا الإسراء فى ليلة واحدة، والمسجد الأقصى هو بيت المقدس، وبارك الله حوله بمن نزل به أو كان فيه من الأنبياء والرسل، وصلى بهم الرسول جميعاً.

واختلف بعض الصحابة وعلماء المسلمين فى هذا الإسراء هل كان بالروح فقط أو كان بالروح والجسد. وكانت عائشة أم المؤمنين تؤكد أن إسراء الرسول إنما كان بالروح وحدها، وكان معاوية يرى رأيها ويقول إنها كانت رؤيا من الله صادقة. وكلمة رؤيا يراد بها غالباً الحلم لا رؤية المشاهدة بالبصر. وحلم الأنبياء يُعدُّ وحياً كما قالت السيدة عائشة حين سُئلت عن الوحي ونزوله على الرسول، قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة أى الحلم الصادق. وقد نعتها الله فى آية المرتدين السالفة بأنها الرؤيا التى فُتِنَ بها بعض المسلمين وارتدوا. وذهب ابن عباس وكثيرون من علماء الأمة إلى أن هذا الإسراء للرسول كان بالروح والجسد معاً فى ليلة واحدة، ولا جناح على من

الإسراء بالروح
أم بالجسد؟

يرى الرأى الأول أو الرأى الثانى. ويشهد العلم فى عصرنا لصحة الرأين، أما الرأى الأول فيشهد له التنويم المغناطيسى الذى يجعل الإنسان فى نومه يتحدث عن أشياء حادثة فى جهات بعيدة، فما بالك برسول وحُلمه وهو درجة من الوحي إليه كما قالت السيدة عائشة. وأما الرأى الثانى فيشهد له علميا انتقال الأصوات فى عصرنا بنفس اللحظة على الأثير برقيا وإذاعيا وتليفزيونيا، فضلا عن الرحلات الفضائية إلى القمر، ومن الممكن فعلا أن تتحقق الرحلة من مكة إلى بيت المقدس، وما أقصرها رحلة بالقياس إلى رحلات الطيران فى العصر الحاضر فضلا عن رحلات الفضاء. لذلك ليس ببعيد أن يخصَّ الله رسوله بهذه الرحلة فى ليلة واحدة لتشهد على وحدة الديانات السماوية وميراث الرسول لها جميعا فى دينه الحنيف.

ب - المعراج

المعراج صعود الرسول ﷺ إلى السموات السبع، وبعض الأحاديث تجعله مع الإسراء فى ليلة واحدة، فبعد وصوله إلى المسجد الأقصى وصلاته فيه صعد به جبريل إلى السموات السبع. وبعض الأحاديث تفصّله عن الإسراء وتجعله فى ليلة مستقلة، وكان أهم ما حدث أن جبريل استفتح بالسماء الأولى الدنيا ولقى فيها الرسول آدم فرحّب به، ورأى النار. ولقى فى السماء الثانية ابنتى الخالة: عيسى ويحيى ورحّبا به. وفى السماء الثالثة لقى داود وملك الموت وخازن الجنة ويوسف. وفى السماء الرابعة لقى إدريس وملكك ييكى خطايا الناس. وفى السماء الخامسة لقى هارون ورأى ملك النعمة، وفى السادسة لقى موسى ورأى حارس السموات والأرض، وفى السابعة لقى إبراهيم، وكل هؤلاء الرسل رحّبوا به. وتختلف الأحاديث فى أسماء الأنبياء الذين لقيهم الرسول فى السموات السبع. وانتهى إلى موضع يُسمع فيه صرير وأصوات أقلام القادر ورأى سدرة المنتهى التى تنتهى عندها المعرفة الإنسانية، ورأى جبريل فى صورته الملائكية، وانتقل إلى مرحلة كاد يفقد فيها عقله. ورأى الجنة ووصل إلى العرش، وفرض

سدرة المنتهى

الله فيها على أمتة خمسين صلاة يوميا. فراجعهم موسى في نزوله وقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك واسأله التخفيف عن أمتك، فخفف عنه عشرا، وظل موسى يدفعه إلى أن يطلب التخفيف من ربه حتى أصبحت فرائض الصلاة خمسا كل يوم، رحمة من الله ولطفًا بعباده المسلمين.

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه، وهو رمز لفضله وفضل دينه على ديانات الأنبياء السابقين. ويقول الله في سورة المائدة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فهو مصدق لشريعة النصارى واليهود في التوحيد وبعض الأحكام التي لا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأمم، وهو مهيمن على التوراة والإنجيل إذ يرفع عن أصحابهما الأوامر والنواهي الشاقة.

وكانت السيدة عائشة تقول في المعراج ما قالته في الإسراء من أنه كان بالروح فقط. واختلف العلماء هل كان بالروح فقط أو كان بالروح والجسد. المعراج بالروح
أم بالجسد؟
ومما جعل بعض القائلين يقول بأنه كان بهما جميعا شهادة آيات سورة النجم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. قالوا إن هذه الآيات تدل على أن الرسول ﷺ رأى الله ظنا منهم أن شديد القوى هو الله وأن الرسول رآه في ليلة المعراج، والآيات إنما هي في وصف جبريل عليه السلام، والله فيها يقول إن القرآن وحى ينزل على الرسول علمه له ملك ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وهو جبريل، ويصفه بأنه ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أى قوة ﴿فَاسْتَوَى﴾ جبريل أى أنه قام بعزيمة لتلقى كلام الله ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ أى في ناحية من جَوِّ السماء ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أى قرب من الرسول ﴿فَتَدَلَّى﴾ أى هبط عليه حتى كان ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أى على مسافة قوسين ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ أى أو أقرب. وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة المعراج، ولم يكن النزول فيها بالسماء. وكان أولى بالقائلين بأن المعراج كان بالروح والجسد معا أن يستشهدوا برؤية ثانية لجبريل ذكرها الله عقب الآيات السابقة في سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أى جبريل

﴿نَزَلَتْ أُخْرَى﴾ أى فى مكان آخر ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾، ويمكن أن يكون المنتهى المكان الذى لم يتجاوزه الرسول. ويقول الله - جلَّ شأنه -: عند السدرة ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ أى مأوى المتقين ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ من الألوان والأضواء. وعندها أبلغه جبريل فرائض الصلوات التى تقررت حمسًا، ويقول الله ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ من الرسول ﴿وَمَا طَغَى﴾ فى رؤيته لجبريل، ويقول الله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أى فى السدرة وما قبلها وبعدها. وقد تكلم العلماء فى رؤية الرسول لربه ليلة المعراج، وسُئِلَتْ فى ذلك السيدة عائشة أم المؤمنين، فأنكرت أن يكون رآه، وقالت من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، واحتججت بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وبقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.

والأمر فى المعراج كالأمر فى الإسراء، كانت السيدة عائشة تقول إن الرسول عرج بروحه، فهو فى رأبها معراج روحى. واختلف العلماء فمن قائل إنه بالروح فقط ومن قائل إنه بالروح والجسم. وسواء أكان المعراج رحلة فى اليقظة أو فى المنام فلا جناح على من يعتقد أحد الرأيين، وكما قلنا فى الإسراء يشهد للرأى الأول التنويم المغناطيسى، ويشهد للرأى الثانى انتقال الأصوات على الأثير مسافات بعيدة بين القارات فى نفس اللحظة، وانتقال الأشخاص أخيرا فى الرحلات الفضائية إلى كواكب بعيدة عن الكرة الأرضية بعدا شاسعا، والله سبحانه قادر أن يصنع هذا المعراج وذلك الإسراء لرسوله فى المنام أو فى اليقظة فى ليلة واحدة. وقصة المعراج مثل قصة الإسراء ترمز بقوة إلى وحدة الديانات السماوية وأنها انتهت إلى دين الإسلام الذى يصدقها ويهيمن عليها ويضع عن النصارى واليهود ما يثقلهم - كما جاء فى سورة الأعراف (الآية ١٥٧) - من بعض الأوامر والنواهي الربانية.

الفصل الثامن

من عرض الرسول نفسه على القبائل إلى البيعة الثانية الكبرى

١

عرض الرسول نفسه على القبائل

مضى الرسول ﷺ بعد رجوعه من الطائف ينذر قومه ويدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، وضمَّ إلى دعوتهم دعوة القبائل حين تأتي مكة في موسم الحج، وفي السيرة لابن هشام أن شخصاً شاهد الرسول بمنى يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين لكم من الله ما بعثني به، وخلفه رجل أحول وضئ له غدیرتان (ذؤابتان من الشعر) عليه حُلَّةٌ عَدَنِيَّةٌ، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

التنكير
من الإسلام

وهذا الرجل الذي كان يتعقب الرسول في عرضه الإسلام على القبائل هو عمه أبو لهب، وكان كافراً مشركاً بربه. ولم يكن أبو لهب وحده الذي ينفر الحجاج من الإسلام، وكان أسوأ منه الوليد بن المغيرة، فقد كان يجمع طائفة من

أعداء الإسلام وقت الحج، ويقول لهم: إن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم فقولوا فيه رأيا واحدا، وكان ينتدب معه لهذه المهمة خمسة عشر رجلا من أمثال أبي جهل والنضر بن الحارث، فتقاسموا مداخل مكة وطرقها لينفروا الناس عن الإسلام وعن الرسول وما يعرض عليهم من القرآن الكريم، فبعضهم يقول للحجاج: لا تغزوا بهذا القرآن فهو سحر، وبعضهم يقول هو شعر، وبعضهم يقول: هو قول كاهن، وبعضهم يقول: كلام مجنون، وبعضهم يقول: هو أساطير الأولين. وفيهم يقول الله جلَّ شأنه في سورة الحجر: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ويصفهم الله بأنهم ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أى أنهم جعلوه أجزاء، فجزء قالوا عنه سحر، وأجزاء أخرى قالوا عنها شعر وكهانة وكلام مجنون وأساطير الأولين. ويتوعدهم الله بعقاب أليم.

وكانت قريش لا تترك سيدها من سادات القبائل يدخل مكة إلا وتحذره من اجتماعه بالرسول وسماعه للقرآن. وقديم مكة الطفيل بن عمرو سيد قبيلة دؤس كما في السيرة، وكان شاعرا حسيفا، فأسرع إليه رجال من قريش، وقالوا له: إنك قدمت بلدنا، وهذا الرجل (محمد) الذى بين أظهرنا قد فرق جماعتنا وشئت أمرنا، وقوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمع منه شيئا. يقول الطفيل: فما زالوا بى حتى حشوت فى أذنى - حين غدوت إلى المسجد - كُرُسُفًا (قطنًا) خوفا من أن يبلغنى شيء منه وأنا لا أريد أن أسمع. وغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة، فقامت منه قريبا، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله، فسمعت كلاما حسنا، وقلت فى نفسى: ما يعنى من أن أسمع من هذا الرجل فإن كان ما أسمع حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته. ومكثت حتى انصرف إلى بيته، فتبعتنه، حتى إذا دخل بيته دخلته، وقلت له: إن قومك ما برحوا يخوفونى من أمرك حتى سددت أذنى بكرسف، ثم سمعتك فسمعت قولا حسنا فأعرض على أمرك. يقول: وعرض

إسلام الطفيل
الدوسى

على الإسلام وتلا على القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، فأسلمت وقلت يا نبي الله: إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آية. فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بفرجة بين جبلين تطلعتني عليهم وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي إني أخشى أن يظنوا أنها مثلة (عقوبة) وقعت في وجهي لفراق دينهم، فتحول النور فوق في رأس سوطي، فجعل الناس يرون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق وأنا أنزل إليهم من الفرجة. ويقول الطفيل الدوسي إن أباه عمراً الدوسي تابعه على دينه وكذلك زوجته تابعت على الإسلام، وقالت له: دينك ديني. ويقول إنه دعا قومه إلى الإسلام فأبطأوا عليه، فجاء إلى الرسول بمكة وحكى له ذلك وسأله أن يدعو على قومه، فتضرع الرسول إلى ربه داعياً قائلاً: "اللهم اهله دوساً، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم". وهذا هو محمد الرسول العظيم الرحيم الرفيق الذي جعله الله خاتماً لرسله. ولم يزل الطفيل بأرض دوس يدعو قومه إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأخذ والخذق، ثم قدم الطفيل على الرسول بمن أسلم معه من قومه، وكانوا سبعين أو ثمانين بيتاً، فوجدوه بخير، فلحقوه بها، وأسهم لهم فيها مع المسلمين.

وكان الرسول ﷺ يعرض نفسه على منازل القبائل في أسواق مكة وعكاظ ومجنة وذى الحجاز، وفي حديث مسند عند السهيلي قال فيه راويه: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي الحجاز مرتين يعرض نفسه على القبائل، يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وخلفه رجل يقول: يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب، فسألت عنه، فقيل لي هو عمه أبو لهب. ويقال إن الرسول في عرضه على القبائل بدأ بكندة ثم بكلب ثم ببني حنيفة، ويذكر المقرئ في سيرته أنه عرض نفسه على غسان وبني فزارة وبني مرة وبني سليم وبني عبس وبني نصر وثعلبة وبني الحارث بن كعب وبني عذرة، واقتصر الواقدي أخبار هذه القبائل قبيلة قبيلة.

عرض الرسول
نفسه على
القبائل

وفي السيرة لابن هشام أن الرسول أتى بنى عامر ودعاهم إلى الإسلام، فقال رجل منهم يسمّى بئحرة بن فراس: والله لو أنى أخذت هذا الرجل من قريش لأكلت به العرب. ثم قال له: أرايت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال له الرسول: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال الرجل: أفتهدى نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بك. وظل رسول الله كلما اجتمعت القبائل في موسم الحج أو في الأسواق حول مكة يدعوها إلى الله والإسلام وما فيه من الهدى والرحمة.

وكان ممن عرض الرسول دينه عليهم بنو ذهل وبنو شيبان وكان معه - كما يقول السهيلي في الخبر - علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق، فتقدم أبو بكر، فسلم، فقال: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى الرسول وقال: بأبي أنت وأمي هؤلاء غُرَرٌ في قومهم وفيهم مفروق بن عمرو وهاني بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك. وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالا ولسانا وكانت له غديرتان، وكان أدنى القوم مجلسا من أبي بكر، فسأله: كيف العدد فيكم؟ قال له مفروق: إنا لنزيد على الألف. فقال له أبو بكر: كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبا حين نُلْقَى، وإنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد (الخيل) على الأولاد، والنصر من عند الله؛ يدينا (ينصرون) مرة ويديل علينا مرة، لعل معك أخا قريش. فقال أبو بكر: أوقد بلغكم أنه رسول الله؟ فما هو ذا. فسأل مفروق إلى من تدعو إليه يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فقال: أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنى رسول الله، وأدعوكم أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشا قد تعاونت ضد أمر الله وكذبت رسوله. فقال مفروق: وإلى أى شئ تدعو أيضا؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ

نفر
من شيبان

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ فقال مفروق: وإلى أى شئ تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. فقال مفروق: دعوت - والله - يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، والله لقد أفك (كذب) قوم كذبوك. وكأنه أراد أن يشركه فى الكلام هانى بن قبيصة، فقال: وهذا هانى بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا. فقال: قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش، وإنى أرى أننا إن تركنا ديننا واتبعناك على دينك لمجلس جلسته إلينا زلة فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا ولكن نرجع وننظر. وكأنما أحسب أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا. فقال المثنى: قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش والجواب هو جواب هانى بن قبيصة، فإننا لا نترك ديننا وتتبعك لمجلس جلسته إلينا. فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

ولعل فيما قدمت ما يصور بوضوح مدى المشاق التى كان يتحملها الرسول فى عرضه الإسلام على قبائل العرب فى مواسم الحج والأسواق التى كانت تحيط بمكة، وكانت القبائل تتحاماه لما يسمعون من دعاية قريش ضده وقولهم عنه: إنه كذاب، إنه ساحر، إنه كاهن، إنه شاعر: أكاذيب يموهون بها حسدا من عند أنفسهم وبغيا عليه، والرسول مع ذلك لا يكل فى دعوته ولا يمل، بل يقوم بها أتم قيام مهما لقى من العنت الشاق والإيذاء الشديد.

بدء عرض الرسول نفسه على الأنصار

أخذ الرسول يشعر بأنه لا أمل فى القبائل الكثيرة التى يلقيها فى مواسم الحج وفى الأسواق المحيطة بمكة - عكاظ ومجنة وذى المجاز - أن تستجيب إلى

دعوته وتعتنق دين الله، وأيضا لا أمل في أهل الطائف، غير أن ذلك لم يكن يفت من عزمته في عرض دعوته على الناس، بل كان كل يوم يزداد عزمًا وصلابة في تبليغ رسالة ربّه للناس - شبابهم وكبارهم وأحرارهم وعبيدهم ورجلهم ونسائهم - لا يمسه في ذلك ضعف ولا وهن، بل يزداد كل يوم قوة على قوة، إذ آمن بأن الله لا بد ناصره، وهو لا بد مبلغ رسالته الربانية إلى الخلق، مهما ردّت القبائل وأهل الطائف على الرسول ردًا سيئًا، ومهما آذته قريش وآذت أصحابه، ومهما أساءت إليه وإليهم، ومهما سلّطت عليه وعليهم من السفهاء. وكان مما قدّر الله للأنصار - وهم قبيلتا الأوس والخزرج يثرب - أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم اليهود النازلين في يثرب منذ القرن الأول للميلاد، أن نبيًا سيُبعث، وكان اليهود إذا نشب خلاف أو حرب بينهم وبين الأوس والخزرج توعدوهم به وأنهم سيقتلونهم معه ولا يبقون منهم باقية. وذكر الله ذلك لليهود في سورة البقرة قائلًا لهم: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى الأوس والخزرج وكانوا يقولون لهم سيقتلكم معه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾. وكانت الأنصار - كما سمّاهم الله في القرآن وهم الأوس والخزرج تخرج إلى البيت في مكة مثل من يحجون إليه من العرب. وحجّ إليه سويد ابن الصامت من الأوس، وكانت قبيلته تسميه الكامل لشجاعته وشعره ونسبه فيها وشرفه، وأمه ليلي بنت عمرو من بنى النجار وأختها سلمى أم عبد المطلب جد الرسول. وسمع به الرسول ﷺ، فتصدى له، ودعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: لعل الذى معك مثل الذى معى، فقال له رسول الله ﷺ: وما الذى معك؟ قال مجلة لقمان: صحيفة كان فيها كما يبدو بعض حكم لقمان، ولقمان كان رجلا حكيما تقيا، قيل إنه كان من النبوة أو الحبشة أو من بنى إسرائيل، واختلف السلف في حقيقة لقمان المذكور في القرآن هل كان حكيما أو نبيا، وله في سورته بعض حكم أوصى بها ابنه، فقال الرسول لسويد: اعرضها علىّ، فعرضها عليه، فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذى معى أفضل منه: قرآن

سويد
ومجلة لقمان

أنزله الله تعالى على، وهو هدى ونور، وتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد سويد منه، وقال إن هذا القول حسن. وقدم المدينة على قومه، وكانت قد انتقلت إليها عدوى الحرب بين القبائل البدوية في نجد، فكان الأوس والخزرج لا يرفعون أيديهم من دماء حرب حتى يغمسوها في دماء جديدة، ويبدو أن اليهود شعروا بأنهم لا قيل لهم بالأوس والخزرج القبيلتين العربيتين اللتين تسكنان معهم في يثرب، فعملوا دائما على إشعال نيران العداوة والبغضاء بينهما، وكان بعضهم يحترف صنع الأسلحة التي يمدونهما بها في الحرب. وقدم سويد بن الصامت إلى يثرب ولم تلبث أن نشبت وقعة بُعثت بين الأوس والخزرج، وكان قائد الأوس أبو أسيد بن حضير، واشتبك فيها سويد، وقتلته الخزرج وشهد رجال من قومه بأنه قُتل وهو مسلم.

وعقب بُعثت، ذهب وفد برياسة أبي الحيسر أنس بن رافع من الأوس إلى مكة يلتبسون من قريش عقد حلف معها لتصرهم في حروبهم على قومهم من الخزرج، وكان معه فتية من بنى عبد الأشهل، وسمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، والتمس منهم الجلوس معهم، فجلسوا، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له، فقالوا له: وما ذلك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا، وأنزل على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ أحد الدين كانوا في الوفد الأوسى: أي قومي هذا - والله - خير مما جئتم له، فرفض كلامه أبو الحيسر أنس بن رافع: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى يثرب. ولم يلبث إياس أن توفي، وشهد بعض من حضر موته أنهم لم يزالوا يسمعون يهلل الله تعالى، ويكبره ويحمده ويسبّحه حتى مات. وما كانوا يشكون أنه مات مسلما وأنه كان يستشعر الإسلام منذ سمع في هذا المجلس من الرسول ﷺ تلاوة القرآن.

عرض الرسول
الإسلام على
بعض الأنصار

بَدءُ إسلام الأنصار والبيعة الأولى - بعث الرسول مع الأنصار
مصعب بن عمير وابن أم مكتوم
أ - بدء إسلام الأنصار والبيعة الأولى

أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيّه، فخرج محمد كعادته في موسم من مواسم الحج يعرض نفسه على القبائل ويدعو إلى دين الله، ولقى عند العقبة من منى ستة رجال حلقوا رءوسهم كلهم من الخزرج فجلس إليهم، فدعاهم إلى دين الله وقرأ عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض إنه النبي الذي تنوعدكم به اليهود، وكانوا - كما أسلفنا - كلما نشأ بينهم وبين اليهود خلاف توعدوهم بنبي يُبعث في أيامهم تلك يقتلونهم معه أشد قتل، وقال بعضهم لبعض إنه ينبغي أن نسبقهم إليه، فاستجابوا لله ولرسوله وآمنوا به وصدّقوه، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا من الخزرج والأوس، وبينهم حروب، فننصرف وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد في العرب أعز منك. والرجال الستة المذكورون هم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله، وانصرفوا إلى موطنهم يثرب وأخذوا يدعون رجال قبيلتهم: الأوس والخزرج إلى الإسلام وأخذ يفشو في يثرب.

واستدار العام وأقبل موسم الحج وقدم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً، منهم خمسة من الستة الذين ذكرناهم، وهم جميعاً ما عدا جابر بن عبد الله، والسبعة تنمة الاثنى عشر هم: معاذ بن الحارث أخو عوف في الخمسة السابقين، وهو ابن عفراء إحدى شريفات الخزرج، وذكوان بن عبد قيس الزُرقي وقد رحل إلى رسول الله ﷺ في مكة، فسكنها معه فهو صاحب هجرتين، إذ هاجر مع الرسول إلى يثرب، وقتل يوم أُحد، وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد

ابن ثعلبة البلوى أحد حلفائهم، والعباس بن عباد بن نضلة، فهؤلاء من الخزرج، ومن الأوس اثنان هما أبو الهيثم بن التيهان وكان يقال له ذو السيفين لأنه كان يتقلد بسيفين في الحرب، وعويم بن ساعدة وبايعهم الرسول ﷺ عند العقبة بيعة النساء، وذكرت في الآية الثانية عشرة بسورة الممتحنة، وهى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ﴾، فكان الرسول ﷺ يبايع كل واحد من الاثنى عشر على الدخول في الإسلام وأن لا يشرك بالله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصى الرسول في معروف.

ب - بعث الرسول مع الأنصار مصعب بن عمير وابن أم مكتوم

كان مصعب قبل إسلامه فتي مكة شابا وجمالا، وكان من أنعم قريش عيشا وأعطاهم ثيابا، وذكره رسول الله ﷺ فقال: ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير، وقُتل فى أحد. وابن أم مكتوم كان ضريرا، وهو الذى عاتب الله فيه الرسول بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى. أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَفَعَهُ الذُّكْرَى﴾ وكان جاء الرسول فى مجلس مع بعض الكبراء من المشركين وهو يعظهم آملا دخولهم فى الإسلام، وأكثر على الرسول النداء، فظهرت الكراهية فى وجهه لمحاولته قطع كلامه مع المشركين وخشية من افتراقهم عنه دون هدايتهم، فعاتبه الله على انصرافه عنه وإقباله على الكفار المشركين. وكان الرسول يُكرم ابن أم مكتوم واستخلفه مرارا كثيرة فى خروجه إلى الغزوات، وأسلم قديما مع مصعب بن عمير. واختارهما الرسول ليعلما من أسلم يثرب القرآن وليدعوا إلى الإسلام، فنزلا بها على أبى أمامة أسعد بن زُرارة، وكانا يجتمعان مع من أسلم من الرجال، ويعلمانهم القرآن ويفقهانهم فى الدين. وخرج أسعد بن زُرارة بمصعب

ابن عمير إلى دار بني ظفر ودار بني عبد الأشهل، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل أسعد بمصعب بستانا من بساتين بني ظفر، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا، وسعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْر - يومئذ - سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه. فلما سمعا بمجيئ أسعد بن زرارة ومصعب إلى داريهما قال سعد بن معاذ لأسيّد: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانهبهما عن أن يأتيا دارينا فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفتك ذلك، هو ابن خالتي. فأخذ أسيّد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما. فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه. فقال لهما: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا. قال مصعب: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره. قال أسيّد: أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب عن الإسلام وقرأ عليه القرآن. فقال أسيّد: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ فقال له مصعب: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبك، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم تُصَلِّي. فقام، فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق بوحدانية الله ورسالته، ثم قام فركع ركعتين. ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، سأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فقال له سعد: ما فعلت؟ قال أسيّد: كلمت الرجلين - أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير - ووالله ما رأيت بهما بأسا. ورأى أسيّد أن يحمس سعد بن معاذ فقال له: وحلّدت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، إذ عرفوا أنه ابن خالتك لينقضوا العهد ويغدروك. فقام سعد مُغْضِبًا مبادرا تخوفا للذي ذكره له أسيّد من أمر بني حارثة، فأخذ الحربة في يده، ثم خرج إليهما فرآهما مطمئنين فعرف سعد أن أسيّدا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة (كنيته): أما والله لولا ما

إسلام أسيّد
بن حُضَيْر

بينى وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى، أتغشانا فى دارينا بما نكره؟ وكان أسعد قال لمصعب: جاءك - والله - سيد من وراءه من قومه، إن تبعك لا يتخلف منهم اثنان. وقال مصعب لسعد بن معاذ: أوتقعد فتسمع، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض مصعب على سعد الإسلام وقرأ عليه القرآن، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالوا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم تصلى ركعتين. فقام سعد بن معاذ فاغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق بتوحيد الله ورسالة رسوله محمد، ثم أخذ حربته، وعاد إلى أسيد بن حضير، وأقبل معه على نادى قومه، ولما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة (مشورة). قال: إني أسلمت، وإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا أسلموا ما عدا الأصيرم وبعض بطون أو عشائر، واسم الأصيرم عمرو بن ثابت، وتأخر إسلامه إلى يوم غزوة أحد، فأسلم فيه واستشهد فى الحرب، ولم يسجد لله سجدة، وذكره رسول الله ﷺ وقال إنه من أهل الجنة. ويطون بنى عبد الأشهل التى لم تدخل فى الإسلام حينذاك هم بنو أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف وقيل واقد، وكانوا سكانا فى عوالى المدينة، وأسلم منهم قوم، وكان سيدهم أبا قيس صيفى بن الأسلت وكان شاعرا وكان قائدا لهم يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وتأخر إسلامه وإسلام سائر قومه إلى أن مضت بئر وأحد والخندق، فأسلموا جميعا.

إسلام
سعد بن معاذ

إسلام بنى
عبد الأشهل

ومما يذكر لمسلمى المدينة حينئذ ومعهم أسعد بن زراره ومصعب بن عمير أن أقاموا صلاة الجمعة وسموا باسمها اليوم، وكان يسمى «العروبة» وذلك عن هداية من الله تعالى قبل أن يؤمروا بها وقبل أن تنزل سورة الجمعة بعد هجرة الرسول ﷺ. ويقال إنهم اجتمعوا وقالوا إن لليهود يوما يجتمعون فيه كل سبعة

صلاة الجمعة

أيام وللنصارى مثل ذلك، فهلّموا، فلنجعل يوماً نجتمع فيه ونذكر الله ونصلي ونشكر، وقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوا لنا يوم العروبة نجتمع فيه وسموه يوم الجمعة، وصلي بهم يومئذ ركعتين أسعد بن زرارة، وقيل بل مصعب بن عمير. كما قيل إن رسول الله ﷺ هو الذي فرضها على مسلمي المدينة وأنه كتب إلى مصعب: أما بعد فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود لسبتهم فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال (أى ظهراً) من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين.

ولم يزل مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ابن خال خديجة يدعوان الأوس والخزرج إلى الإسلام حتى لم تكذب تبقى دار من دورهما إلا وفيها مسلمون. وظل مصعب يؤم المسلمين في المدينة طوال مقامه بها، وجّع بهم جمعيات، وعاد إلى مكة قبل موسم الحج ليبشر الرسول ﷺ بكثرة من أسلموا من أهل يثرب، وحديثه عما هم عليه من بأس وقوة وما هم فيه من رخاء ونعمة، وذكر له أنه سيحجى منهم في موسم الحج عدد كبير ليعلموا إليه دخولهم في الإسلام وليبايعوه كما بايعه إخوانهم في الموسم السابق. وسرّ الرسول وأخذ يفكر في الهجرة إليهم.

٤

البيعة الثانية الكبرى

خرج إلى موسم الحج مع حجاج يثرب الكفار جماعة كبيرة ممن أسلم من أهل يثرب ومعهم سيد كبير من سادتهم هو البراء بن معرور. قال ابن إسحاق: فلما توجهوا للسفر وخرجوا من المدينة قال البراء لمن معه من المسلمين: يا هؤلاء إني قد رأيت رأياً، والله لا أدرى أتوافقونني عليه أو لا؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية (الكعبة) منى بظهر وأن أصلي إليها. فقالوا له: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلا إلى بيت المقدس في الشام وما نريد أن

البراء بن
معرور يصلي
إلى الكعبة

نخالفه. فقال: إني لمصلٌ إليها. فقلنا له: لكننا لن نفعل. وكانت إذا حضرت الصلاة صلّوا إلى بيت المقدس وصلّى البراء إلى الكعبة. فلما قَدِمُوا إلى مكة قال لكعب بن مالك: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت في سفرى فإنه والله لقد وقع في نفسى منه شيء، لما رأيت من خلافكم إيايَ فيه. وخرجنا يسألان عن رسول الله، فلقيا رجلا من أهل مكة فسألاه عن رسول الله، فقال: ألا تعرفانه؟ فقالا: لا. فقال لهما: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب؟ قالوا: نعم. وكان يتردّد على يثرب تاجرا، فقال لهما: إذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. فدخلا المسجد، فإذا العباس جالس ورسول الله جالس معه، فسَلّما ثم جلسا إليه. فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. فقال الرسول: الشاعرو؟ قال العباس: نعم. فقال البراء بن معرور: يا نبيّ الله إني خرجت في سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام فرأيت أن لا أجعل هذه البنية (الكعبة) منى بظهرى، فصلّيت إليها، وخالفنى أصحابى فى ذلك، حتى وقع فى نفسى من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ فقال الرسول: قد كنت على قبلة (يريد قبلة بيت المقدس) لو صبرت عليها. فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلّى معه متجها إلى بيت المقدس.

وواعد مسلمو يثرب الرسول عقبة منى فى أواسط أيام التشريق - وهى ثلاثة أيام بعد يوم العيد، وكان معهم عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجى أبو جابر، سيد من سادات الخزرج وشريف من أشrafهم، فأخذوه معهم فى الليلة التى واعدوا رسول الله فيها، وكانوا يكتمون أمرهم على من معهم من مشركى قورمهم، فكلموه وقالوا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشrafنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه، ونعوذ بالله أن تكون حطبا للنار غدا. ثم دعوه إلى الإسلام، وأخبروه بموعدهم مع رسول الله ﷺ وشهد معهم عقبة منى والبيعة الثانية للرسول.

التواعد
فى العقبة

وظل مسلمو يثرب في رحالهم مع قومهم، حتى إذا مضى ثلث الليل أخذوا يتسلّلون تسلل القطا (طير) مستخفين حتى اجتمعوا عند العقبة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً، ومعهم سيدتان من نسائهم، أم عمارة من بنى النجار ذات البلاء العظيم يوم أحد ويوم اليمامة، وأسماء بنت عمرو من بنى سلمة. وظلّوا ينتظرون الرسول ﷺ حتى جاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثّق له. فلما جلس الرسول كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا - ممن هو على مثل رأينا فيه - فهو في عزٍّ من قومه ومنعة من بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم وللحقوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه، ومانعوه من خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعة من قومه وبلده. فقالوا للعباس: قد سمعنا ما قلت، فنكلم يا رسول الله فنخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن ودعا إلى توحيد الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم.

البيعة الكبرى

وأخذ البراء بن معرور زعيمهم بيده قائلاً: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أئزنا (أى نساءنا) فبايعنا يا رسول الله، فنحن - والله - أبناء الحروب وأهل الحلقة (السروع) ورثناها كابراً عن كابر. فاعترضه أبو الهيثم التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود (في بلدنا) حبالا (عهوداً)، وإننا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا. فبسم رسول الله ﷺ، وقال: بل الدم الدم، والهدم الهدم. أى دمتى دمتكم وحُرمتى حُرمتكم. وقال أسعد بن زرارة: رؤيدا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إلى الرسول أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأنّ إخراجَه اليوم (أى من مكة إلى يثرب) مفارقة للعرب كافة وقتل خياركم وأن تعضّكم السيوف، فإذا أنتم قوم تصبرون على ذلك إذا مستكم الحرب بقتل خياركم

ومفارقة العرب كافة فخذوا البيعة، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله. فقالوا: يا أسعد أمط (نح) عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها (لا نفسخها). وقال العباس بن عباد بن نضلة: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة وقتلت أشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فهو - والله إن فعلتم - خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو - والله - خير الدنيا والآخرة. قالوا: إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ فأجاب: الجنة. قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه، واختار الرسول منهم اثني عشر نقيبا بقول الله تعالى في قوم موسى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ ليكونوا رائيدين لمن يسلم من أهل المدينة، وهم: أسعد ابن زرار، ورافع بن مالك، وعباد بن الصامت، والبراء بن معرور، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عباد، والمنذر بن عمرو. وهؤلاء تسعة من الخزرج، ومعهم ثلاثة من الأوس، هم أسيد ابن حضير، وأبو الهيثم بن التيهان، وسعد بن خيثمة.

ولما أصبحوا جاء بعض كبراء قريش إلى منازلهم، فقالوا يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا محمد تخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه - والله - ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. فانبعث نفر من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وهم صادقون لأنهم مشركون ولم يعرفوا شيئا عن البيعة. ونفر الناس من منى للرجوع إلى أوطانهم، وأخذت قريش تتقصي الخبر، فعرفت أنه قد كان، وخرجت في طلب أصحاب هذه البيعة وأدركوا نقيبين من النقباء الاثنى عشر هما سعد بن عباد والمنذر بن عمرو، فأما المنذر فأعجزهم وفر منهم، وأما سعد بن عباد فربطوا يديه إلى عنقه، وأدخلوه مكة يضربونه. وكان يجير في يثرب على تجار

قريش
تعلم بالبيعة

جبير بن مطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية ويمنعهم ممن يريد ظلمهم، فهتف باسميهما وجاءاه وردًا إليه حريته وخلّصاه من أسره، وعاد إلى يثرب.

وأخذت قريش تفكر في أمر محمد، فقد انتشرت دعوته في يثرب بين الأوس والخزرج، وليس بعيد أن ينضم أهلها جميعا إلى دعوته سريعا وأن يعدّوا جيشا لنصرته، ويمكن أن يقطعوا الطريق على تجار قريش وقوافلهم المصعدة بتجاراتهم إلى الشام والمنحدره منها إلى مكة، وأخذت تفكر جديا كيف تقضى على امتداد دعوة الرسول إلى يثرب. وفي الوقت نفسه أخذ محمد يفكر في موقف أصحابه بمكة وما تذيقيهم قريش من ألوان التعذيب والإيذاء، ورأى بحكمته ودقة نظره السياسي أن ينقلهم من ذلك، وأن يأمرهم بالهجرة إلى يثرب حيث إخوانهم المسلمون الجدد المتحمسون لنصرة الإسلام، ورأى أن لا يهاجروا جماعات، بل يهاجروا فرادى أو نفرا قليلا، حتى لا تتنبّه قريش، ولكنها تنبّهت فأخذت تردّ إلى مكة كل من استطاعت رده إليها لتفتنه عن دينه أو لتكّل به، وحالت بين بعض المهاجرين وزوجاتهم حتى تضطربهم إلى العودة، وحسبت بعض من رفضوا المقام بها.

الأمر بالهجرة
إلى يثرب

وعرفت قريش أن الكثرة من أهل يثرب دخلت في الإسلام مما يجعلهم قوة كبيرة يُخشى بأسها بالإضافة إلى من انضم إليها من المهاجرين، وأخذت تفكر فيما عزم عليه الرسول من البقاء في مكة أو الهجرة إلى يثرب ليلحق بأصحابه، وقالوا لو أنه هاجر إليها لكانت هجرته محنة كبيرة لمكة، إذ يمكن أن يغزوها بجيش يثربى كما يمكن أن يقطع طريق تجارتها إلى الشام. واجتمع المأبى الندوة، وهو أشبه بمجلس شيوخ لسادة مكة وكبرائها، وكانوا يجتمعون فيها دائما للنظر في شئون مكة المهمة والخطيرة، وأخذوا يتشاورون كيف يمنعون محمدا من الهجرة، قال قائل: يُحبس ويُغلق عليه باب ويراقب. ولم تعجبهم الفكرة، فقد يفرّ من حبسه، وقال قائل: يُنفى عن مكة. ولم تعجبهم الفكرة، إذ تتاح له الفرصة ليذهب إلى يثرب. وظلوا يتشاورون حتى اتفقوا على وجوب التخلص منه بقتله، ولكن كيف يقتلونه؟ فإن بنى هاشم وبنى المطلب لا بد أن يأخذوا بشأره، وتقوم

تشاور قريش
في هجرة
الرسول

الاتفاق على
قتل الرسول

حرب بين فئات مكة. ومازالوا يقلّبون الرأى حتى اتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة في قريش فتي ذا بأس ومضاء، ويعطوا كلا منهم سيفاً بئاراً فيضربوه جميعاً ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في قبائل قريش، ولا يستطيع بنو هاشم وبنو المطلب قتال قبائل قريش جميعها، فيرتضوا فيه الدية. وذكر الله تشاور قريش في أمر الرسول بسورة الأنفال قائلا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى إذ يحاولون إيقاع الضر خفية بك ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أى ليجسوك ويمنعوك من الحركة ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أى ينفوك عن مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أى يبطل تدبيرهم، وعبر الله جلّ شأنه بالمكر من باب المشاكلة البلاغية ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

الفصل التاسع

من الهجرة إلى الإخاء والمساواة في تكوين الأمة الإسلامية

١

هجرة الصحابة

أخذت قريش - بعد أن عرفت ما تم بين الرسول وأهل يثرب من الحلف - تفكر فيما تفعل إزاء محمد وأصحابه، وأخذ الرسول يفكر في المستقبل وفي أصحابه وما يتحملون من العنت، ورأى ببصيرته النافذة وحكته السياسية أنه أولى بهم أن يهاجروا إلى يثرب ليضاعفوا قوة المسلمين من الأوس والخزرج الذين سرّهم من الرسول هذا التفكير الرشيد. وسرعان ما أمر الرسول أصحابه في مكة أن يهاجروا إلى يثرب متفرقين فرادى أو نفرًا قليلًا.

وأول من لبى دعوة الرسول إلى الهجرة إلى يثرب أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وحمل زوجته أم سلمة وابنها سلمة على بعير له، وخرج بهما يقود بعيره فلما رآه رجال بني المغيرة من مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها (أى بما اخترت من الهجرة) أرايت صاحبك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ ونزعوا خطام (زمام) البعير من يده وأخذوه منه. وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد عشيرة أبي سلمة، وقالوا: والله لا نترك ابننا (أى سلمة) عندها إذ نزعوه منها، وتجاذبوا سلمة بينهم حتى خلعوا يده. وانطلقت به أسرة أبي

المهاجرون
الأوائل

سلمة، وحبستها عشيرتها بنو المغيرة عندهم، وانطلق أبو سلمة إلى يثرب. وبذلك فرّقوا بين أم سلمة وزوجها وابنها. فكانت أم سلمة تخرج كل غداة إلى بطحاء مكة وتجلس وتبكي، وطال عليها ذلك، ومرّ بها رجل من بنى عمها، فرأى ما بها من البكاء، ورحمها وقال لعشيرتها بنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة: فرّقتم بينها وبين زوجها وولدها. فقالوا لها: الحقى بزواجك إن شئت. وردّ بنو عبد الأسد إليها - عند ذلك - ابنها. فأعدّت بغيرها للرحلة، ثم أخذت ابنها في حجرها، ثم خرجت تريد زوجها يثرب. حتى إذا كانت في التسعين بالقرب من مكة لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة من بنى عبد الدار، فقال لها: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت له: أريد زوجي بالمدينة، فقال لها: أما معك أحد؟ فقالت: لا والله! إلا الله وبنيّ هذا، قال: والله مالك من مترك. فأخذ بزمام البعير، فانطلق معها يهوى بها، فقالت: فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي البعير، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحطّ عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحّى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه ورحّله (أعده للرحلة) ثم استأخر عني وقال: اركبي فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بزمامه، فقاده حتى ينزل بي منزلا آخر. تقول: ولم يزل يصنع ذلك حتى أقدمنى المدينة. فلما نظر إلى قرية عمرو بن عوف بقباء قال لها: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة نازلا بها - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعا إلى مكة. فكانت تقول: ما رأيت صاحباً أكرم من عثمان بن طلحة. وإنما رويت قصة هجرة أبي سلمة أول مهاجر إلى المدينة وزوجته بتمامها لأدل على كرم أخلاق العرب - حينذاك - كما يمثلها عثمان بن طلحة، إذ تحمل مشاق الطريق من مكة إلى يثرب، وهو كافر ليقوم بواجب حماية أم سلمة المسلمة وابنها من صعوبات هذا الطريق الشاق، وإنها لمروءة جديرة بكل تجلّة وثناء، وسيسلم بعد سنوات قليلة مع خالد بن الوليد، واستشهد بمعركة أجنادين في أول خلافة عمر.

عثمان بن
طلحة يصحب
أم سلمة
إلى يثرب

وكان الصحابة يتجهّزون للارتحال إلى يثرب في خفاء وسرّ، وجعلوا يتعاونون بالمال والإبل التي تحملهم ويترافقون، وكان من هاجر من قريش وحلفائهم يستودع ماله ودوره رجلاً، فمنهم من حافظ على وديعته، ومنهم من باع. ونهب أبو سفيان دار بني جمحش، إذ هاجروا منها جميعاً. ويقال إنه كان بين أول مهاجر وآخر مهاجر نحو سنة، وربما كان في ذلك شيء من المبالغة. ولما رأى عمر أن يهاجر أبي إلا أن يعلن هجرته لقريش في الكعبة، ويقول على بن أبي طالب ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مخشياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة تقلّد سيفه وتنكّب قوسه وحمل في يديه أسهما، وعلّق حرباً صغيرة في خاصرته، ومضى إلى الكعبة، والماء من قريش (شيوخ دار الندوة) بفنائها، فبدأ بالطواف بالكعبة سبعة، ثم أتى المقام فصلّى ركعتين، ثم وقف على مجالس القوم مجلساً مجلساً، فقال: شأنت الوجوه لا يرغب الله إلا هذه المعاطس. ثم هدّدهم قائلاً: "مَنْ أراد أن تشكّله أمه أو يُيتمّ ولده فليلقني وراء هذا الوادي". ووجه القوم ولم ينطق أحد ببنت شفة بعد هذا التحدى الجريء. وعن ابن إسحاق يقول عمر: لما أردنا الهجرة إلى المدينة تواعدت أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة وهشام ابن العاص بن وائل موضع التناضب من أضامة بني عامر على بعد عشرة أميال من مكة، وقلنا: أينما لم يُصبح عندها فقد حُبِس (حبسته قريش دون الهجرة) فأصبحت أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة عند التناضب وحُبِس عنا هشام، وفنته قريش فافتن. وكان عمر قد غادر مكة في عشرين راكباً من الصحابة، ولما قدموا المدينة نزلوا في قرية بني عمرو بن عوف بقباء. ويقول عمر: لم نلبث أن جاء إلى المدينة أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام للقاء عيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأُمهما، ورسول الله ﷺ بمكة فكلما وقالا له: إن أملك قد نذرت أن لا يمسّ رأسها مُشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك، ففرّق لها. فقلت له: يا عيَّاش إنه والله ما يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أملك القمل لامتشطت ولو قد اشتدّ عليها حرُّ مكة لاستظلت. فقال عيَّاش: أبرّ قسم أُمي، ولي هناك مال فأخذه. فقلت له: والله إنك لتعلم أني

هجرة عمر

لمن أكثر قريش مالا فَلَكَ نصفُ مالي ولا تذهب معهما. فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما. فلما أبى إلا ذلك قلت له: فخذُ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجبية ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانحُ عليها. فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تُعقبنِي (تجعلني أركب وراءك) على ناقتك؟ قال عياش: بلى. فأناخ ناقته وأناخا ناقتيهما ليتحول أبو جهل على ناقته، فلما استَووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه ثم دخلا به مكة نهارا موثقا. ونادى أبو جهل: يا أهل مكة هكذا افعلوا بسفهاكم كما فعلنا بسفيهما هذا. وقال الرسول بعد أن هاجر: مَنْ لِي بعِشاش بن أبسى ربعة وهشام بن العاص؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا آتِي لك يا رسول الله بهما. فقدم مكة مستخفيا، فلقى امرأة تحمل طعاما، فقال لها: أين تريدان يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين الحبوسين. تعنيهما، فنبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له فلما جنَّ الليل تسور عليهما الحائط، وضرب قيديهما بسيفه فقطعهما ثم حملهما على بعيره، وقدم بهما المدينة إلى الرسول.

وتتابع الصحابة بعد هجرة عمر يهاجرون إلى المدينة، وهاجر إليها كبار الصحابة وكثير من الأسر هاجرت بكل أفرادها، وهاجر الموالي، وحين أراد صُهيب الرومي الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكا، فكش مالك عندنا، وتريد أن تخرج به؟ فقال لهم: رأيتم إن جعلت لكم مالي أتزكوني وتحلون لي سبيلي؟ قالوا: نعم. فقال لهم: فإني جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: رِبْحَ صُهيب، رِبْحَ صُهيب. وتذكر كتب السيرة بالتفصيل أسماء المهاجرين من الصحابة وأسماء من نزلوا عليهم من الأوس والخزرج، وإنها لأعظم أحوّة حدثت في الإسلام، وسيوثقها الرسول ﷺ بعد قدومه إلى المدينة.

هجرة الرسول

لم تنقض ساعة أو بعض ساعة على إجماع الملاء من قريش في دار الندوة على قتل الرسول في صباح الليلة التالية حتى دبروا أمر الفتيان من القبائل الذين

يضرِبون الرسول بأسيا فهِم ضربة واحدة، فلا يستطيع بنو هاشم أن يصنعوا شيئاً ويقبلوا الدية فيه كما مرّ بنا. دَبَرُوا ذلك وانتظروا تنفيذه، وكان تدبير الله أعظم فقد أعلم الرسول عن طريق جبريل بتدبيرهم الخبيث كما قال في آية سورة الأنفال: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ﴾. ولم يعد أمام الرسول إلا أن يضع خطة سريعة لهجرته إلى يثرب، فذهب إلى أبي بكر وأخبره أن الله أذن له في الهجرة، فقال له: الصحبة، فوافقه. فقال له: يا رسول الله إن لدىّ ناقتين كنت أعددتُهما للهجرة مع أسرتي، فقال له: إني لا أركب ناقة ليست لي، فأدفع الثمن، قال أبو بكر: نعم بالثمن يا رسول الله. وكان الرسول أراد أن يكون فضل الهجرة كلها له بنفسه وبماله. واستأجرا عبد الله بن أريقط -من بنى الدُّلّ- ليلدُهما على الطريق إلى المدينة، ودفعاً إليه راحتيهما حتى يكون موعدهم معه ثلاثة أيام.

وأخبر الرسول على بن أبي طالب بخبر هجرته، وطلب إليه أن تظل سرّاً بينهما، حتى إذا أظلم الليل ينام في سريره، ويتغطى ببرده الأخضر، وأمره أن يتخلف بعده بمكة، ويؤدي للناس ودائعهم التي كانت عند الرسول. وحاصر الفتية الدار، وظلوا ينظرون من خلل في الباب إلى غرفة الرسول فيجدون عليّاً ملثفاً في برد الرسول الأخضر، فيظنونهُ الرسول، وظلت سيوفهم مسلولة طوال الليل، وأطل الصباح بأضوائه، فتأهبوا ليضربوا ضربتهم، وسرعان ما خاب ظنهم، إذ فتح الباب على بن أبي طالب مرتدياً البرد الأخضر، واقفاً على عتبة الدار، وسأله أين ابن عمك؟ أين محمد؟ فقال: لا أدري إنهما خرجا في المساء ولا أعرف أين ذهبا ولا متى يرجعان. وقالت قريش: إذا كان قد خرج مع أبي بكر للقاء بعض أصحابه فسيعود، وإذا كان قد خرج مرتحلاً إلى يثرب فسيقبض عليه المقتفون لأثره وسيعودون به. وأعلنت قريش لمن يردّ محمداً إليها مائة ناقة.

وأما الرسول وأبو بكر فإنهما خرجا في مساء الليلة التي حاصر فيها الفتيان القرشيون دار الرسول من خَوْخة (باب صغير في ظهر بيت أبي بكر)، حتى لا يسمع أحد وقع أقدامهما وانطلقا حافيين، حتى لا يعلم بهما أحد في قريش،

تخفى الرسول
في غار ثور

ذات النطاقين

ودميت قدما الرسول من سيرهما نحو ساعة على الحصباء، واتجه الرسول بصاحبه إلى كهف أو غار بجبل ثور جنوبى مكة فى طريق الراحل منها إلى اليمن، تضليلا لقريش، إذ لا يخطر ببال أحد أن الرسول وأبا بكر سيتجهان إلى اليمن. ولما وصلا إلى الغار تقدم أبو بكر، فدخله قبل رسول الله ﷺ ليقيه بنفسه، ورأى فيه جُحُرا فألقمه عقبه لئلا يخرج منه ما يؤذى رسول الله ﷺ. ولم يعلم أحد باختبائهما فى غار ثور سوى زوجة أبى بكر أم رومان وابنتهما عبد الله وابنتيهما أسماء وعائشة ومولاه عامر بن فهيرة راعى غنمه. وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يختلط بأهل مكة نهاراً ويسمع أحاديث الناس عن تعقب قريش لهما وما تنتوى إزاءهما، ويخبرهما بما يسمع من الأحاديث والأخبار مساء. وكانت أسماء تأتيهما فى المساء بالطعام ولم يكن له عصام (رباط أو عروة) يمسكه، ولم تجد غير نطاقها الذى تشدُّ به وسطها فشققته نصفين، نصف لإمساك الطعام، ونصف جعلته نطاقها، فسميت ذات النطاقين. وكان عامر بن فهيرة يرعى غنمه، ويسوقه مساء إلى غار ثور فيحلب للرسول وأبى بكر ما يشاءان. وأعلنت قريش أنها قدّرت مكافأة كبيرة لمن يأتيها بالرسول، مائة ناقة. ودفع ذلك بعض فرسان قريش للبحث عن الرسول لا فى الطريق إلى المدينة فحسب، بل أيضا فى الجبال حول مكة، وكان الرسول وأبو بكر يسمعان وقع حوافر الخيل، واقترب أحد القرشيين من الغار، وحدثت معجزة، فقد رأى عليه نسيجا للعنكبوت ورأى بفسحه حمامتين فأيقن أن ليس فيه أحد، وعاد يذكر ذلك لزملائه، وقلق أبو بكر حين سمع حوافر الخيل، وكان مما قال للرسول: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا. فقال له الرسول: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ وكان الرسول مطمئنا غاية الاطمئنان أن قريشا لن تصل إليه وأن الله يحميه منها ويحرسه، وأحس كأن شيئا من الحزن يرتسم على وجه أبى بكر فقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وهى كلمة قالها الرسول لأبى بكر رفقا به وتبشيرا له أنهما ناجيان بفضل الله وعونه، وقص ذلك الله فى سورة التوبة قائلا: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ

مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ إِنَّ لَا تَنْصُرُوا الرُّسُولَ فَهُوَ غَنَى عَنْ نَصْرِكُمْ بَنَصَرَ اللَّهِ كَمَا حَدَّثَ فِي هِجْرَتِهِ وَخُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ مَعَ صَاحِبِهِ بِاخْتِفَائِهِمَا فِي غَارِ بَجِيلِ ثَوْرٍ، وَالرُّسُولُ يَقُولُ لِأَبِي بَكْرٍ تَأْنِيسًا لَهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ يَحْمِينَا ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وَطُمَأْنِينَتَهُ وَهِيَ نَصْرُ نَفْسِي عَظِيمٍ.

لم يهتد كفار قريش إلى مكان الرسول ﷺ وأبى بكر، وأخذوا ينادون بأعلى مكة وأسفلها: من قتل محمدا وأبا بكر أو جاء بهما فله مائة ناقة. ولما مضت لهما ثلاث ليال، وهما في الغار، وسكن الطلب عنهما أتاها دليهما ابن أريقط ومعه الناقتان، وأخذ رسول الله ﷺ إحداهما المسماة باسم الجدعاء، وكان أبو بكر أعداهما قبل ذلك. وخرجا من الغار سحر ليلة الاثنين لأربع خلوة من ربيع الأول، وقيل في أول يوم منه، وسنه ﷺ ثلاث وخمسون على الصحيح، ومعهما زاد للسفر أتنهما به أسماء. وكان خروج الرسول وأبى بكر من الغار في الصباح، فصلّى الرسول بصاحبه ومن معهما جماعة، فكان أول من جمّع بالمسلمين في صلاة الفجر. وولى الرسول ﷺ وجهه نحو مكة - حين خرج منها قائلا: "والله إنك لأحب أرض الله إليّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت". وكان بين ليلة البيعة الثانية الكبرى لأهل يثرب ومهاجرة الرسول ﷺ قريب من ثلاثة أشهر.

بدء الهجرة

وعدل الرسول بصاحبه عن الطريق المعهود بين مكة والمدينة لأن قريشا سترصدهما فيه، واتجه به نحو الشمال الغربى بحذاء البحر الأحمر، وكانت قريش أشاعت في قبائل الطريق إلى يثرب المكافأة التى رصدتها لمن يأتيها بمحمد. ولما مرّ الرسول وأبو بكر بحىّ مدلج رأهما سراقة بن مالك المدلجى، فحذّته نفسه أن يأخذهما إلى قريش لينال جائزتها، وركب جواده وتبعهما، حتى إذا قرب منهما ساخت يدا فرسه فى الأرض إلى بطنهما، وثار من تحتها مثل الدخان، فقال للرسول ﷺ ادْعُ لِي يَا مُحَمَّدُ لِيَخْلُصَنِي اللَّهُ، وَلَسْكَ عَلَىَّ أَنْ أَرُدَّ عَنْكَ الطَّلَبَ. ودعا الرسول، فتخلص. فعاد يتبعهما، فدعا الرسول عليه الثانية، فساخت قوائم

سراقة بن مالك
وسوارى
كسرى

فرسه في الأرض أشد من الأول، فقال: يا محمد قد علمت أن هذا من دعائك عليّ، فاذع لي ربك أن يخلصني، ولك عهد الله أن أردّ عنك الطلب، فدعا له، فخلص، وقرب من الرسول، وقال له: يا رسول الله خذ سهمًا من كنانتي فيان إبلى بمكان كذا فخذ منها ما أحببت، فقال الرسول: لا حاجة لي بإبلك. وأسلم سراقه، ورأى أن يعود عنه، فقال له: كيف بك يا سراقه إذا سُورَتْ بسِوارِي كسرى، فقال سراقه: كسرى بن هرمز قال الرسول: نعم. وسأل سراقه الرسول أن يكتب له كتابًا بذلك. فكتب له أبو بكر رضي الله عنه، ويقال: بل عامر بن فهيرة. ورجع سراقه يردّ عن الرسول وصاحبه الطلب. ودارت السنوات وفتحت إيران وأتى للخليفة عمر بن الخطاب بتاج كسرى وسِواريه فطلب سراقه وحلّاه بسِوارى كسرى، وقال له: ارفع يديك، وقل الحمد لله الذي سلب هذا كسرى الملك الذي كان يزعم أنه رب الناس وكساهما أعرابيا من بني مدلج.

ومرّ الرسول وأبو بكر في هجرتهم بخيمة أم معبد الخزاعية - وكان القوم مجدين - فقال الرسول لأم معبد: هل لديك لبن أو لحم نشتره، فقالت: ليس عندهما شيء، ونظر إلى شاة في جانب من الخيمة خلفها الضئنا عن الغنم، فسألها الرسول: هل بها من لبن؟ فقالت: هي أجهد من أن يكون فيها لبن، فقال الرسول ﷺ لها: هل تأذنين لي أن أحلبها، فقالت: بأبي أنت وأمي إن رأيت فيها لبنا فاحلبها. فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها فدرّت، ودعا بإناء يشبع الجماعة، فحلب فيه، حتى ملأه، وسقى كل من معه حتى ارتووا، ثم شرب، وحلب فيه مرة أخرى وشربوا. وهي كرامة كبرى للرسول.

أم معبد

واستمرت الرحلة فوق طرق صعبة غير طريق القوافل الممهّد بين مكة والمدينة، وكان أبو بكر قد أردف عامر بن فهيرة خلفه، وظل أمامهما عبد الله بن أريقط يهdy الرسول وصاحبه الطريق، وكان هاديًا خريّتا (دليلا ماهرا) بالطرق إلى يثرب. ولقى الرسول في طريقه إلى يثرب بُريدة بن الحَصيّب الأسلمي في ركّاب من قومه، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وجاءوه بلبن قليل

فشربه هو وأبو بكر، ودعا لهم بالبركة. ولقى الرسول في الطريق أوس بن حُجْر الأسلمي، فلاحظ تعب ناقته الجداء فحمّله على بعير له وأرسل معه غلاما اسمه مسعود ليرده إليه. وتذكر كتب السيرة المواضع التي سلكها الرسول ﷺ وأبو بكر مع دليلهما بالتفصيل من مكة إلى يثرب، وكان قدومهما إليها معه في يوم الاثنين لاثنتي عشرة من ربيع الأول، وكان خروجهما من الغار في الرحلة المباركة بأول يوم منه.

٣

بدء تكوين الأمة الإسلامية وإعلان دستورها

أ - بدء تكوين الأمة الإسلامية

ظل جمهور مكة - طوال مقام الرسول بها ودعوته إلى الإسلام فيها - وثنيا، وكان من دخلوا في دين الله واعتنقوه أقلية بالقياس إلى جمهورها الوثني الكبير، ولذلك لم يستطع الرسول أن يكون للإسلام فيها مجتمعا يتعاون أفراده على نصرته الإسلام ونشره والدفاع عنه؛ وهو ما أتيح له في المدينة وعمل له، وحقّقه بحيث أصبحت المدينة والجزيرة العربية جميعها أمة إسلامية كبرى، وهو ما جعل عمر يتخذ الهجرة «بدء تاريخ الإسلام».

الهجرة بدء
تاريخ الإسلام

ولنتبع أعمال الرسول في أوائل عهده لنزوله بالمدينة: كان أول نزول الرسول ﷺ في يثرب بضاحية في جنوبيها تسمى قُباء، وكان المهاجرون يخرجون من يوم إلى يوم انتظارا له، وكان أول من رآه يهودى على حصن له فنادى بأعلى صوته: يا بني قَيْلَة (أى الأوس والخزرج) هذا جدّكم (أى حظكم) قد جاء، وخرج الناس لاستقباله، وازدحموا عليه ومعه أبو بكر وهم لا يميزونه منه، حتى زال الظل عن الرسول ﷺ، فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفوا الرسول عند ذلك.

ونزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدم بقباء وكان يلقي الناس بدار سعد بن خيشمة، وكانت منزل العُزَّاب من المهاجرين لأنه كان أعزب، وأقام بقباء أياما قليل أربعة، وقيل أكثر من ذلك وأسس بها مسجد قباء، وكان أول من وضع حجرها في قبلته، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه بجانب حجره، ثم أخذ الناس في البناء، وهو أول مسجد بنى في الإسلام. وجاءه عبد الله بن سلام من بنى قَيْنُقَاع اليهود حين سمع بنزوله في قباء، وقال كنت أعرف صفته واسمه وزمانه (أى من التوراة) وكان خبيرا عالما، والتقى بالرسول وأعلن إليه إسلامه ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم بالإسلام فأسلموا. وخرج رسول الله من قباء واتجه إلى المدينة فأدركته الجمعة في منازل بنى سالم بن عوف، فصلاها بمسجد بَنُوهُ في بطن واديهم فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة. وركب ناقه بعد الصلاة، وسارت، وأخذت قبائل المدينة تعترضه تبغى نزوله عندها، وهو يقول لهم دعوا الناقة، فإنها مأمورة، وبركت أمام دار أبي أيوب الأنصاري، وحمل رحله، فوضعه في داره، ونزل عليه رسول الله ﷺ، وظل عنده سبعة أشهر حتى بنى مسجده ودوره أو مساكنه. ولما نزل في بيت أبي أيوب نزل في السُّفْل وأبو أيوب وزوجته في العُلُو، والتمس منه أبو أيوب أن يكون في السفلى والرسول في العلوى، فقال له: إنه أرفق بنا ونحن يغشانا أن نكون في سفلى البيت. ويقول أبو أيوب: كنا نصنع له العشاء ونبعث به إليه، وبعثنا إليه ليلة بعشاء فيه بصل أو ثوم فردّه، لأن فيه رائحة البصل أو الشوم، فلم نعد إلى وضعهما في عشاءه. ويُقال إن أول هديّة أُهديت إليه قَصْعة مشرودة خبزا وسمنا ولبنا جاءه بها زيد بن ثابت فأكل هو وأصحابه. ثم جاءت قَصْعة سعد بن عُبادة، وبها عظام عليها لحم، ويقال إنه ما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادَة وجَفْنة أسعد بن زُرارة كل ليلة، وجعل بنو النجار يتناوبون حمل الطعام إليه طوال مُقامه في منزل أبي أيوب.

وكان بجوار بيت أبي أيوب مِرْبَدٍ تمر به نخل وزرع وحرث ومقابر، فسأل الرسول ﷺ لمن هذا المربد؟ فقال له معاذ بن عفراء هو - يا رسول الله - لسهل

مسجد قباء

أول جمعة
بيشربنزول الرسول
على أبي أيوب

وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان في حجرى وسأرضيهما، فاتخذهُ كما تريد مسجداً، وقيل إن الذى قال ذلك للرسول أسعد بن زرارة. وأمر الرسول ﷺ ببناء مسجد فيه فقطع النخل وسُوِّيت المقابر، وكان الرسول ﷺ ينقل الحجارة إليه مع العاملين فيه، وجُعِلت قبلته من اللِّبن، وقيل بل من حجارة منصودة بعضها فوق بعض، وجُعِلت عُمدُه من جذوع النخل وجُعِل سقفه من الجريد. وجدَّده عمر، وبناه عثمان بالحجارة المنقوشة، وبنى سقفه بالساج، وتألق الوليد ابن عبد الملك فى بنائه بالفسيفساء والرخام. وكان مكان المسجد بوسط المدينة ولم يجعله الرسول معبداً للصلاة فحسب، بل جعله أيضاً مركزاً لالتقاء المسلمين فيه واستماعهم إلى تعاليم الإسلام وأوامره ونواهيهِ من الرسول، وكان ينظر فيه شئون الجماعة ويتقاضون فيه. وبذلك أصبح المسجد - لعهدِه - بيت عبادة لله ودار علم ودار قضاء، وظل ذلك بعده مما جعل المساجد فى العالم الإسلامى تستحيل إلى جامعات كبرى، كما استحال المسجد منذ عهد الرسول ﷺ إلى دار ندوة كبرى يجتمع فيها المسلمون لمعرفة الأخبار السياسية والحربية.

بناء مسجد
المدينة بجوار
دار أبى أيوب

المسجد دار
عبادة وعلم
وقضاء وتشاور

وبذلك كانت إقامة الرسول للمسجد أول عمل دعم به الرسول فكرة تكون الأمة الإسلامية. وفى رأى أنه فكر فى قيام هذه الأمة منذ البيعة الكبرى لأهل المدينة، فإنه جعل من مبايعيه اثنى عشر نقيباً ليتولوا تصريف الأمور فى هذه الجماعة الإسلامية الجديدة التى ستصبح - فيما بعد - أمة كبيرة، وكأنه اختار المسجد لها ليكون دار مشورتها ودار تدبير أمورها، ودار تعلُّمها، ودار قضائها، ودار الفتوى. وفى الطرف المقابل للقبلة شبه ظُلَّة - سميت الصُّفَّة - ملحقة بالمسجد تحملها جذوع النخل وهى بهوٌ واسع طويل مظلل كان ينزل فيه فقراء المهاجرين المحاربين ومن ليس له منزل فى المدينة، وكأنما كانوا فرقة عسكرية مقيمة بالمسجد انتظاراً للمشاركة فى الحرب أو لتففيذ أى أمر من أوامر الرسول.

وواضح من ذلك أن إقامة الرسول لمسجده واتخاذهُ دار عبادة وتعلم وقضاء ودار فرقة عسكرية ودار ندوة كبرى لاجتماع المسلمين فيها وتشاورهم بها فى كل أمر خطير إيدان ضخم بقيام الأمة الإسلامية المتعاونة المجتمعة على دين

بدء تكوين
الأمة الإسلامية

الإسلام ونصرته ضد أعدائه، وإن كانت الأمة صغيرة الآن لا تعدو أهل المدينة، فإنها في الغد ستصبح في عداد الأمم الكبرى بنفس مبادئ الإسلام وتعاليمه ومساجده التي وضع الرسول ﷺ بمسجده ما تؤديه من روابط دينية وتعليمية وسياسية وعسكرية واجتماعية بالمدينة. ومرّ بنا أن الصلاة فُرضت في أول البعثة الحمدية، وكانت ركعتين ركعتين كل صلاة، وقيل كانت ركعتين في الغداة وركعتين في العشيّ وأنها أصبحت أربع ركعات في ليلة المعراج وفرضت فيها الصلوات الخمس، وقيل أيضا إن تحوّل الصلاة من ركعتين إلى أربع إنما حدث بعد مقدم الرسول إلى المدينة بشهر. وتربط الصلاة بقوة بين أفراد الأمة عن طريق صلاة الجماعة بالمساجد، إذ يلتقى المسلمون بها مما يدعّم الإخاء في الأمة والشعور بين المسلمين بالمساواة، ويقول الرسول إن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المفرد بسبع وعشرين درجة، ويقول إن خطوات المسلم إليها للصلاة في المسجد إحداها تحط عنه خطيئة والأخرى ترفعه درجة، وتُتَوَجَّع صلاة الجماعة أسبوعيا بفريضة صلاة الجمعة حيث يستمع المصلّون إلى خطبة الإمام في صلاتها وما تحمل من موعظة. وكانت أول خطبة خطبها الرسول في المدينة بقاء قوله بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"أما بعد أيها الناس، فقدّموا لأنفسكم تعلّمَنَ، والله ليُصَعّقَنَّ (أى ليموتن) أحدكم، ثم ليدعَنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترْجُمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلّغك، وآتيتك مالا وأفضّلتُ عليك، فما قدّمتَ لنفسك؟ فلينظرنَّ يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لينظرنَّ قدّامه فلا يرى غير جهنّم. فمن استطاع أن يقى وجهه من النار، ولو بشقّ تمرّة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجْزَى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

وروى له ابن هشام في سيرته خطبته الثانية في المدينة، وهي لا تقلّ بلاغة وروعة عن هذه الخطبة. وفي أثناء بناء المسجد قدم على بن أبي طالب من مكة،

فريضة
الصلاة

أول خطبة
بالمدينة

وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة، ودفع إليهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذا من أبي بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه ليحملا إليه ابنتيه: فاطمة وأم كلثوم، وزوجته سودة بنت زمعة، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط ببعيرين أو ثلاثة وكتب إلى ابنه عبد الله أن يحمل ابن أريقط أهله: زوجته أم رومان وابنتيه: عائشة وأسماء، وقدم زيد المدينة بزوجة رسول الله سودة وابنتيه، وبابنه أسامة وأمه: أم أيمن، وخرج مع زيد عبد الله بن أبي بكر بأهل أبي بكر المذكورين. ولما تم بناء المسجد أخذ الرسول ﷺ في بناء بيوته، وكانت تسع حجر بعضها من جريد مطين بالطين وسقفها جريد، وبعضها من حجارة مرصوفة بعضها فوق بعض، وسقفها جريد أيضا. ولما توفيت أزواج الرسول خلطت البيوت بالمسجد في عهد عبد الملك بن مروان. وكان سرير الرسول ﷺ خشبات مشدودة بالليف؛ وهي صورة رائعة من نقش الرسول وزهده. وانتقل الرسول إلى منزله وحجره - حين بنيت - من دار أبي أيوب.

بيوت
الرسول

ب - دستور الأمة

وللتقى في السيرة النبوية لابن هشام بكتاب عقده الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار واذع فيه اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم، ويبدو أنه أراد به وضع دستور للنظام السياسى والاجتماعى للأمة بالمدينة، وهو يستهله بقوله:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم (أى آمن بدينهم) فلحق بهم وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة من دون الناس". والرسول يسمي المسلمين من قريش ويثرب أمة، مما يدل بوضوح على أنه كان يؤمن فى أعماقه بتكوينه - فى رسالته - لأمة إسلامية. وقال عقب ذلك: "المهاجرون من قريش على ربعتهم (أى على حالهم) يتعاقلون معاقلمهم (أى يتكافلون فى كل ضرر يلحقهم من ديات وغيرها) وهم يفدون (يساعدون بالمال) عانيهم (أسيرهم واحتجاج) بالمعروف والقسط

(العدل) بين المؤمنين. وكرّر الرسول هذه الصيغة مع ثمانى قبائل للأوس والخزرج. وقال: إن المؤمنين المتقين على من بغى (اعتدى) منهم أو ابتغى ظلماً أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المسلمين، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض. ومن تبع المسلمين واليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم. وإن المؤمنين يتساوون بعضهم مع بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله. ولا يجير مشرك (أى من بقى على إشراكه من الأوس والخزرج) مالا لقريش ولا نفساً. وإن من قتل مؤمناً عن بينة فإنه قود (قصاص) به إلا أن يرضى ولى المقتول. وإنه لا يحل لمؤمن أن ينصر مشركاً على مؤمن ولا يؤويه. وإنكم مهما اختلفتم فى شئ فمرّدّه إلى الله ورسوله. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين" (ولم يعمل اليهود بهذا القانون مع أنهم يعيشون مع المسلمين فى مدينة واحدة). ثم يقول الرسول: "وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم: مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته". ويعادّ الرسول نفس الصيغة مع ثمانى عشائر لليهود. ويقول: "إن البرّ والوفاء به حاجز دون الإثم، وإنه لا يخرج منهم أحد عن هذا العهد إلا بإذن محمد. ولا ينطوى أحد على ثأر، وإن من قتل يقتل. وإن بينهم وبين المسلمين النصر على من حارب أهل هذه المدينة" (ولم يعمل اليهود بهذا القانون). ويقول الرسول: "وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذا الكتاب أو العهد. وإن الجار كنفس جاره لا يضار. وإن ما يكون بين أهل هذا الكتاب من حدث أو مشاجرة يخاف منها الفساد فمرّدّه إلى الله ورسوله. وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وإن بين أهل يثرب النصر على من دهمها (هاجمها). وإذا دعوا إلى صلح استجابوا له. وإن يهود الأوس: مواليتهم وأنفسهم على مثل ما لأهل

هذا الكتاب. وإنه من خرج من المدينة آمنٌ ومن قعد آمنٌ إلا من ظلم وأثم". ويُختمُ الكتاب بقول الرسول: "وإن الله جازٌ لمن برّ واتقى ومحمد رسول الله".

وهذا هو الدستور الذى وضعه الرسول لأول مجتمع إسلامى، بل فى بدء التكون للأمة الإسلامية كما قال فى مطلعها، وهو يعلن فى فوائده تضامن أفراد كل جماعة فى هذه الأمة فى كل جنابة يرتكبها فرد منها وتفديته بأموالهم؛ وبذلك يربط الفرد فى الأمة بأهله، ويجب أن يأخذوا على يد كل ظالم ومفسد، والمسلمون أمة واحدة فكل فرد فيها مولى لأخيه يشده إليه ولواء قويم من الدين لا من النسب كما كان الشأن فى القبيلة، وفى ذلك يقول القرآن: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. وتفتح الأمة أبوابها لأهل الكتاب من اليهود سكان المدينة، مما يعنى أن الإسلام دين عالمى يقرر حرية العقيدة، وقد قررها حتى للكفار ممن لم يحاربوه، مما جعل الرسول يطلب إلى ولاية البحرين والخليج العربى أن يأخذوا من المجوس الجزية كما يأخذونها من أهل الكتاب. وأن من قتل مؤمنا يُقتل به كما يقضى بذلك القود أو القصاص إلا أن يرضى ولى المقتول بما يقدمه إليه القاتل. والدستور بذلك يقرر حرمة الحياة وتحريم جريمة القتل ويجعل عقابها فى الدنيا القصاص سوى عقابها فى الآخرة. ولا يحل لمؤمن أن ينصر قاتلا أو يؤويه. ويهود المدينة أو يثرب أمة مع المؤمنين أى أنهم جزء من أمتهم. وبذلك تعامل المسلمون - بعد الرسول فى مشارق الأرض ومغاربها - لا مع أهل الكتاب فحسب، بل أيضا مع الوثنيين، كما عامل الرسول مجوس الخليج العربى عبدة النار. ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم. والدستور يعلن حرية العقيدة، مما لم تستطع أوروبا - حتى اليوم - أن تعتقده بدليل عداتها للإسلام الذى أراها أصحابه حين استولوا على الأندلس أكبر مثل للتسامح الدينى. وعلى اليهود والمسلمين النصر على من حارب يثرب، ونقض اليهود هذا القانون فى الدستور ولم يعملوا به يوما. كما نقضوا القانون التالى له: وهو إنفاقهم مع المؤمنين فى

عالمية
الإسلام

التسامح
الدينى

الحرب، ولم يعملوا به أيضا يوما. ولعل في هذا الدستور الذى وضعه الرسول لأمتة الإسلامية فى بدء تكوينها ما يدل بقوة على مقدرته العقلية الخارقة فى وضع مواد هذا الدستور الذى ظلت الأمة الإسلامية تعمل به على مدار السنين. وحرى برجال القانون - فى العصر الحاضر - أن يعنوا بدراسته ويكتبوا فيه البحوث الطوال.

٤

الإخاء والمساواة فى تكوين الأمة الإسلامية

صفا المقام للرسول ﷺ فى المدينة، فقد أصبح يعيش فى مجتمع إسلامى اتخذ منه إرهابا واضحا لأمتة الإسلامية الكبيرة المنتظرة، وأخذ يشيع فيه قيم الإسلام العظيمة، وفى مقدمتها الإخاء الصادق بين المسلمين و المساواة الشاملة، وهما قيمتان إنسانيتان عظيمتان.

أما الإخاء فقد طلبه الله ورسوله من المسلمين بحيث يكون رابطة حضارية تجمع بينهم فلا تنفك بين أفراد الأمة الإسلامية أبدا، والله - جل شأنه - يوثقه فى الأمة توثيقا محكما بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وهو إخاء له واجبات من مثل رعاية الغنى للفقير وحقوق من مثل رعاية السليم للمريض. ويقول الرسول: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" فالأمة جميعها بنيان واحد مترابط يمسك بعضه بعضا، متساند كما تتساند الحجارة فى البنيان، وهو تساند يقوم على التآزر والتعاون إلى أقصى حد. ويضرب الرسول مثلا لما ينبغى أن يكون عليه أفراد الأمة الإسلامية من الإخاء المتبادل بينهم قائلا: "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"، وهو مثل رائع لما ينبغى أن يستشعره المسلم إزاء أخيه المسلم من المودة والعطف والرحمة. ويجعل الرسول لكل عمل يقدمه المسلم

لأخيه يسد به حاجة أو يساعده في محنة جزاء وافيا عند الله، وبالمثل من يستر عملاً آثماً لأخيه، يقول: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه بها كربةً من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"، وهى مكافآت تجعل كل مسلم يقوم بما ينبغي عليه لأخيه المسلم من تأزر وتعاقد وتعاون، ويقول الرسول ﷺ: "الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه".

والإخاء بذلك من أهم الأسس التى ثبتها الله ورسوله فى الإسلام بين أفراد المسلمين وما ينبغى أن يشيع بينهم من المؤاخاة الصادقة المخلصة، ومن أعظم صورها فى صدر الإسلام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حين قدموا عليهم من مكة، فقد وسعواهم فى منازلهم، وقاموا لهم بحقوق الضيافة - بل بحقوق أخوة الإسلام - أشهراً متعاقبة؛ إذ نزل كل مهاجر عند شخص من الأوس أو الخزرج. وتخصى كتب السيرة النبوية المهاجرين ومن نزلوا عندهم وأسكنوهم معهم، ويذكر عبد الرحمن بن عوف المهاجر مدى إكرام سعد بن الربيع النازل عنده له، إذ يقول إنه عرض عليه أن يقاسمه ماله، ولم تهاجر معه زوجته، فعرض عليه أن ينزل له عن إحدى زوجتيه. ورأى رسول الله ﷺ أن يؤكد هذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد خمسة أشهر من مقدّمه إلى المدينة ليذهب عن المهاجرين وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، فأضاف إلى ما تقتضيه الأخوة العامة بين المسلمين من الحق والمواساة التوارث بين المهاجرين والأنصار، وآخى بذلك بين خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار، وقيل بل كانوا خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار، فكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة دون القرابات حتى نزلت آية سورة الأنفال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، فقدّمت قرابة ذوى الأرحام على قرابة الإسلام بل ألغتها فى الميراث إلغاء، وظلت أخوة الإسلام قائمة على الحق والمواساة وهو ما يجب لكل مسلم على أخيه بحيث يمكن أن يُسمّى الإسلام - كما أسلفنا - دين الإخاء .

المؤاخاة بين
المهاجرين
والأنصار

وهذا الأساس الإنساني الكبير الذي أرسى الرسول عليه حياة الأمة الإسلامية أرسى معه أساساً إنسانياً كبيراً لحياة الأمة، هو أساس المساواة، فالناس جميعاً متساوون أمام الله ولا يتوسط بينه وبينهم كهنوت من قساوسة وراهبان وأساقفة، وهم متساوون في مجتمعات أمتهم دون أى طبقات، وألغى الإسلام ما وجد في إيران والهند من الطبقات في الأمة؛ فلا سيد ومسود ولا عصبية ولا قومية ولا جنسية ولا طبقية، إنما هي هوية واحدة تشمل جميع الأجناس والأعراق والألوان، هي هوية دين الإسلام والتقوى فيه، ويقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فهم جميعاً لأب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، وجعلهم الله شعوباً وقبائل ليعرفوا أنسابهم لا ليتفاخروا بها، وكل يفخر بقوميته أو بعرقه أو بجنسه، فكل ذلك باطل ولا ائتماء إلا للدين ولا فخر أو لا فضل إلا بالتقوى. ويقول الرسول في خطبة حجة الوداع: "أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا فضل لأسود على أحر ولا لأحر على أسود إلا بالتقوى". وبذلك ألغى الإسلام - لأول مرة في التاريخ - العنصرية والجنسية والقومية والعصبية واللون، ولا ائتماء إلا للدين. وكان مقرَّباً إليه بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصُهيب الرومي.

وكان الرسول لا يستشعر أى هالة قدسية أو زمنية من سلطان أو مُلك، وكان ينهى الصحابة عن المبالغة في الثناء عليه حتى لا يقعوا فيما وقع فيه النصراني من تأليه عيسى بن مريم وقولهم إنه ابن الله، ويقول - كما أسلفنا -: إنما أنا بشر وعبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد، ولم ينعت نفسه بأى صفة إلهية أو قدسية. وقام رجل بين يديه، فأخذته رعدة شديدة وهيبة عظيمة فبادره قائلاً له: هُوَنٌ عليك فإنى لست بملك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد، وهو ما قُطِعَ من اللحم ومُلِحَ وجُفِّفَ في الشمس. وسُرِّيَ عن الرجل وزال عنه التهيب ونطق بحاجته. وكان يكنس

المساواة أمام
الله ولا
كهنوت ولا
طبقية

بشرية
الرسول

بيته ويخيط ثوبه ويخصف نعله ويحلب شاته ويعقل بعيه ويأكل مع خادمه. وكان يحمل الحجارة في بناء مسجده حتى لا يتميز عن العمال فيه، وبالمثل شارك أصحابه في حفر الخندق بغزوة الأحزاب. وكان يجالس أصحابه من الفقراء والمساكين ويؤاكلهم ويعود مرضاهم، وكان يمشى مع الأئمة والأرملة والمساكين في المدينة ليقضى لكل منهم حاجته. وكان المسلمون يقتدون به في هذه الصور من المساواة، واتخذوها قانونا اجتماعيا ملزما لكل مجتمعاتهم في أمتهم الإسلامية شرقا وغربا، فلا عنصرية ولا جنسية ولا أى فارق بين مسلم ومسلم فالجميع متساوون. وهو احترام قويم لآدمية المسلمين والبشر جميعا: أن يكونوا متساوين في جميع الحقوق والواجبات الدينية والاجتماعية والخلقية، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

الفصل العاشر

من الزكاة وزواج الرسول بعائشة إلى وفد نصارى نجران

١

الزكاة - زواج الرسول بعائشة أ - الزكاة

فُرضت الزكاة على الأمة الإسلامية عقب المؤاخاة التي عقدها الرسول بين المهاجرين والأنصار وهي عقد بين الله وأفراد المسلمين فردا فردا بحيث أصبحت مثل الصلاة جزءاً لا يتجزأ من الدين، إذ يتحتم على كل مسلم فى يسار أن يؤديها للفقراء واحتاجين إليها فى الأمة؛ فالمسلم لا يعيش لنفسه وحدها بل يعيش لها وللفقراء والبؤساء المساكين من أُمَّته. ويتكرر فى القرآن الكريم الأمر مع الصلاة بالأمر مع الزكاة فى مثل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وهو يقول إن مثل حقى عليكم فى العبادة والصلاة حق إخوانكم من الفقراء واحتاجين. والله - بذلك - يقيم فى حياة الأمة الإسلامية ركنا أساسيا من أركان الدين أن يترابط الأغنياء فيها والفقراء ترابطا اقتصاديا سليما بحيث لا ينعم غنى بشراء ويتمتع بطيبات الأرض ومتاع الدنيا ويمضى دون حق لأفراد الأمة المحتاجين يؤديه إليهم. وجعل الله هذا الحق ضريبة سنوية يقدمها الثرى إلى الفقير. وسُمى هذا الحق زكاة أى ثماء، فهى لا تنقص مال الثرى بل تُنمّيه وتزيده.

العدالة
الاجتماعية

والإسلام - بذلك - يقيم قانون توازن وعدالة بين أفراد الأمة الإسلامية بحيث يصبح للفقر والحرم حق معلوم في مال الثرى الميسور بحيث يحس الفقير في الأمة الإسلامية أنه لا يعيش وحده، بل إن فيها من يُعينه ويردُّ عنه بؤسه أو على الأقل شيئاً منه. ولذلك كان أبو بكر الصديق مصيباً كل الإصابة حين عدَّ الزكاة مرادفة للإسلام وعدَّ من أنكرها من العرب كافراً قد كفر بربه حين جحدتها وأنكرها، إذ رأى في مُنكرى الزكاة من العرب لعهد خلافته خارجين على قوانين الإسلام وركنه الوطيد، بل لقد رآهم مرتدين تبغى حربهم وردهم إلى الدين. وراجع عمر بن الخطاب في عزمه الصلْب على قتالهم قائلاً له: كيف نقاتلهم؟ وقد قال رسول الله ﷺ: "أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها". فردَّ عليه أبو بكر قائلاً: أليس قد قال إلا بحقها، لأقاتلنَّ من فرَّق بين أداء الصلاة وأداء الزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال. ونشبت - في عهده حروب الردة في الجزيرة العربية - وانتصر أبو بكر وانتصرت قواعد الزكاة التي أرساها الله للإسلام. وحمل العرب - بعد أن انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى - روح هذه العدالة الاجتماعية في الأمة الإسلامية إلى جميع البقاع والشعوب التي فتحوها، وطُبِّقت عليها قواعدها من حين فتوحها إلى اليوم، طوال أربعة عشر قرناً بل تزيد. ولم يُجْعَل قانون الزكاة ثقيلاً بحيث يصعب على المسلمين تحمُّله، إذ كان - ولا يزال - العشر في حصيدة الأرض التي تُزْرَع دون مئونة، ونصف العشر في حصيدة الأرض التي تُزْرَع بالآلات، وربع العشر في رءوس الأموال وفي عروض التجارة.

وهذا القانون إنما هو في الزكاة الواجبة على كل مسلم سنوياً. وبجانبتها زكاة مندوبة، سماها الله صدقة من الصدقة كأنها تحدث نوعاً من المودة بين المسلم الثرى وأخيه الفقير. وما يزال الله في القرآن الكريم يرغب المسلم في عمل البر وفي كل طرق الخير ومنها الصدقة، ويقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُلْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ فالحبة ليست بسبعمئة حبة فحسب، بل إن

الصدقة

الله يزيدنا أضعافا مضاعفة. ويأمر المتصدقين بأن لا يؤذوا من يعطونهم صدقاتهم بأى صورة من صور المن، كأن يقولوا لهم لولانا لجُعتم، وينبغي أن تشكرونا ونحو ذلك، ويقول الله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾؛ فالكلمة الطيبة خير من الصدقة المشفوعة بالمن والتطاول على الفقير، إذ تصبح صدقة ملوثة أو مُسَمِّة. ويقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، والله يأمر المتصدقين أن تكون صدقاتهم - إذا كانوا تجارا - طيبة ولا شبهة فيها - وإذا كانوا زراعا - جيدة وليس فيها غش؛ فلا يتصدقون بخبيث المال والشمار والزروع، ويقول لهم إنكم لو أُعْطِيتُمْ شيئا من خبيث المال والزروع والشمار لأَيْتَمُوهُ وَرَفَضْتُمُوهُ. ويقول للمتصدقين: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ فلا بأس أن يظهر المتصدق على الفقير صدقته ويعلمها، ولكن أفضل منها صدقة السر حفظا وصيانة لماء وجه الفقير. وكان الله يرى الفقراء أبناءه وأحباءه، فهو يَنْهَى المتصدق عن المن والتطاول عليهم، ويأمره أن يتصدق عليهم من خير أمواله وزروعه وثماره، ويستحب لهم صدقة السر حتى لا يخدش المتصدق حياء الفقير أى خدش. ويسمى الله الزكاة والصدقة جميعا قرضا، فأنت لا تعطى زكائك الواجبة عليك وصدقك المتطوع بها للفقير، إنما تعطيهما لله سُلْفَةً وقرضا. يقول - تَقْدَسُ اسْمُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ وهو قرض مستثمر استثمارا عظيما، استثمارا إلهيا لا يماثله أى استثمار بشري، إذ يَعِدُ - ووعدته حق - أنه سيضاعف المقرض على قرضه أضعافا كثيرة، ويقول إنه يقبض القرض ويبسط الجزاء ويتوسع فيه. وتلا الرسول هذه الآية على الصحابة، فقال له أبو الدحداح (من أغنياء الأنصار): أَوَيْرِدَ اللهُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قال الرسول: نعم يا أبا الدحداح. فقال له: أرني يدك. فناوله الرسول يده قائلا: فإنى قد أقرضت ربى - عز وجل -

حائطي. وكان فيه ستمائة نخلة، فبشّره الرسول بالجنة. وفي حديث قدسي يعاتب الله يوم القيامة مسلماً شحيحاً طلب منه فقير طعاماً فيخل به، يقول الرسول: "يقول الله - يوم القيامة - يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. قال ابن آدم: يا رب كيف أطعمك وأنت ربّ العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه؟". ويذكر الرسول سبعة يظلمهم الله - يوم القيامة - يوم لا ظل إلا ظله، ويذكر منهم المتصدق حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه. ويقول إن من يكتسب لأرملة أو مسكين دواماً له أجر المجاهد في سبيل الله والمُصلّي الذي يصلي ليل نهار.

وبهذا الركن الثابت في الإسلام ركن الزكاة الواجبة على المسلم والمندوبة فيما يؤديه للفقراء من الصدقات حلّ الإسلام مشكلة الفقراء والأغنياء في الأمة الإسلامية، فلم يعد الفقراء يعيشون عالة على المجتمع بل أصبح لهم حق معلوم في الزكاة الواجبة ومنسوب إليه في الصدقات، وهو حق أتاح للمجتمعات الإسلامية ضرباً من العدل الاجتماعي لم يُنحَ لمجتمعات الديانات السماوية قبله ولا لأي أمة؛ فقد أتيح للأمة الإسلامية وحدها لأول وآخر مرة وعمّت قواعده وقوانينه في جميع الشعوب الإسلامية من الهند إلى قرطبة في الأندلس. ورصد المسلمون للفقراء أوقافاً كثيرة، وجعلوا لها في كل دولة من دولهم وزارة أوقاف ترعاها وتوزع منتوجها توزيعاً خيرياً سليماً. وستظل البلاد الإسلامية أمينة عليه إلى أبد الآبدين لأنه ركن أساسي في الدين، وقوانينه راسخة فيه مستقرة في كيانه، إذ جعله الله عبادة له مثل الصلاة؛ وبذلك أرضى الإسلام الفقراء في دياره على مر العصور. وإذا قارنا بين هذا العدل الرباني والعدل الذي حاول زعماء الشيوعية نشره في العالم (في العصر الحديث) لاحظنا أن العدل الإسلامي الرباني يحترم حرية الإنسان في ماله مع التنازل سنوياً عن جزء منه للفقراء نظير أجر أو ثواب كبير رباني، بخلاف العدل الشيوعي فإنه يقوم على القهر وحرمان الإنسان من ماله وإنتاجه المادي والفكري مع إلحاد مستمر على الله ودياناته؛ فكان طبعياً أن يخفق في عقر داره: الاتحاد السوفيتي بعد سبعين عاماً من تطبيقه.

حلّ
مشكلة الفقراء
والأغنياء

ب - زواج الرسول بعائشة

قبل هجرة الرسول إلى المدينة بنحو سنتين أى بعد وفاة السيدة خديجة بمدة غير قليلة رأى الرسول أن يتزوج سَوْدَةَ أرملة صحابى هاجر إلى الحبشة وهاجرت إليها معه، وعاد معها إلى مكة ومات بها، فتزوج بسودة رسول الله توثيقاً للمودة بينه وبين من هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من طغاة ملّة الوثنيين. وفي الوقت نفسه تخطب إلى صديقه أبى بكر ابنته عائشة، ولم يقترن بها قبل الهجرة، بل أجّل ذلك إلى ما بعد هجرته، وفي يوم الأربعاء من شوال فى السنة الأولى للهجرة بنى بها. ويتعلق أعداء الإسلام بما رُوِيَ خطأ من أن الرسول بنى بها، وهى بنت تسع سنوات قائلين كيف يبنى بصبية، وهو فى سن الخمسين، ولم يكن سنّها تسعاً، فقد نقل ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحاق أنها من أوائل من أسلمن وأنها أسلمت مع أختها أسماء التى كانت تحمل الطعام إلى الرسول وأبيها فى غار ثور، ويروى البخارى فى صحيحه عنها فى تفسير سورة القمر أنها تلت بعض آياتها وقالت إنها نزلت على الرسول وإنى لجارية ألعب بمكة، ومعروف أن سورة القمر نزلت على الرسول ﷺ فى السنة الخامسة من مبعثه، وقد مكث الرسول بعد نزول سورة القمر عليه ثمانى سنوات بمكة. ومعنى ذلك كله أن خبر بناء الرسول بها وهى بنت تسع سنين غير صحيح وأنها كانت فى نحو الثامنة عشرة على الأقل أو فى نحو العشرين، ووجدت فى الرسول دائماً الرعاية الطيبة، وكانت فى منتهى الذكاء، ولها فضل كبير فى الحديث النبوى، فقد روى الثقة عنها أكثر من ألفى حديث نبوى كان لها أثر مهم فى الشريعة الإسلامية.

٢

الأذان - القبلة - الصيام - زكاة الفطر

- الأذان

لما استحكم الإسلام فى المدينة بعد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وبعد دستور الرسول للأمة أو معاهدته لهما ولليهود، شاور الرسول ﷺ أصحابه فى

الإعلام بالصلوات (وقيل كان ذلك في السنة الثانية) وكان الصحابة يجتمعون إليه في مواقيتها دون اتخاذ وسيلة للإعلام بها. وقال بعض الصحابة نتخذ ناقوسا كناقوس النصارى، وقال بعضهم نتخذ بوقا كبوق اليهود، وقال البعض الآخر نوقد نارا ونرفعها، فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة، وقال بعضهم نبعث رجلا ينادى بالصلاة. وبينما الرسول مشغول بهذا التشاور إذ رأى عبد الله بن زيد رؤيا للنداء بها، فأتى الرسول ﷺ فقال له: يا رسول الله طاف بي في هذه الليلة طائف في النوم: رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده، فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فسألني ما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت وما هو؟ قال: تقول:

اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أَكْبَرُ.
أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.
أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.
حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ. حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ.
حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ. حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ.
اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أَكْبَرُ. لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

فقال الرسول ﷺ: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فآلقها عليه، فليؤذن بها. وهو نداء يهز القلوب بحق في كل مكان به مسلمون يؤدون الصلاة لربهم. الله أكبر من كل متاع دنيوى. ويقول ابن إسحاق: وكان الرسول ﷺ قد رأى نفس الرؤيا، ولذلك قال إنها رؤيا حق وكان عمر أيضا قد رأى نفس الرؤيا، وفوجئ بلال ينادى بالأذان للصلاة، فذهب إلى الرسول ﷺ، لينخبره بما رأى فقال له: سبقك بها الوحى. وكان الأذان رؤيا صادقة للرسول طابقت رؤيا

بلال والأذان

لعبد الله بن زيد الخزرجي ولعمر بن الخطاب. وظل بلال يردد نفس الأذان في الصلوات الخمس طوال حياة الرسول ﷺ، واعتزله بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، وخرج مجاهداً مع جيوش الفتوح في الشام، والمرة الوحيدة التي أذن فيها بعد اعتزاله أذانه حين زار الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس حين أبى قسُسُها ورهبانها تسليمها إلا إليه، وبينما هو جالس مع القسس عصراً همس شخص في أذنه: إن صلاة العصر ستفوت. وكان مع القسس في كنيسة القيامة، فقالوا له لتصلّ هنا في الكنيسة. فقال لهم: كلاً، إني أخشى أن يحوّلها المسلمون مسجداً بحجة أني صلّيت فيها. وصلّى العصر بجوارها، وأذن بلال له في موقع صلاته الذي تحوّل إلى مسجد باسم مسجد عمر بيت المقدس. والأذان يبدأ بالتكبير وتليه الشهادة بوحداية الله ورسالة رسوله وتليهما المناداة إلى الصلاة والفلاح بكلمة "حي" بتشديد الياء وفتحها أي أقبل. ويختتم الأذان بوحداية الله: الدعوة الأساسية للإسلام، ويهتف به المؤذّنون من مآذن المساجد جميعاً في العالم خمس مرات في اليوم مع كل صلاة.

ب - القبلة

كان الرسول يؤلّي وجهه في الصلاة طوال مقامه بمكة نحو بيت المقدس الذي بناه سليمان رسول بني إسرائيل وملكهم في القرن العاشر قبل الميلاد، وأصبح منذ هذا التاريخ دار أنبياء بني إسرائيل. وكان الرسول يتّجه إليه في صلاته - كما قلنا - بمكة، وقيل إنه كان يتّجه فيها إلى الكعبة أو يجعلها بينه وبين بيت المقدس. والقولان ضعيفان، والصحيح - كما روى عن ابن عباس - أنه كان يتّجه حينئذ إلى بيت المقدس، وكان من الصحابة من يرى أنه من الأفضل الاتجاه في الصلاة إلى الكعبة بيت إبراهيم وابنه إسماعيل أبي العرب العدنانية، ويمثلهم البراء بن معرور الأنصاري الذي أسلم على يد مصعب بن عمير، وكان أحد كبار رجالات الوفد اليثربي الكبير المؤلف من ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين لبيعة الرسول بيعتهم الثانية الكبرى كما مرّ بنا، وكان طوال رحلته مع الوفد من

المدينة إلى مكة يتخذ الكعبة قبلته في صلاته رافضاً أن يتجه فيها إلى بيت المقدس، وذكر ذلك للرسول حين لقيه، فقال له: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها يريد الرسول قبلة بيت المقدس، غير أنه لم يأمره بإعادة الصلاة، وارتضى صلاته.

ولما نزل الرسول المدينة ظل خمسة عشر شهراً يتخذ قبلته في الصلاة بيت المقدس، أى حتى شهر رجب من السنة الثانية، إذ صلى الظهر بأصحابه وتحول بعد ركعتين منه مستقبلاً الكعبة في الركعتين التاليتين وتحول معه المصلون وأصبحت الكعبة قبلة المسلمين في الصلاة، فجميع المسلمين في بقاع الأرض يتجهون إلى الكعبة يومياً خمس مرات، وإذا عرفنا أن التوراة ليس فيها قبلة لليهود وبالمثل ليس في الإنجيل قبلة للنصارى عرفنا قدر الإسلام وأنه وحّد أمتة توحيداً لا يماثله توحيد باتجاه جميع أفرادها في مشارق العالم ومغاربه إلى الكعبة مراراً وتكراراً كل يوم من الصباح إلى المساء.

الكعبة قبلة
المسلمين

وكان الرسول ﷺ - قبل اتخاذه الكعبة قبلة للصلاة - يردّد نظره إلى السماء، ينتظر الوحي من ربه، ليعلم هل يجوز الله له أن يتخذ الكعبة قبلة له، ونزل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أى لنُوَلِّجَنَّكَ إلى قبلة تودّها، وهو وعد كريم من الله لرسوله وقد أنفذه سريعاً، إذ قال له: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ لِشَطْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى فاتجه في صلاتك نحو الكعبة ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وهو أمر للمسلمين أن يتخذوا الكعبة قبلة لصلاتهم. ويقول الله: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، إذ يعلمون أن الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل لعبادة الناس لربهم وتوحيده، فهي أقدم بيت ديني وُضع للناس كي يعبدوا فيه ربهم، والكعبة لذلك أولى من بيت المقدس المبني في عهد سليمان لتكون قبلة للرسول والمسلمين. ويكرّر الله في آيات تالية لهذه الآية الأمر بالتوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام، يريد الكعبة، ويقول الله إنه حوّل قبلة الصلاة لكم من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿لَعَلَّكُمْ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ والمراد بالناس اليهود والمشركون، فقد كان

اليهود يقولون إنه يصلّى إلى بيت المقدس ولا يتبع ديننا. وكان المشركون من العرب يقولون إن محمداً يذكر أنه على ملة إبراهيم ويخالف قبلته؛ فانقطعت حجة اليهود والمشركين جميعاً بتغيير قبلة المسلمين في الصلاة إلى الكعبة إلى أبد الآبدين.

ويخطئ بعض المستشرقين فيزعم أن محمداً لما رأى اليهود لا يرغبون مهادنته بذل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وهى أول بيت دينى بناه إبراهيم وابنه إسماعيل لعبادة الله منذ أوائل الألف الثانية قبل الميلاد، ومن العجب أن بعض اليهود يقول إن السور المكية لا تحمل إشارات إلى الحنيفة دين إبراهيم ولا إلى إبراهيم. أما أن الرسول غير القبلة حين اختلف مع اليهود فتكذبه الآيات السالفة وأن الله هو الذى بذلها للرسول والمسلمين. وأما أن السور المكية ليس فيها إشارة إلى الحنيفة ولا إلى إبراهيم فتكذبه سورة الأنعام المكية - فضلا عن سورتي يونس والروم المكيّتين - فقد ذكر فيها أربع مرات فى حوار مع أبيه ينكر عليه عبادة الأصنام ومع قومه ينكرون عليه عبادة الله، ومع نفسه فى إيمانه بالله مستدلاً عليه بأن النجوم وكوكبى القمر والشمس تغرب جميعاً فلا تصلح أن تكون آلهة، ويبدو أن قومه كانوا صابئة يعبدون الكواكب. ويقول الله لرسوله فى سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فمنذ دعا الرسول إلى الإسلام كان على ملة إبراهيم حنيفاً أى مائلاً عن عبادة الأوثان مثله، ولذلك سُمي الإسلام دين الحنيفة. ويقول الله فى نفس السورة لرسوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا﴾ من اليهود والنصارى ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أى أنك لا تتبعهم بل تتبع إبراهيم ورفضه لعبادة الأصنام حنيفاً عابداً الله وحده.

وبدون ريب أراد الله بتبديل القبلة أن يصبح الإسلام ديناً مستقلاً تمام الاستقلال عن اليهودية والنصرانية، له هوية تميّزه، وإن اشترك معهما فى أصول الدين وعبادة الله وحده. ولم يحاول أى دين من الديانات أن تكون له ولائباعه قبلة معينة فى صلاتهم توحيدهم، والمسلمون فى كل بقاع الأرض جميع

القبلة توحيد
المسلمين فى
جميع بقاع
الأرض

القارات يتجهون إلى الكعبة كل يوم لأداء فروض الصلوات الخمس في أى مكان هم فيه، شرقاً أو غرباً، وشمالاً أو جنوباً. وعلى كل مسلم - إن استطاع - أن يقدم إلى الكعبة للحج مرة في حياته ويطوف بها ويصلى في الحرم المكي بجوارها مع القادمين إليها من أطراف الأرض.

ج - الصيام

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض صوم شهر رمضان، وهو الشهر التاسع في السنة القمرية العربية التي تفتح بشهر الحرم، وله فضيلة على جميع أشهر السنة بأول نزول للقرآن الكريم فيه، يقول الله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وإرشاداً لهم كي يؤمنوا بالله ورسوله ودينه الحنيف ﴿وَيَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أى ودلائل واضحة هادية وفارقة بين الحق والضلال ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أى فمن حضره في بلده فليصمه فهو فريضة واجبة على كل مسلم ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ في شهر غيره ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. وبذلك ذكر الله رخصة الإفطار في شهر رمضان وأعقبها ببيان عام في الشريعة الإسلامية هو أنها تقوم على اليسر، فهو أصل راسخ فيها تخفيفاً على المسلمين ورفقاً بهم.

قيام شريعة
الإسلام على
اليسر

ومعنى الصيام في اللغة الإمساك، ومعناه في الإسلام وشريعته الإمساك عن الطعام والشراب وغيرهما من المفطرات من الفجر إلى غروب الشمس. وهو رياضة روحية للمسلم البالغ على ترك الشهوات والملذات طوال شهر يتجه فيه إلى ربه، يعبد حقه عبادته آملاً في أن يحقق لنفسه التقوى كما قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وليس الغرض من الصيام إذن مجرد الإمساك عن الطعام والشراب، بل الغرض التقوى وتسامى الإنسان عن المتاع المادى إلى المتاع الروحى إعلاءً لروحه على جسمه وسمواً بإنسانيته وما يشعره الصيام به من عون

الصيام
سمو روحى

الفقراء والمحتاجين؛ فيمد إليهم يد المساعدة بالمال والطعام، ويقول الله في حديث قدسى: "كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فهو لى، وأنا أجزي به". والصيام مع هذا الجزاء الربانى يفتح أبواب الجنة للصائم وقاية له من الانهماك فى الملذات، وتطهيراً لنفسه من شغفها بالشهوات، وهو فى الوقت نفسه تدريب قوى لتمارين المسلم على الصبر وتحمل المشاق فى حياته، وخاصة فى الحرب. والصيام - بذلك كله - تربية عظيمة للمسلم وسمو بروحه وإنسانيته، سوى ما يحظى به من العطاء الربانى.

د - زكاة الفطر

وبعد فرض الصيام فى رمضان فُرِضت زكاة الفطر على الصائم بحيث تخرج عن الصغير والكبير والذكر والأنثى، ومقدارها عن كل فرد إطعام فقير فى يوم العيد تخفيفاً عنه من فقره وبؤسه، ويدخل ذلك فى القرض الحسن الذى وعد الله مُقرضه بمضاعفته له أضعافاً كثيرة. وكان الرسول ﷺ يصلى العيدين: الفطر والأضحى قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة. وكان يشتري كبشين لعيد الأضحى. وإذا صُلِّي وخطب أتى بأحدهما، وذبحه بيده بالمدينة، وقال: هذا عن أمتى جميعاً، مَنْ شهد لله بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ. ثم يُؤْتَى له بالآخر فيذبحه ثم يقول: هذا عن محمد وآل محمد. وكان يأكل منه هو وأهله ويطعم المساكين.

احتدام جدل اليهود

لم يكن اليهود يرتضون معاهدة الرسول بين المهاجرين والأوس والخزرج من جهة وبينهم ومعهم مشركو يثرب من جهة ثانية، وعادوا يفكرون فى الأمر، وخاصة أن المعاهدة نصّت على أن يسود فى الأمة السلام وأن لا يُجير اليهود والمشركون لقريش مالا ولا شخصاً وأن تتضامن يثرب بكل سكانها على من يحاول الاعتداء عليها، فهم أمة واحدة من دون الناس. وزاد فى قلقهم أن حَبْرًا

من أحبارهم هو عبد الله بن سلام أسلم وجعل أسرته تسلم معه، وأسلم بعض اليهود فخشوا أن يشيع الإسلام في جماعتهم، فهل يتركون عقيدته تنتشر بينهم أو يبادرون بمعارضتها وبيان أن محمدا ليس رسولا من قبل الله؟ ولكن كيف يعارضونه، وهم كثيرا ما كانوا يستفتحون ويستتصرون بنبي يُبعث للأوس والخزرج حين ينشب خلاف بينهم قائلين لهم إنه تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، وهو ما جعل الأوس والخزرج حين بعث الله رسوله محمدا تسرعان إلى إجابته والإيمان برسالته، بينما كفر به اليهود كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة في التوحيد أصل عقيدتهم ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ به من الأوس والخزرج الوثنيين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾. ويقول الله في سورة آل عمران ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ويقول: ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

زعم اليهود
بأن رسولا
سيبعث
وينصرهم

وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ جعلهم في معاهدته التي وضعها دستورا للأمة جزءا لا يتجزأ منها، وأن الأجزاء الأخرى من المهاجرين والأنصار ترد معهم كل عدوان عليهم، لم يلبث اليهود أن صمموا على الكيد له وللإسلام، فهم أولا يجادلونه في نبوته وأنه ليس رسولا من قبل الله، وهم يطلبون منه إن كان رسولا حقا معجزات كمعجزات رسولهم موسى، وهم يصدون اليهود وغير اليهود عن اعتناق الإسلام، وهم يحاولون رد الأوس والخزرج إلى دينهم الوثني والعودة إلى نشوب الحرب بينهما كما كانوا في الجاهلية، وهم لا يجادلون في الدين الرسول وحده، بل يجادلون معه الصحابة.

معارضة
اليهود

ويستخدم الجدل بينهم وبين الرسول ويقف معه القرآن على نحو ما نرى في الجزء الأول من سورة البقرة، إذ يصور الله نعمه عليهم في عهد موسى، وهم ينحرفون معه عن الصراط المستقيم، حتى لقد عادوا - حين غاب عنهم أربعين يوما في جبل الطور لحمل وصايا الله لهم في التوراة - إلى عبادة عجل أبيس

رد القرآن
على اليهود

الذى كانوا يعبدونه فى مصر، وصنع له السامرى تمثالاً له عكفوا على عبادته إلى أن رجع إليهم موسى وعنفهم على كفرهم بالله. وظلوا يعصونه مراراً، ويعدّد الله ما أهدقه عليهم من النعم، وفى أثناء ذلك يردّ عليهم جدالهم للرسول ومزاعمهم، من ذلك ما زعموه من أنهم لن يُعذبوا فى النار إلا أياماً معدودة، بعدد الأيام الأربعين التى عبدوا فيها العجل، بل قالوا إن الدنيا ستعمر سبعة آلاف سنة وستعذب يوماً عن كل ألف سنة، ورد الله عليهم هذا الزعم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا... أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهو رد فيه سخرية شديدة إذ لم يعطهم الله عهداً بذلك بل يفترّون عليه. وأكثر من ذلك أنهم زعموا أن نعيم الآخرة فى الجنة خاص بهم ولن يناله أحد سواهم، وردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، إذ قدمت أيديهم كثيراً من الذنوب والآثام ولذلك يخافون من الموت أشد الخوف لما سينزل بهم من العذاب. وكانوا يُكثرون من جدال الرسول قائلين: إن الله لم ينزل على الرسول القرآن، وأنه افترأ من عنده على الله. وردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾. ومما تحدّوه به قولهم له: اتنا بكتاب ينزل عليك من السماء كما نزلت التوراة على موسى، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وفى القرآن كثير من الأسئلة التى كانت تُفرض عليهم إلى الكفر، كقولهم لموسى ما ذكر الله فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. وفعلاً طلبوا ذلك من الرسول، فقالوا له: يا محمد إن كنت رسولا حقاً من عند الله فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله فى ذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من اليهود ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلُنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ». وكثير منهم كانوا يحسدون الرسول لنزول الوحي بالقرآن على رجل من العرب، ولم ينزل على رجل منهم كما نزل على موسى وعيسى وأنبيائهم. وكانوا يحاولون أن يردوا من أسلم من الأوس والخزرج إلى الوثنية، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾. ولما صُفِّت القبله عن بيت المقدس إلى الكعبة - كما مرَّ بنا - أتى نفر من اليهود إلى الرسول فقالوا له: يا محمد ما ولأك عن قبلك التي كنت عليها؟ قبله بيت المقدس - محتجِّين عليه بأنه يزعم أنه على ملة إبراهيم ودينه - فارجع إلى قبلك التي كنت عليها. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ أَيُّ الْيَهُودِ وَمَا لَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي أن الجهات في الأرض ملك لله. ومعروف أن بيت المقدس بناه سليمان بعد بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة بنحو ألف عام.

وهذه أطراف مما رواه ابن إسحاق في السيرة مما يتصل ببعض آيات القرآن في الجزء الأول من سورة البقرة، وفي سور القرآن - خصوصا الطوال - جدل مماثل لليهود في بعض آياتها، من ذلك أن نفرا من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فكلَّموه وكلَّمهم، ودعاهم إلى الله وحذَّره من نقمته، فقالوا: لا تخوِّفنا يا محمد نحن والله أبناء الله وأحباؤه، فنزل فيهم وفي أمثالهم من النصارى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾. ودعا رسول الله بعض اليهود إلى الإسلام، وحذَّره من عذاب الله وعقابه، فرفضوا دعوته، فقال لهم بعض من كان مع الرسول من الأنصار: يا معشر يهود اتَّقُوا اللَّهَ فوالله إنكم تعلمون إنه رسول الله، إذ كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، فقالوا لهم ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُم عَلَى فِتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ

جدل
اليهود

وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾. وَأَتَى رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فغضب رسول الله غضبا شديداً، فأنزل الله رداً عليهم سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

ولم يكن اليهود يجادلون الرسول وحده، بل كانوا أيضاً يجادلون الصحابة ويتغون فنتهم وأنى لهم؟! من ذلك مجادلة أبي بكر وفحاص أحد أحبارهم، فقد دخل أبو بكر يوماً بيت المدراس الذى يتدارسون فيه التوراة وتجادل معه، وكان مما قاله فحاص له: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا. فغضب، وضرب وجه فحاص ضرباً شديداً، وقال: والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله. فذهب فحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً؛ إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال وضربت وجهه. فأكرر ذلك فحاص وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله تعالى فيما قال فحاص رداً عليه وتصديقاً لأبى بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ودسَّ اليهود بين المسلمين نفراً منهم يتظاهرون لهم بأنهم مسلمون وهم يطنون اليهودية والكفر بما جاء به الإسلام بقصد تشكيك المسلمين فى دينهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى لعل المؤمنين يرجعون إلى دينهم الوثنى. واستجاب لهم نفر منهم كانوا ما يزالون يوردون على المسلمين ما يحاولون به تشكيكهم فى دينهم. وكانوا يكثرون من

منافقون
من اليهود

أسئلة الرسول كيذا له، فكان يردّ كيدهم في نحورهم ويفحمهم المرة تلو المرة. وكان المسلمون حين يعظّمهم الرسول يقولون له راعنا أى زدنا وارفق بنا، وكان اليهود يستخدمون نفس الفعل من الرعونة أى الحمق سبًا وشتما لخديّتهم، فانتهاز الفرصة منافقوهم المتظاهرون بالإسلام فكانوا يستخدمونه كثيرًا فى خطاب الرسول، فنزل القرآن يقول للمسلمين: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ أى زدنا وارفق بنا. وكان الرسول يعرفهم، واجتمعوا فى المسجد يوما لاستماعه وكان يعرف أنهم يهزأون بما يسمعون، فأمر بطردهم من المسجد فأخرجوا إخراجا عنيفا. وكان يمثّل هؤلاء المنافقين من اليهود منافقون من الأوس والخزرج سمّاهم مؤلفو السيرة، وفى مقدمتهم عبد الله بن أبيّ الخزرجى، وكان قومه قد فكروا فى توليته بعد حرب بعاث بين الخزرج والأوس مَلِكًا عليهم ليحقن دماءهم، وجاءهم الله برسوله فانصرفوا عنه إلى الإسلام، فدخله كارها على نفاق وضعن شديد، ونلّت منه أشياء تغضب الرسول والمسلمين، وظل الرسول - بخلقه الكريم - رفيقا به ويعفو ويصفح حتى وفاته.

منافقون
من الأوس
والخزرج

٤

وفد نصارى نجران

فى أثناء احتدام الجدل بين الرسول واليهود فى السنة الثانية قدم على رسول الله ﷺ وفد من نصارى نجران، فيه العاقب أميرهم وصاحب مشورتهم، واسمه عبد المسيح، والسيد القائم بأمرهم وشتونهم، واسمه الأيهم، وإمامهم وحبّهم وأسقفهم واسمه أبو حارثة. وكان الوفد مؤلفا من ستين شخصا نصرانيا، ودخلوا على رسول الله ﷺ مسجده، وأخذوا يعرضون عليه عقيدتهم وأن المسيح هو ابن الله، وهو ثالث ثلاثة، وجاء اليهود يستمعون إلى حوارهم، وأخذوا يناقشونهم مع الرسول فى عقيدتهم. وبذلك قام فى المدينة مؤتمر كبير للديانات الإلهية الثلاث: اليهودية وإنكارهم للإسلام والمسيحية وكل ما يتصل بعقيدتها النصرانية وما يقولون به من ألوهية عيسى وأن الله ثالث ثلاثة والإسلام وما

مؤتمر
للدّيانات
الإلهية الثلاث

يعتقد به المسلمون من وحدانية الله وحدانية مطلقة. وكان أول سؤال وجهه وفد نصارى نجران إلى رسول الله ﷺ بمن يؤمن المسلمون من الرسل وتؤمن معهم، فقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. ولما ذكر عيسى جحد اليهود نبوته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا بمن آمن به. وكنا نتمنى لو أن حوار هذا المؤتمر وصل إلينا كاملا، فقد أوجزه ابن إسحاق في السيرة وتبعه مؤلفوها بعده، غير أن الآيات المائة الأولى في سورة آل عمران ذكرت كثيرا من الإشارات إلى هذا الحوار، وما سجّلته الآية رقم ٢١ في السورة على اليهود أنهم يقتلون النبيين بغير حق، وسجّلت عليهم الآية رقم ٢٤ أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات، كما سجّلت الآية رقم ٣٣ الإشادة بآل عمران آل مريم وعيسى ردّا على اليهود، وسجّلت كثرة من الآيات قصة مريم وابنها عيسى التي يكذبها اليهود، وسجّلت الآية رقم ٧٢ دسّهم نفرا منهم يعلنون أنهم مسلمون نهارا ثم يكفرون بالإسلام في آخره نفاقا محاولين تشكيك المسلمين، إلى غير ذلك من آيات تكذيبهم وخاصة فيما ادعوه من يهودية إبراهيم.

الرد
على اليهود

أما النصارى فقد كثرت الآيات التي تشير إلى حوارهم في عقيدتهم وأن الله ثالث ثلاثة، والله يفتح السورة بقوله: ﴿آلَمْ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فالله منزّه عن أن يكون له شريك في أمره كما يزعمون، وهو حي لا يموت، وهم يقولون إن عيسى مات وصلب، وهو قيوم لا يزول عن سلطانه، وقد زال عيسى عن الدنيا. ومما ردّ به الرسول على ما زعموه من ألوهية عيسى ما جاء في الآية السادسة من السورة نفسها عن الله، إذ تقول: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهم لا ينكرون أنه صوّر في رحم أمه مريم مثل غيره من بني آدم، فكيف يكون إلها؟ ونزّه الله نفسه عن هذه البشرية، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيدا لوحدانيته. ويعود الله إلى تأكيد وحدانيته في الآية رقم ١٨ وأنه شهد بها الله والملائكة

حوار نصارى
نجران في
عقيدتهم
المسيحية

وأولو العلم. ومنذ الآية رقم ٣٣ يعرض الله قصة آل عمران ويقرنهم إلى آل إبراهيم ليبيان طهرهم، ويذكر أن امرأة عمران حين حملت مريم دعت الله أن يهبها غلاما تنلده لخدمة بيت المقدس، وولدت مريم فطهرها الله واصطفها على نساء العالمين، وبشرها بكلمة منه اسمه المسيح عيسى، وعلمه الكتاب والحكمة وأرسله إلى بنى إسرائيل. واحتج وفد نصارى نجران لألوهيته بخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا ويأبرئه الأكمه (الأعمى الأصم) وإحيائه الموتى وإعلامهم بما يدخرون في بيوتهم، فيقول الرسول إن ذلك كان بإذن الله كما في الآية رقم ٤٩ من السورة. وما حاوروا فيه الرسول من ألوهية عيسى أنه ليس له أب مما يدل على أنه ليس خالص البشرية، ولذلك قالوا إنه ابن الله، فاحتج عليهم بآدم، وأنه ليس له أب ولا أم فهو أولى من عيسى بالألوهية، وهو قوله تعالى في السورة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. وزعم اليهود افتراء على إبراهيم أنه كان يهوديا ورد عليهم النصارى قائلين إنه كان نصرانيا ورد عليهم الرسول بأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، إذ عاش قبل موسى وعيسى، إنما كان حنيفا وملة الحنيفة، وهى ملة التوحيد وملة الإسلام والمسلمين، يقول الله لهم فى الآية رقم ٦٧: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾. ولما كثر جدالهم للرسول دون أن يدعوا للحق مكابرة وممازاة أمر الله رسوله أن يدعوهم إلى المباهلة، وهى الدعاء بلعنة الله على الكاذب إلقاء نصارى نجران أن يعترفوا بالحق، وذلك قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أى ندع الله باللعن ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، وأبوا المباهلة خوفا من عاقبتها عليهم، وحيث طلب الرسول ﷺ من النصارى أن يصطلحوا معه على عبادة الله وحده، وارتضوا أن يؤدوا للرسول - كأهل ذمة فى أمته - الجزية. وبذلك دان نصارى نجران اليمنية للرسول وللإسلام والمسلمين، وأسلموا - فيما بعد - على يد خالد بن الوليد.

الفصل الحادى عشر

من حملات الغرب على حروب الرسول إلى بعث عبد الله بن جحش

١

حملات الغرب المسيحي على حروب الرسول

معروف أن المسيحية تدعو إلى الزهد فى الحياة زهدا يؤول بالمخلص لها إلى اعتزال العالم، وهو ما هيأ لمصر حين اعتنقتها أن تؤسس نظام الرهبنة والأديرة الذى انتشر منها للعالم، ومفروض فيه أن رجل الدين المسيحى لا يفكر فى السلطة وفرض نظام سياسى يعمل له، إنما يحرص تفكيره فى الحياة الروحية. ومع ذلك نجد الكنيسة المسيحية فى أوربا لآخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث تخلط بين تلك الحياة والحياة السياسية، مما ترتب عليه صدام شديد بين الكنيسة والدولة أو السلطة الزمنية، وظل هذا النظام أو النزاع إلى أن تم الفصل بين الكنيسة والدولة على نحو ما هو معروف.

وكانت حياة المسيح حياة محن وآلام تحمّلها من معاصريه اليهود، وانتهت - فى اعتقاد المسيحيين - بصلبه، وهذا التصور لصلبه وما عاش فيه من آلام ومحن جعلت الكنيسة تتحمل الاضطهاد الذى عانته فى قرونها الأولى، كما جعلتها تبث فى روح المسيحيين رفض الدنيا والمتاع بالآلام مما هيأ فى الغرب لعصر الاستشهاد فى سبيل المسيح، الذى لم يشغل بالتفكير لشعبه فى نظام

سياسى أو اجتماعى إذ كان النظامان قائمين فى فلسطين بيئته وفى الدولة الرومانية الحاكمة لها وكان يعمّ فيهما نظام حضارى ثابت فلم يفكر المسيح فى فرض نظام حضارى جديد على فلسطين؛ وبذلك كانت حياته حياة روحية صافية.

ولابد أن نتعرف على حياة الرسول والعرب قبل أن نقارن بين المسيحية والإسلام ونتحدث عن ضرورة الحروب فى نشر الإسلام، فقد كان الرسول زاهدا ويدعو إلى الزهد مثل عيسى، إذ كان فى المدينة لا يمسك من المال إلا بقدر حاجته فى يومه، وكان ما يأتية من المال صباحا لا يُبقى منه شيئا حتى منتصف النهار، وما يأتية مساء لا يبقى منه شيئا حتى الصباح، وأحيانا لم يكن عند زوجته طعام يهديه إلى فقير، ووصاياه كثيرة بعون الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وأبناء السبيل واليُوساء، وكان يقول: أول من يدخل الجنة الفقراء والمساكين. وأقام نظاما من العدالة الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء، وجعل للأوليين حقا معلوما فى أموال الآخرين يُؤدّى إليهم سنويا باسم الزكاة، وأضاف إليها الصدقة وجعلها القرآن قرضا حسنا لله. وبذلك وضع الإسلام نظاما لحل مشكلة الفقراء والأغنياء فى المجتمع، وهو ما لم يفكر فيه عيسى ولا رسول قبله، وبذلك يحمل الإسلام بحق - إصلاحا اجتماعيا واسعا لأُمته.

ضرورة
الحرب فى
الإسلام

وتدلّ معاهدته التى وضعها بين المهاجرين والأوس والخزرج واليهود التى مرّت بنا على ما أراد لهم من الائتلاف ولذلك سماهم الأمة، وجعل مرجع الخلاف بين أفرادها والحكم فيها إلى الله ورسوله، على أنه لم يكن هناك نظام دستورى ليثرب قبله وقد وضع هذا النظام ليكون دستورا سياسيا واجتماعيا لهذه الأمة الجديدة التى ستتحول بعده إلى إمبراطورية ضخمة يحكمها هذا الدستور السياسى الاجتماعى الذى كانت فى أشد الحاجة إليه.

ولعل فى ذلك ما يدل على اختلاف الظروف التى نشأت فيها المسيحية والإسلام، فقد كان مجتمع محمد ﷺ به فراغ هائل لنظام سياسى واجتماعى

بجلاف مجتمع عيسى فقد كان النظام الاجتماعي والسياسي مستتباً فيه، وجعل ذلك الرسول يضع شريعة للنظامين الاجتماعي والسياسي، اللذين غيراً في عصره الحياة في الجزيرة العربية، كما غيراً بعده الحياة في كثير من أقطار العالم في آسيا وإفريقيا وشرط من البلاد الأوربية، بحيث أفادت منها الحياة الإنسانية، إلى اليوم فوائد كثيرة.

الاختلاف في
نشأة المسيحية
والإسلام

أما ما يقوله الغربيون المسيحيون من أن الرسول تخلى في المدينة عن الحياة الروحانية ولجأ إلى السيف، فليس بصحيح أنه تخلى عن الحياة الروحانية فيها بدليل واضح هو أن الوحي لم ينقطع عنه، وبالتالي لم ينقطع نزول الآيات القرآنية عنه حتى أيامه الأخيرة، والصحيح أنه ساند الحياة الروحية بالسيف حين اضطر إلى ذلك، فقد كانت المدينة في طريق القوافل التجارية لمكة المصعدة إلى الشام والمنحدرة منها، وخشى الرسول أن تعدّ قريش جيشاً لغزو المدينة، فكان يرسل بعوثاً للاستطلاع خشية أن تقوم بغارة مفاجئة، يدل على ذلك أكبر الدلالة قلة عدد ما تسميه كتب السيرة سرية أي كتيبة حربية، إذ كانت تقل حتى لا يتجاوز أفرادها عدد أصابع اليدين، وخطأ تسميتها سرايا أي كتائب، إنما كانت بعوثاً يراد بها الاطمئنان على الطرق إلى المدينة خشية أن تغزوها قريش فجأة، ولم يحدث أن أعدّ الرسول جيشاً للثأر من قريش. وكتب السيرة النبوية مخطئون حين يعدّون بعوثه الاستطلاعية سرايا أو كتائب ويحسونها فيقولون إنها كانت سبعا وأربعين، ويضيفون إليها سبعا وعشرين غزوة، ولم يقاتل الرسول إلا في تسع منها، وحتى هذه التسع لم يكن في بعضها التحام بين جيشين مثل الخندق وقریظة وفتح مكة، وهو ما يجعل من الواجب على الغربيين المسيحيين أن يحقّقوا من غلوائهم وأن لا يستمروا في قولهم إن الرسول استغل الدين للسلطة والقوة وأنه طبق نشر الإسلام بالسيف. والحقيقة أنه إنما نشره بالقرآن لأن كثيرين ممن سمعوا تلاوته كانوا يشعرون أنهم في الحضرة الإلهية، على نحو ما نعرف عن عمر بن الخطاب في إسلامه. فإنه خرج يوماً من داره قبل إسلامه - كما مرّ بنا - حاملاً سيفه ليقتل محمداً كي يريح قريشاً منه، إذ فرّق جماعتها وسفّه عقولها وعاب

خطأ المؤرخين
في عدّ
بعوث الرسول
سرايا

انتشار الإسلام
بالقرآن
لا بالسيف

آلتهما، ولقيه شخص من عشيرته، وعرف مقصده فقال له: أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم، وكانت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما، فأنبأه بإسلامهما كما أسلفنا، فذهب إليهما غاضبا، وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن، ودخل على أخته فرفع شيئا كان في يده فضربها به، وسال الدم فقالت له: قد أسلمت فافعل ما بدا لك، ونظر فإذا بكتاب في ناحية من البيت فلم يزل بها حتى أعطته له، وكان به سورة الحديد، فلما قرأ في أوله "بسم الله الرحمن الرحيم" دُعر - كما يقول - ورمى الصحيفة، ثم رجعت إليه نفسه، فإذا فيها ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فدُعر، ورمى الكتاب ثم رجعت إليه نفسه، وكلما مرَّ باسم من أسماء الله دُعر، وبعد قراءته بعض آيات قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وكأنا أمسكت الآيات بخنأقه فنطق بالشهادتين، وأغمد سيفه، وذهب إلى الرسول وأعلن له إسلامه. ومثل عمر كل من دخل الإسلام قبله وبعده لأن القرآن يشعُر من يسمعه أنه في الحضرة الإلهية، وهو وجه مهم من وجوه إعجازه لم يلتفت إليه الأسلاف فضلا عن روعة بيانه وبلاغته، فيه لا بالسيف دخل الناس أفواجا في دين الله، وآمنوا برسوله ورسالته، وأيضا دخلوا لما يحمل القرآن والإسلام من تعاليم سمحة، ولم يُجبر أحدا من الأمم المفتوحة على الدخول فيه لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، إذ كفل لجميع الناس الحرية الدينية، ودخلت فيه أمم كثيرة بإفريقيا مثل نيجيريا وفي آسيا مثل أندونيسيا دون أى سيف أو سلاح أو تبشير، دخلت بقوته الذاتية.

وحين تُدرس حروب الرسول التسع التي أشرنا إليها وتدرس ظروفها يُعرف أنها كانت ضرورية لبقاء الإسلام، ولم يسم الرسول حروبه اسما يدل على تعطشه للدماء كما يقول المستشرقون مثل قطع الرقاب أو سفك الدماء، إنما سمّاها الجهاد أى المشقة ولم يجعله ركنا من أركان الإسلام، وفي حديث له وقد عاد من غزوة: "عُدْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ" أى إلى المشقة الكبرى في عمل كل ما هو خير والبعد عن كل ما هو شر.

سمّى الرسول
حروبه جهادا
ولم يجعلها من
أركان الإسلام

وعيسى وحده هو الذى ابتعد عن الحرب والخصام دون بقية الرسل حتى أُثِرَ عنه قوله: إذا ضربك شخص على خدك الأيمن فأديرْ له خدك الأيسر. وهو قانون لا يتفق وحياة الناس القائمة على الأنانية والظلم، ويؤدى بالشخص إلى قبول الهوان، وقد أخذ به عيسى ثلاثة أعوام مدة رسالته، ولو أن الرسول أخذ به فى المدينة لم يتعد الإسلام نطاقها ولا دخلت فيه مكة ولا توحدت القبائل العربية فى أمة تحت لوائه، ولا تكونت - فيما بعد - الإمبراطورية الإسلامية ولما أصبح ديننا عالميا.

وعجباً أن يطلب المسيحيون الغربيون من رسول الإسلام أن يظل بمكة، ويتقبل اضطهاد قريش وظلمها له ولأتباعه، لأن صاحب الدين والداعى له فى رأيهم ينبغى أن يتحمل إلى أقصى حد الاضطهاد والظلم والأذى الشديد وأن يصبر كما صبر عيسى متحملاً الآلام إلى النهاية دون أن ينتصر دينه فى حياته، إنما انتصر - بالصدفة بعده - عن طريق بولس وأصحابه. أما محمد فقد انتصر الإسلام فى حياته، وأخرج به العرب من حياتهم القبلية الوثنية إلى حياة أمة مجتمعة آمنت بوحدانية الله وبالإسلام وتعاليمه ومضت عن إيمان لا يمثله إيمان تحاول نشره وإبلاغه إلى الأمم فى العالم. وموقف عيسى إزاء دينه وتحمله للمعاناة والآلام فيه يُعدُّ شذوذاً بين الرسل، إذ قضى الرسل قبله بشريعة الحروب الدينية، يتقدمهم فى ذلك موسى الذى كوّن من بنى إسرائيل جيشاً اقتحم به الحروب مع جيرانه كما تذكر التوراة، وبالمثل أنبياء بنى إسرائيل وملوكهم وخاصة داود وابنه سليمان فى حروبهما مع الكنعانيين التى يقصّها كتاب اليهود المقدس، ويذكر القرآن منها فى سورة البقرة معركة داود وجالوت.

وينبغى أن يعرف الغربيون المسيحيون أن الحرب التى شرعها الإسلام ورسوله لم تكن حرباً عدوانية، وهو أول قوانينها، إذ قال الله تعالى لرسوله وللمسلمين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ والاعتداء فى الآية: الابتداء بالحرب والقتال، والله يحلّ منه، فلم تكن حروب الرسول وأصحابه التى يكثُر الغربيون المسيحيون من

أخذ
الرسول بشريعة
الحروب

حروب
الرسول ليست
عدوانية

الحديث عنها حروبا ظالمة للأعداء وإنما كانت لحمايتهم من أعدائهم، ولا كانت - كما يقولون - ظلماً لسفك الدماء، وسنعرض عما قليل لشريعتها الإسلامية وما سنّت فيها من قوانين رحمة ورأفة بالأعداء شاهرى السيوف لتسيل الدماء أنهاراً. وظل المسلمون - فى جميع عصورهم - متمسكين بقوانين الحروب الإسلامية بينما نجد النصارى فى أوربا يَفْسُونَ قسوة شديدة على أعدائهم، وتوضح الحروب الصليبية الفوارق بين حروب المسلمين الرحيمة وحروب النصارى القاسية؛ فإن الصليبيين قتلوا الأسرى من المسلمين ومثّلوا بهم ودمروا البلاد، بينما المسلمون حين كانوا يهزمونهم يحافظون على أسراهم ويعاملونهم معاملة رحيمة. وباختصار كانت حروب الصليبيين وحشية بينما كانت حروب المسلمين حروبا حضارية بفضل شريعتهم الإسلامية الحريية. وإنه ليجب على الغربيين المسيحيين أن يعترفوا بأن ما رأوه فى الديار الإسلامية أثناء حروبهم الصليبية من حضارة المسلمين هو الذى هيأهم حين رجعوا إلى أوربا أن يخرجوا من ظلمات العصور الوسطى إلى عصر الإحياء والنهضة، وبينما كان الصليبيون فى الشام يقاتلون المسلمين ويتهكون ديارهم كان زملاؤهم فى قرطبة وطليطلة بالأندلس يقعون عند أقدام علماء المسلمين لينقلوا علومهم وقد أتاحها علماء الأندلس لهم بمنتهى الإخلاص بحيث استحالت منارات لهم فى مسالكهم إلى حضارتهم الحديثة.

حروب
الصليبيين

٢

قوانين رحيمة لحروب الرسول والمسلمين

لم تكن حروب الرسول ﷺ - مطلقاً، بل قُيِّدت - منذ أول الأمر بقوانين رحيمة، وكان أول قانون فيها ما ذكرناه آنفاً من تحريم أن تكون عدواناً وأن تكون حروب دفاع لا حروب اعتداء كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وهو تحذير شديد من الاعتداء والبدء بالعدوان وقتال

حروب
المسلمين

الأعداء. وكان المشركون يؤذون المسلمين بمكة إيذاء شديداً، وكانوا يُضْرَبُونَ ويجرحون، فيتظلمون للرسول ﷺ، فيقول لهم اصبروا فإنى لم أُوامر بالقتال. ولما هاجروا وهاجر الرسول أخذوا يفكرون فى ظلم قريش لهم، إذ أخرجتهم من ديارهم وصادرت أموالهم، فعادوا فى المدينة يسألون الرسول متى يأذن الله لهم فى حرب قريش، ومضت أشهر وهم ينتظرون إذن الله فى قتال القرشيين، ونزل لهم الوحي بالإذن فى قتالهم لهم، إذ يقول الله: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ أى من المهاجرين الذين تقاتلهم قريش ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ و ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وكان العربى فى الجاهلية لا يخرج قومه عنهم إلا إذا اعتدى عليهم اعتداء شديداً، ولذلك يشير الله إلى أن قريشا أخرجت المهاجرين ظلماً ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ إذ آمنوا به ووحدوه، ويقول الله عقب ذلك: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾، والله يقول لولا أننا أذننا لأمم التوحيد بحرب المشركين وقاتلهم على نحو ما قاتل موسى جيرانه وداود جالوت وفتك به لطغى المشركون عليهم، إذ لو لم نعظم الإذن بقاتلهم لهذمت صوامع الرهبان وبيعهم أو كنائسهم وصلوات اليهود ومعابدهم ومساجد المسلمين. والله - مع ذلك - وضع للرسول والمهاجرين قانوناً لحربهم أن تكون ردّاً على اعتداء، كما اعتدت قريش عليهم بظلمها لهم، إذ أخرجتهم من ديارهم وأسروهم وأبناهم وأموالهم ولم ترع فيهم مواطنة ولا قرابة ولا رحماً ولا عهداً. وما زالت تهيب لغزوة بدر حتى نازلت الرسول والمسلمين فيها بجيش كثيف، فهى التى بدأت الحرب الكبيرة مع المسلمين فى بدر ولم يبدأها الرسول كما زعم المستشرقون. فحرب الرسول لقريش كانت ضرورة لدينه ألجأه هو والمهاجرين إليها أن قريشا كانت ستوالى ظلمها لهم وتحاول القضاء عليهم قضاء مبرماً، لأنهم يقطعون طريق قوافلها المصعدة إلى الشام والمنحدرة منها. فحرب الرسول لقريش - مثل بقية حروبه - حرب ضرورة اضطرته إليها ظروفه التى لم يعرفها الغربيون والتى زعموا - افتراء عليه - أنها كانت تعطشاً منه لسفك الدماء. وينقض ذلك أنه لم يكن يقتل

أسرى الحروب وكان دائما يقبل منهم أن يفتدوا أنفسهم وإذا أعلن الأعداء إسلامهم أصبح لهم حقوق المسلمين. وكان الرسول يقول لأتباعه حين يخرجون للغزو: "اخرجوا باسم الله، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، لا تعتدوا، ولا تثلوا" أى لا تنكّلوا بقتيل من أعدائكم فتقطّعوا بعض أعضائه كما حدث في موقعة أُحُد لحمزة عم الرسول رضى الله عنه، وكان قُتل في غزوة بدر عتبة أبا هند زوجة أبى سفيان، فوعدت وحشياً الحبشى إن هو قتل حمزة بمكافأة كبيرة، وحدث أن كان حمزة في المعركة مشغولاً بقتل أحد المشركين فهزّ وحشى حربته وصوبها إلى خاصرة حمزة، ولحق البطل المغوار ببارئه، وذهب وحشى إلى هند يشرها بقتله فأمسكت بذراعه ليريها البطل الصريع، ورأته مضرجاً بدمائه، فجدعت - أى قطعت - أذنيه وأنفه، ولم تكتف بذلك، بل بقرت (شقّت) بطنه، ولم تكتف أيضاً بذلك، فقد أخرجت كبده، وأخذت تلوك منها قطعاً بأسنانها، ولما رأت نسوة قريش ما فعلت هند بحمزة أخذن يمثّلن بموتى المسلمين ويقطعن أنوفهم وآذانهم وأصابعهم، ويتخذن منها قلائد وأقراطاً. وهذه المثلثات أو الصور من التمثيل لقتلى الأعداء التى كانت شائعة فى الحروب الجاهلية واستخدمتها قريش فى غزوة أُحُد حرّمها الرسول فى حروبه، وحرّمت فى حروب المسلمين بعده مع أعدائهم فى العصور الإسلامية التالية، وتحريمه لها يُعدّ القانون الثانى فى الحروب الإسلامية. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث السابق الذى رواه البخارى: "ولا تغلّوا" من الغلّ وهو الطوق من الحديد، يوضع فى رقبة العدو الأسير إذلالاً له، والرسول ينهى عن وضع الأغلال فى رقاب الأسرى حفاظاً على كرامتهم وحقوقهم الإنسانية، وهذا هو القانون الثالث الرحيم من قوانين حروبه. وحين انتصر فى غزوة بدر وأسر الصحابة فيها سبعين من صناديد قريش أمر الرسول الصحابة - كما يقول ابن عباس - أن لا يؤذوهم وأن يكرمواهم، فكانوا يقدّمونهم على أنفسهم حين يحضر الغداء، وهذا هو القانون الرابع الرحيم من قوانين حروبه وهو الحفاظ على كرامة الأسرى وحقوقهم الإنسانية. وأصبحت هذه القوانين قوانين عامة لحروب المسلمين بعده على مر العصور. ويمتدح الله

أسرى الحرب
لا يقتلون
ولا يمثّل بهم

الأغلال لا
توضع فى
رقاب الأسرى

المسلمين في إيشارهم على أنفسهم بالطعام الذى يحبونه المساكين واليتامى والأسرى من أعدائهم في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. ونرى القرآن الكريم في آية نزلت بالمدينة من سورة الجاثية - كما في القرطبي - وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى يغفروا للمشركين حين يؤسرون أذاهم فى الحرب وغير الحرب، وقال: إنهم لا يرجون أيام الله ونعمه وأفضاله. فهل بعد هذه الدعوة للمسلمين كى يغفروا ويصفحوا عن أذى المشركين يُقال إن الرسول كان داعية حرب وأنه نشر الإسلام بالسيف؟.

ويدعو الرسول مع عدم الابتداء بالعدوان على المشركين وعدم المثلة وعدم وضع الأغلال فى رقاب الأسرى وإكرامهم إلى أن لا يغدر مسلم بمسلم فى الحرب. وحدث فى غزوة أحد أن اشترك الحارث بن سويد بن الصامت من الأوس فى بدئها، وحانت له فرصة من الجند بن زياد وكان قد قتل أباه سويدا فى الجاهلية فقتله وقتل معه قيس بن زيد، وفر إلى قريش، وأمر رسول الله بقتله فى فتح مكة لغدره بصاحبيه المسلمين.

ولم يأمر الرسول بقتل الحارث بن سويد لغدره بالجندر فحسب، بل أيضا لأنه عارض الإسلام فى موقفه لقانون الأخذ بالثأر، إذ قتل الجندر ثأرا لأبيه سويد، وكان الأخذ بالثأر قد أصبح شريعة مقدسة فى الجاهلية، بحيث لم يكن لأى فرد فى قبيلة حق فى أن يخالفه أو يخرج عليه، إذ كانت العشيرة بمجرد أن يُقتل شخص منها تسلّ سيوفها للأخذ بثأره، وتعينها عشائر قبيلتها، ويتعدد القتل، وتتعدد الحروب. وكانوا لا يرضون بالدية عن القتل وأن تُستبدل بالثأر الإبل وألبانها، وكانما أصبح سفك الدم واجبا من واجبات الجاهلية، بل لكأنما أصبح غريزة من غرائزهم لا تفارقهم، فهم دائما قاتلون مقتولون. وفى كل قبيلة رَحَى للحرب دائرة، فهم يقتلون أعداءهم ويطعمونهم السيوف وأعدائهم بالمثل يقتلونهم ويطعمون سيوفهم منهم ويشفون غليلهم. وأمر الإسلام بوقف قانون الأخذ بالثأر نهائيا، وردّه إلى الحاكم، وجعل لأولياء المقتول الحق فى العفو عن

القاتل أو أخذ الدية منه. وبذلك انتهت حروب الجزيرة التي كان يسمع صليل سيوفها في كل قبيلة وفي كل مكان. ومع ذلك يقول المستشرقون بهتاناً على الرسول إنه كان متعطشاً للدماء بدلاً من أن يقولوا الحق وأنه وقف سفك الدماء في الجزيرة بقضائه على قانون الأخذ بالثأر. وهذه منة عظيمة للإسلام ورسوله، وقد امتنَّ الله بها على المسلمين إذ قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، والله يذكر للأوس والخزرج وغيرهما من قبائل العرب أنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوات شديدة طالت بسببها حروبهم ومعاركهم، فلما جاء الله بالإسلام، ودخلوا في دين الله وحرَّم الله ورسوله عليهم الأخذ بالثأر صاروا أمة إخواناً متوآدين متواصلين متعاونين.

٣

من قوانين الإسلام الرحيمة في الحروب

ومن قوانين الإسلام الرحيمة في الحروب أن الرسول حرَّم على المسلمين تحريماً باتاً قتل الأطفال والصبية والشيوخ والرهبان، فلم يقتلوا طفلاً ولا صبياً ولا شيخاً عجوزاً ولا راهباً في حرب من حروبهم مع أعدائهم في زمن الرسول ولا في أى عصر من عصورهم. وبالمثل حرَّم عليهم قتل نساء أعدائهم في الحرب صغيرات وشابات وكبيرات، وبالجمللة لم يحلَّ لهم إلا قتل الأعداء المحاربين حملة السلاح، فالحدُّثُ - حتى بلوغه - لا يُقتل، ومن يزرعون الأرض، ليحصدوا منها قوت الناس لا يقتلون في الحرب لأنهم ليسوا من جُنَّاتها، إذ لا عدوان ولا قتل إلا للأعداء المحاربين. وحرَّم الرسول قتل الرهبان أصحاب الصوامع، وعمِّم ذلك المسلمون - بعده - لرجال الدين من كل ملة إلهية ووثنية.

تحريم قتل
الصبية والنساء
والشيوخ
والرهبان

وحرَّم الرسول في حروب الأعداء النهب، وأن لا يستولى المسلمون المحاربون من زروع أعدائهم إلا بقدر ما يكفيهم وما يحتاجون إليه لطعامهم وطعام

تحريم النهب

تحريم
قطع الأشجار
وإتلاف
الزروع

دوابهم. ونهى المسلمين في الحرب أن يقطعوا للأعداء شجرا أو يتلفوا زروعا أو يفتكوا ببعض حيواناتهم. وما أروع تلك القوانين جميعا شريعة للحرب، وكان حريّا بالغربيين المسيحيين بدلا من أن يهاجموا الرسول في حروبه التي كانت ضرورة للدفاع عن المسلمين أن يشيدوا بقوانين شريعتها الحريّة الرحمة، وله يقول الله في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي لجميع الخلق سلما وحرّا، وحتى ليدعو إلى الرحمة بالحيوان المستأنس في أحاديث مشهورة.

وقد قلنا فيما أسلفنا إن مؤرخي السيرة النبوية أخطأوا حين عدّوا كل من كان يرسلهم الرسول في الطرق المؤدية إلى مكة وإلى القبائل - التي كان يبلغه أنها تستعد لحربه - للاطمئنان على أهل المدينة أن تغزوهم قريش أو إحدى القبائل فجأة، وبالمثل كان يرسل أحيانا جماعات محدودة لطرق قوافل مكة التجارية المصعدة إلى الشام والمنحدرة منها تخويفا لقريش، إذ ربما يدفعها ذلك إلى عقد معاهدة معه، وأحيانا كان يحاول بهذه الجماعات إعلام القبائل بدينه الخفيف لعلها تدخل فيه. وكل هذه البعوث سماها مؤرخو السيرة سرايا جمع سرية أي كتيبة حربية، ولم تكن كتائب مقتطعة من جيش للرسول، إنما كانت بعوثا للتأكد من أمن الطرق المؤدية إلى المدينة. وكان ينبغي أن تسمى بعوثا لا سرايا، حتى لا يظن من يقرأها عند مؤرخي السيرة - مثل المستشرقين - أن الرسول ﷺ كان يعيش للحرب وسفك الدم. واصطلح مؤرخو السيرة على أن كل خروج للرسول في جيش يُسمّى غزوة ولو لم يحارب فيها، وعدّوا له سبعا وعشرين غزوة، وقالوا إنه لم يقاتل إلا في تسع منها هي: بدر، وأحُد، وبنو المصطلق، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وخيّن، والطائف. وحتى هذه التسع ينبغي إخراج الخندق وقريظة وفتح مكة منها، لأنه لم تنعقد في الثلاثة معركة حقيقية بين الأعداء وجيش المسلمين، فقريش هي التي أعدّت وخرجت لحربه في بدر وأحُد والطائف. وجمع بنو المصطلق لغزوه وغزو المدينة فخرج إليهم، وعلم الرسول أن أهل خيبر اليهود يستعدون لحربه، وأنهم يُخرجون كل يوم منهم

عشرة آلاف مقاتل صفوفا ثم يقولون: محمد يغزونا! هيهات هيهات. كما بلغ الرسول أن كنانة بن أبي الحقيق ذهب مع أربعة عشر رجلا من خيبر إلى قبيلة غطفان يدعوهم إلى نصرهم ضد الرسول ولهم نصف ثمر خيبر سنة، فخرج إليهم. كما خرج إلى حنين حين علم أن أشراف هوازن وثقيف تجمعوا وحشدوا لحربه، ولما انهزموا تقهقروا إلى حصن الطائف.

وتلك هي حروب الرسول التي لم يعرف مؤرخو السيرة النبوية كيف يعرضونها وأساءوا في عرضها حتى ظن المستشرقون أن الرسول ﷺ كان يبدأ بالهجوم على أعدائه دائما؛ مع أن أول قانون في شريعته الحربية - كما مر بنا - أن تكون الحروب الإسلامية حروب دفاع لا حروب عدوان. وذكرنا أن ما سُمّاه مؤرخو السيرة بالسرايا لم تكن كئائب حرب كما ظنوا إنما كانت في أكثرها بعوثا استطلاعية، وأنه لم يحارب الرسول إلا في ست غزوات، ولم يبدأ فيها بالعدوان، إذ اضطر إليها للدفاع ضد العدوان. وإذن خطأ كل الخطأ أن يزعم بعض المستشرقين أن الرسول فرض الإسلام على العرب بقوة السلاح فقد أسلموا بقوة القرآن وتعاليم الإسلام التي تقوم على الإخاء والمساواة والعدالة والتسامح بين جميع المسلمين وبينهم وبين أهل الذمة. وكما أن الإسلام يُلزم الرسول والمسلمين أن تكون حروبهم لدفع العدوان فحسب يلزمهم أيضا إذا طلب الأعداء المحاربون منهم وقف الحرب والصلح أن يجيبوهم إلى طلبهم كما قال الله في سورة الأنفال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أى إن مال الأعداء إلى السلم والمهادنة وكفوا عن القتال فأجيبوهم إلى ما طلبوا ودعوا إليه.

وإذا أخذنا ندرس السرايا الأولى أو بعبارة أدق البعث الأولى عرفنا أنها لم تكن موجهة لحرب قريش. وأول بعث كان على رأس سبعة أشهر من مقدم الرسول إلى المدينة جعل قيادته لعمّه حمزة على ثلاثين راكبا أو فارسا من المهاجرين، ولم يكن بينهم أحد من الأنصار، واتجه إلى ساحل البحر الأحمر يرقب قريشا، فالتقى بقافلة تجارية لقريش منحدرة من الشام إلى مكة يقودها أبو جهل في ثلاثمائة راكب أو فارس. وحجز بين الفريقين مجدى الجهنى، وانصرفا دون أى

البعوث
الأولى

قتال، وعاد حمزة بمن معه إلى المدينة. وبعد نحو شهر في شوال خرج من المدينة بعث ثان بقيادة عبيدة بن الحارث في ستين راكبا أو فارسا، واتجه نحو مكة وتغلغل في الطريق إليها حتى بطن رابع، ولقوا جمعا من قريش نحو مائتين ومعهم عكرمة بن أبي جهل، وقيل بل أبو سفيان، ورمى سعد بن أبي وقاص بسهم، وهو أول سهم رُمي به في الإسلام ولم يسَلّ الفريقان سيفا وانصرفا دون حرب أو قتال. وفرّ من جمع قريش إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعُتْبة بن غزوان وكانا مسلمين ولم يكونا يعرفان كيف يلحقان بالرسول ﷺ في المدينة. وفي ذى القعدة خرج بعث ثالث جعل الرسول ﷺ قيادته لسعد بن أبي وقاص في ثمانية رجال، وأخذوا يرصدون جموع قريش، حتى وصلوا وادى الخرار بالحقفة، ولم يلق جمعا لقريش، وعاد إلى المدينة.

وواضح أن هذه البعوث كانت ترصد الطريق أو الطرق بين مكة والمدينة خشية أن تفكر قريش في الغارة على المدينة، ولم تكن تفكر في قتال قوافل قريش ولا ما يشبه القتال، خاصة أن منها ما لم يكن يتجاوز ثمانية رجال كبعث سعد بن أبي وقاص، وهل يعقل أن مثل العدد المذكور يخرج لحرب قريش ونزالها في معركة عنيفة أو في غزو قوافلها؟ إن كل ذلك تصوير مخطئ لمؤرخي السيرة النبوية، وقد أرسل الرسول ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية رجال إلى قرية نخلة بين مكة والطائف في شهر رجب من السنة الثانية ليرصد قريشا ويعلم من أخبارهم ما يحكيه له، غير أن عبد الله وجد قافلة لقريش يقودها أربعة فوجدها غنيمة، وقتل أحد قادتها في رجب الشهر الحرام، وعاد بالقافلة إلى المدينة، ووجدوا الرسول غاضبا، وقال لهم: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام. وفي ذلك دليل واضح على أنه لم يأمر أي بعث من البعوث قبل بدر بقتال قريش، وأنها هي التي بدأت قتاله في غزوة بدر.

وإذا رجعنا إلى ما سَمَّاه مؤرخو السيرة غزوات الرسول ﷺ قبل غزوة بدر وأولها غزوة ودّان أو الأبواء بين المدينة ومكة في شهر صفر سنة اثنتين

غزوات
الرسول الأولى
مسيرات

للهجرة، ولقى فيها بنى ضَمْرَةَ، واستقبلوه استقبالا كريما، وحالفه سيدهم مخشى ابن عمرو على أن لا يغزوه ولا يغزوهم ولا ينضموا إلى جمع من قريش أو غيرها ضده عرفنا أنه خطأ كل الخطأ أن يقال إنه خرج إلى بنى ضمرة غازيا وهو إنما خرج إليهم طالبا عقد تحالف بينه وبينهم، وفي رأينا أن كل ما سماه مؤرخو السيرة قبل معركة بدر غزوات إنما كان لموادعة القبائل المقيمة بين المدينة ومكة وأن لا يُعِينُوا عليه قريشا. والغزوة الثانية كانت غزوة بُواط من ناحية رَضَوَى، وكانت في ربيع الآخر بالسنة الثانية للهجرة، وكان في مائتين من المهاجرين، وبلغ بُواط ولم يلق أحدا ولا كيدا. والغزوة الثالثة غزوة العُشيرة ببطن يَنْبَع على الساحل، وكان في مائة وخمسين من المهاجرين، وفيها حالف بنى مُدَلَج وعاهدهم كما عاهد بنى ضمرة في الغزوة الأولى، وعاد إلى المدينة. وبعد عشرة أيام أغار كُرُز بن جابر القرشي على إبل المدينة وأغنامها في غفلة من أهلها، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه مع طائفة من المهاجرين حتى بلغ سَفَوَانَ - واد بالقرب من آبار بدر - وفاته كُرُز فعاد إلى المدينة. ويسمى مؤرخو السيرة هذا الخروج في طلب كرز غزوة، وهي إنما كانت مسيرة في تعقبه، ومثلها الغزوات الثلاث السابقة، إنما كانت مسيرات للرسول لتأمين الطرق إلى المدينة وعقد معاهدات بينه وبين القبائل النازلة في طريق قريش إلى المدينة حتى لا تنضم إليها إن فكَّرت في غزو المدينة.

وواضح أن ما سماه مؤرخو السيرة النبوية غزوات للرسول ﷺ قبل غزوة بدر إنما كان مسيرات له يقصد بها عقد معاهدات مع القبائل، حتى لا تنضم إلى قريش في غزوها للمدينة إن حاولت ذلك كما يتضح في معاهدتيه مع بنى ضمرة في غزوة ودَّان ومع بنى مدلج في غزوة العُشيرة. ولم يكن في غزوة بُواط حرب ولا في تعقب كرز مما سموه غزوة بدر الأولى لأن الرسول ﷺ تعقبه حتى نواحي بدر، وفاته فعاد. وهي - كما رأينا - مسيرات فحسب. ومثلها ما سموه غزوات للرسول بين غزوتي بدر وأُحُد، وكانت أربع مسيرات للرسول ليس فيها

حرب، وعدوا له في السيرة النبوية سبعا وعشرين غزوة، وأكثرها مسيرات، والصحيح أنه لم يحارب إلا في تسع فقط كما أسلفنا، وأولها غزوة بدر، وقريش هي التي بدأتها كما بدأت غزوة أُحُد وغزوة الخندق التي لم تقع فيها حرب. وبقيت ست بعد غزوة الخندق، وهي بنو المصطلق وقُرَيْظَة وخَيْبَر وفتح مكة وحُنَيْن والطائف، ولم يحارب في غزوة الخندق وقريظة وفتح مكة، وهذه كل حروبه.

ويقول مؤرخو السيرة إن بعوثه بلغت سبعا وأربعين، وهي مبالغة شديدة، وقالوا إن الأربعة التي ذكرناها كانت موجهة لحرب قريش، وقدموا لذلك بأن الله جلَّ شأنه أذن للمهاجرين في قتال قريش بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وصيغة ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ تشهد بأنهم كانوا يقاتلون قريشا دفاعا لا هجوما، فاستشهد المفسرين بالآية على أنهم خرجوا في البعوث المذكورة لحرب قريش خطأ، وكانت بعوثا استطلاعية - كما قلنا - إذ كان عدد الرجال في بعثين منهما ثمانية رجال مع أن الرسول علم عن أول بعث لعنه حمزة، وكان في ثلاثين فارسا أنه لقي قافلة لقريش كان يحميها ثلاثمائة فلم يكن بمعقول أن يرسل لحرب قريش بعوثا مكونة من ثمانية رجال، فهي - كما قلنا مرارا - كانت بعوثا استطلاعية. ويؤكد ذلك أنها كانت جميعا من المهاجرين، ولم يكن بها أحد من الأنصار لأنهم بايعوه بمكة على الدفاع عنه لا على الهجوم، ولذلك نراه في غزوة بدر متزجدا في الخروج لقريش، حتى يوافق الأنصار - لأول مرة - على مشاركتهم له في حربه ووافقوه.

وكل ذلك معناه أن مؤرخي السيرة النبوية لم يكونوا دقيقين في عرض حروب الرسول مما جعل بعض المستشرقين يظن خطأ أن الرسول كان متعطشا لسفك الدماء وأنه نشر الإسلام بالسيف مما نقضناه نقضا في حديثنا عن حروبه وقوانينها الرحيمة التي لم يسبقه إليها أي دين سماوي.

بعوث
استطلاعية

بَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ

انتدب الرسول ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي في بعث قوامه ثمانية من المهاجرين إلى بطن نخلة بين مكة والطائف، وكان يستأجر لابن عامر بقرب مكة، وذلك في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، إذ دعاه حين صلى العشاء فقال له: واف مع الصبح أبعثك وجهًا، فوافاه في صلاة الصبح، وصلى الرسول بالناس، والتقى به وبنفر من قريش كان الرسول قد استدعاهم، ودعا أبا بن كعب كاتبه فأملأه كتابًا، ودعا عبد الله بن جحش فأعطاه الكتاب وقال له: قد استعملتك على هؤلاء النفر، وكانوا ثمانية، وقال له: امض بهم حتى إذا سرت ليلتين افتح الكتاب واعمل بما فيه، ومضى عبد الله بصحابه، وكان اثنان منهم يتعاقبان (يتساويان) بعيرًا. واتجه بهم نحو مكة، فلما مضى يومان فتح الكتاب فإذا فيه: "سر حتى تأتي بطن نخلة، ولا تكرهن أحدًا من أصحابك على المسير معك، وامض لأمرى فيمن تبعك حتى تنزل نخلة، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم. فلما قرأ عبد الله الكتاب قال سمعًا وطاعة، وقرأه على صحبه، فقالوا جميعًا نحن سامعون مطيعون لله ولرسوله ولك، فسير على بركة الله ومضوا معه. وحدث أن ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان كانا يقتفياه، فنخلفا عن الجماعة في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش في الستة الباقية من صحبه حتى نزل معهم بنخلة، ومرت بهم قافلة صغيرة لقريش وفيها أصحابها عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله وأخوه نوفل بن عبد الله، وثلاثتهم مخزوميون. وتشاور عبد الله بن جحش وصحبه في أمرهم إذ كان اليوم آخر يوم في شهر رجب، فقالوا إن تركتموهم دخلوا حرم مكة وامتنعوا منكم، وإن قتلتموهم كنتم اقترفتُم القتل في رجب الشهر الحرام المحرم فيه القتال. وكان القتال محرما في الأشهر الحرم وهي أربعة: رجب الفرد وثلاثة مجتمعة لأداء الحج

والفراغ منه، وهى ذو القعدة وذو الحجة والحرم، وغلب رأى القائلين بالقتال فقاتلوهم، ورمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمى بسهم، فقتله، وشدوا على زملائه المخزوميين فأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأعجزهم نوفل بن عبد الله وأفلت منهم واستاقوا القافلة، وكانت محملة خرا وأدما وزبيبا، وقال عبد الله بن جحش لصحبه: إن لرسول الله مما غنمنا الخمس. وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم لرسوله، فعزل الخمس وقسم بقية القافلة وغيرها بينه وبين صحبه.

وكانت هذه القافلة الصغيرة أول غنيمة غنمت فى الإسلام وأول غنيمة خُمست، وكان عمرو بن الحضرمى أول قتيل للمسلمين، وكان صاحبه أول أسرى لهم. ولما قدم عبد الله بن جحش بالقافلة وغيرها والأسير، على رسول الله ﷺ قال له ولصحبه: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، وأوقف القافلة وغيرها فلم يأخذ منها شيئا وندم عبد الله وصحبه. وقالت قريش: استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال. وبعثت قريش إلى الرسول فى فداء الأسيرين، ففادى كل واحد منهما بأربعين أوقية ودعاهما إلى الإسلام فأسلم الحكم بن كيسان، وعاد عثمان بن عبد الله إلى قومه. وظل الرسول ﷺ وعبد الله بن جحش وصحبه ينتظرون الوحى، ونزل الوحى بأن ما حدث من عبد الله وصحبه لهم وليس عليهم، إذ قال الله جلّ شأنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾. والآية تذكر فى أولها أن القتال فى الشهر الحرام إثم كبير، وكانت الأشهر الحرام أربعة - كما أسلفنا - رجب وكانوا يعتمرون به فى الجاهلية، ولذلك حُرّم فيه القتال كما حُرّم فى أشهر الحج: ذى الحجة والشهر السابق له: ذى القعدة والتالى له: المحرم، حتى يؤدوا الحج مثل العمرة آمنين فى ذهابهم إليه ورحيلهم. ويقول الله عقب ذلك إن الصدا عن سبيل الله أى عن دينه. وصد الكفار للمسلم عن المسجد الحرام أكبر إثما عند الله

من القتال في الشهر الحرام، ومثله الكفر بالله والشرك به لأنه اعتداء على حرية الناس فيما يختارونه لأنفسهم من الدين الحنيف، ولذلك كان الكفر أكبر إثماً من القتال في الشهر الحرام، ومثله الصمد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه من أمثال عبد الله بن جحش وصحبه، فإن ذلك أكبر إثماً عند الله من القتال في الشهر الحرام؛ وبذلك جعل الله قتال عبد الله وصحبه في اليوم الأخير من رجب لهم لا عليهم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أى محاولات قريش لفتنة المسلمين بما كانوا يؤذونهم به في مكة من صنوف الإيذاء الشديد أكبر إثماً عند الله من القتال في الشهر الحرام. وبذلك كله فرّج الله عن عبد الله بن جحش وصحبه ما كانوا فيه من الضيق، وقبل الرسول ما جعل عبد الله له والله من خمس الغنيمة. ويقال إن رسول الله ﷺ وقفها حتى رجع من غزوة بدر، فقسّمها بين غنائمها وأعطى كل قوم حقهم. ويقول الله في نفس الآية عقب قوله السابق: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾، وكان الله يعدّ قريشا في حالة حرب مع الرسول وأصحابه منذ أن كانوا يؤذونهم في مكة ويحاولون فتنة كثيرين منهم وردهم إلى عبادتهم الوثنية. ومعروف أن أول قتال لقريش في حرب الرسول إنما كان في غزوة بدر، والآية تشير بوضوح إلى أن قريشا تضرر غزو الرسول وأصحابه في المدينة، وتستعد لذلك استعدادا كبيرا.

الفصل الثانى عشر

غزوة بدر الكبرى

١

موقف الرسول قبل غزوة بدر

استقر الرسول فى المدينة، ومضى فيها يضع لأمتة نظاما اجتماعيا سديدا يتعاون فيه الغنى والفقير تعاونا يقوم على الإخاء الصادق. وأخذ يشغل بأمر مكة، فإن أهلها لن يتركوه ومن معه من المهاجرين دون أن يسدّدوا لهم ضربة قاضية، لسبب مهم وهو أنهم يقيمون فى المدينة بطريق قوافلهم التجارية إلى الشام مصعدة ومنحدرة. وأحسّ الرسول والمهاجرون إحساسا عميقا بأن قريشا لابد أن تعد جيشا كثيفا لغزو المدينة للقضاء عليهم وعلى هذا الدين الذى يدعو إليه الرسول.

ولم يكن الرسول قائدا حربيا ولا اشترك فى حرب سوى حرب الفجار التى شهدتها فى سن السادسة عشرة. ومع ذلك تنبّه إلى موقف قريش منه وأنها لابد أن تمضى فى القضاء عليه وعلى دينه، وهو ما جعله - كما مرّ بنا - يرسل بعوثا للاستطلاع خشية أن يفاجئ جيش قرشى المدينة، وخرج بنفسه ليعقد معاهدات مع بعض القبائل التى كانت تحتل مواقع خطيرة فى الطرق بين مكة والمدينة، وهو استهلال لقيادة بصيرة بشئون الحرب، وتأمين لأهل المدينة. ولم يكد يبدأ العام الثانى للهجرة حتى رأى طغاة قريش من أمثال أبى جهل أن يعدّوا غارة على سرح المدينة بقيادة كُرُز بن جابر الفهري، ويغير على سرحها أو إبلاها وقُطعانها

فى شهر ربيع الأول بعد سنة من هجرة الرسول ويستاق من السرح ما استطاع، ويفرّ به إلى مكة. وخرج الرسول ﷺ وراءه حتى بلغ آبار بدر، ولم يدركه، فعاد وقد اقتنع بأنه كان صادقا فى حدسه حين أخذ يرسل بعوثا من المهاجرين يقودها حمزة وعبيدة بن الحارث وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن جحش للاستطلاع والتعرف على نوايا قريش فى المبادرة إلى حربه وغزو المدينة. وأيضا كان حدسه صادقا حين خرج مراراً لا للغزو - كما ظن ذلك مؤرخو السيرة النبوية - وإنما لعقد المعاهدات مع بعض القبائل التى كانت تنزل فى مواقع حربية مهمة على طول الطرق بين مكة والمدينة.

وظن الرسول ﷺ من غارة كرز على سرح المدينة أن زعماء قريش يتأهبون لغزو المدينة، فاختر عبد الله بن جحش أحد شخصيات المهاجرين المهمة فى ثمانية أشداء من المهاجرين لينزلوا بالقرب من مكة فى وادى نخلة بينها وبين الطائف، وأعطاه الكتاب الذى أمره أن لا يفتحه إلا بعد يومين من مسيرته، وفتح - كما مرّ بنا - وأمره فيه أن يتصد قريشا ويعلم له من أخبارهم، فلم يكن بعث عبد الله بن جحش بعثا حريبا للاستيلاء على إحدى القوافل المكّية كما ظن بعض المستشرقين إنما كان بعثا للتعرف على أخبار قريش وهل تعدّ جيشا لحرب الرسول. ولو أنه أراد للبعث أن يلقى إحدى قوافل قريش ويستولى عليها ما جعله ثمانية أو تسعة، وهو يعلم علم اليقين أن قوافل قريش المهمة كانت تحميها فى طريقها حاميات غير قليلة، وقد تبلغ نحو مائة رجل، ولو أنه أرسل عبد الله ومن معه لمهاجمة قافلة لكان مغررا بهم ومعرضهم للهلاك. أما أن عبد الله لقي قافلة صغيرة لا يحميها سوى أصحابها وكانوا أربعة من قريش فهذه مسألة اتفاقية اعترضته صدفة فلم ينفذ هو وصحبه ما أراده الرسول من بعثهم وهو الوقوف على أخبار قريش، وعادوا إلى المدينة، فوجدوا الرسول غاضبا لقتلهم عمرو بن الحضرمي أحد أصحاب القافلة وما ندب البعث للقتال فى الشهر الحرام، ورفض تقبل الغنيمة وما له فيها من الخمس الذى قسمه له قائدها عبد الله بن جحش، وكما ساءه قتال البعث فى الشهر الحرام ساء أهل المدينة جميعا من المهاجرين

عود إلى بعث
عبد الله بن
جحش

والأنصار. ونزلت آية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ كما مرّ بنا، إذ بيّنت أن هناك ما هو أكبر حرمة وجُرماً، وهو الصّدُّ عن الدين الخفيف، وإخراج المهاجرين أهل المسجد الحرام منه، ومحاولة القرشيين تعذيب المسلمين لفتنتهم وردّهم إلى الدين الوثني، وعَدَّ الله في نفس الآية هذا التعذيب وتلك الفتنة قتالاً باغياً من قريش للمسلمين، إذ قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ فقد بدأوا قتالهم للمسلمين وهم بمكة، فقد كانوا يعذبونهم، وقتل أبو جهل سمية أم عمار بن ياسر. وبذلك فرّجت الآية عن عبد الله بن جحش وصحبه ما كانوا فيه من الشدة، وقبِلَ الرسول الغنيمة والأسيرين وافدتهم قريش وأسلم أحدهما وحسن إسلامه.

ولعل في كل ما ذكرت ما يدل بوضوح على خطأ بعض المستشرقين حين يزعمون أن الرسول أعطى بكتابه إلى عبد الله بن جحش الإشارة بالغارة على أى قافلة لقريش يصادفها، إذ كان البعث سلمياً للتعرف على أخبار قريش ومدى الإعداد لقتاله كما أسلفنا. وأشد من هذا الزعم وأعظم خطأ ما يزعمه بعض المستشرقين من أن الكتاب الذى سلّمه الرسول لعبد الله بن جحش كانت فيه تعليمات سرية، وهو مجرد وهم خاله بعض المستشرقين، والكتاب المذكور فى كل كتب السيرة النبوية، وليس فيه سوى ما قلت من أنهم أمروا أن يرصدوا ما تفعل قريش مما قد يفهم منه أنها تعدّ لغزو المدينة وحرب الرسول.

وكان الله قد أذن للمهاجرين حين هاجروا إلى المدينة فى جهاد أعدائه مشركى مكة قائلا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ أى الذين يعتدى عليهم مشركو مكة ﴿بأنّهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير﴾. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربّنا الله. وقد نزلت هذه الآية فى أوائل هجرة الرسول والصحابة ليتهيأ المهاجرون للدفاع عن أنفسهم ضد مشركى مكة الذين أخرجوهم من ديارهم. ولما حدثت واقعة بعث عبد الله بن جحش نزلت فيه آية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ مبرّئة له ولصحبه. ثم نزلت آية فريضة الجهاد، وهى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ

الإذن
للمهاجرين
بالجهاد

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»، والقتال المأمور به فى الآية الجهاد لإعلاء كلمة الله. ويتكرر الجهاد فى القرآن الكريم كثيرا إذ سُمِّيَ به قتال المسلمين للكفار، وقال إنه ﴿كُرَّةٌ لَّكُمْ﴾ أى شاق ولكنه خير لكم أى أنه ضرورى لوجودكم ولقيام دينكم ونشره، بل هو من ضرورات جميع الأديان كما قال فى سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أى ولولا أنه يُدفع قوم عن قوم بالقتال لفسدت الأرض وهدمت معابد النصارى واليهود والمسلمين التى يعبد فيها الله عزَّ شأنه. ثم نزلت آية عدم المبادئة بالعدوان فى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. وتلطَّف الله - جلَّ سلطانه - إذ سُمِّيَ قتال المسلمين للكفار باسم الجهاد فى مثل قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ إشارة لما فيه من الجهد والمشقة، وأيضا تخفيفا على المسلمين لم يجعله الرسول أحد أركان الإسلام، وأوجب الله على المسلمين فى القتال إذا طلب من يقاتلونهم السلم أن يجيبوهم إليه.

٢

مسيرة الرسول وقريش إلى بدر

أ - مسيرة الرسول

علم رسول الله ﷺ أن قافلة عظيمة لقريش تحمل عروضاً كثيرة من التجارة قادمة من الشام إلى مكة يقودها أبو سفيان ومعها حامية لها أربعون رجلاً من أشداء قريش، وقيل بل سبعون، وكانت العير أو الإبل فى القافلة ألفاً، وكانت الأموال كثيرة، ويقال إنه لم يبق بمكة قرشى ولا قرشية لهما مثقال فصاعداً إلا بعثا به فى تلك القافلة الضخمة.

ونادى الرسول المهاجرين والأنصار للقاء القافلة وتطوع لذلك خمسة وثلاثمائة منهم ثلاثة وسبعون من المهاجرين والباقيون من الأنصار، وخرج بهم الرسول في اليوم الثامن من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة، واستعرض من معه ورد الصغار من أمثال أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، ورافع بن خديج الأوسى فلم يجزهم، وحاول رد عمير بن أبي وقاص فبكى فأجازه وقُتل في بدر وهو ابن ست عشرة سنة. وكانت الإبل التي معهم سبعين بعيراً، فكانوا يتعاقبون الإبل: الاثنان والثلاثة والأربعة، وكان رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب وزيد بن حارثة يتعاقبون بعيراً واحداً، وكان معهم فرسان: فرس لمرثد بن أبي مرثد وفرس للمقداد. وكان أبو سفيان قائد قافلة قريش واسع الدهاء، وكان يكثر في طريق قافلته من سؤال الناس عن الرسول وتحركاته، وسمع أنه خرج من المدينة في طائفة كبيرة من أنصاره، فاعتقد أنه يريد اعتراض القافلة، فأرسل إلى أهل مكة يستنفرهم ويستصرخهم لحماية القافلة، وكانت مكة تغلّى بالشار من أصحاب الرسول منذ قُتل بعث عبد الله بن جحش لعمر بن الحضرمي، فتألف سريعاً جيش قرشي كثيف لقتال الرسول وأصحابه ونصرة القافلة. وعلم الرسول في الطريق عند «الأبواء» أن قريشاً وجّهت إليه وإلى من معه جيشاً في رمضان في السنة الثانية للهجرة، وشاع الخبر، فكان هناك من يرى الذهاب إلى جيش قريش ومحاربتهم ومن يرى طلب القافلة والغنيمة، وكان واضحاً خطأ هذا الرأي الأخير لأنه يترك المدينة للجيش القرشي دون حماية أو دفاع، وفي ذلك يقول الله في سورة الأنفال عمن يؤثرون طلب القافلة والغنيمة: ﴿يَجَادِلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿فِي الْحَقِّ﴾ أى القتال ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أنه الصواب. ويقول فيهم أيضاً: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ أى النصر على قريش أو غنيمة القافلة ﴿أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أى تودون أن تكون الغنيمة التي ليس لها شوكة ولا سلاح لكم مؤثرين لها على لقاء الجيش القرشي ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ أى الإسلام وينصره.

وعقد الرسول ﷺ مجلسا استشاريا من كبار المهاجرين والأنصار ليتشاوروا هل يتجه الرسول وصحبه إلى قافلة أبي سفيان أو يتجهون إلى "بدر" لمنازلة قريش، وأبدى المهاجرون إيثارهم لقتال الجيش القرشي، وقام من بينهم أبو بكر ثم عمر بإلقاء خطاب حماسي لمنازلة الجيش القرشي، ثم قام المقداد، فقال: "يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك، ووالله لن نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون". ثم قال الرسول أشيروا علي أيها الناس يريد أن يعرف رأى الأنصار إذ بايعوه في مكة يبعثهم الكبرى بالعقبة على حمايته ونصرته في دارهم: يثرب، ولم يبايعوه على القتال والحرب معه في مسيرة إلى عدو له: قريش أو غيرها، وتنبه سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. فقال سعد: "إنا آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر (البحر الأحمر) فخرضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله يريد منا ما تقر به عينك، فسير بنا على بركة الله". وسر رسول الله ﷺ بقوله، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم. وعقد في المسيرة لواء لمصعب بن عمير ورايتين سوداوين لعل بن أبي طالب وسعد بن معاذ، وقدم عدى بن أبي الزغباء وبسبس ابن عمرو الجهنين عيين أمام جيشه.

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل قريبا من بدر، وركب مع رجال من أصحابه مستخبرا، ولما أمسى بعث عليا والزبير وسعد بن أبي وقاص في نفر إلى بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا إبلا تحمل الماء إلى قريش فيها غلامان فأتوا بهما ورسول الله ﷺ يصلّي فسألوهما من أنتمما فقالا: نحن سقاة قريش، فكره أصحاب رسول الله ﷺ هذا الخبر، وكانوا يظنونهما من قافلة أبي سفيان وأنهما

عقد
الرسول مجلس
استشاري

يكذبان عليهم وجعلوا يضربونهما، فإذا ألمهما الضرب قالوا: نحن من قافلة أبى سفيان، فسلم رسول الله ﷺ من صلاته وقال لصحبه: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذبا تركتموهما، وسأل الغلامين متلفعا أين قريش؟ فقالوا: وراء هذا الكثيب (المشرف على بدر) فسألهما كم ينحرون كل يوم من الإبل؟ قالوا عشرا يوما وتسعا يوما، قال رسول الله ﷺ: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، وكانوا تسعمائة وخمسين. وكان عدى بن أبى الزغباء وبسبس بن عمرو قد سبقا الجيش ونزلا بقرب ماء بدر، فسمعا جاريتين من جوارى الحى وإحداهما تقول لصاحبتها: ديني؟ فقالت لها: ستأتى العير (أى الإبل) غدا وبعد غد فأعمل لهم وأقضيك دينك. ورجع عدى وبسبس إلى الرسول ﷺ وأخبراه بما سمعا من الجاريتين.

وكان الرسول ﷺ قد نزل بأصحابه فى بدر بأقرب ماء إلى يشرب وكان الحُباب بن المنذر الأنصارى عليهما بيدر وآبارها، فتقدم إلى رسول الله ﷺ قائلا: رأيت إلى هذا المنزل؟ أمزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدم - أو نتأخر - عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال: "يا رسول الله هذا ليس لك بمنزل فإنى عالم ببدر وآبارها، فانهض بنا حتى نأتى بئرا هو أقرب ماء إلى القوم وماؤه عذب وكثير لا ينزح، فنبنى عليه حوضا نقذف فيه الآنية، فنشرب ونقاتل، ونكبس غيره من الآبار بالتراب، فنشرب ولا تشرب قريش. فقال له الرسول ﷺ: أشرت بالرأى. ونهض بالجيش فنزل على البئر أو القليب الذى اختاره لهم، وبنا عليه الحوض كما أشار، وبذلك أصبح الرسول ﷺ مسيطرا على مياه بدر.

وقال سعد بن معاذ: يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونُعبدُ عندك ركائبك، ثم تلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا عليه كان ذلك ما أحبيناه، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فليحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك من الأنصار أقوام يا نبي الله ما نحن أشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك والله يمنعك بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأتى عليه رسول الله

عريش
للسل

ﷺ ودعا له بخير. ثم بنى سعد للرسول عريشا من قصب، جلس فيه الرسول ﷺ، ووقف عليه سعد متوشح السيف في نفر من الأنصار حراسا. وبعث الله السماء فسقط مطر غزير، وكان نعمة للمسلمين ونقمة على الكافرين، فإنه لبد وييس للمسلمين الرمل وسهل حركتهم الحربية وأعانهم في السير عليه، بينما جعل حركة القرشيين صعبة، إذ كان عليهم أن يصعدوا كثيرا رمليا كبيرا فاصلا بينهم وبين المسلمين.

ب - مسيرة قريش إلى بدر

عرف أبو سفيان أن الرسول خرج من يثرب مع حشد كبير من أصحابه لاعتراض قافلته وقطع الطريق عليها، وقد حالف القبائل النازلة في الطريق ووادعها، فسار متخوفا من رصد له، واستأجر ضمضم بن عمرو بعشرين مثقالا، وأرسله إلى قريش يخبرها باعتراض محمد وأصحابه له، وأمره أن يجدع بعيره أى يقطع أذنيه إذا دخل مكة ويحول رَحْلَه ويشق قميصه من أمام ومن خلف، ويصيح: الغوث، الغوث. وصنع ضمضم ما أمره به أبو سفيان حين دخل مكة وصاح: يا معشر قريش اللطيمة، اللطيمة! (أى القافلة حاملة تجارتهم) قد عرض لها محمد في أصحابه، الغوث، الغوث، والله ما أرى أن تتركوها! وسرعان ما نفرت قريش وتجهزت لإنقاذ القافلة في ثلاثة أيام، وقيل في يومين، وأعان قوتهم ضعيفهم، وأخذ أبو جهل وسهيل بن عمرو وزمعة بن الأسود وطعيمة بن عدى وحظلة بن أبي سفيان وأخوه عمرو وعقبة بن أبي مغيط والنضر بن الحارث يحضون الناس على الخروج، ومشى نوفل بن معاوية إلى أهل الشراء من قريش، فكلّمهم في بذل النفقة والحملان على الإبل لمن خرج، وتبرّع عبد الله بن أبي ربيعة بخمسمائة دينار وصنع مثله حُوَيْطَب بن عبد العزى، وحمل طعيمة بن عدى الناس على عشرين بعيرا. واستقسم أمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبه عند الصنم الكبير هُبَل بالقُدْحين الأمر والنهى من الأزلام، فخرج القُدْح السامى عن الخروج وأجمعوا على عدم الخروج حتى أزعجهم أبو جهل، واستقسم زمعه

ابن الأسود فخرج الناهي وبالمثل خرج لعمير بن وهب والحكيم بن حزام. وحاول عُذَّاس النصراني غلام عتبة بن ربيعة وأخيه شيبه أن يبطّهما عن الخروج، وأبى أمية بن خلف الخروج فعنفه عقبة بن أبي مُعَيْط وأبو جهل، وكان من أبطئهم في الخروج الحارث بن عامر وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وحكيم بن حزام وأبو البختري وعلى بن أمية بن خلف والعاص بن منية، وبكّتهم أبو جهل بالجُبْن، وأعانه عقبة بن أبي مُعَيْط والنضر بن الحارث فأجمعوا على الخروج.

وخرجت قريش بالقيان والدِّفَاف يغنين في كل منهل ويضربن بالدِّفَاف، وفي مرّ الظهران عاد إلى مكة أفراد عشيرة عدى: عشيرة عمر بن الخطاب. وكان المطعمون للجيش في مسيرته أبا جهل نحر عشر جزائر بمرّ الظهران على بعد خمسة أميال من مكة، وصفوان بن أمية نحر تسعا بُعْثَفَان (على مرحلتين من مكة) وسهيل بن عمرو عشرا بَقْدِيد (قرية لخزاعة على ثلاث مراحل) وأقاموا فيها يوما فنحر لهم شيبه بن ربيعة تسعا ثم أصبحوا بالجُحْفَة (على أربع مراحل من مكة) فنحر لهم عتبة بن ربيعة عشرا، ونحر لهم في الأيام التالية مقيس بن عمرو الجمحي عشرا والعباس بن عبد المطلب عشرا والحارث بن عامر بن نوفل تسعا وأبو البختري على ماء بدر عشرا ومقيس الجمحي على ماء بدر تسعا ثم شغلّتهم الحرب فأكلوا من أزوادهم.

ولما تخوف أبو سفيان السير إلى مكة في الطريق المعتاد إليه المارّ ببدر خشية لقاء الرسول وجوعه نحى القافلة عن الطريق وساحل بها يمينا نحو البحر الأحمر وانطلق، وأرسل إلى قريش إنه قد سلمت قافلتكم وإنكم إنما خرجتم لثمنعوا قافلتكم ورجالكم وأموالكم وقد نُجِّها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرا - وكانت سوقا يجتمع العرب فيها سنويا - فنقيم عليها ثلاثا، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونُسْقَى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب ويجيشنا وجمّعنا فلا يزالون يهابونا أبدا بعدها. وقام الأخنس بن شريق - وكان حليفا لبني زهرة القرشيين - فقال: يا بني زهرة قد نُجِّى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل - وكان مع أبي سفيان لحماية القافلة -

أبو سفيان

يعدل عن

الطريق المعتاد

وإنما نفرتم إلى القتال لتمنعوه وماله فألصقوا بى جبن القتال وارجعوا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير ضييم، فرجعوا ولم يشهد المعركة زهري ولا عدوى، ورجع طالب بن أبى طالب إلى مكة معهم. ولما بلغ أبو سفيان تصميم الجيش القرشى قال: هذا عمل أبى جهل كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس قبغى، والبعى منقصة وشؤم.

وحين نزل الجيش القرشى خشى حكيم بن حزام مغبة القتال، فمشى إلى عتبة بن ربيعة فقال له: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها وأطاع فيها هل لك إلى أن لا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر؟ قال عتبة: وما ذلك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قتيل بعث عبد الله ابن جحش، فقال له: إنه حليفى وعلى عقله (ديته) وما أصيب من ماله أو ذبيهما، فاذكر ذلك لأبى جهل، ثم قام خطيبا، فقال: "يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لمن أصبتموه وانتصرتم عليه لا يزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه لقتله ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذى أردتم. وذهب حكيم إلى أبى جهل فذكر له كلام عتبة وتحمله دية عمرو بن الحضرمي وماله، فأبى وشتم عتبة بأنه قد تحوَّف على ابنه أبى حذيفة وكان قد أسلم. ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي، فقال له هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس، فقم فاذكر مقتل أخيك وثأره، فتعرض عامر وصرخ واعمره، فلم يعد بُدَّ من القتال لأخذ الثأر الذى كان يُعدُّ أهم شريعة عند العرب فى الجاهلية، وكان الإحجام عنه يُعدُّ عارا ما بعده عار. وأرسل الرسول ﷺ إليهم وإلى أبى جهل عمر بن الخطاب يعرض عليهم الرجوع وأن لا يكون بينهما قتال، فرفض ذلك أبو جهل قائد الجيش القرشى قائلا له: إنما لن نرجع بعد أن مكنا منكم. ومضى عامر بن الحضرمي يحرض على القتال ويصرخ: واعمره. ونشبت المعركة.

حكيم بن
حزام وعتبة
وأبو جهل

المعركة

بدأ الرسول في صباح يوم المعركة بتنظيم جيشه في صفوف متلاصقة جعل في مقدمتها الرماة بالسهام، وكان عامر بن الحضرمي يتقدم الجيش القرشي تحريشا بالمسلمين ومهيّجا عليهم مَنْ وراءه من القرشيين، وبذلك حوّل المعركة إلى معركة أخذ بالتأثر، وحاول مناوشة المسلمين، فبرز إليه مهجع مولى عمر بن الخطاب فاستشهد، وكان أول قتيل من المهاجرين قُتل يوم بدر، وقُتل من الأنصار حارثة بن سراقة.

ونزل ثلاثة للثأر من قتل عمرو بن الحضرمي، وهم حلفاؤه عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة والوليد بن عتبة، فنخرج إليهم ثلاثة من الأنصار فيّان هم معاذ ومعوذ وعوف بنو عفراء، فقالوا لهم لستم لنا بكفاء وأبوا إلا المبارزة مع رجال من قومهم القرشيين، ونادى منادى المشركين: يا محمد أخرج لنا الأكفاء من قومنا، فقال ﷺ: يا بني هاشم قوموا فقاتلوا على الحق الذي بُعث به نبيكم، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، فقام حمزة وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث، وكان حمزة مُعلما بريشة نعامة على رأسه وعليّ معلما بصوفة بيضاء، ونازل حمزة عتبة فقتله، ونازل عليّ الوليد فقتله، ونازل عبيدة شيبة فقتله، ففقط ساقه، ففكر حمزة وعليّ، فقتلا شيبة.

وتزاحف الجيشان، والرسول ﷺ يناشد ربّه ما وعده من النصر، ويقول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن يقوم لك دين ولن تُعبأ أبدا". وأقبل الأسود ابن عبد الأسد القرشي حتى دنا من الخوض الذي بناه المسلمون فقال: أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنّ دونه، فضربه حمزة بسيفه ففقط رجله، وزحف الأسود إلى الخوض، فأتبعه حمزة ضربة ثانية ففقت عليه. وأخذ الرسول يحضّ أصحابه على الاستماتة في القتال، وسمعه عمير بن الحُمام

الأنصارى يرغب في الجهاد ويشوق إلى الجنة من يموت شهيدا وكان في يده تمر يأكله فقال: بَخِ بَخِ أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء المشركون ورمى التمر وقاتل حتى قُتِل. وكل المسلمين المقاتلين في بدر كانوا مثل عمير بن الحمام، فهم يودون لو يستشهدون في قتال القرشيين المشركين. وكان الرسول ﷺ في العريش يرقب المعركة مع أبى بكر، وحدث ما يشبه المعجزة، فقد أخذت رءوس المشركين المشاركين في المعركة تنهاوى، ووقع شئ عجيب شهدت به سورة الأنفال، إذ أمدَّ الله محمداً والصحابه في قتالهم لقريش بألف من الملائكة أى بكثرة من الملائكة كانت تملأ المسلمين حماسة وشجاعة. وتناول الرسول ﷺ مجموعة من الحصا رمى بها القرشيين، وقال: شاهت الوجوه، اللهم أفرع قلوبهم وزلزل أقدامهم. وهبت فجأة من وراء الرسول على المشركين عاصفة هوجاء أعمت أبصارهم، وتلتها عاصفة أشد هولا، ثم عاصفة ثالثة، وألقت العواصف في قلوب المشركين الرعب، وأخذ من لم تنهاه رأسه مقتولا يستسلم للمجاهدين المسلمين، وقُتل منهم سبعون وأُسِر أربعة وسبعون، وتم النصر للرسول وأصحابه؛ وكأنه معجزة بل هو فعلا معجزة بنصر الله القائل في وصف المعركة للرسول وأصحابه بسورة الأنفال ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

ونهى الرسول عن قتل بنى هاشم وعمه العباس بن عبد المطلب لأنهم خرجوا كرها ولم يقتل منهم أحد، ونهى عن قتل ثلاثة من أشراف قريش لم يؤذوه طوال مقامه بمكة، وهم أبو البختري وكان ممن قام في نقض الصحيفة التى حبست قريش الرسول بها وأصحابه في شعب بنى هاشم وقتله الجحدر بن زياد. ونهى أيضا عن قتل الحارث بن عامر وزمعة بن الأسود وقُتلا، وقتل حمزة أبا قيس ابن الفاكه بن المغيرة، وقتل على جماعة منهم ابن أبى رفاعه وحرملة بن عمرو والعاص بن سعيد، وقتل عمر خاله العاص بن هشام أخا أبى جهل. وكان أبو جهل محاطا بكوكبة من قريش ومن الصعب أن يخلص إليه أحد، واستطاع معاذ ابن الجموح أن يخلص إليه فضربه ضربة أطاحت رجله من الساق، وضربه معه

قتل
أبى جهل

معوذ وعوف ابنا عفراء، ولما انتهى القتال أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود أن يلمسه في القتلى، فوجده في آخر رمق فوضع رجله على عنقه، وضربه بالسيف فقطع رأسه، وأتى بسلبه النبي ﷺ فأعطاه له، وكان أعلن المسلمين في أول الحرب أن من قتل قتيلا فله سلبه، وأعطى معاذ بن الجموح سيفه ودرعه. ورأى الرسول مصرع ابني عفراء فقال: يرحم الله ابني عفراء، فإلهما قد شركا في قتل أبي جهل. ورأى بلال عبد الرحمن بن عوف يسوق أمامه من المعركة أمية بن خلف وابنه عليا، فنادى يا معشر الأنصار هذا أمية بن خلف رأس الكفر، لا نجوت إن نجا - وكان بلال مولاه وكان يعذبه بمكة على ترك الإسلام عذابا شديدا، إذ كان يخرج في حر مكة الشديد، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد، فيقول بلال: أَحَدٌ أَحَدٌ، ورآه أبو بكر وأمие يعذبه فاشتراه منه وحرره. واجتمعت الأنصار على بلال وأمие وابنه علي وأحاطوا بهم، وقطعوا أمية وابنه عليا بالسيوف. وكان شعار المسلمين في الحرب بيدر أَحَدٌ أَحَدٌ، وقيل: أَمِتْ أَمِتْ.

بلال
يقتل أمية
ابن خلف

وأمر الرسول ﷺ حين انتهت المعركة بجمع شهداء المسلمين وخدمهم، وبالمثل جمع قتلى الكفار وغور لهم القلوب أو الحُفَر التي يدفنون فيها ووضع شهداء المسلمين في قليب لينتظروا فيه نعيم الفردوس، ووضع قتلى الكفار في قُلب لينتظروا فيها عذاب النار الأليم.

٤

الغنيمة والأسرى والتشاور فيهم - لفتة حضارية

أ - الغنيمة والأسرى

أمر رسول الله ﷺ بجمع كل ما خلفه الجيش المكي في ميدان الحرب، واختلف المسلمون فيه، فقال من جمعه هو لنا جمعناه، وقال المقاتلون: لولانا ما أصبتموه،

وقال حُرَّاس الرسول: لقد كان أماننا ما خلفه القوم ولا أحد يمنعنا منا لكنا خفنا على الرسول كَرَّة العدو فقمنا دونه وما أنتم أحق به منا. ونزع الله كل ما غنمه المسلمون من أيديهم فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسَّمه بينهم بالتساوي. وقال له سعد بن أبي وقاص: أتعطى فارس القوم الذي يحميهم مثل ما يُعطى الضعيف؟ وردَّ عليه الرسول بقوله اللطيف: وهل تُنصرون إلا بضعفائكم، ونادى مناديه: من قتل قتيلا فله سَلْبُه ومن أسر أسيرا فهو (أى فداؤه) له. وضرب في الغنيمة لشمالية رجال لم يحضروا بدرا إذ كانوا مكلفين بأعمال، وكان بينهم عثمان بن عفان أمره الرسول بالتخلف لمرض ابنته رقية زوجته. وكان في الغنيمة مائة وخمسون بعيرا وعشرة أفراس وأسلحة ودروع كثيرة سوى أمتعة وأزواد كثيرة. وبعث الرسول ﷺ شخصا إلى عالية المدينة وأسامة بن زيد إلى سافلتها ييشُرَّان الناس بالنصر العظيم، وتوفيت حينئذ رقية بنت الرسول.

وفي الطريق إلى المدينة أمر بقتل أسيرين من أسرى قريش أولهما النضر بن الحارث، وكان من شياطين قريش يؤذيه وينصب له العداوة وعرف في الحيرة أحاديث ملوك الفرس ورستم وإسفنديار، وكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فتلا القرآن ودعا فيه إلى الله وحذر قريشا مما أصاب الأمم السابقة خَلَقَهُ في مجلسه وحذَّتهم عن رستم البطل وإسفنديار وملوك فارس. وكان يقول لهم: ما محمد بأحسن حديثا منى وما حديثه إلا أساطير الأولين، وكان ممن تزعم مع أبى جهل دعوة قريش إلى معركة بدر، وحمل لواء في مقدمة الجيش، فكان طبعيا أن يأمر الرسول بقتله حتى لا يعود إلى مكة وتآليب الناس على الرسول وهتافه فيهم أن القرآن أساطير الأولين فلا تصدقوا محمدا إنه إنما يحكى أساطير وأباطيل. والأسير الثانى الذى أمر الرسول بقتله عقبة بن أبى معيط، وكان من شياطين قريش مثل النضر، وكان يبلغ من الاعتداء على الرسول في مكة وإيذائه ما لم يبلغه أحد، ولما أمر الرسول ﷺ بقتله أقبل على أصحابه فقال أئدرون ما صنع هذا بى؟ جاء وأنا ساجد فى الكعبة خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وجعل يغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينيَّ تسقطان. ثم مرة أخرى جاء بسلا شاة (وهو الجلد

قتل النضر
ابن الحارث
وعقبة بن
أبى معيط

الرقيق الذي يخرج فيه ابنها من بطنها ويكون مليئاً بالدم) وألقاه على رأسى وأنا ساجد خلف المقام، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى. وكان هو والنضر والشيطان الكبير أبو جهل أهم من حضوا الناس على الاشتراك فى غزوة بدر، والثلاثة جميعاً يتحملون وزر الدماء التى أريقَت من رجال قريش فى معركة بدر والدماء الطاهرة التى أريقَت من المهاجرين والأنصار، وقد قُتل أبو جهل فى المعركة، وكان حرياً أن يُقتل النضر وعقبة حتى لا يعودا إلى الإفساد فى مكة وتآليب الناس فى إعداد معركة ثالثة ضد الرسول ﷺ.

ومن عَجَب أن يزعم بعض المستشرقين أن قتل الرسول لهذين الأسيرين يدل على أنه كان متعطشاً لسفك الدماء دون معرفة بالشخصين ومدى عدائهما للرسول وإيذائهما له وتآليهما قريشاً ودفعها لقتاله هو وأصحابه فى بدر. وأكبر دليل على خطئهما فى هذا الزعم أنه لو كان متعطشاً لسفك الدماء لأمر بقتل بقية الأسرى السبعين أو بعبارة أدق الاثنين والسبعين إذ كانوا أربعة وسبعين كما مرّ بنا. ودليل ثان على خطأ هذا الزعم أنه أطلق سراح فقراء الأسرى وردّ إليهم حرياتهم دون أن يفكر أى تفكير فى سفك دماء أحدهم، ولم يطالبهم بأى شئ سوى تعهدهم بأن لا يعودوا إلى حربه. وخرج رسول الله بعد المعركة قافلاً إلى المدينة، ومعه الغنائم والأسرى فقسّم الغنائم فى الطريق بالتساوى بين أصحابه، وسبق الأسرى إلى المدينة بيوم.

وأخذ الرسول يفكر فى أمرهم أيقتلهم أو يأخذ منهم الفداء ويطلقهم، واستشار أبا بكر وعمر، فرأى أبو بكر أخذ الفداء تقوية للمسلمين وأشار عمر بقطع رقابهم، واستشار الرسول الصحابة فاختلفوا، فمنهم من وقف فى صف أبى بكر، ومنهم من وقف فى صف عمر، ولو كان الرسول متعطشاً لسفك الدماء كما يقول بعض المستشرقين لاختار رأى عمر، ولكنه اختار رأى أبى بكر رحمة بالقرشيين أعدائه الذين عذبوه وعذبوا المسلمين فى مكة وكذبوه وأخرجوه وقتلوه، إنه رسول الرحمة كما قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. ونزلت الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى

يُشَجِّنَ فِي الْأَرْضِ ﴿١٠﴾ أَي حَتَّى يَبَالِغَ فِي قَتْلِ أَعْدَائِهِ ﴿١١﴾ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾ ووزع الرسول الأسرى بين أصحابه وقال لهم استوصوا بهم خيرا، قال ابن عباس: فكانوا يقدمونهم على أنفسهم في الغداء، وهي لفنة عظيمة في معاملة أسرى الحرب لم يسبقه إليها أحد في حروبه، إذ كانت الأسرى تُسْتَذَلُّ وتُعامل معاملة الرقيق. وبلغت الهزيمة الساحقة قريشا، فناحت على قتلاها شهرا وجزَّ النساء شعورهن، وبلغت أبا لهب فحزن حزنا شديدا ولم يلبث أن مات بعد أسبوع غمًا.

وبعث قريش في فداء الأسرى، فقدم إلى المدينة جُبَيْر بن مطعم للتفاوض في الفداء، وقدم مَكْرَز بن حفص في فداء سُهَيْل بن عمرو، وكان الرسول ألقى به ذليلا في ركن من غرفة بداره ويده مقيدتان خلفه، فرأته سودة بنت زمعة زوجة الرسول فقالت له: أبا يزيد أعطيتكم بأيديكم ألا متم كرامًا؟ فسمعها الرسول، فقال لها: يا سودة أَعْلَى الله ورسول الله تحرّضين؟ وقدم أربعة عشر من قريش فجعل الرسول فداء الأسير من ألف إلى أربعة آلاف حسب قدرته المالية دون أي عسف أو ظلم لأحد. وكان في الأسرى أبو العاص بن الربيع ابن أخت السيدة خديجة، وكانت تعدّه بمنزلة ولدها، وسألت رسول الله أن يزوجه ابنته زينب، وكان لا يرد لها طلبا فتزوجها. ولما أكرم الله الرسول بنبوته آمنت به خديجة وبناتها، وثبت أبو العاص على شركه، وكان من رجال مكة المعدودين مالا وتجارة وأمانة، وأقامت زينب معه على إسلامها، وهو على شركه. فلما سارت قريش إلى بدر سار معها وأصيب في الأسرى، فبعثت زينب في فدائه بقلادة كانت أمها أدخلتها بها حين تزوجها، فرق لها الرسول رقعة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردّوا عليها قلادتها، وبأخذ الرسول على أبي العاص عهدا أن يُخَلِّي سبيل زينب إليه. ولما عاد إلى مكة أرسل الرسول إليها زيد بن حارثة، فرافقته إلى أبيها وأقامت عنده وأقام أبو العاص بمكة، وقبيل فتح الرسول لمكة خرج في تجارة إلى الشام وفي عودته أسره بعث للرسول، وردّت عليه تجارته

فذهب بها إلى مكة وأعطى كل ذى حق حقه، ثم رجع إلى الرسول فأعلن إليه إسلامه وردَّ إليه زوجته.

ب - لفتة حضارية

وكانت مكة تسبق المدينة في كثرة من بها من الكتاب بسبب التجارة وكان في الأسرى منهم طائفة فرأى الرسول أن يستغلهم في تعليم صبية المدينة الكتابة، وقال لهم إن كلا منكم يستطيع أن يفدى نفسه وتردُّ إليه حريته إذا علّم عشرة من صبية المدينة الكتابة، وتعلمها زيد بن ثابت في طائفة من غلمان الأنصار؛ مما يدل بوضوح على أن الرسول كان يريد نقل غلمان المدينة من عالم الأمية والبداءة إلى عالم الكتابة والحضارة، وحضَّ الله الأمة الإسلامية على العلم والتعلم منذ أول نزوله كما في صدر سورة اقرأ وفي كثير من آيات القرآن ومن أحاديث الرسول ﷺ، إذ هو دين علم وحضاره.

وأسلم عقب معركة بدر كثير من أهل المدينة، وأذلَّ الله بها المشركين واليهود والمنافقين، ودخل عبد الله بن أبيّ وجماعته من المنافقين في الإسلام تقيّة أن يصيبهم ما أصاب قريشا.

ويُعدّ انتصار الرسول والمهاجرين والأنصار في معركة بدر أهم حدث في التاريخ المبكر للإسلام، إذ استقرت به رسالته، وأصبح من المؤكد أن انتصاراته ستتوالى وسيُظِلُّ الجزيرة العربية، ولم يلبث أن غيّر بفتوحه الإسلامية وجه العالم وخريطته بفضل الثلاثمائة من المهاجرين والأنصار الذين مزّقوا قريشا في بدر، وأعدّوا الإسلام لكي ينتصر - فيما بعد - بمكة، ثم في أركان الجزيرة العربية، ثم في أركان العالم من الهند والملايو وأندونيسيا إلى الصين والترك وإيران والروم وأهل الشام والمصريين والبربر والإسبان. فما أعظم هذه المعركة التي كانت استهلالا عظيما لرسوخ الإسلام في الأرض، وقيام الإمبراطورية الإسلامية المتزامية الأطراف في آسيا وإفريقيا وأوروبا؛ والتي نشرت في العالم حضارة إنسانية لا تزال مؤثرة بعمق في كيانه وحياته.

انتصار بدر
إرهاص برسوخ
الإسلام وقيام
إمبراطوريته

الفصل الثالث عشر

من آثار بدر إلى مباحث قرآنية

١

آثار بدر

مرّ بنا أن مكة أمضت شهرا أو يزيد في بكاء قتلاها في بدر وجزّت نساء كثيرات شعورهن حزنا على من مات هن ونُحِنَ عليهم وندبهن طويلا إلا ما كان من هند زوجة أبي سفيان، وقيل لها ألا تبكين أباك عتبة بن ربيعة وأخاك الوليد وعمك شيبة، فقالت: أبكيهم ويسمع ذلك المسلمون في المدينة ويشمتون بي؟ لا أبكيهم حتى تثار لهم قريش. وبكى قتلى قريش شعراء مكة والطائف محرّضين على الثأر لهم.

وكان انتصار بدر العظيم غُصّة كبيرة ليهود المدينة ومنافقيها وأخذوا يهوّنون منه، وأخذ بعض شعراء اليهود ينظم الشعر في التحريض على المسلمين، وكانوا جميعا يحقدون على الرسول ﷺ أنه أصبح الحاكم الأمر في المدينة بعد أن كان لائذا بها مستجيرا من قريش، ولم تمر له بها إلا أشهر قليلة، وإذا هو يهيمن عليها ويسيطر سيطرة تامة بالجمهور الكبير الذي دخل في دين الله وأسلم له قياده من الأوس والخزرج.

وكان المسلمون من هاتين القبيلتين والمهاجرين يعتزون بما حقق الله لهم في بدر من النصر، ونزلت فيه سورة الأنفال، وامتنَّ الله به على المسلمين إذ جعله بشرى لهم لتطمئن به قلوبهم، وأملّهم بألف من الملائكة مردفين أى متبعين بألفين

قتال

الملائكة

آخرين حتى بلغوا خمسة آلاف كما في سورة آل عمران، ويوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنْتُمْ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾. ويكثر حديث المسلمين عن نصره الملائكة لهم، فقائل يقول إنه سمع همهمة الخيل في السحاب، وقائل يشهد بأنه كان يتبع كافرا ليضربه بسيفه، فإذا رأسه يسقط قبل أن يصل إليه سيفه، وعن ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يوم بدر يشتد (يسرع) في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط، وخر (سقط) المشرك مستلقيا، يقول: ووصلت إليه ونظرت فإذا هو قد حُطِمَ أنفه وشقَّ وجهه كمن يُضرب بسيف. ولم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، أما فيما عداه مثل يوم حنين فكانوا مددا للرسول وعونا، وعن سهل بن حنيف أنه قال: رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. ويروى أنه في أثناء المعركة أخذ الرسول يدعو ربه، ومما قال: اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد أبدا في هذه الديار. وأخذ كفا من حصباء وقيل من تراب فرمى بها قريشا وقال: شأهت الوجوه. وانهزموا. وليس هذا التراب سبب النصر ولا سيوف المسلمين سببه، إنما سببه الله القائل في السورة للمسلمين وللرسول ﷺ بعد أن ذكر نصره لهم في بدر بملائكته: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾. وكأنما كان المسلمون الذين اشتبكوا في المعركة يتفاخرون بأنهم قتلوا المشركين، فقال الله: لستم الذين قتلتموهم بل ربكم الذي قتلهم. وقال لرسوله ﷺ: يا محمد ليست الرمية التي رميت بها المشركين أنت الذي رميتها حقا لأنك لو كنت أنت الذي رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله، ولذلك أثرت ذلك الأثر من النصر الإلهي العظيم الذي عدّه الله بُشرى للمسلمين كما قال في سورة الأنفال. ولم يكن تشييتا لأقدامهم ووجودهم في المدينة والحجاز فحسب، بل كان بشرى لانتصارهم في الجزيرة العربية جميعها، بل كان بشرى أكبر من ذلك بكثير؛ أن ينتشر الإسلام سريعا شرقا حتى حدود الصين والهند، بل سيتجاوزهما إلى ماليزيا وأندونيسيا، وغربا

نصر بدر

نصر ربّاني

حتى المحيط الأطلنطي في أوروبا وتكوينه فيها الأندلس وإسبانيا وفي إفريقيا وتكوينه فيها دولاً شتى.

هذا النصر الإلهي للرسول ﷺ وللإسلام الذي مكّن للدين الحنيف أن يثبت وينتشر في الأرض أشبه بنصره الإلهي لرسوله موسى وقومه من اليهود، ويشير الله في سورة الأنفال إلى هذا النصر لموسى ضد فرعون وقد فصله لهم قبل ذلك في سورة الشعراء المكية، إذ قال جلّ شأنه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ وقد خرج بهم ليلاً متجهاً إلى طور سيناء فراراً بهم من فرعون وظلمه العنيف لهم، وعلم فرعون بخروجهم فجمع جنوده للحاق بهم وردّهم إلى مصر، وكاد يدرّكهم وهم مشرفون على البحر الأحمر، يقول الله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ... وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾. فحين قرب فرعون وجنوده من موسى وقومه أمره الله أن يضرب بعصاه البحر الأحمر، فانفلق يمينا ويسارا وامتد فيه طريق واسع سارت فيه أسباط بني إسرائيل إلى سيناء وأنجاهم الله من فرعون وجنوده، فافتحهم البحر وراءهم يظن أن ماءه سطحي وغير عميق، فأطبقه الله عليه وعلى جنوده فغرقوا جميعاً، وكان نصر موسى وقومه عليه نصراً إلهياً استطاعوا به أن يبدؤوا تاريخ دولتهم في فلسطين، بالضبط كما كان النصر الإلهي للرسول ﷺ والمسلمين في بدر بدء الانتصارات للإسلام وتمكنه في مشارق الأرض ومغاربها إلى اليوم.

٢

حمقى اليهود - بنو قينقاع

أ - حمقى اليهود

أخذ اليهود يمثلون حقداً وضغينة على الرسول ﷺ بعد انتصاره العظيم في بدر ورجوعه إلى المدينة، وكان نفر منهم ومن المنافقين سفيهاً يؤذى الرسول والمسلمين بهجانه قبل بدر، وكانوا لا يتعرضون لسفاهتهم، فلما انتصروا في بدر

وشعروا بعزّتهم أنفوا أن يتركوهم يهجونهم. وكان من أقذع اليهود هجاء عصماء بنت مروان، وكانت تعيب الإسلام في شعرها وتؤذى الرسول وتحرض عليه غير مباينة، فأقسم عمير بن عدى ليقتلنها، فدخل عليها ليلاً وحولها أبنائها نيام وابن ترضعه، وكان ضريراً فنجى ابنها عنها، ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها، وتركها. ثم عاد إليها فوجد بنيها في جماعة يريدون دفتها، فسأله أنت قتلتها؟ قال: نعم فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون والذي نفسى بيده لو قاتلتم بأجمعكم ما قالت لضربكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم. وكان قتلها خمس بقين من رمضان مرجع المسلمين من بدر.

وكان شيخ من اليهود يسمى أبا عَفْكَ ينظم الأشعار قبل انتصار بدر وبعده يطعن بها على المسلمين والرسول ﷺ ويحرض اليهود على الثورة عليه ويغريهم، فنذر سالم بن عمير من بنى النجار ليقتلنه أو يموت، وظل يطلب منه غيرة أو فرصة. حتى كانت ليلة صائفة، ونام أبو عفك بفناء داره، وعرف ذلك سالم بن عمير إذ كان يترصده، فأقبل فوضع السيف على كبده واعتمد عليه حتى دخل في الفراش، وصاح أبو عفك فجاءه ناس فأدخلوه منزله وقبره.

وجدير أن نضم إلى مصرع أبى عفك وعصماء مصرع كعب بن الأشرف، وإن تأخر مصرعه عنهما حتى ربيع الأول في السنة الثالثة للهجرة، وعداده في بنى النضير اليهود، وقيل إن أباه من طيء وأمه من بنى النضير، وكان شاعراً، وكان عدواً لله ولرسوله ﷺ وأكثر من هجاء الرسول ومن التشييب بنساء المسلمين يريد أن يهتك أعراضهم. ولما علم بانتصار المسلمين في بدر ومقتل أشراف قريش قال: إن هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. وذهب إلى مكة يحرض قريشا على محمد بأهاج حماسية، ويكى قتلاها في بدر، وعاد إلى المدينة يشيب بنساء المسلمين في وقاحة لا تماثلها وقاحة. وتأذى المسلمون تأذياً شديداً، وأجمعوا على وجوب قتله، وتعهد بذلك أخوان له في الرضاعة محمد بن مسلمة وأبو نائلة وانضم إليهما نفر من قبيلة الأوس، وأتاه أبو نائلة فتحدث معه وتناشدا

قتل عصماء

قتل
أبى عفكقتل كعب
ابن الأشرف

الأنشعار، وفَجَّاهُ أبو نائلة بقوله: كان قدوم هذا الرجل أى الرسول علينا من البلاء، حاربنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وتقطعت السبل عنا حتى جُهدنا وضاع العيال، فقال له كعب: لقد كنت أحدثك بهذا، وقال له أبو نائلة مؤكداً: إن معى رجلاً من أصحابي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فبتاع منك طعاماً وتمرا ونرهن لك ما يكون لك ثقة فيه، واكتم عني ما حدثتك من ذكر محمد، فقال كعب: لا أذكر منه حرفاً، لكن اصدقني ما الذى تريدونه فى أمر محمد، قال أبو نائلة: خذلناه والتجى عنه، قال كعب: سررتنى فماذا ترهنون لى؟ قال له أبو نائلة: السلاح والدروع، وسُرَّ كعب. وقام أبو نائلة من عنده، فأتى أصحابه، فأجمعوا أن يأتوه فى مواعده مساءً، وكانت ليلة مقمرة، فأتوا ابن الأشرف فناداه أبو نائلة - وكان حديث عهد بعُرسٍ - فنزل من حصنه إليهم فجعلوا يتحدثون ساعة، ثم مشوا يتحدثون بقية ليلتهم بعيداً عن حصنه، وبينما كعب مطمئن إليهم مصغٍ إلى حديثهم أخذ أبو نائلة بضفائر شعره وقال لصاحبه: اضربوا عدو الله، فضربوه بأسياقهم، وصاح صيحة أسمعت حصون اليهود فأشعلوا نيرانهم ولم يلبث أن مات. وزاد مصرعه يهود بنى النضير خوفاً شديداً على خوف.

ب- إجلاء بنى قَيْنُقَاع

بنو قَيْنُقَاع إحدى القبائل اليهودية الثلاث التى نزلت يثرب واستقرت بها حين طرد الإمبراطور الرومانى هادريان اليهود من فلسطين نهائياً سنة ١٣٥ للميلاد، واحترفت بها الصياغة وصنع الأسلحة، وكانوا تجاراً وصاغة، بينما كانت القبيلتان اليهوديتان الأخريان: بنو النضير وبنو قريظة أصحاب زرع ونخل، وكان بنو قَيْنُقَاع أقرب منهما فى المساكن إلى مساكن الأوس والخزرج، وكانت لهم سوق بها محالهم وتجارتهم.

ولم يحاول هؤلاء اليهود جميعاً تكوين وفد لتهنئة الرسول والمسلمين بما أنعم الله عليهم من النصر فى بدر، وبدلاً من أن يذكروا له أنهم عند عهدهم الذى

عقده معهم من أنهم شركاء المسلمين فيما أنفقوا في معركة بدر كما ينص الدستور السابق حين يحاول عدوُّ حرب المسلمين مضوا يتحرّشون بالرسول وبالمسلمين، فجمعهم الرسول في سوقهم وقال لهم: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة في بدر وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، فأجابوه: "لا يغرنك يا محمد أنك لقيت في بدر قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس". وعرف الرسول أنهم يبيتون له وللمسلمين شرا، وانصرف عنهم، وفيهم نزل قوله تعالى تهديدا لهم وإنذارا أن يصيبهم ما أصاب قريشا في بدر: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ في يوم بدر ﴿فِئَةٌ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

ولم يعتبر بنو قينقاع ولا اتعظوا، وحدث سريعا أن امرأة من الأنصار جاءت إلى سوق بنى قينقاع فجلست إلى صائغ تفاوضه في حليّة، وبينما هي تفاوضه غافلها يهودى سفيه، وهى لا تدري، فعقد من خلفها طرف ثوبها إلى ظهرها، ولم تكن تلبس تحت الثوب سريالا، فلما قامت انكشفت سوائها فتضاحك بها اليهود، فصاحت، فوثب رجل مسلم على الصائغ فقتله، وتجمع اليهود على المسلم فقتلوه دون أن يرفعوا الأمر إلى الرسول كما يقضى بذلك عهدهم معه، واستصرخ أهل المسلم المسلمين، ووقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع، وعرفوا أن المسلمين لابد أن يحاربوهم بعد نقضهم للعهد مع الرسول، فدخلوا حصونهم وأغلقوها.

وحاصر المسلمون بنى قينقاع في دورهم بمنتصف شهر شوال خمسة عشر يوما متعاقبة لم يخرج فيها أحد منهم ولا دخل عليهم أحد بطعام، واضطروا إلى التسليم والنزول على حكم الرسول، لما قذف الله في قلوبهم من الرعب. واستشار الرسول فيهم كبار الصحابة، فأشاروا عليه بقتلهم جميعا. وكان عبد الله ابن أبي حليفا لهم، وارتضوا قبيل الهجرة - مع أهل المدينة - أن يملكوه عليهم،

ولم يتم له ذلك إذ نزل الرسول المدينة وبايعه جمهورها على طاعة الله ورسوله، وذلك سبب حقه على الرسول ونفاقه مع اضطراره أن يعلن إسلامه. وكان لا يزال له بعض السلطان في نفوس المشركين من الأوس والخزرج، فتقدم إلى الرسول يطلب منه العفو عن بني قينقاع حلفائه قاتلا له: أحسن في موالي، ولم يرد عليه الرسول ﷺ، فكرر الطلب والرسول معرض عنه، فأدخل يده في جيب درع الرسول، فتغير وجه الرسول وقال له: أرسلني. وبدا الغضب على وجهه، وأعاد قوله: أرسلني. والغضب واضح في نبرات صوته، قائلاً: أرسلني ويحك. وأجابه ابن أبي: والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمئة حاسر (غير لابسين دروعا) وثلاثمئة دارع قد منعوني (أى قبيل الهجرة) من الأحمر والأسود تحصدتهم في غداة واحدة؟ وحديثه عبادة بن الصامت عن ابن أبي وما كان ينتظر من تملك يثرب بمساعدتهم قبيل الهجرة، فرأى الرسول أن يحسن إليه وإلى المشركين من موالي اليهود، مما جعله يأمر بأن يجلبو بنو قينقاع عن المدينة عقابا لهم. وحاول ابن أبي أن يستميع الرسول في بقائهم يثرب، ومنعه بعض الصحابة. وأجلاهم عبادة بن الصامت حليفهم وقبض أموالهم. وتركوا في منازلهم سلاحا كثيرا وآلة الصياغة. وأخذ الرسول من سلاحهم ثلاث قسي (جمع قوس) وثلاثة أسياف وثلاثة أرماح ودرعان إحداهما فضية، ويقال: هي الدرع التي أهداها شاول إلى داود حين خرج لقتال جالوت. وخرج بنو قينقاع من دورهم في يثرب ومضوا يضربون في الصحراء، ولحقوا بأذرع على حدود سوريا بنسائهم وذرايرهم.

عبد الله
ابن أبي
يشفع لهم

وينتقد بعض المستشرقين تصرف الرسول والمسلمين إزاء إجلاء بني قينقاع عن المدينة قائلين إنه قُتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل غير عالمين أن الإسلام حرّم الأخذ بالثأر، لأنه كان شريعة عند العرب قبل الإسلام، وكانت القبيلة حين يقتل أحد أفراد قبيلة ثانية شخصا منها تثار للقتيل وتظل القبيلتان تتحاربان طلبا للأخذ بالثأر لمن قُتل منهما، ووقف ذلك الإسلام والرسول حتى لا تتفانى الأمة، واستبدل ذلك بالقصاص وهو أن لا يُقتل سوى القاتل، وتقتله

إبطال الإسلام
لقانون
الأخذ بالثأر

وضع
قانون القصاص
الإسلامي

الدولة، ولا يقتل الأفراد بعضهم بعضاً حتى تُحقن الدماء، ومن حق أولياء دم المقتول أن يعفوا عن القاتل نظير دية يقدمها القاتل، فإجلاء بنى قينقاع كان لإخلائهم بقانون القصاص الإسلامي، ومنعاً للعودة إلى قانون الأخذ بالثأر الجاهلي الذي مُحى في الإسلام ليستتب النظام والأمن. وأخذ الرسول خمس متاع بنى قينقاع وفرّق الباقي على من حاصروهم.

٣

خمس مسيرات للرسول سُمّيت غزوات، وبعث زيد

هذه خمس مسيرات للرسول ﷺ سميت غزوات كما سميت مسيراته المارة قبل بدر، ورأينا هناك أنها كانت مسيرات لعقد معاهدات بينه وبين القبائل التي تنزل في مواقع مهمة في الطريق بين المدينة ومكة وفي طريق القوافل المكيّة المصعدة إلى الشام والمنحدرة إلى مكة. وهذه المسيرات بعد بدر إنما كانت لسماعه بتجمعات قبلية ضده أو ضد المدينة، فكان يريد أن يباغتها فجأة حتى يبطل ما كانت تفكر فيه من هجوم على المدينة وما فيها من زروع ونخيل.

مسيرة إلى
بنى سليم

وكانت أولى مسيرات الرسول بعد بدر إلى بنى سليم إذ سمع أنهم يتجمعون له فخرج إليهم مع جماعة من المسلمين بعد سبعة أيام من رجوعه من بدر، ومضى إليهم حتى بلغ ماء من مياههم وأقام عليه ثلاث ليال ولم يلق جمعاً ولا أحداً، وعاد إلى المدينة.

وكان أبو سفيان قد أصبح أهم شخصية في قريش بعد أن قُتل كثيرون من أشرافها، وقرر مع الملأ من قريش أن يصبح كل ما حملته قافلته التي معه مساعدةً لقريش ضد محمد، وأقسم أن لا يمس رأسه ماء وأن لا يطعم دهنًا حتى يثأر من محمد وأصحابه بمن أصيب من قومه، ولكي يبرّ يمينه خرج في أربعين راكباً وقيل في مائتين ليغزو محمداً، ونزلوا بالقرب من المدينة في أوائل ذي الحجة. وخرج أبو سفيان حتى أتى بنى النضير اليهود فضرب على سيدهم سلام بن مشكم باباً

مستأذنا عليه، فأذن له وأكرمه إذ أطعمه طعام الضيف وسقاه الخمر وأعلمه بأخبار الرسول والمسلمين. وخرج أبو سفيان من عنده في أواخر الليل، وعاد إلى أصحابه من قريش، فبعث رجالا منهم إلى المدينة، ونزلوا بناحية منها يقال لها العريض، ووجدوا بها نخلا مجتمعا فأشعلوا فيه النار، ووجدوا شخصا من الأنصار وحليفا له يعملان في حَرْث فقتلوهما، وانصرفوا راجعين مسرعين. وانتشر الخبر وبلغ الرسول ﷺ، فخرج في طلبهم بالخامس من ذى الحجة في جماعة من المهاجرين والأنصار، حتى بلغ ثمانية مراحل، وعرف أن أبا سفيان وأصحابه فاتوه فعاد مع جماعته، ورأوهم يطرحون كثيرا من أزوادهم للتخفيف طلبا للسرعة في سيرهم، وكانت الأزواد من السويق، وهو طحين من الحنطة أو الشعير كانت قريش تحملها في سفرها، وكانت تمرجه باللبن والعسل والسمن، فحمله أصحاب رسول الله، ولذلك سموا هذه المسيرة غزوة السويق.

مسيرة
السويق

وفي شهر المحرم التالي علم الرسول ﷺ أن جمعا من بنى سليم وغطفان تجمعوا له في قرقرة الكدر على بعد ثمانية بُرْدٍ من المدينة، فسار إليهم في جمع كبير من أصحابه فلم يجد أحدا، وأرسل نفرا من أصحابه في أعلى الوادى ونزل إلى بطن الوادى فوجد فيه نعما لهم وغلاما معها يسمى يسارا فسأله عن الناس فقال له: لا علم لى بهم، وكأنهم حين عرفوا مقدمه فرُّوا تاركين نعمهم على الرغم مما أُنذروا به الرسول وتوعده، وساق النعم - وكانت خمسمائة بعير - فطبق قانون الغنائم كما جاء في سورة الأنفال، فأخرج منها الخمس الذى له، وقسم الباقي على أصحابه وكانوا مائتين فأصاب كل رجل منهم بعيرين، وأسلم الغلام يسار فأعتقه الرسول. والقرقرة أرض ملساء، والكدر طير فى ألوان كدرة.

مسيرة
قرقرة الكدر

وفي شهر صفر - وقيل فى ربيع الأول - سمع الرسول ﷺ أن قبائل من غطفان تجمعت فى نجد بموضع اسمه ذو أَمْرٍ يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة، فندب الرسول أصحابه إليهم، وخرج للقائهم، ولقى فى طريقه رجلا منهم يقال له حيان، فسأله عنهم فقال إنهم إذ سمعوا بخروجك إليهم لن يلاقوك وسيفرّون

مسيرة
ذى أمر

مسيرة بحران

إلى رءوس الجبال، وتركه الرسول ﷺ وفعلا توغل في طلبهم فلم يلق منهم أحدا، ورآهم فارّين إلى رءوس الجبال، فعاد إلى المدينة، ولم يلق كيذا ولا أحدا. وسمع الرسول ﷺ في ربيع الآخر أن في بُحْران: قرية من قرى بنى سليم تجمعا كبيرا يريد الإغارة على المدينة، فخرج إليهم مسرعا حتى بلغ قريتهم: بُحْران، فوجدهم قد علموا بمسيرته إليهم، ووقع في قلوبهم الرعب منه، فتفرقوا في مياهم، فرجع إلى المدينة دون أن يلقى منهم كيذا أو أحدا.

وهذه الغزوات الخمس لم يكن فيها أى حرب، ولذلك كان ينبغي أن يسميها كتاب السيرة مسيرات للرسول ﷺ. وكان كلما سمع أن قبيلة بدوية تهم بغزو المدينة يظن أن ذلك بتأثير دعاية قريش ضده في القبائل البدوية، ولذلك كان يُسرع إلى لقائها حتى لا تتجمع معها قبائل كثيرة ضده، ونجح في سياسته، فلم تتجمع هذه القبائل مع مكة في غزوة أُحُد التي كان ينتظرها.

وفكرت قريش في طريق قوافلها التجارية إلى الشام وقد أصبح مهددا بالرسول، واجتمع كبارؤها يفكرون في ذلك يوما، ووقف صفوان بن أمية، وقال لهم إن محمدا وأصحابه أفسدوا علينا متجرتنا وكيف نصنع، وأصحابه لا يرحون الساحل، وقد وادّع أهل الساحل ودخل عامتهم معه. ولعل في هذا الكلام لصفوان ما يشهد بأن ما سمّاه مؤرخو السيرة للرسول من غزوات للقبائل قبل بدر وبينها وبين أُحُد، إنما كانت لعقد معاهدات بينه وبينها حتى لا تأخذ جانب قريش ضده، وأشرنا إلى ذلك من قبل، فقال الأسود بن المطلب لصفوان: تنكّب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق.

ورأت قريش أن تستبدل بطريق الساحل إلى الشام طريقا شرقيا لقوافلها في نجد إلى العراق، وبذلك تسير قوافلهم في طريق آمن، وأعدت قريش قافلة كبيرة تسير في هذا الطريق، واستأجرت لها دليلا خيرا بالطريق يسمى قُرات بن حيان. وعلم الرسول ﷺ بالقافلة وأنه يقودها من أشراف قريش صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعبد الله بن أبي ربيعة، فوجّه إليها بعثا بقيادة مولاه زيد بن حارثة يعترضها في مائة راكب، فالتقوا بالقافلة عند ماء كانت تسريح

بعث زيد بن
حارثة إلى
قافلة قرشية

عنده يسمى ذا القَرَد في أرض نجد بالقرب من الريدة. ومنذ بدر طارت شهرة المهاجرين والأنصار بالشجاعة النادرة والبطولة، فبمجرد أن علم صفوان بن أمية ومن معه بأن فرسانا منهم يقترّبون من القافلة فرّوا على وجوههم لا يلوون تاركين القافلة وكل ما فيها من أموال وأوان فضية وعروض. وساق زيد القافلة إلى رسول الله ﷺ وبلغت قيمة الخمس في الغيمة عشرين ألف درهم وقسم الباقي على زيد وصحبه. وأسلم فرات بن حيان وحسن إسلامه.

٤

مباحث قرآنية - وجه من الإعجاز لم يتنبّه إليه الأسلاف أ - مباحث قرآنية

القرآن خاتمة الكتب الإلهية الموجهة من الله - تقدس اسمه - إلى البشرية، وهو اسم جميع الآيات التي أوحى الله بها عن طريق جبريل إلى الرسول ﷺ، ويذكر الله ذلك في سورة الشعراء قائلاً: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ جبريل ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وأصل اسمه مصدر كالغفران والشكران، سُمّي به الله كلامه الموحى به إلى رسوله في مثل قوله يذكر أول نزوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ في ليلة الشرف والفضل كما قال الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. وهو مائة وأربع عشرة سورة، والسورة مأخوذة من السور المحيط بالبناء، وهي مقدار معين من الآيات، وأطول السور سورة البقرة وهي مائتان وست وثمانون آية، وأقصرها سورة الكوثر: ثلاث آيات. ورُتبت الآيات في سورها بوحي من الله إلى رسوله، وكان يتلوّه على جبريل مرة كل سنة وفي السنة الأخيرة تلاه مرتين، وأشار الله إلى تعهده بحمل جبريل لآيات القرآن وقراءة الرسول له بلسانه عن ظهر قلبه لا بكتساب يقرؤه، وستحفظه الصدور، ويقول الله في سورة القيامة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ عن طريق جبريل

نزول القرآن
منجماً

﴿وَقُرْآنَهُ﴾ بلسانك ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أى قرأه جبريل عنا ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أى أنصت إلى قراءته واتبعها ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ لكل سامع، وقدّر الله بأن يكون محفوظاً فى الصدور جيلاً بعد جيل، فالأصل فيه حتى اليوم التلاوة والحفظ لا الكتابة، مما جعل أجيال قرائه تتوالى على مر العصور.

واقضت حكمة الله أن ينزل القرآن على رسوله مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة وكان بعض المشركين يقول: هلا أنزل القرآن جملةً وردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أى أن الحكمة فى تفريقه أن يثبت فى فؤاد الرسول ويعيه شيئا فشيئا ويحفظه، وأيضا فإنه كان ينزل كثير منه تبعا لمتطلبات الأحوال وجوابا للسائلين من المشركين فى مكة ومن اليهود والنصارى فى المدينة كجداله مع اليهود فى الجزء الأول من سورة البقرة ومع نصارى نجران فى سورة آل عمران. وكل غزوات الرسول الكبيرة وهو فى المدينة مع أهل مكة وغيرهم مسجلة فيه، وقد نزلت سورة الأنفال فى وصف غزوة بدر ونصر الله للمسلمين فيها وغنائمهم، فكان لا يمكن أن ينزل جملة، بل ينزل حسب الدواعى والأحوال والأحداث.

وكان الرسول ﷺ يتلو آيات القرآن على الصحابة بمجرد نزولها وكانوا يتلونها فى صلاتهم وعباداتهم مرارا وتكرارا، وغنيت طائفة كبيرة منهم بكتابة القرآن بأمر الرسول، وهم كتبة الوحى الذين اتخذهم الرسول ﷺ لكتابته، وفى مقدمة حفظته عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود، وكتبه بعض الصحابة لأنفسهم.

وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، وكان حفظة القرآن يسمّون بالقراء، واستحّرّ القتل بهم فى حروب الردّة باليمامة فى عهد أبى بكر، فدخل عليه عمر بعد سنتين من خلافته، فقال له: إن أصحاب رسول الله ﷺ يتهافون فى المعارك تهافت الفراش على النار، وإنى أخشى أن تأتى عليهم، وهم حملة القرآن فيضيع منه كثير، فلو جمعته. فتوقف أبو بكر وتردّد، فلم يزل به عمر حتى وافقه على

كتابتها في مصحف واحد. وجمع أبو بكر الحفظة المشهود لهم بالإتقان، وكان منهم زيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وعثمان بن عفان وعلى ابن أبي طالب وطلحة وحذيفة بن اليمان وأبو الدرداء وأبو هريرة وأبو موسى الأشعري، فاجتمعوا برياسة زيد بن ثابت في دار عمر ثم في المسجد النبوي. وأمر أبو بكر زيد بن ثابت أن يكتب القرآن كله على الترتيب الذي تلقاه هو ومن معه من الحفظة عن الرسول بنفس الألفاظ ونفس الحروف ونفس الصورة في عرصة الرسول الأخيرة للقرآن على جبريل، وكتبه زيد ومن معه في قطع الأدم (الجلد) وغيرها. وظلت صحفه عند أبي بكر حتى توفي، ثم عند عمر حتى توفي، ثم عند حفصة بنت عمر أمير المؤمنين.

مصحف
أبي بكر

وتفرق حفظة القرآن في الفتوح الإسلامية، وكان بينهم اختلاف في بعض الأداء ولم يكن بين أيديهم مصحف أبي بكر ليرجعوا إليه، فأفرع ذلك حذيفة بن اليمان وكان في غزو أرمينية وأذربيجان سنة ثلاثين من الهجرة، فأسرع إلى الخليفة عثمان يخبره بالأمر، فاهتم به اهتماما شديدا، وأرسل إلى حفصة يطلب منها المصحف لينسخ منه نسخا ويرده إليها فأرسلته إليه، وأمر زيد بن ثابت وثلاثة من قريش: عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، وقال لهم إن اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش فبلسانها نزل. وكتبوا له ثمانية مصاحف استبقى واحدا منها عنده في المدينة، وأرسل منها مصحفا إلى البصرة، وثانيا إلى الكوفة، وثالثا إلى البحرين، ورابعا إلى الشام، وخامسا إلى مكة، وسادسا إلى اليمن وترك للمدينة مصحفا، وأمسك لنفسه مصحفا، وأمر بحرق ما سوى مصاحفه، فحرق مصحف أبي بن كعب ومصحف ابن مسعود وسواهما، وأطاعته الأمة، ومضى القراء في العالم الإسلامي يقرئون الناس القرآن شفاه بالصورة المروية عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالسند الصحيح المتواتر عنه جيلا بعد جيل إلى اليوم وبجانبهم المصاحف المكتوبة بكل دقة عن مصحف عثمان. وهو ما لم يكفل للتوراة عند اليهود ولا للإنجيل عند المسيحيين، ولا لأي كتاب ديني بفضل الله وتعهد له كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ

مصحف
عثمان

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ وحفظ معه العربية لغته وجعلها لغة خالدة. وكل سور القرآن تبدأ بالبسملة ما عدا سورة التوبة المبدوءة بكلمة ﴿بَرَاءَةٌ﴾ وجميع السور - ما عدا فاتحة الكتاب - حديث أو رسالة سماوية موجهة من الله إلى رسوله وأتباعه من المسلمين وخصومه من المشركين واليهود والمسيحيين .

ومعروف أن الرسول ﷺ ظل بمكة داعياً للإسلام ثلاثة عشر عاماً هاجر بعدها إلى المدينة وظل مقيماً بها عشرة أعوام إلى أن لبي نداء ربه. والسور لذلك إما مكية نزلت بمكة وإما مدنية نزلت بالمدينة، وتمتزج ببعض السور آيات مكية بأخرى مدنية بتوقيف من الله جل شأنه.

السور المكية
والمدينة

وكثرة السور نزلت بمكة ، وهي تختلف عن السور المدنية في المعاني التي تتناولها إذ تدعو إلى عبادة الله وتوحيده ونبذ عبادة الأصنام والأوثان والإيمان بالملائكة والرسول والكتب السماوية والإيمان بالبعث واليوم الآخر وما فيه من الحساب فمن عمل صالحاً واتقى ربه دخل الجنة، ومن عمل سوءاً وأطاع الشيطان دخل جهنم. وتُساق في أثناء ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية وما نالها من التدمير لعصيان رسلها وربها، ويُذكر خلق الله للكون وطرد إبليس من الجنة وخطيئة آدم وحواء كما في أوائل سورة الأعراف.

والسور المدنية تفصل القول في الأعمال الطيبة التي ينبغي على المسلم أن يقوم بها من العدل والتقوى والصدق والوفاء بالعهد والأمانة. ويكثر فيها التشريع الديني من مثل الزكاة أو بعبارة أخرى العدالة الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء، والتشريع الاجتماعي من مثل برّ الوالدين والأقارب والإخاء الصادق بين المسلمين والمساواة بينهم فلا سيد ومسود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحقوق المرأة والزواج والتوارث وحسن المعاملة في البيع والشراء والرهن والديون، مع بيان بعض العقوبات والمحرمات، ومع الدعوة إلى الخلق الكريم من مثل التسامح والعفاف والتواضع الحميد والحلم والقناعة. وتتردّد مع ذلك الدعوة إلى ما دعت إليه السور المكية من توحيد الله وعبادته وبدء الخليقة وعداء إبليس وإغواء الشيطان للإنسان، كما تتردّد الدعوة إلى النظر في خلق الكون

ونظامه ودلالته على صانعه والإيمان بالبعث والحساب والعقاب. وتفيض السور المدنية - كما مرّ بنا - في الجدال مع اليهود كما في سورة البقرة، ومع نصارى نجران كما في سورة آل عمران.

ويقول الله - عزّ شأنه - في سورة المائدة لرسوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أى القرآن ﴿بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أى الكتب السماوية ﴿وَمُهِيمًا عَلَيْهِ﴾، والله يبيّن فى الآية موقف القرآن وشريعته الإسلامية من التوراة وشريعتها اليهودية والإنجيل وشريعته المسيحية، فهو مصدّق لهما فى الأصول العقيدية من توحيد الله والإيمان بملائكته وبرسله وكتبه السماوية واليوم الآخر وما فيه من الحساب جزاء كل شخص بعمله فى دنياه، فإما إلى نعيم الجنة وإما إلى عذاب النار، وأيضا فى الأحكام التى لا تختلف باختلاف الجماعات فى العصور، وصوّر الرسول ذلك بقوله - كما فى صحيح البخارى: نحن - معاشر الأنبياء - إخوة لعلات. أى أنهم إخوة من أمهات ضرائر لأب واحد، فالرسول وموسى وعيسى إخوة يدعون الناس إلى أصول واحدة فى الدين. ويضيف الله فى وصف القرآن بأنه مصدق فى أصول الدين لما سبقه من التوراة والإنجيل أنه مهيمن عليهما ومسيطر، إذ يطل وينسخ بعض الأحكام فى الشريعتين السالفتين مراعاة لمصالح الأمم واختلاف أحوالها بعضها عن بعض كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ من آيات التوراة والإنجيل ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أى نؤجلها ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ للمكلفين فى الشريعة الإسلامية. وتشهد لذلك آية سورة الأعراف، وهى تنص على أن الشريعة الإسلامية تضع عن اليهود والنصارى ﴿إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى الأثقال من الأوامر الشديدة والنواهي الشاقة التى كلّفوا بها. ونقرأ مثل ذلك فى سورة الرعد، إذ يقول الله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أى لكل عصر وزمن ﴿كِتَابٌ﴾ أى شريعة تختلف باختلاف مصالح الأمم ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أى يحو الله من الشرائع بعض الأحكام الجزئية المناسبة لعصورها ويثبت ما هو خير منها ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى علمه الأزلى بما

هيمنة القرآن
على التوراة
والإنجيل

يصلح لكل أمة في كل عصر. والقرآن - بذلك - يهيمن على التوراة والإنجيل بنسخه لبعض أحكامهما ووضعهما - بدلا منها - أحكاما جديدة يرعى الله فيها المصلحة لعباده أتباع الشريعة الإسلامية.

وليس لأمة من الأمم مثل القرآن في بيانه وبلاغته وتأثيره الرائع في النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله ووحدانيته وعظمته وجلاله أو عن خلقه للسماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وحمل السحب للأمطار وإحياء الأرض بها بعد موتها وما بث فيها من الدواب والزرع والنخيل والأعشاب والحدائق، وما أبدع في السماء من الشمس ونورها نهاراً والقمر وضياءه ليلاً، وما وضعه للأمة الإسلامية من تشريعات في القرآن تحقق لها السعادة في الدارين: الأولى والآخرة، وما بث فيه من مواعظ ومن تاريخ الرسل وأممهم الدائرة وما يحمل من غير.

إعجاز القرآن

وكان الرسول يتلو القرآن في مكة بالكعبة فيروع سامعيه روعة شديدة سواء أكانوا من أتباعه المسلمين أو كانوا من كفار قريش أعدائه. روى الرواة أن الوليد بن المغيرة أحد كبار أعداء الإسلام وخصومه من قريش سمع الرسول ذات يوم يتلوه، فذكر لنفر من قومه الكفار أنه سمع من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له حلاوة وإن عليه لطلاوة (رونقا) وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغليق (كثير المياه). وتدل كلمته على أنه شعر في دقة أن آيات القرآن تبين كلام الإنس من بلغائهم كما تبين كلام الجن الذي ينطق به كهانهم، إذ هو نمط مستقل من خطاب موجه من الله إلى الرسول والمسلمين وغيرهم فصلت آياته بفواصل تستريح عندها النفس وتجد فيها وفي ألفاظ الآيات قبلها رَوْحاً وعدوبة لا تماثلها عدوبة في كلام البشر، إنه نمط باهر، بل نمط معجز ببلاغته يقول جل شأنه: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾. وفعلاً عجز العرب عن معارضته والإتيان بمثل بعض آياته أو بعض سورته كما سجل الله ذلك في القرآن ودخلهم في الدين الحنيف طائعين مبهورين.

ب - وجه من الإعجاز لم يتنبه إليه الأسلاف

وهناك وجه من الإعجاز يلفتنا إليه ما جاء في إسلام عمر الذي ذكرناه فيما أسلفنا من حديث إذ ذكر زيد بن حارثة عن إسلامه أن الغضب اشتد به ضد الرسول، فحمل سيفه يريد أن يقتله، فلقيه في أحد طرق مكة نعيم بن عبد الله، فقال له إلى أين أنت ذاهب يا ابن الخطاب؟ فقال له أريد محمداً الذي فرّق أمر قريش وسفّه عقولها وسبّ آلهتها فأقتله. فقال له نعيم - وكان قد أسلم وأخفى إسلامه خوفاً من قومه - : والله لقد غرّتك نفسك، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فإن ابن عمك زوج أختك سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأختك أسلمنا. فتركه عمر وسار إلى دار أخته، وكان خباب بن الأرت عندهما يُقرئهما القرآن، ودقّ عمر عليهم الباب فاختبأ خباب ودخل عمر فقال لأخته ما هذه الهنيمة (أي الكلام الخفي) التي سمعتها وأنا على الباب؟ فقالت له: ما سمعت شيئاً. فقال لها: لقد أخبرت أنكما بايعتما محمداً على دينه. وبطش بزوجها سعيد وحاولت الدفاع عنه فضربها فشجّجها (جرحها) وسال دمه، فقالت له: لقد أسلمنا فاصنع ما بدا لك. ورأى في جانب من الغرفة صحيفة، وكان قارئاً كاتباً، وما زال بها حتى أعطتها له، وإذا فيها مطلع سورة الحديد، ونترك عمر ليروي لنا ما حدث، يقول: لما قرأت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ دُعرت ورميت الصحيفة من يدي، ورجعت إلى نفسي وقرأت فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. يقول عمر: وكنت كلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل دُعرت، ثم ترجع إلى نفسي. ومضى يقرأ الآيات الثلاث التالية وفيها خلق الله للسموات والأرض وعلمه بما يدخل في الأرض ويخرج منها وما ينزل من السماء ويصعد إليها، وهو معنا أينما كنا. له ملك السموات والأرض يدخل الليل في النهار، والنهار في الليل وهو عليم بما في صدور الناس

من الخواطر والأفكار. وما إن قرأ عمر بعدها: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ. وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وما إن بلغ عمر هذه الآية حتى بلغ شعوره بخشيته من ربه الذروة، فأعلن أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وذهب إلى الرسول بدار الأرقم وأعلن إليه إسلامه، وكبر المسلمون تكبيرة سمعت بأطراف مكة.

وانقلاب عمر من رغبة في قتل الرسول إلى إيمان بدينه ووحدانية ربه وإيمان برسالته كل ذلك حدث لعمر حين تلا بعض آيات من القرآن. وكان مثله بدرجات متفاوتة يحدث للمسلمين الذين كانوا يدخلون بمكة ثم بالمدينة في الإسلام حين يتلو عليهم الرسول بعض آياته الموجهة من السماء بل من الله إليه وإلى المسلمين فيمتثلون خشيةً من الله ويستسلمون إليه ويدخلون في دينه الخفيف مؤمنين بالله ووحدانيته وبرسوله. وصور الله ذلك تصويراً دقيقاً في قوله بسورة الزمر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. والله يصف القرآن بأنه كتاب متشابه أى أن معانيه متشابهة على نحو ما يتضح في قصصه عن الأنبياء ووعدته بالجنة ووعيده بالنار، ويقول إنه مثانى أى أن معانيه مكررة حتى ترسخ في نفوس المسلمين، ثم يصور ما يصيب سامعيه من القشعريرة لما يلقى في روعهم من خشية الله، أو كما قال عمر من الدعر والفرع؛ وما يلبث الدعر أن ينقلب إيماناً وطمأنينة. وهذا ما حدث لكل من آمن بالرسول في مكة والمدينة، إذ كانوا بمجرد أن يتلو عليهم الرسول ﷺ آيات من القرآن يشعرون شعوراً عميقاً بخشية الله وتجذبهم خشيته إلى الإيمان بالله ورسوله.

وفى رأينا أن هذا الوجه من الشعور بالخشية العميقة من الله حين الاستماع إلى آيات القرآن أو تلاوتها أهم وجوه إعجازه، وقد صورها عمر بدعر كان

يصيبه حين يقرأ أسماء الله، واستمر هذا الدعر أو الفزع يكبر في نفسه ويكبر معه الشعور بخشيته من ربه حتى حدث هذا الانقلاب في نفسه من عداوة رسول الله والإيمان بآلهة قريش الوثنية إلى توحيد الله وإجلال له ولرسوله ليس فوقه إجلال، وسأل أين الرسول وذهب إليه وأعلن إليه إسلامه.

وأكرر ما قلت من أن المسلمين الأوائل في مكة والمدينة إنما دخلوا في الإسلام حين سمعوا الرسول يتلو بعض آياته فتمتلئ قلوبهم بخشية الله. ويصور ذلك جبير بن مطعم فيقول: أول ما استقر الإسلام في قلبي أنني سمعت رسول الله ﷺ يتلو سورة الطور حتى بلغ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ. أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ فكاد قلبي أن يطير. وهذا نفسه ما حدث في الفتوح الإسلامية فإن كثرة من أسلموا بتلك الديار لم يؤمنوا بالقرآن عن طريق بلاغته إذ لم يكونوا عرباً وإنما آمنوا به لأنه كلام الله، ولأنه يملأ قلوبهم - حين يسمعون أو يتلون - خشية من الله. ويعجب الله - جل شأنه - من الكفار الذين لا يخشونه حين تلاوتهم له أو سماعه، فيقول في سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. وهو يقول إن قلوب الكفار متحجرة، ولذلك لا تتأثر بسماع القرآن أو تلاوته، ولو أنزلناه على صخر جبل، وكان الصخر يفهم خطابه لتأثر به تأثراً شديداً وتصدع وتشقق من خشية الله، وكأن قلوب الكفار أشد قسوة من صخر الجبال. وكان كثير من المسلمين في عهد الرسول، وإلى اليوم، إذا تلاوه أو سمعوه فاضت عيونهم بالدموع تأثراً وخشوعاً لربهم. وبهذا الشعور الطاغى من خشية الله حين تلاوة القرآن أو سماعه آمنت الأمم من أواسط آسيا إلى جبال البرينيه في شمال إسبانيا بالإسلام وتعاليمه.

الفصل الرابع عشر

من غزوة أُحُد إلى إجلاء بنى النضير والزواج بأم سلمة وزينب

١

الاستعداد لغزوة أُحُد

رجعت فلول قريش وأسراهم من بدر إلى مكة يعلو وجوههم ذل الهزيمة وما جليوه إلى بلدهم من عار أمام القبائل التي طالما دانت لهم بالولاء. ولم تكن تخلو دار في مكة من مفقود: أب أو زوج أو ابن سوى من كان يثن من جراحه. واجتمع كبراء قريش للتفكير في الأمر، واتفقوا على الإعداد للشار لقتلى بدر وأن تُخصص أرباح قافلة أبي سفيان التجارية التي سيبت غزوة بدر للإنفاق على جيش جرار يأخذ لقريش بالشار من المسلمين. وزادتهم قافلة صفوان بن أمية التي كانت متجهة شرقا إلى العراق بدلا من طريق الساحل غير المأمون، فإذا بعث زيد بن حارثة يقطع عليها الطريق ويفر أصحابها ويتركونها، فيسوقها إلى المدينة. لقد أصبح طريق الشرق مثل طريق الشمال مهددا بأصحاب محمد، وكأنما سُدَّت الطرق في وجه القرشيين إلى الشام، وفيها أهم متاجرهم. وزادهم ذلك غيظا وحيّة لأخذ الشار من الرسول وأصحابه، وليفتح أمامهم طريق قوافلهم التجارية إلى الشام عن طريق الساحل وطريق نجد إلى الشرق.

ولما تمت لقريش عُدتّها من السلاح استنفر زعيمها أبو سفيان أهلها
للائسواء في الجيش، وتقدم إليه شباب قريش وكل من يستطيع منها حمل
استنفر قريش للقبائل

السلّاح، واستنفر القبائل النازلة قريبا من مكة، وانضمت إليه قبيلة عبد مناة من كنانة، واستنفر ثقيفا في الطائف فانضم إلى جيشه مائة من شجعانها، وبذلك أعد للغزوة جيشا ضخما عداؤه ثلاثة آلاف، معهم ثلاثة آلاف بعير وكان منهم سبعمائة دارع تام السلّاح، وكان معهم مائتا فارس يقودهم عكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد: القائد القدّ في الفتوح الإسلامية. وأصرت طائفة من نساء قريش أن يصحبن الجيش، وتشاور الرجال في صحبتهم لهم، واستحسن ذلك جماعة حتى يحمسن الجيش لإدراك الشار، وأنكرته جماعة خشية من انتهاك المسلمين لهم إذا كانت لهم النصورة، ورجح رأى الأولين. فخرج معهم خمس عشرة امرأة متعطشات لدماء المسلمين ثارا لمن قُتل هن، وفي مقدمتهن هند زوجة أبي سفيان بنت عتبة بن ربيعة قتيل حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، وكانت - منذ بدر - لا تزال تبكيه وتكثر من النواح عليه ومن تحريض قريش للأخذ بثأرها من المسلمين، وواعدت عبدا حبشيا أن تجزّل له المكافأة إذا قتل حمزة قاتل أبيها في بدر وكان ماهرا في رمي الحربة.

النساء يصحبن
الجيش

ولم يكن الرسول ﷺ يعلم نبأ هذا الجيش الجرار الذي تُعدّه مكة لحربه، وبينما هو في قُباء بأوائل شوال من السنة الثالثة للهجرة إذا برسول أرسله إليه عمّه العباس الذي أكرمه حين أسير في غزوة بدر، وكان معه كتاب من عمه، ففضّله، فإذا هو يُنبئه في كتابه بخبر الجيش المكي الذي تأهل لحربه وحرب المسلمين. فعاد الرسول من فوره إلى المدينة، وعقد مجلسا حربيا من أبى بكر وعمر وعثمان وحمزة وعليّ وضم إليهم سعد بن معاذ وعبد الله بن أبيّ، ليجمع المهاجرين والأنصار على رأى واحد إزاء هجوم عدو أجنبي، وتشاوروا. ونصح الرسول ﷺ بعدم الخروج من المدينة، حتى إذا دخلت قريش عليهم قاتلوها في الأزقة ورماهم النساء والدرارى بالحجارة من فوق البيوت والحصون، ووافق أكثر المجتمعين خبرة، وخالفه الشباب المجتمعون، وقالوا إنا هزمنا في بدر جيشا قرشيا كبيرا وكان عددا نحو ثلاثمائة فدعونا نلقاهم خارج المدينة وسينصرنا الله عليهم ويهزمون كما هزموا في بدر، وقال حمزة للرسول مشايعا لمن يروون

مجلس
حربى

الخروج: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاما حتى أجالدهم. وتملك حب القتال أكثر المجتمعين من المهاجرين والأنصار، فنزل الرسول ﷺ على رأيهم ووافق على الخروج.

واقترح الرسول بالخروج لقريش، وصلى بالناس صلاة الجمعة وحث المصلين في خطبتها على الجهاد وصلى بهم العصر، وعرفهم بالخروج لحرب قريش ودخل بيته، فلبس أداة الحرب إذ لبس درعا وبيضة (خوذة) وتقلد سيفاً وقرسا واعتصم وأخذ رمحا بيده، ووضع ترسا على ظهره، بينما كان أبو بكر وعمر وحزرة يعدون الجيش. وكان سعد بن معاذ يرى عدم الخروج للقاء قريش فقال لهم إنكم تمشون إلى الموت بأفئامكم، فعاد قوم يقولون للرسول ﷺ إنهم على استعداد للبقاء داخل المدينة، لكن الرسول التزم بقرار الخروج وقال قولته المشهورة: "ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمة الحرب (أى عدتها) أن يضعها حتى يقاتل". وانضوى تحت قيادته ألف رجل فرأى الخروج بهم إلى جبل أخذ ليكون حاميا لظهورهم. وكان فى جيشه ثلاثمائة من المشركين واليهود جمعهم عبد الله بن أبى. وقبل أن تبدأ المعركة عاد عبد الله بن أبى بحلفائه من المشركين واليهود إلى المدينة، وبذلك أصبح جيش الرسول سبعمائة مقاتل. وكانت المعاهدة التى عقدها الرسول مع اليهود فى أوائل مقامه بالمدينة تقضى بوجوب الاشتراك فى الدفاع عنها حين يهاجمها عدو من قريش أو غيرها، ولكن اليهود لم يحاولوا الاشتراك مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة ضد قريش متعللين بأن المعركة ستبدأ يوم السبت واليهود تحرّم القتال يوم السبت، وكان المسلمون يعرفون أنهم يتمنون انتصار القرشيين. وكان أبو عامر الأوسى رئيسا للأوس ومُترهبا فى الجاهلية كما كان عبد الله بن أبى رئيسا مثله للخزرج، فلما جاء الإسلام عارضاه، غير أن عبد الله بن أبى دخل فى الإسلام بعد بدر ظاهرا، أما أبو عامر فظل يجاهر الرسول بالعداوة، وخرج - ومعه خمسون من الأوس - إلى مكة يحرضون قريشا على حرب الرسول، وكان يعدّ أبا سفيان أن قومه بمجرد أن يروه فى صفوف قريش سيتركون الرسول وينضمون إليه، وسار مع جيش قريش هو وأتباعه. وتحرك أبو

خروج
الرسول للقتال

رجوع
عبد الله بن أبى
وحلفائه

سفيان بالجيش، وهو شاعر بالتفوق في العدد والعدة، إذ كان الجيش ثلاثة آلاف منهم سبعمائة مدرعون بكامل السلاح، ومعه مائتا فارس كما أسلفنا، وساروا في الطريق الرئيسي بين مكة والمدينة ومروا بقرية الأبواء، وبها قبر السيدة آمنة أم الرسول، فحاولت هند زوجة أبي سفيان نبش قبرها فمنعها زوجها أبو سفيان، وقال لها إنها توفيت ومحمد صبي قبل ظهور الإسلام بمدة طويلة فاستجابت له.

وخرج رسول الله ﷺ في يوم الجمعة بأصحابه وعسكر بموضع في طريقه إلى أُحُد قبل غروب الشمس، والسعدان يعدوان أمامه: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، وكان الجيش ألفا فيهم مائة دارع وفرسان أحدهما لرسول الله، وكان فيهم ثلاثمائة من حلفاء عبد الله بن أبيّ من اليهود والمشركين، وعرفهم الرسول فقال: إنا لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك، وعسكر بأصحابه في أسفل سفح جبل أُحُد، وعقد ثلاثة ألوية للأوس والخزرج والمهاجرين، وجعل لواء الأوس إلى أسيد بن خضير، ولواء الخزرج إلى حباب بن المنذر، ولواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير. واستعرض الجيش وردّ الغلمان. وغابت الشمس فأذن بلال بالمغرب، وصلى رسول الله بأصحابه، وأذن بالعشاء وصلى بهم. وسار المسلمون مع الصباح إلى أُحُد وصلى بهم الرسول الصبح، ورجع عبد الله بن أبيّ والثلاثمائة الذين معه إلى المدينة كما ذكرنا، وأصبح جيش الرسول سبعمائة وهو أقل من ربع عدد جيش المشركين، وكان الرسول ﷺ لا يشك في أن جيشه مع قلة عدده وعدته بالقياس إلى جيش قريش أعظم منه بقوته المعنوية كما حدث في بدر.

٢

معركة أُحُد

جعل الرسول ﷺ جبل أُحُد خلف جيشه ونزل بجيشه في أسفله وأخذ يصفّ جنوده، ومشى بين الصفوف يسويها حتى أصبحوا كالبنيان المرصوص وأنزل الرماة - وكانوا خمسين رجلا - على شِعب من أُحُد خلف صفوف

وصية
الرسول للرماة

الجيش، وقال لهم: احموا لنا ظهورنا، فإننا نخاف أن تؤتى من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا أماكنكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا. اللهم إني أشهد عليهم، وارثقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل. وكان على الميمنة الزبير بن العوام وعلى الميسرة المنذر بن عمرو والخزرجي.

وأقبلت قريش، وعلى الميمنة خالد بن الوليد يقود مائة فارس، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل يقود مائة أخرى، وعلى رماتهم - وكانوا مائة - عبد الله ابن أبي ربيعة، وأمامهم هند بنت عتبة وأربع عشرة امرأة كلهن موتورات يضربن بالدفوف والطبول لتحميمس القرشيين. ولما دنوا من المسلمين رجفوا وقُمن خلف الصفوف ينشدن الأناشيد الحماسية، وكُنَّ كلما تراجع رجل أو ولَّى حُسْنَه وحرَضْنَه وذكَّرْنَه قتلى بدر.

واستعد الفريقان للمعركة، وأبو سفيان يحرض قومه ويذكّرهم عار بدر وقتلاها، والرسول يحرض أصحابه، ويعدّهم النصر ما ثبتوا وصبروا، ومد ذراعه بسيف وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ وقام إليه رجال فأمسك السيف عنهم، وقام أبو دجانة سماك بن خرشة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في العدو حتى ينحني، وكان أبو دجانة من أشجع رجال الأنصار وكانت له عصاة حمراء يلبسها في الحرب، وكانت تسمى عصاة الموت، فأخرجها وتعصب بها، وجعل يختال بها بين المسلمين وقريش.

وأول من أنشب الحرب أبو عامر الأوسى الذي مرّ بنا ذكره، وأنه خرج في خمسين من المدينة يحرض قريشا على قتال الرسول، وانضم بهم إلى جيش قريش، وكان يزعم لقريش أنه إذا نادى عشيرته من الأوس المسلمين الذين يجاربون في صف محمد يُلبّونه وينحازون إليه وإلى قريش، فخرج فنادى: يا للأوس أنا أبو عامر، فردّ عليه الأوس المسلمون قائلين له: لا أهلا بك ولا مرحبا، وتراشق هو ورجاله مع قومهم بالحجارة، وولّوا مدبرين، وأبو عامر يقول لقريش: لقد أصاب قومي شر. وهم قد أصابهم الخير كله.

ودنا الفريقان بعضهما من بعض، وأخذ رماة المسلمين يرشقون خيل المشركين بالنبل فتولَّى فارّة، واستثار أبو سفيان قائد قريش بنى عبد الدار أصحاب لواء قريش، وحامل اللواء طلحة بن أبي طلحة، فأخذته العزة، وتقدم صفوف قريش، وصاح في المسلمين من ييسار؟ فبرز له عليّ بن أبي طالب، وضربه بسيفه ضربة فلقت هامته، فكبر الرسول وكبر المسلمون: الله أكبر. وسارع عثمان أخوه تغلى فيه الدماء لأخذ ثأره، فبارزه حمزة أسد الله وسيفه البتار، ولع سيفه، وطار رأسه عن جسده. وأخذ حمزة يفتك بكل من نازله، وفتك بأرطاة بن عبد شريحيل من بنى عبد الدار حين حمل لواء قريش، ونازله سباع بن عبد العزى فقتله. وبينما كان يفتك بكل من يلقيه كان يرصده عبد حبشى يسمى وحشى كان يقذف بحربة له قلماً تخطى، وهو الذى وعدته هند بنت عتبة إن قتل حمزة بحربته أن تكافئه مكافأة كبيرة، ووعدته مولاه جبير بن مطعم إن قتله أعتقه، وكان حمزة قتل عمه طعيمة. ورصد وحشى حمزة، وهو يقتل سباع بن عبد العزى فقتله، وبنفس الحربة قتل وحشى مسيلمة الكذاب فى حروب الردة.

وحشى وطيس الحرب، وأخذ كثير من شجعان المسلمين يفتكون بالقرشين وفى مقدمتهم أبو دجانة المعلم بعصابة الموت الحمراء فوق رأسه، وسيف الرسول فى يده يفتك به. وانضم إلى جيش المسلمين بعض المشركين من أهل المدينة لا يدفعهم إلى هذا الانضمام وازع دينى، إنما يدفعهم وازع وطنى للدفاع عن المدينة ضد أعدائها المهاجمين لها، وكان منهم قُزَمان وكان قد عيّره بعض نساء قومه بأن المدينة تهاجم ولا يشترك فى الدفاع عنها ضد أعدائها المغيرين، فلبس فى صباح المعركة غُدَّة الحرب من سيف ورمح وقوس وجعبة سهام، واتجه إلى جيش المسلمين، فتغلغل فى صفوفه، حتى أصبح فى الصف الأول، وذكر للرسول ﷺ، فقال: إنه من أهل النار، لأنه لم يكن قد أعلن إليه إسلامه، ولم يكن يعرف ماذا يريد باشتراكه فى الحرب، وكان قزمان شجاعاً، فقاتل قتالاً شديداً نكل فيه بالمشركين، ويُقال إنه قتل سبعة أو ثمانية من شجعانهم، وأصابته جراحة قاتلة،

فقال له رجال من المسلمين: لقد أبليت في قتال المشركين بلاء عظيمًا، فأبشر، فقال: بماذا أبشر والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. ولما اشتدت عليه جراحته أخذ سهمًا من كنانته فقتل نفسه، ومات كافرًا.

وحمل لواء المشركين بعد عثمان بن أبي طلحة أخوه أبو سعد، وصاح يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلناكم في الجنة وأن قتلنا في النار، كذبتهم واللات لو تعلمون ذلك حقا لخرج إلى بعضكم، فخرج إليه علي بن أبي طالب، فقتله بسيفه، وقيل بل سعد بن أبي وقاص. وحمل اللواء مسافع بن طلحة ثم أخوه الحارث وقتلها عاصم بن ثابت. وحمل اللواء بعدهما كلاب بن طلحة فقتله الزبير بن العوام، وحمل اللواء أخوهم الجلاس بعدهم فقتله طلحة بن عبيد الله، وحمل اللواء بعده أوطاة بن شريحيل من بنى عبد الدار فقتله علي بن أبي طالب، وحمل اللواء بعدهم غلامهم صواب فقتله سعد بن أبي وقاص وقيل قزمان.

الفتك ببنى
عبد الدار من
حملة اللواء

ولما قُتل أصحاب اللواء من بنى عبد الدار وغلامهم انكشف جيش قريش وتقهقروا تاركين العسكر، ودعا نساؤهم بالويل بعد أن كانوا يضربون الدفوف والطبول، ووقع على الأرض الصنم الذي اصطحبوه معهم وجعلوه على بعير تيمنا به. وكان ذلك نصرا عظيما للرسول ﷺ والمسلمين في أوائل معركة أُحد مثل نصرهم يوم بدر، نصرا من الله للفئة المسلمة على الفئة المشركة الباغية الكبيرة بإيمانهم وقوة عقيدتهم واستماتتهم في القتال، نصرا لله ودينه الخفيف.

وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح، غير أن كثرتهم تركت متابعتهم حتى تنم عليهم الهزيمة واهتمت بنهب العسكر وغنائمه، ورأى الرماة صنيعهم فظنوا أن المعركة انتهت وقال بعضهم لبعض: لماذا تقيمون ههنا في غير شيء، قد هزم الله العدو، وهؤلاء إخوانكم يذهبون عسكر قريش، فادخلوا معهم عسكرهم، وقال نفر منهم أليس قد قال الرسول ﷺ لكم: احموا ظهورنا، ولا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن غنمنا فلا تشركونا، وخالفتم الكثرة، وقالوا إن الرسول لم يرد ذلك وانطلقوا، ولم يبق منهم مع

مخالفة الرماة
وصية الرسول

أميرهم عبد الله بن جبير إلا عدد قليل دون العشرة، وذهبت كثرتهم إلى عسكر قريش ينتهبون.

وبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم إذا خالد بن الوليد رأى الكمأة قَلُّوا قلةً شديدة، فكرَّ بالخیل، وتبعه عكرمة بن أبي جهل بخیله فحملاً على من بقي من الرماة وأجهزا عليهم، وتنادى فرسان قريش بشعارهم: يا للُعزَّى: يا لهُبل، ووضعوا في المسلمين السيوف وهم آمنون وكل منهم مشغول بما في يديه أو حصنه من الغنائم، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً. فتركوا ما نهبوا، وانتقض جيش المسلمين واختلط أمرهم وصار بعضهم يضرب بالسيف بعضاً من العجالة والدهش، ومن وضعوا سيوفهم عليه جابر بن اليمان، وابنه حذيفة يقول: أبى أبى! وكأنهم لا يعون ما يسمعون حتى قُتل. وتفرَّق المسلمون في كل وجه وصعدت طائفة كبيرة منهم إلى جبل أُخذ. والرسول ﷺ يرمى بقوسه وهو ثابت في مكانه والنبل يتزامى عليه من كل جانب ولا يصيبه، وأصابته بعض الحجارة. وأقبل أبى بن خلف يركض فرسه، حتى إذا دنا من الرسول ﷺ قال لمن حوله: خلوا بينى وبينه وتناول الرسول بيده الكريمة من الحارث بن الصمة حربته فرماه بها، فوقع عن فرسه وكسرت بعض أضلأعه، وتوفى في قفول جيش قريش إلى مكة. وهجم على الرسول ﷺ غير قرشى، فكان يقتلهم أبو دُجانة وعلى والحارث بن الصمة والحباب بن المنذر وطلحة. ومثلت هند بنت عتبة بحمزة فبقرت بطنه (شقتها) ولاكت بأسنانها كبده، وجدعت أنفه وأذنيه وأمرت من معها من النساء أن يمتلنَّ بقتلى المسلمين فكن يجذعن الأنوف والآذان، ويتخذنها قلائد وأقراطاً. وأبلى طلحة في القتال عن رسول الله ﷺ بلاء عظيمًا، فكان يدافع بالسيف من بين يديه ومن ورائه وعن يمينه وشماله، يدور حوله ويترس بنفسه دونه، والسيوف تغشاه ويتلقاها عنه كما يتلقى النبل. وقتل ابن قميئة مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وتسلسل إلى الرسول ﷺ وفوجى بطلحة، فرمى بنفسه على الرسول ﷺ وتلقى عنه ضربة ابن قميئة، وظنَّ ابن قميئة ظناً مخطئاً أنه قتل محمداً وأخذ يصيح قتلت محمداً، وفرحت قريش بما اعتقدت من قتله. وكان هذه

خالد بن الوليد
وكرهه على
الرماة

هزيمة
المسلمين

طعن الرسول
أبى بن خلف

التمثيل بحمزة

دفاع طلحة
عن الرسول

الكذبة كانت إيدانا بوقف الحرب، فقد جاءت للثأر من الرسول وأدركت ثأرها
 فيما ظننت، وأخذ القرشيون يتجمعون حول أبي سفيان وكان الرسول ﷺ قد
 وقع في حفرة أمامه على جنبه من إلقاء طلحة بنفسه عليه، فخذشت ركبته،
 وحمله طلحة وأخذ على يده، فاستوى قائما، وكان عتبة بن أبي وقاص رماه
 بأربعة أحجار فكسرت إحدى ربايعاته وهى إحدى أسنانه الأربعة فى مقدم فمه
 الكريم وكلمت شفته، وشج الرسول ﷺ فى جبهته، وشج فى وجنته ودخلت
 فيها حلقتان من حلق المغفر، وهو زرد يلقى الحارب على وجهه، وكان ذلك أشد
 شى أودى به الرسول ﷺ. وأحرق به أصحابه من أمثال طلحة وعلى وأبى بكر
 وعمر وأبى دجانة والحباب بن المنذر والحارث بن الصمة ونهضوا به نحو شغب
 فى جبل أحد. ولما انتهى إليه ذهب على، فملا درقته ماء، غسل به الدم عن
 وجهه الكريم، وأما أبو عبيدة بن الجراح فعالج حلقتى المغفر المغروزين فى وجنته
 بأسنانه، ونزعهما من وجه الرسول ﷺ وسقطت ثنيته فى مقدم أسنانه.

ولما احتجز الفريقان لم يبق للمسلمين فى ميدان المعركة لواء ولا جمع،
 وخيل المشركين مقبلة مدبرة فى الميدان تلتقى وتفترق، وما أحد من المسلمين
 يردهم، ورجعوا إلى معسكرهم، وتشاوروا فى غزو المدينة، ورفضت ذلك
 كثرتهم، وأقبل أبو سفيان على فرس حتى أشرف على المسلمين فى غرض جبل
 أحد، ونادى بأعلى صوته: اغل هبل، وصاح أين محمد؟ أين أبو بكر؟ أين عمر؟
 يوم يوم بدر، ألا إن الأيام دول وإن الحرب سجال، فسأل عمر رسول الله هل
 أجيبه؟ فقال: نعم. وكرّر أبو سفيان: اغل هبل، فقال عمر: الله أعلى وأجل،
 وتساءل أين محمد؟ أين أبو بكر؟ أين ابن الخطاب، فقال عمر: هذا رسول الله
 وهذا أبو بكر وهذا عمر، فكرر أبو سفيان: يوم يوم بدر، ألا إن الأيام دول وإن
 الحرب سجال، فقال عمر: لا سواء قتالنا فى الجنة وقتلاكم فى النار، قال أبو
 سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال عمر: الله مولانا ولا مولى لكم، وقال أبو
 سفيان لعمر: يا عمر أنشدك بدينك هل قتلنا محمدا؟ قال عمر: اللهم لا وإنه
 ليسمع كلامك الآن، قال: أنت عندى أصدق من ابن قميئة، ثم قال أبو سفيان

ورفع صوته: إنكم واجدون في قتلكم عنتاً ومثلاً ألا إن ذلك لم يكن عن رأي سرائنا. ثم نادى: ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول. فقال رسول الله ﷺ لعمر قل: نعم. فقال عمر: نعم.

ولما انصرف جيش قريش هبط الرسول ﷺ والمسلمون إلى ميدان المعركة ورأى تمثيل هند بنت عتبة بحمزة عمه، ودمعت عيناه ورأى تمثيل نساء قريش بمصعب بن عمير الباسل وبعبد الله بن جحش ابن عمته صاحب أول غنيمة، وكانت في الشهر الحرام وعفا الله عنه، وأحزنت الرسول ﷺ المثلة في عمه حمزة وشهداء المسلمين، فقال: لئن ظفرت بقريش لأمثلن بثلاثين منهم، فنزلت آية سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، فعفا رسول الله، ولم يمثل في حروبه بأحد أبداً، وأبطل في الإسلام تلك العادة الجاهلية الدميمة. وأمر الرسول ﷺ أن لا تُمس أي جثة لشهيد أو تُنقل من مكانها، وقال إنه يجب أن يُدفن كل شهيد في مكانه، لتظل مقابر هؤلاء الشهداء شاهداً ماثلاً على تضحيتهم بأرواحهم في سبيل الله وكانوا أربعة وسبعين، ولا تزال قبورهم قائمة إلى اليوم وبينهم حمزة رضي الله عنه، وقد بُنيَ على ضريحه بجوارهم مسجد. وقال الرسول ﷺ للصحابة: لُقِّوهم بدمائهم وجراحهم فإنه ليس أحد يُجرح في الله إلا جاء يوم القيامة جرحه لونه لون الدم وريحه ريح المسك. وكان حمزة أول من كُبر عليه رسول الله ﷺ ثم جُمع إليه الشهداء، فكان كلما أتى بشهيد وُضع إلى جنب حمزة فصلى عليه وعلى الشهداء حتى صلى عليه سبعين مرة، وقيل لم يصل عليهم، وهو مذهب مالك والشافعي وابن حنبل، فهم يرون أن لا يصل على الشهيد في معركة، وخالفهم أبو حنيفة وأصحابه. ولما أخذوا في دفن الشهداء قال للصحابة: احفروا وأوسعوا، وادفنوا الاثنين والثلاثة في قبر، وقدّموا أكثرهم قرآناً في القبر. ولما واروا حمزة رضي الله عنه أمر رسول الله ﷺ ببردة تمُدُّ عليه، وقال غَطُّوا وجهه، وجعل على رجله الحرمل: نبات طيب الرائحة. وصنع نحو ذلك مع مصعب بن عمير ناشر الإسلام في المدينة.

ولما دفن الرسول ﷺ الشهداء ركب فرسه واتجه مع من نجا من أصحابه إلى المدينة، ووجدها ترتجُ بنواح النسوة على من فقدن من أزواجهن وأبنائهن وآبائهن وإخوتهن، فلم ينهاهن ولا عرض لهن، واتجه إلى دوره حيث تنتظره زوجاته، فغسلن جراحه في رفق، وقدمن له طعاما، وغير ثيابه، وكان متعبا، فنام واستيقظ بعد ساعات من نوم عميق.

٣

مسيرة - خيانات - بعث ومسيرات

أ- مسيرة إلى حمراء الأسد عمل سياسي باهر

يُسمى مؤرخو السيرة كل هذه المسيرات للرسول غزوات ولم يكن فيها حرب، ولذلك كان أولى أن يسموها مسيرات. وكانت أول مسيرة في يوم الأحد صبيحة يوم السبت يوم أُحد، وكان ذلك أروع أعمال الرسول السياسية والحربية في استعادة أصحاب أُحد هيبته في نفوس قريش، فقد رأى أن يخرج في أثر قريش إرهابا لها كي تسترد في نفوسها هيبتها من أصحاب موقعة بدر، ويسترد المسلمون ثقتهم بأنفسهم. ولما صَلَّى الصبح أمر بلالا أن ينادي في الناس أن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج إلا من شهد القتال بالأمس، وخرج سعد بن معاذ إلى قومه وأمرهم بالمسير وكلهم جريح، فقال أسيد بن حضير - وبه سبع جراحات يريد مداواتها - سمعا وطاعة لله ولرسوله، وخرج من بني سلمة أربعون جريحا. ولما اجتمع المحاربون بالأمس ركب الرسول فرسه وعليه الدرع والمغفر ومضى بأصحابه حتى عسكروا في حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، وظل بها ثلاثة أيام، وأمر أصحابه بجمع الخطب في النهار، فإذا جاء الليل أمر أن يوقد كل منهم نارا، فكانت النيران تُرى من بعيد وهي تملأ الأرجاء نيرانا وأضواء، حتى كان يبدو أن جيش المسلمين ألوف وأعداد لا تكاد تُحصى، وكانت هذه الخدعة من أعظم أعماله. وكانت قبيلة خزاعة مسالمة

للرسول ومناصحة له، ومرّ بالرسول منها معبد بن أبي معبد، فقال له: لقد عزّ علينا ما أصابك في نفسك وفي أصحابك، ولوددنا أن المصيبة كانت بغيرك، ثم مضى فوجد أبا سفيان وقريشا بالروحاء وهم يتشاورون في الرجوع إلى الرسول ﷺ، فأخبرهم أن محمدا وأصحابه قد تركهم يتحرّقون إلى طلبهم، وأنهم في آلاف كثيرة. فالصرفوا مسرعين خائفين من طلب الرسول لهم. وفي هؤلاء الصحابة الذين نفروا مع رسول الله في طلب قريش وكثير منهم جرحى يقول الله في سورة آل عمران مثنيا عليهم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وبعث معبد الخزاعي رجلا أخبر رسول الله ﷺ بالصراف أبي سفيان ومن معه خائفين، فانصرف رسول الله إلى المدينة بعد ثلاثة أيام وقد تحقق له كل ما ابتغاه من هذه المسيرة.

ب - خيانات

الخيانة الأولى خيانة الرجيع وذلك أن نفرا من قريتي عَصَل والقارة قَدِمُوا على رسول الله ﷺ في شهر صفر آخر السنة الثالثة للهجرة، فذكروا له أنهم أسلموا ويرغبون أن يبعث معهم أشخاصا من المسلمين يعلمونهم القرآن ويفقهونهم في الدين، فبعث معهم ستة من الصحابة هم مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وأمر عليهم مرثدا، فساروا معهم، حتى إذا وصلوا إلى ماء لقيلة هذيل يُسمّى الرّجيع غدروا بهم إذ استصرخوا عليهم هذيل، فهجم عليهم وهم في رحلهم كثيرون منهم بأيديهم السيوف، فأخذ المسلمون سيوفهم ليقاتلوهم فأمنوهم، وقالوا لهم إنما نريد أن نأخذ فيكم فداء من أهل مكة، وقاتلهم مرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، حتى استشهدوا، وحاول عبد الله بن طارق الفرار فقتلوه بالحجارة، وحملوا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة إلى مكة، وابتاع خبيبا حجيرا بن إهاب لزوج أخته عقبة بن الحارث بن عامر ليقته

خيانة
الرجيع

بأبيه المقتول يوم بدر، وابتاع زيدا صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، ولما قُدِّم خبيب للصلب استمهلهم حتى يصلِّي ركعتين، وقال له أبو سفيان أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت سالم في أهلك، فقال: ما أحب أن أكون سالما في أهلي وتصيب محمدا شوكة تؤذيه.

والخيانة الثانية خيانة بئر معونة، وذلك أن أبا براء الملقب بملاعب الأسنة من بني عامر بن صعصعة وفِد على رسول الله ﷺ في صفر تمام السنة الثالثة من الهجرة فعرض عليه الإسلام فلم يُسلم ولم يبعد، وقال للرسول ﷺ: لو بعثت رجلا من أصحابك إلى أهل نجد تدعوهم إلى أمرك لرجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا لهم جار فان يعتدي عليهم أحد، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو الساعدي في أربعين رجلا من الصحابة، منهم: الحارث بن الصِّمَّة، وحرام بن ملحان، وعروة بن أسماء السلمي، ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فهيرة. فساروا حتى نزلوا بئر معونة - بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم - وأرسلوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه، وعاد عليه فقتله، واستصرخ قبيلته بني عامر عليهم فلم تجبه، فاستصرخ قبائل من بني سليم: عُصَيَّة ورَعْلًا وذكوّان فأجابوه. وقتلهم المنذر ومن معه من الصحابة حتى قتلوه عن آخرهم ما عدا كعب بن زيد من بني النجار، فقد تركوه وبه رمق، وكان عمرو بن أمية والمنذر بن محمد في سرح القوم، ورأيا الطير تحوم على العسكر، فأقبلا لينظرا الأمر، وإذا القوم في دمايتهم والحيل التي أصابتهم واقفة، فقاتلهم وقُتل المنذر بن محمد وأسر عمرو بن أمية وجَزَّ ناصيته عامر بن الطفيل وأطلقه، وطعن ربيعة بن أبي براء عامر بن الطفيل برمح لنقضه جوار أبيه، وأخطأ الرمح فلم يصبه في مقتل ووقع في فخذه.

خيانة
بئر معونة

وجاء الرسول خبر الرجيع وبئر معونة في وقت واحد، فوجد عليهم جميعا وجدا شديدا، وظل ثلاثين صباحا يدعو على رعل وذكوّان وعصية من بني سليم، وعلى بني لحيان من هذيل لعصيانهم الله ورسوله وسفكهم دماء

المسلمين، وكان يقول في دعائه: اللهم اشدد وطأتك على مضر وعلى بنى لحيان وعضل والقارة وعلى رِغل وذكوان وعصية، وما زال يدعو عليهم حتى نزل قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وخيانة الثالثة، هي خيانة الحارث بن سويد بن الصامت، وكان قد حضر أحدًا وانتهاز فرصة اختلاط المعركة على المسلمين حين فارق الكمأة أماكنهم، وعدا على الجُدُر بن ذِيَاد فقتله، وقتل معه من المسلمين قيس بن زيد، وكان الجُدُر قتل في الجاهلية أباه سُويْد بن الصامت في بعض حروب الأوس والخزرج، ثم لحق بالكفار في مكة، وعاد إلى قومه بالمدينة، وعلم رسول الله ﷺ بعودته، فرأى أن يقتص منه لمن قتله من المسلمين غدرا وخيانة بأحد. ونهض ﷺ إلى منازل عشيرته في قُبَاء فخرج إليه أهل قُبَاء في جماعتهم وفي جملتهم الحارث بن سويد، فأمر رسول الله ﷺ عويم بن ساعدة بضرب عنقه، فقال الحارث: لِمَ يا رسول الله فقال: بقتلك الجُدُر بن ذِيَاد وقيس بن زيد، فما راجعه بكلمة، وقدمه عويم، فضرب عنقه، وقيل بل قتله في فتح مكة.

خيانة الحارث
ابن سويد

ج - بعث ومسيرات

فقدت بعض القبائل البدوية ما كان في نفوسها من هيبة للرسول ﷺ وأصحابه بعد معركة أُحُد وهزيمة المسلمين فيها، وأخذ بعضها يفكر في غزو المدينة، وكان ذلك لا يخفى على الرسول ﷺ، وكان رجل من طيى قدم المدينة، وأخبره أن حلیم بن خويلد من بنى أسد وأخاه سلمة يجتمعان الناس في قبيلتهما لحربه فأرسل عليهما في أول المحرم بعثا: مائة وخمسين صحابيا أمر عليهم أبا سلمة ابن عبد الأسد وانتهاوا إلى جبل قطن بعد أربعة أيام، ولم يلقوا أحدا ووجدوا للقوم نعما وشاء على ماء فأصابوا منها، وأخرج الخمس للرسول، وقسم ما بقى بين أصحابه وعادوا إلى المدينة.

بعث
أبي سلمة

ثم كانت مسيرات للرسول لم يكن فيها حرب ويسميتها مؤرخو السيرة
 غزوات، وكان عليه السلام إذا سمع بتجمع لقبائل خرج إليهم مهدداً قبل أن يتم
 تجمعهم. ويتفرقون ويعود. فمن ذلك أنه سمع في جمادى الأولى من السنة الرابعة
 الهجرية أن قبيلتي بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان تتجمعان لحربه، فبادر إليهما
 في أربعمائة، وقيل في أكثر من ذلك. وسُميت هذه المسيرة ذات الرقاع لأن
 أقدام الصحابة نَقِبَتْ فكانوا يلفون عليها الخرق، وقيل بل لأنهم رَقَعُوا راياتهم
 فيها، وقيل بل لأن بها شجرة تسمى ذات الرقاع، وقيل بل لأن الجبل الذي نزلوا
 به كانت أرضه ذات ألوان حمراء وصفراء وسوداء. ولقي الرسول ﷺ جمعا من
 غطفان فنواقفوا وتحذثوا ولم يكن بينهما قتال. وصلى الرسول بالمسلمين يومئذ
 صلاة الخوف واختلفت الروايات فيها اختلافات كثيرة، وقيل إنه صلى بطائفة
 ركعتين وطائفة مقبلة على العدو فجاءت وصلى بهم ركعتين أخريين. وعاد
 الرسول ﷺ وصحبه إلى المدينة.

وكان أبو سفيان في يوم أُحُد نادى رسول الله ﷺ وأصحابه: موعدنا
 معكم بدر في العام القادم، فخرج رسول الله ﷺ إلى بدر للموعد المذكور في
 شعبان من السنة الرابعة، وقيل كان معه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة
 أفراس، وخرج أبو سفيان في جمع من قومه بلغ بهم عُشْفَان في الطريق إلى بدر،
 وقال لجمعه إن العام عام جذب، ورجع أدراجه معهم إلى مكة. وكانت بدر سوقا
 كبيرة فاقام بها الرسول ثمانية أيام وعاد إلى المدينة.

وَحُرِّمَتِ الْخَمْرُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ، وَقِيلَ بَلْ فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ أُحُدٍ،
 وَيُقَالُ إِنَّهَا حُرِّمَتْ تَدْرِيجًا، إِذْ قَالَ اللَّهُ فِي آيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَنِ الْخَمْرِ:
 ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ
 وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ وقال في آية سورة النساء: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
 وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ ثم حرَّمها نهائيا في آية سورة المائدة قائلا: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ
 وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
 تَفْلِحُونَ﴾.

ثم كانت مسيرة دومة الجندل فى أقصى الشمال، وكان بلغه أن جموعاً تتجمع بها لغزو المدينة، فخرج إليها فى حشد كبير فى شهر ربيع الأول لأول السنة الخامسة للهجرة، ويقال إنه انصرف عنها فى الطريق إليها، ويقال بل إنه نزل بساحتها، وكانوا سمعوا بمقدمه، ففارقوا عنها، ولم يلق أحداً.

مسيرة دومة
الجندل

٤

إجلاء بنى النضير - زواج الرسول بأم سلمة وزينب بنت عمته أ- إجلاء بنى النضير

كان بنو النضير اليهود يُكثرون من التحرش بالرسول، وأرسلوا شاعرهم كعب بن الأشرف إلى مكة ليحضر قريشاً على قتال الرسول ﷺ، وأخذوا يقفون ضده بعد أخذ مواجهين له، وكان قد قتل أحد المسلمين أعرابيين أعطاهما الرسول العهد، وهو لا يعرف فصم على ديتهما ورأى أن يستعين ببنى النضير، وجلس بجوار جدارهم، فهموا يالقاء صخرة عليه لقتله وعرفه جبريل بنيتهم، فالسحب سريعاً. ولم يحقق فى الأمر ولا فإوض فى أمر المدينة بل أرسل إليهم رسولاً يقول لهم: اخرجوا من المدينة، فقد نقضتم العهد وأردتم الغدر بى، وقد أجلتكم عشرة أيام فمن رضى بعدها فى المدينة فسيُضرب عنقه. وحاصروهم الرسول وأصحابه فى ربيع الأول، وقيل بل فى جمادى الأولى من السنة الخامسة، وغرهم ابن أبى فارس إليهم لا تجلوا أو لا تخرجوا فإن معى من قومى وغيرهم من العرب ألفين سيدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم. وأمر الرسول ﷺ بنخلهم فقطع وحرق. وطال عليهم الحصار أياماً، ولم يرسل لهم ابن أبى ما وعدهم به، ولا ساعدتهم قريظة ويهودها إذ رأوا أن لا يتدخلوا. وأسلم منهم شخصان، فأحرزا أموالهما، واضطر الباقون أن ينزلوا على حكم رسول الله أن يخرجوا ومعهم ما حملت الإبل لهم إلا الأسلحة، فلا يحملون منها شيئاً. وخرجوا بعد ستة أيام من الحصار، وقيل بل بعد خمسة عشر يوماً. وكانوا فى الحصار

حصار
بنى النضير

يُخْرَبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَيُخْرَبُ الْمُسْلِمُونَ مَا يَلِيهِمْ وَيُحْرِقُونَ، وَشَقُّوا فِي خُرُوجِهِمْ سَوَاقِ الْمَدِينَةِ عَلَى سِتْمَاةٍ بَعِيرٍ، وَالذَّرِيَّةُ فِي الْهَوَاجِ، وَمَعَهُمُ النِّسَاءُ عَلَيْهِنَ الدِّيَابِجُ وَالْحَرِيرُ وَحُلَىّ الذَّهَبِ وَكَانَ يُضْرَبُ بِالْذُفُوفِ تَجْلِدًا. وَنَزَلَ أَكْثَرَهُمْ بِخَيْبَرٍ، وَاتَّجَهَ بَعْضُهُمْ إِلَى الشَّامِ. وَيُقَالُ إِنَّهُمْ خَلَفُوا مِنَ السِّلَاحِ خَمْسِينَ دِرْعًا وَخَمْسِينَ بَيْضَةً (خُوْذَةً) وَثَلَاثُمِائَةَ وَأَرْبَعِينَ سِيفًا. وَقَسَّمُ رَسُولُ اللَّهِ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ وَزُرُوعَهُمْ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ خَاصَّةً، وَأَعْطَى مِنْهَا مِنَ الْأَنْصَارِ صَحَابِيَّيْنِ: أَبَا ذُبَابَةَ وَسَهْلَ بْنَ حَنْفِيَةَ إِذْ كَانَا فَاقِرَيْنِ، وَإِنَّمَا خَصَّ بِهَا الْمُهَاجِرِينَ لِأَنَّهُمْ حِينَ قَدَمُوا الْمَدِينَةَ شَاطَرْتَهُمُ الْأَنْصَارُ ثَمَارَهَا، فَرَدُّوْهَا عَلَيْهِمْ، وَمِنْ حَيْثُودِ وَقَفَتْ الْمَوَاسَاةُ الَّتِي كَانَتْ مَفْرُوضَةً عَلَى الْأَنْصَارِ لِلْمُهَاجِرِينَ.

وَبَدُونَ رَيْبَ كَانَ إِجْلَاءُ بَنِي النَّضِيرِ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَمَنْ قَبْلَهُمْ بَنُو قَيْنِقَاعَ لِأَنَّهُمْ جَاهَرُوا الرُّسُولَ بِعَدَاوَتِهِمْ لَهُ وَأَظْهَرُوا أَنَّهُمْ مُتَأَهِّبُونَ لِمَنَازِلَتِهِ، وَلَمْ تَعْمَلِ الْقَبِيلَتَانِ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدَهُمَا الرُّسُولُ فِي الْأَشْهُرِ الْأُولَى لِنَزُولِهِ الْمَدِينَةَ، وَإِنْ مِنْ يَرَاجِعِ تَارِيخِ الْيَهُودِ يَعْرِفُ أَنَّ حُكَّامَهُمْ أَمْرُوهُمْ بِالْجَلَاءِ عَنْ مَوْطِنِهِمْ مَرَارًا، فَقَدْ دَمَرَ سَرْجُونُ الثَّانِي مَلِكُ أَشُورَ مَمْلَكَةَ إِسْرَائِيلَ سَنَةَ ٧٤١ ق.م. وَرَحَّلَ جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ سَكَانِهَا. وَطَرَدَهُمْ بِخِتَصَرٍ مِنْ دِيَارِهِمْ سَنَةَ ٥٨٦ ق.م.، وَتَيْتُوسُ إِمْبَرَاطُورُ رُومَا سَنَةَ ٧٠ لِّلْمِيلَادِ، وَطَرَدَهُمْ مِنْهَا نَهَائِيًا الْإِمْبَرَاطُورُ هَادْرِيَانُ سَنَةَ ١٣٥ لِّلْمِيلَادِ.

إجلاءات
اليهود

ب - زواج الرسول بأم سلمة وزينب بنت عمته

دَائِمًا يَحْمِلُ الْمُسْتَشْرِقُونَ عَلَى الرُّسُولِ ﷺ لَزَوَاجَهُ الْمُتَعَدِّدَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ تَزَوَّجَ السَّيِّدَةَ خَدِيجَةَ وَهُوَ فِي شَرَحِ الشَّبَابِ، وَظَلَّ مَعَهَا سِتَّةَ وَعِشْرِينَ عَامًا حَتَّى فَقَدَهَا. وَحِينَ فَكَّرَ فِي الزَّوْجِ بَعْدَهَا تَزَوَّجَ أَرْمَلَةَ لِأَحَدِ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ وَهِيَ سَوْدَةُ لَتَرْعَى بَنَاتِهِ وَلَمْ تَكُنْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْجَمَالِ، وَتَزَوَّجَ بَعْدَهَا بِعَائِشَةَ ابْنَةَ ذِرَاعِهِ الْأَيْمَنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ لِيُؤَكِّدَ عِلَاقَتَهُ بِهِ. وَتَزَوَّجَ بَعْدَهَا حَفْصَةَ ابْنَةَ عَمْرِ ذِرَاعِهِ الْأَيْسَرِ لِنَفْسِ الْغَايَةِ. وَتَزَوَّجَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثِ زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ، وَكَانَتْ زَوْجَةَ

لعبيدة بن الحارث أحد المسلمين الأوائل، وقد اختاره أميراً على أحد بعوثه قبل بدر وأبلى بلاء حسناً في بدر، واستشهد فيها وحزن عليه الرسول. وظل ينتظر لأرملته زوجاً يرعاها، ولم يطلبها أحد، فرق لها وتزوجها حتى يكفيها شر الحاجة والتماس العون، وظلت عنده ثمانية أشهر وتوفيت. وكان قد فوجئ في أحد بأحد رجاله المهمين أبي سلمة يُجرح في المعركة، ثم برئ جرحه، فعقد له - كما مرّ بنا - يامارة أول بعث بعد أخذ للقاء طلحة بن خويلد وبنى أسد المتجمعين لحرب رسول الله، وخرج إليه في مائة وخمسين صحابياً، وعلموا بقدومه، وتفرقوا وأصاب أصحابه من إبلهم وشائهم، وعاد سالماً غانماً، ونغر عليه جرح أخذ، وأسلم روحه إلى باريه وكان الرسول حاضراً احتضاره وهو في فراش موته. ولم يكن لزوجته أم سلمة في المدينة أحد من أهله أو أهلها يرعاها، ومضت أشهر فرق لها الرسول، خاصة أنه كان معها أبناء لها في حاجة إلى من يعولهم، فطلب يدها، فقالت: إني كبيرة في السن وكثيرة العيال. فما زال بها حتى قبلت وبنى بها في شوال من السنة الرابعة، وعال أبناءها، وهكذا كان يتزوج أرامل الشهداء ليعولهم ويكفيهم شر الحاجة.

الزواج
بأم سلمة

وبعد ذلك بشهر في بعض الروايات، وقيل بل بعد ذلك بسنة تزوج زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكان قد زوجها منذ سنوات يزيد بن حارثة الذي اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، وهو صبي، فلما تزوجت الرسول وهبته له، ووفقاً به من الرسول تبناه. ولما شبّ وبلغ مبلغ الرجال تزوج أم أيمن فولدت له أسامة وطلّقتها، فرأى الرسول ﷺ أن يزوجه ابنة عمته زينب، وكانت على شيء من الجمال، فتأبى وتابى أخوها عبد الله بن جحش، وكانت زينب حفيدة عبد المطلب ومن شريفات مكة فكيف ترضى هي وأخوها بزواجها من شخص محرّر، ولم يكن وسيماً وكان قصيراً، غير أن أخاها نزل عند رغبة الرسول من تزوّجها يزيد بن حارثة عقب الهجرة. وظلت زينب ترى أن زيدا ليس كُفّاً لها ولأسرتها العريقة، وكانت لذلك غير سعيدة بهذا الزواج ولم تحب زيدا يوماً، بل كانت تكن له شيئاً من الكراهية، وظل زيد ثلاث

زينب بنت
جحش تعاشر
زيداً معاشرة
مرة

سنوات وقيل أربعاً يحاول بكل ما يستطيع أرضاءها وهي تزدد إغراضاً عنه وازوراراً. ولما فاض به الكيل وأصبحت المعيشة معها لا تطاق ذهب إلى الرسول الذي زوجها له، ووصف له كيف تعايشة عيشة مُرّة، وأنه يريد الانفصال عنها وطلاقها، فنصحته بأن لا يبادر إلى ذلك وأن يتمسك بها ويحسن عشرتها، ويذكر الله ذلك في سورة الأحزاب قائلاً: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإيمان ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق والتبني والمودة ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ ولازمها ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ في العشرة معها وأحسن معاملتها. وفكر الرسول حينئذ في أنه هو الذي أكرهها وأكره أخاها عبد الله أمير أول بعث ساق غنيمة من قريش، وكأنه هو الذي ورط ابنة عمته في هذا الزواج غير المتكافئ، وحدثته نفسه إن أصر زيد على طلاقها وطلقها أن يتزوجها تصحيحاً لما صنع بها حين زوجها من شخص غير كفء لها، وصور الله - جل شأنه - ذلك حين قال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ من عزمك على الزواج بزینب إن طلقها زيد ﴿وَتُخْشَى النَّاسَ﴾ إن عرفوا ذلك وليس هذا من شأنهم. ويقول الله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قُضُوا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي الذين يتبنونهم كما تبني الرسول زيدا فلا حرج عليهم في أن يتزوجوا نساءهم لأن المحرمات هن نساء أبنائهم الحقيقيين لا المتبنين.

زواج الرسول
بزینب

هذه قصة زينب بنت جحش وزواج الرسول بها، أما ما حاوله بعض القصاص من أن يجعل زواج الرسول بها ضرباً من الوله حين ذهب مرة يسأل عن زيد فبهره جمالها، وزادوا على ذلك أن الباب فُتح فعصف الهواء باستارة فرآها بقميصها وشغف بها حبا. وهو خيال قصاص لا يعرفون أنها ابنة عمته وأنها نمت من صغرها إلى زواجها تحت عينيه وكان يعرف حسننها، ولو أراد زواجها قبل زيد لزوجهها له. وتعلق بعض المستشرقين - كما مر بنا - بما جاء عن القصاص في قصة زينب وزادوا عليه، وكل ذلك لا أصل له، وقد تساءلوا لماذا عدّد زوجاته وحرّم على المسلمين الزواج بأكثر من أربع وكان حرياً بهم أن

الرد على
المستشرقين

يعرفوا أن هذا التحريم على المسلمين بزواج أكثر من أربع إنما شرع في آخر السنة الثامنة للهجرة بعد زواج الرسول بكل نسائه في قوله عز شأنه: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وقوله تبارك اسمه في سورة النساء: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾. والآيتان تدفعان عن الرسول ﷺ ما يقوله أعداؤه عنه من أنه أباح لنفسه في الزواج ما حرّمه على المسلمين، وهما تنوّهان بفضل الزوجة الواحدة، لصعوبة عدل الرجال بين النساء مهما حرصوا على العدالة. وبعد زواج الرسول بزَيْنَب بنت جحش نزلت آية الحجاب.

الفصل الخامس عشر

من غزوة الأحزاب وحصار بنى قريظة إلى بعوث ومسيرتين للرسول

١

الاستعداد لغزوة الأحزاب

تأليب اليهود
لقريش والعرب

كان خروج يهود بنى النضير من المدينة موطنهم وموطن آبائهم منذ مئات السنين شاقا على نفوسهم وخاصة على نفوس من نزلوا منهم خير ولم يذهبوا مع من ذهبوا منهم إلى الشام، ولم يلبث نفر منهم أن صمَّ على الانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين بتأليب قريش والقبائل العربية عليهم حتى يتجمعوا وينقضوا عليهم فلا يبقوا منهم أحدا. وكان الذى احتل وزر ذلك وعمل له جاهدا من بنى النضير حُيَّ بن أخطب وسلام ابن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق، فخرجوا إلى مكة يدعون قريشا إلى حرب الرسول والمسلمين، ومعهم بضعة عشر من اليهود وغيرهم، وقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمدا والمسلمين، جئنا لنحالفكم على قتاله وعداوته. واستمع أبو سفيان زعيم قريش - حينذاك - لكلامهم وشدَّ على أيديهم واختار أربعين رجلا من بطون قريش تحالفوا وتعاقدوا مع اليهود على قتال الرسول والمسلمين، وقال أبو سفيان لهم: يا معشر يهود أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دين محمد؟ إننا غمَّار البيت والقائمون عليه، وننحر الإبل ونسقى الحجاج

ونعبد الأصنام، فقال اليهود: أنتم أولى منه ، إنكم لتعظمون هذا البيت وتعبدون ما كان عليه آباؤكم، وأنتم أولى بالحق منه، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ من أمثال حَيٍّ بن أخطب ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أى بما يُعبد من دون الله ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ﴾ أى الكفار ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

وذهب هذا الوفد اليهودى إلى قبيلة غطفان، وكانت من أقوى القبائل الحربية فى نجد، فعرضوا حلفا معها لقتال الرسول، وقالوا لهم إن قريشا حالفنا على قتاله، وسينضم إليكم وإليها كثير من قبائل العرب، ومازالوا يغزونهم وكان أهم ما أغروهم به أن جعلوا لهم إن هم نصروهم ثمار خير سنة، وحالفوهم على ذلك. وأخذ أبو سفيان يجهز قريشا لغزو الرسول ﷺ والمسلمين، وسير بعوثا إلى بعض قبائل العرب يدعوهم إلى نصره قريش فى حرب الرسول، وأخذ اليهود بدورهم يحاولون إغواء بنى سليم، ومن استجاب لهم ولقريش بنو أسد وقبائل غطفان: فزارة وأشجع وبنو مرة. وتعاهدت بطون قريش عند الكعبة على قتال الرسول، وعقدت اللواء فى دار الندوة لعثمان بن طلحة بن أبي طلحة.

وخرجت قريش فى أربعة آلاف، ومعها ألف وخمسمائة بعير وثلاثمائة فرس، وأخذت بعض القبائل تنضم إلى جيش قريش فى طريقه إلى المدينة، وكان أول من انضم إليه بنو سليم بمر الظهران على بعد خمسة أميال من مكة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف أمية، وانضمت إليه كنانة كما انضمت بنو أسد يقودهم طلحة ابن خويلد الأسدى، وانضمت جموع فزارة من غطفان يقودهم غنينة بن حصن، وأشجع من غطفان يقودهم مسعود بن ربيعة، وبنو مرة يقودهم الحارث بن عوف المرمى، وبلغ عدد الأحزاب عشرة آلاف.

وعلم الرسول أن قريشا تتأهب لقتاله، وأنها تحشد له قوة ضخمة بمن يؤازرونها من غطفان والقبائل العربية، فجمع أصحابه وشاورهم، وكان بينهم سلمان الفارسى، وكان مستزقا لرجل من اليهود، فأعلن إسلامه للرسول ﷺ

سلمان
الفارسى يشير
بحفر خندق

فحرّره. وكان سلمان قد عرف في العراق وإيران موطنه فكرة حفر خندق حول البلدة ليحميها من الأعداء، فأشار على الرسول بحفر خندق عميق وواسع في الجهة الشمالية المكشوفة من المدينة التي سيهجم الأحزاب منها على المدينة، واستصوب الرسول ﷺ رأيه، وركب فرسه ومعه جمع من الصحابة: المهاجرين والأنصار، فعسكر بهم في سفح جبل سلع وجعله خلفه، ثم أمر صحابته بحفر الخندق على طول الجهة الشمالية المكشوفة من المدينة، وأحضرت المساحي والكرازين (المعاول) والمكاتل للحفر، وجعل لكل جانب من الخندق قوما يحفرونه، وكان الشباب ينقلون التراب، وكان المهاجرون والأنصار يحملون التراب في المكاتل، ويرجعون بها بعد إلقاء التراب منها ملأى بالحجارة، ليقدفوا بها الأعداء. ولتشجيع الصحابة في العمل كان الرسول ﷺ يشترك معهم فيه، فكان مرة يضرب بالمعول، ومرة بالمسحاة يغرف بها التراب، ومرة ثالثة يحمل التراب في المكاتل على ظهره. واشتدت على الصحابة في الحفر كدّية أو صخرة لا تعمل فيها المعاول، فشكوا ذلك إلى الرسول ﷺ، فأخذ المعول وضربها ضربة قطار منها الشرار، وقطع منها الثلث، وضربها الثانية فقطع منها الثلث الثاني، ثم ضربها الثالثة فقطع منها الثلث الباقي، وكان يقول - وهو يعمل في الحفرة - : اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة. وكَمَّلَ حفر الخندق في ستة أيام، وقيل: بل في بضعة وعشرين يوما. وحصَّن الرسول المدينة والخندق.

حفر الخندق

الرسول يشترك
في الحفر

حصار الأحزاب للمدينة

كان ذلك الحصار في شوال، وقيل بل في ذى القعدة سنة خمس للهجرة، وفيه أقبلت قريش، فنزلت في مجتمع السيول، ونزلت غطفان بجوار أحد، وبجوارها كنانة وسليم وأسد وبقية الأحزاب، وفوجئوا جميعا بالخندق يحول بينهم

وبين الرسول والمسلمين والمدينة. وجعل الرسول سَلْعًا خلفه وخلف المسلمين، واصطفوا خلف الخندق.

وكان حُيَّيٌّ بن أخطب النَّضْرِيّ - طوال مسيرته مع جيش قريش - يقول لأبى سفيان ولقريش: إن قومي قريظة بقيّة قبائل اليهود في المدينة، وكان حصنهم في جنوبها، وكان يقول لهم إنهم أهل حرب شجعان، وهم سبعمائة وخمسون مقاتلاً. فلما وصلوا إلى المدينة قال له أبو سفيان: اذهب إلى قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد. وكان الرسول حين قدم المدينة وادَّعَى قريظة واليهود وكتب دستوراً لليهود وسكان المدينة جميعاً - كما أسلفنا - وفيه أن بين اليهود وبين المسلمين النصر على من حارب أهل المدينة وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين. فأتى حُيَّيٌّ بن أخطب كعب بن أسد رئيس بني قريظة وكان قد وادع محمداً وعاقده وعاهده، وكان أول من لقيه منها عزّال ابن سمّوأل، فقال له: قد جئتكَ بما تستريح به من محمد، هذه قريش وغطفان جاءتا لحرب محمد، فقال له: جئتنا والله بذل الدهر! فقال له: لا تقل هذا. وسمع كعب بن أسد القرظي حُيَّيَّ بن أخطب، فأغلق دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، فقال له: افتح لي يا كعب بن أسد، فقال له: لا أفتح لك فإنك رجل مشتم تدعوني إلى خلاف محمد، وأنا عاقدته وعاهدته، ولم أر فيه إلا وفاء وصدقا، فلست بناقض ما بيني وبينه، فقال له حُيَّيٌّ افتح لي حتى أكلّمك فأنصرف عنك، قال له: لا أفعل، قال: إنما تخاف أن أكل معك طعامك، فغضب وفتح له، فقال له حُيَّيٌّ: إنما جئتكَ بعزّ الدهر، جئتكَ بقريش وصادتها وغطفان وقادتها قد تعاهدوا على أن يستأصلوا محمداً ومن معه، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر وبجّهام لا غيث فيه، ويحك يا حُيَّيٌّ! دَعْنِي فلست بفاعل ما تدعوني إليه، فلم يزل حُيَّيٌّ بكعب يعدّه ويغرّه، حتى استجاب إليه وعاهده على خذلان الرسول ﷺ وأصحابه وأن يصير معه ومع قريش، وقال له حُيَّيٌّ: إن انصرفت قريش وغطفان دخلت عندك بمن معي من اليهود. وعلم الرسول بخبر كعب بن أسد القرظي وحُيَّيَّ بن أخطب، فبعث سعد بن عبادَةَ سيد الخزرج وسعد بن معاذ

نقض بنى
قريظة لعهد
الرسول

سيد الأوس وبعث معهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، وقال لهم: انطلقوا إلى بنى قريظة - وكانوا في جنوبى المدينة، فإن كان ما قيل لنا حقا فالحنوا لنا لحنا نعرفه، ولا تفتُّوا فى أعضاد المسلمين بإخبارهم عن نقضهم للعهد، وإن كان كذبا فاجهروا به للناس، فانطلقوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أختب صورة لنقض العهد، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهد له عندنا. وأقبل السعدان حتى أتيا الرسول ﷺ فقالا: عضل والقارة يعرضان بغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع: خيب وأصحابه. وانتهى الخبر إلى المسلمين، فاشتدَّ الخوف بهم، إذ أصبحوا محاصرين بين الأحزاب من الشمال وبنى قريظة من الجنوب، ويصورُّ الله - جلَّ شأنه - مدى خوف المسلمين من هذا الحصار فى قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ أى الأحزاب شمالا ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أى قريظة جنوبا ﴿وَإِذْ رَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ كناية عن شدة الذعر والرعب ﴿هَنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ كناية عن شدة الفزع والهلع.

وهمَّت بنو قريظة أن تُغير على المدينة وفيها الدرارى والنساء، وأرسل حييَّ ابن أخطب إلى قريش أن يأتى منهم ألف رجل، ومن غطفان ألف أخرى للإغارة بهم على المدينة، وعلم بذلك الرسول، فبعث سلمة بن أسلم الأوسى فى مائتى رجل وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة من بنى قريظة ويظهرون التكبير فيها. وكان الخوف على الدرارى بالمدينة من بنى قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان، وعرفت بنو قريظة أن المدينة تُحرس ليلا، فانصرفت عن مهاجمتها.

وأخذ المنافقون يتكلمون ضد الله ورسوله بكلام مُزِر حتى ليقول معتب بن قُشَيْر: يعدنا محمد أن نفتح كنوز كسرى وقصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته، ويقول متهمكا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، إذ يعدونا النصر ولا نصر. وبعث بنو حارثة بأوس بن قَيْظَى إلى رسول الله يقول: إن بيوتنا عورة (مكشوفة)، وليس بين غطفان ودورنا أحد يردهم عنا، فأذن لنا فلنرجع إلى

رجوع المنافقين
إلى المدينة

دورنا فمنع ذرارينا ونساءنا، فأذن لهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أى شك ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أى تغريرا بنا، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أى من المنافقين وهم عبد الله بن أبي وأصحابه: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ إلى المدينة ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ هم بنو حارثة وصاحبهم أوس بن قيظي ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ من الحرب.

وكان المشركون يتناوبون في الأيام، فيغدو أبو سفيان يوما، ويغدو خالد بن الوليد يوما، ويغدو عمرو بن العاص يوما، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يوما، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوما، ويغدو ضرار بن الخطاب الفهري يوما، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويتفرقون مرة ويجتمعون مرة أخرى ويحاولون مناوشة المسلمين، ويقدمون رماثهم فيرمون السهام ويراميهم المسلمون حتى يرجعوا، وكان من أهم رماثهم حبان بن العرقة، ورمى يوما سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكحله، وهو عرق في اليد يقال له عرق الحياة، وقال: خذها وأنا ابن العرقة، وقال له سعد: عرق الله وجهك في النار.

إصابة
سعد بن معاذ

واتفق بعض فرسان المشركين أن يبحثوا في الخندق عن مضيق يقحمون فيه خيلهم إلى الرسول ﷺ والمسلمين، وظلوا يبحثون حتى وجدوا مكانا ضيقا، فعبه عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله المخزومي وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب وعمرو بن عبد ود. وبادر عمرو بن عبد ود من عامر بن لؤي فبرز له علي بن أبي طالب، وقال له يا عمرو إنك عاهدت الله - فيما بلغنا عنك - أنك لا تدعى إلى إحدى خلتين إلا اخترت إحداهما، قال: نعم، فقال علي: إني أدعوك لله عز وجل والإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: وأدعوك إلى البراز، قال: يا ابن أخي والله ما أحب أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك، فقال له علي: أنا والله أحب أن أقتلك، فحمى عمرو بن عبد ود العامري ونزل عن فرسه، وسار نحو علي فتازلا وتجاوزا، وثار الغبار بينهما حتى حال دونهما،

مبارزة
علي لعمر
ابن عبد ود

وانجلى الغبار فرؤى على فوق صدر عمرو يقطع رأسه. وناوش عمر بن الخطاب والزبير بن العوام أصحابهما، ورأى القرشيون عمرا يقتل فعبروا الثغرات التي جاءوا منها راجعين إلى قومهم منهزمين فارين، وسقط منهم نوفل بن عبد الله المخزومي عن فرسه في الخندق فرمى بالحجارة حتى قُتل، وسقطت درع هبيرة ابن أبي وهب فأخذها الزبير.

وظل المسلمون والمشركون بضعة وعشرين يوما أو قريبا من شهر ليس بينهم حرب إلا الرمي بالسهام والحصا، ولما رأى رسول الله ﷺ أن البلاء اشتد بالمسلمين بعث إلى عُيَيْنَةَ بن حِصْن والحارث بن عوف المرُى وهما قائدا غطفان ليفاوضهما في الانصراف بغطفان وأهل نجد عن الحرب نظير أخذ ثلث ثمار المدينة، وطلبا النصف فأبى إلا الثلث، فرضيا، وطلبا كتابة عقد بذلك، وأقبل أُسَيْدُ بن حُضَيْر، وسأله الرسول ﷺ: ما رأيك؟ فقال: إن كان أمرا من السماء فامض له، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف، واتجه إلى عُيَيْنَةَ والحارث وقال متى طمعتم بهذا منا. واستدعى الرسول ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج، فذكر لهما ما عرضه على عُيَيْنَةَ والحارث ابن عوف، واستشارهما، فقالا: يا رسول الله هذا أمر تحبه فنصنعه لك أو شئ أمرك الله به فسمع له ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟ قال: بل أمر أصنعه لكم، والله ما أصنعه إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا بشراء أو قرى (ضيافة)، ونحن أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فسُرَّ رسول الله ﷺ وقال لعُيَيْنَةَ والحارث بن عوف: انصرفا فليس لكما ولن معكما عندنا إلا السيف.

نعيم بن مسعود

وكان نعيم بن مسعود الأشجعي صديقا لبنى قريظة، وقدم مع قومه أشجع الغطفانيين في حصار المدينة، فخذف الله في قلبه الإسلام، فأتى رسول الله ﷺ ليلا فأسلم، فقال له: إنما أنت رجل واحد من غطفان، فلو خرجت فخذلت عنا

في تحذيل

بنى قريظة

والأحزاب

كان أحبَّ إلينا من بقائك، فاخرج فإن الحرب خُدعة. وجاءته فكرة ونفذها، إذ توجه إلى بني قريظة - وكان يناديهم في الجاهلية - فقال لهم: يا بني قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: قل فلست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم، البلد بلدكم وفيه أموالكم وأبناؤكم، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم (أعتصموهم) عليه، فإن رأوا فرصة في حربه أصابوا، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشrafهم، فقبلوا رأيَه. ثم خرج حتى أتى قريشا وأبا سفيان، فقال لهم، قد عرفتم وُدِّي لكم معشر قريش، وقد بلغني أمرٌ أرى من الحق أن أبلغكموه نُصْحًا لكم فاكنموا عليّ، قالوا: نفعل، قال: أتعلمون أن معشر اليهود قد ندموا على ما كان من خلافهم محمدًا، وأرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رهائن: رجالا ونسلمهم إليكم لتضربوا أعناقهم، ثم نكون معك على مَنْ بقى منهم حتى نستأصلهم. ثم أتى غطفان فقال لهم مثل ذلك وحذّرهم أن يدفعوا إليهم رهنا. فأرسل بنو قريظة عزّال بن سمّال إلى قريش: إن الثّواء (المُقام) قد طال ولم تصنعوا شيئا، والرأى أن تتواعدوا على يوم ترحف فيه قريش وغطفان، ويزحف بنو قريظة معكم، ولكنهم لا يخرجون معكم حتى ترسلوا إليهم رهائن من أشrafكم، فإنهم يخافون إن أصابكم ما تكرهون رجعتم وتركتمونا. فلما كانت ليلة السبت - وكان ذلك من صنع الله عزّ وجلّ لرسوله - أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقول لهم: إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخُفّ (الإبل) والحافر (الخيّل) فاغْدُوا صبيحة غدٍ للقتال معنا حتى نفاجي محمدًا. فقالوا لهم إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما نال منا من تعدّي في يوم السبت، ومع ذلك فلا نقاتل معكم أحدا حتى تعطونا رهنا. فلما رجع عكرمة ومن معه بذلك قالت قريش وغطفان: صدقنا والله نعيم بن مسعود. ولام أبو سفيان حَيَّي بن أخطب فراجع بني قريظة، فأبوا أن يقاتلوا مع الأحزاب حتى يأخذوا سبعين رجلا من قريش وغطفان رهائن عندهم. وخذل الله بينهم واختلفت كلمتهم.

وبعث الله على الأحزاب ريحا عاتية شديدة البرد ليلا ونهارا، وكانوا
يعسكرون في الخلاء فماتت بعض دوابهم، وسقط عليهم مطر غزير بارد برودة
شديدة مصحوبا بعواصف تقلب قدورهم وآيتهم وتطفئ نيرانهم، وتنتشر في
قلوبهم الرعب والفرع، وأخذ الرسول ﷺ يفكر في أمرهم وما يكونون عليه من
الملح إزاء الريح الصرصر المسلطة عليهم وما تحمل إليهم من سيول المطر
القارص، والتفت إلى من حوله وقال: مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعلت قريش،
ولم يجبه رجل من شدة الخوف والجوع والبرد، فدعا حذيفة بن اليمان، ولم يكن
له بلد من تلبينه، فقال له: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون،
ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا. فذهب حذيفة إليهم واستتر في غمارهم، واستمع أبا
سفيان يقول: يا معشر قريش ليتعرف كل امرئ منكم جلسه، قال حذيفة:
فأخذت بيد جلسي، وقلت له: مَنْ أنت؟ فقال فلان وانتسب. ثم ذكر حذيفة
أن أبا سفيان رفع صوته فيهم وقال: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار
مُقام، ولقد هلك الكراع (بعض الخيل) والخف (بعض الإبل) وأخلفنا بنو قريظة،
ولقينا من هذه الريح العاصفة ما لقينا، ما تستمسك لنا خيام ولا تثبت لنا قِدر،
ولا تقوم لنا نار، فارتحلوا، فاني مرتحل، ووثب على بعيره فجلس عليه، ثم ضربه
فوثب على ثلاث ولم يطلق عقال الرابعة إلا وهو قائم، وارتحلت قريش. وسمعت
غطفان والأحزاب برحيل قريش فأسرعوا راجعين إلى مواطنهم، ورجع حذيفة إلى
الرسول ﷺ فأعلمه برحيل قريش، فحمد الله. وأنزل الله تعالى في شأن الخندق
آية يذكر فيها نعمته على الرسول والمؤمنين وكفايته عدوهم من قريش
والأحزاب بعد سوء الظن من بعضهم ومقالة من تكلم بالنفاق، يقول جلّ شأنه:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ هِيَ
جُنُودُ الْأَحْزَابِ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ صرصر عاتية محملة بأمطار غزيرة
باردة ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هِيَ جُنُودُ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي كَانَتْ تَبْثُ فِي قُلُوبِ
قَرِيشِ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ الشَّدِيدِ وَالرَّعْبِ، وَتَبْثُ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ
وَالطَّمَأْنِينَةُ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ريح عاتية

رحيل قريش
والأحزاب

وامتلأ قلب رسول الله ﷺ برحيل الأحزاب بشراً وسروراً، ونظر حوله نظرة كلها ثقة بالله، وقال: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، وصدق، فإن كفار قريش لم يغزوا المسلمين والمدينة بعد الخندق، ثم هتف الرسول وهتف أصحابه وراءه: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده".

وأصبح الرسول وقد رحلت الأحزاب، فرجع إلى المدينة، وأذن للمسلمين أن يضعوا أسلحتهم، ويذهب كل منهم إلى داره فيستريح. ولم يلبث أن جاءه جبريل، فقال له: "يا محمد إن كنتم قد وضعتم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها، إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة، وإنى متقدم إليهم فمزّلزّل بهم". وقد رأينا بني قريظة ينقضون ما كان من عهد بينهم وبين الرسول إذ لم يعينوه في النصر على الأحزاب في حصارهم للمدينة كما يقضى بذلك الدستور في النصرة على من هاجمها، ولا عرضوا على الرسول أن ينفقوا معه في حرب الأحزاب كما يقضى الدستور، ولم يزل حُجَيّ بن أخطب بكعب بن أسد رئيسهم حتى أقعده بإعلانه خذلان الرسول وانضمامه مع قومه بني قريظة إلى الأحزاب، وبعث الرسول إليهم سيّدا الأوس والخزرج لينبأه بحقيقة موقفهم، فوجداهم على أخبث صورة من نقض العهد، ونالوا من رسول الله، وقالوا لا عهد له عندنا، وهي خيانة واضحة في وقت الحرب. ثم تبعته خيانة أعظم فقد مضوا يفساوضون أبا سفيان على هجوم الأحزاب على المسلمين من الشمال وهجومهم من الجنوب، وبذلك يكون المسلمون بين شِقَى مقصٍّ وبُستأصَلون، لولا أن قيّض الله للرسول والمسلمين نعيم بن مسعود الأشجعي فخذل بين بني قريظة من جهة وبين قريش وغطفان من جهة ثانية؛ وكان معجزة عظيمة أنقذت الرسول والمسلمين من اتفاق الأحزاب وبني قريظة على الهجوم عليهم من الشمال والجنوب، وكانت تلك خيانة كبرى من بني قريظة وأصبح واضحاً أنه ليس من الممكن أن يظلوا في المدينة بل يجب أن يُستأصلوا منها استئصالاً تاماً بحكم السماء.

أمر الله
بالخروج إلى
بني قريظة

حصار بنى قريظة

أمر رسول الله ﷺ بلالا أن يؤذن في المسلمين يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة سنة خمس: لا يصلين أحدكم العصر إلا في بنى قريظة. ودعا رسول الله ﷺ علياً، ودفع إليه اللواء وكان لا يزال على حاله من مرجعه من الخندق، وليس الرسول ﷺ الدرع والمغفر والبيضة وأخذ رمحا بيده، وثقلد الثرس، وركب فرسه، وحف به أصحابه، وقد لبسوا السلاح، وركبوا الخيل، وكانت ستة وثلاثين فرسا، وكانت له ثلاثة أفراس معه، وانتهى إلى بنى قريظة جنوبى المدينة. وسبق على في نفر من المهاجرين والأنصار، وبرز الراية، فاستقبلهم اليهود يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه، ورأى على الرسول مقبلا فقال له: يا رسول الله: لا تبلغ إليهم فقال له: أظنك سمعت منهم شتمى، لو رأونى لكفوا عن ذلك، ونهض إليهم، فلما رأوه أمسكوا. وتراموا مع سعد بن أبى وقاص والمسلمين ساعة. ثم غدا الرسول سحرا وقدّم الرماة وعبا أصحابه، وظلوا يترامون مع اليهود حتى المساء. ونزل نباش بن قيس، وكلم الرسول ﷺ على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير: له الأموال والأسلحة ويحققن دماءهم ويخرجون من المدينة بالنساء والذرارى ولهم ما حملت الإبل إلا الأسلحة، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه. وعاد نباش إليهم بذلك، فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد إحدى ثلاث خصال ليختاروا أيها شاءوا: إما أن يعتنقوا الإسلام ويتبعوا محمدا على ما جاء به. قال: وتحرزوا أموالكم ونساءكم، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذى تجدونه في كتابكم، وإما أن تقتلوا أبناءكم ونساءكم ثم تتقدموا فتقاتلوا حتى تموتوا عن آخركم، وإما أن تخرجوا على المسلمين ليلة السبت في حين طمأنينتهم منكم فتقتلوهم، فقالوا له: أما الإسلام فلا نسلم ولا نخالف حكم السوراة، وأما قتل أبنائنا ونسائنا، فما جزاؤهم المساكين منا أن

نقتلهم، ونحن لا نتعدى على أحد في السبت. ونزل منهم ثعلبة بن سَعْيَة وأَسِيد ابن سَعْيَة وأَسَد بن عبيد، فأسلموا، وأُمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم. ونزل عمرو بن سُعْدَى، وكان أبى أن يدخل مع بنى قُرَيْظَةَ في غدرهم برسول الله ﷺ، وقال: لا أغدر بمحمد أبدا. فبات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ثم ذهب، ولم يُدْرَ أين ذهب.

فلما اشتدَّ عليهم الحصار طلبوا حليفهم أبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر، وكانوا حلفاء سائر الأوس، فأتاهم، فجمعوا إليه رجالهم وأبناءهم ونساءهم، وقالوا له: يا أبا لُبَابَةَ أترى أن نزل على حكم محمد؟ فرقَّ لهم وقال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الدبح إن فعلتم، ثم ندم أبو لُبَابَةَ في الحين وعلم أنه خان الله ورسوله وأنه أمرٌ لا يستره الله عن نبيِّه. فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبي، ودخل المسجد، فربط نفسه في عمود من أعمدة المسجد، وأقسم أن لا يبرح مكانه حتى يتوب الله عليه. فكانت امرأته تحبُّه لوقت كل صلاة. وأقسم أن لا يدخل أرض بنى قُرَيْظَةَ أبدا: مكانا أصاب فيه الدم. ولما بلغ ذلك من فعل أبى لُبَابَةَ الرسول ﷺ قال: أما إنه لو أتاني لاستغفرت له، وأما إذ فعل فلست أطلقه حتى يطلقه الله، فانزل الله تعالى في أمره: ﴿وَأَخْرَوْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وكلمة عسى من الله واجبة.

أبو لُبَابَةَ

وكان الحصار خمسة وعشرين يوما، وقيل بل خمسة عشر يوما، ولما طال باليهود الحصار نزلوا على حكم الرسول، فأمر بأسراهم، فكُتِفُوا رباطا، وجعل على كتافهم محمد بن مسلمة ونُحُوا في ناحية. وأخرجت النساء والدريّة من الحصون فكانوا في ناحية واستعمل عليهم عبد الله بن سلام. وجمعت أمتعتهم وما وُجد في حصونهم من الأسلحة والأثاث والثياب، فوُجد فيها ألف وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفا رُمح وألف وخمسمائة ترس وأثاث كثير وآية كثيرة وخمر وجرار نبيد وأريق ذلك ولم يخمس، ووجد من الجمال التي يُستسقى عليها الماء عدّة ومن الماشية شئ كثير، وجمع هذا كله.

التسليم بنزولهم
على حكم
الرسول

وتواثب الأوس إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا: يا رسول الله قد علمت أنهم حلفاؤنا، وقد شفع عبد الله بن أبي بن قينقاع حلفاء الخزرج، فلا يكن حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا، فهم مواليها، فقال لهم رسول الله: يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذلك إلى سعد بن معاذ، وسعد يومئذ في المسجد في خيمة رقيقة، وقيل كعينة الأسلمية، وكانت تداوى الجرحى ولها خيمة في المسجد، وكان رسول الله ﷺ جعل سعد ابن معاذ فيها منذ جرح. فجاء به الأوس على حمار وقد وطئوا له وسادة من آدم ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وأحاطوا به في طريقهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإنما ولّاك رسول الله ﷺ ذلك لتحسن إليهم، فقال لهم: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. ولما أطلّ على الرسول ﷺ والأنصار حوله قال ﷺ: قوموا إلى سيدكم. فقاموا له صفين يحياه كل منهم، وقال من حضر من الأوس: يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولّاك الحكم فأحسن فيهم واذكر بلاءهم عندنا. فقال سعد: أترضون بحكمي لبني قريظة؟ قالوا: نعم. فقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيهم ما حكمت. قالوا: نعم. قال: وعلى من هنا؟ وأشار إلى الناحية التي فيها الرسول، فقال له رسول الله ﷺ: نعم. قال سعد: فيأني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتُسبى النساء والذراري (الأولاد الذين لم يبلغوا الحلم) وتقسّم الأموال. فقال له رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة (سموات).

حكم سعد
ابن معاذ

وأمر رسول الله ﷺ بالرجال فأخذوا مكثفين إلى سوق المدينة، وحُفرت هناك خنادق، وجلس مع كبار الصحابة، ثم دعا برجال بنى قريظة، فكانوا يخرجون جماعات فتضرب أعناقهم ويلقون في الخنادق، وكان الذي يتولى قتلهم على بن أبي طالب والزبير بن العوام، ولما جرى بجئي بن أخطب قال له رسول الله ﷺ: ألم يكن الله منك يا عدوّ الله؟ وأقبل حيي على الناس فقال: أيها الناس لا بأس بأمر الله قدر وكتاب: ملحمة كتبت على بنى إسرائيل. فأمر الرسول ﷺ بضرب عنقه. وقال الرسول ﷺ: أحسنوا إسمارهم وأريحوهم في

القيلولة واسقوهم ولا تجمعوا عليهم حرَّ الشمس وحرَّ السلاح، وكانوا بين ستمائة وسبعمائة، وقيل بل كانوا سبعمائة وخمسين. وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أخضرت ذقنه منهم وترك كل من لم تخضر ذقنه، وكان عطية القرظي من جملة من لم تخضر ذقنه، فلم يُقتل، وأسلم وهو مذكور في الصحابة.

ولاذ رفاعة بن سموأل القرظي بأمر المنذر سلمى بنت قيس: إحدى خالات الرسول، فسألت الرسول ﷺ فوهبه لها، فأسلم، وله صحبة ورواية، ووهب لثابت بن قيس بن الشَّماس الزبير بن باطا وولده وكانت له يد عليه في الجاهلية فاستحياهم، منهم عبد الرحمن بن الزبير أسلم وله صحبة، ولم يرض الزبير أبوه بالحياة بعد قومه، فضرب الزبير بن العوام عنقه. وأمر رسول الله ﷺ بقتل امرأة من السَّبي، هي بُنانة امرأة الحكم القرظي، فقتلت، لأنها كانت ألفت من حصن الزبير بن باطا رَحَى بإشارة زوجها على نفر من المسلمين كانوا يستظلون في الحصن، فقتلت خلاد بن سويد. وأخذ رسول الله ﷺ من السبي ربحانة بنت زيد وأسلمت، وخيرها بين أن يملكها أو يتزوجها، فاختارت أن تكون في ملكه.

وبيع متاع بني قريظة، وبيع السَّبي، وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة فكان للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم. وجعل خمس الغنيمة والسَّبي للرسول طبقا لآية سورة الأنفال فكان يعتق من السَّبي ويهب منه ويخدم منه من أراد. وبعض المستشرقين يستنكرون استئصال الرسول لبني قريظة وذكرنا أنهم خانوه ومدُّوا أيديهم إلى قريش ونقضوا ما بينهم وبين الرسول من عهد، وقالوا لا عهد عندنا له، وطلبوا إلى قريش أن يهجموا على الرسول والمسلمين معا حتى لا يبقوا منهم أحدا، ولولا أن الله سلَّم لضاع الإسلام والمسلمون. فاستنكار بعض المستشرقين لقتل بني قريظة يغفل كل ما صنعوه بالمسلمين في حصار الأحزاب، وأنهم مدُّوا أيديهم إلى الأحزاب ليفتكوا بالرسول والمسلمين، فلم يكن من الممكن أن يستطيع المسلمون - بعد ذلك - أن يتعايشوا معهم في المدينة. ومن يرجع إلى شريعة اليهود في التوراة يجدهم في سفر تثية الاشتراع بالفصل

العشرين يدعون جيوشهم إذا هاجمت مدينة تدعوها إلى السلم فإن قبلت ضربتم عليها الجزية وتعبدت لكم، وإن حاربتكم فحاصروها، وإذا أسلمها الرب إلى أيديكم فاضربوا كل ذكر بحدّ السيف. والرسول ﷺ - بذلك - إنما طبّق على بنى قريظة ما جاء فى شريعتهم، وقد أجلي عن المدينة قبلهم إخوانهم بنى قينقاع ثم بنى النضير لجنايات ليست شيئاً بالقياس إلى جنائيتهم الكبرى وما ابتغوه من تسليم المسلمين للأحزاب، وهو تأمر فظيع. ولنرجع إلى التوراة والفصل الثانى عشر من سفر الملوك الثانى فسرى داود استولى بجيشه على مدينة ربة عاصمة بنى عَمُون، وهم شعب سامى، وكانت ربة بمكان عَمَّان الحالية، وتقول التوراة: أخرج شعبها ووضعهم تحت مناشير ونوارج من حديد وفُتوس من حديد وطرح منهم فى أتون الآجر (أى فى الموقد الكبير للآجر). وتقول التوراة إنه صنع ذلك بجميع مدن بنى عَمُون. والرسول ﷺ لم يضع أحداً من بنى قريظة تحت مناشير أو تحت نوارج من حديد، ولا وضع أحداً منهم فى موقد نيران، بل كان يقول للمسلمين - كما مرّ بنا - أحسنوا إسمارهم وأريخوهم فى القيلولة واسقوهم ولا تجمعوا عليهم حرّ الشمس وحرّ السلاح.

ولما حكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة عاد إلى خيمة رُفيدة الأسلمية حيث تمّرضه، وكوى جرحه بالنار، فانتفخت يده، ولم يلبث الجرح أن انفجر وتوفى، وسار الرسول ﷺ أمام جنازته وصلى عليه، ولما وُضع فى لحده سَبَّح ثلاثاً وسَبَّح المسلمون ثلاثاً حتى ارتجّ البقيع، ثم كَبُر ثلاثاً وكَبُر أصحابه ثلاثاً وارتجّ البقيع. وجلس ناحية والمسلمون يردون تراب القبر على سعد حتى سُوى ورُشّ عليه الماء، ووقف فدعا ثم انصرف. ولم تغز قريش المدينة بعد الخندق، وأصبح واضحاً بعد القضاء على بنى قريظة أن الرسول والمسلمين ازدادوا قوة فوق قوة وأن مكة لا بد أن تسقط فى أيديهم يوماً. وكانت القبائل فى الجزيرة تدين بالولاء لمكة حارسة الكعبة وأصنامهم الكثيرة فيها التى يحجّون إليها سنوياً، وأخذ هذا الولاء يتناقص وأخذ كثير من القبائل يؤدّ لو عقد حلفاً مع الرسول.

داود يمثل

برجال عاصمة

بنى عمون

وفاة سعد

ابن معاذ

بعوث متعددة ومسيرتان للرسول

كان ممن ذهب إلى قريش من اليهود يحضُّها على غزو المدينة والرسول ﷺ
 سلام بن أبي الحقيق، وسعى عند غطفان أن تشرك في الغزو، وصنع صنيعه حَيَّ
 ابن أخطب كما مرُّ بنا، وقد قُتل مع بني قريظة، أما سلام فقد ذهب إلى خيبر،
 فرأى عبدُ الله بن عتيك ونفرٌ من الأوس أن يقضوا عليه في عقر داره بخيبر
 فذهبوا إليه ودخلوا مسكنه، وقتلوه عقابا لما سعى فيه من تحزيب قريش
 والأحزاب لاستتصال المسلمين من المدينة.

قتل سلام بن
 أبي الحقيق

وأخذ الرسول ﷺ يُكثر من البعث في السنة السادسة لإعلام القبائل
 العربية بالدين الخفيف. وأول بعث أرسل به بعث محمد بن مسلمة في ثلاثين
 صحابيا إلى بنى بكر بن كلاب في ضربه لعشر خلون من الحرم أول أشهر السنة
 السادسة، ويسمى هذا البعث بعث القُرطاء، وشَنَّ غارة على بنى بكر، ويقال
 حدثت بينه وبينهم حرب، وقتل منهم نفرا وفرَّ سائرهم، واستاق منهم غنيمة:
 مائة وخمسين بعيرا وثلاثة آلاف شاة. وخمس الرسول ﷺ الغنيمة.

بعث محمد بن
 مسلمة إلى بنى
 بكر بن كلاب

ثم كانت مسيرة الرسول ﷺ في مائتي رجل إلى بنى لحيان في عُسفان أول
 ربيع الأول ليأخذ بثأر أصحاب الرجيع الذين مضى خبرهم، ووجد بنى لحيان
 فروا من ديارهم لما علموا بمقدمه ولم يلق منهم أحدا. وانصرف إلى المدينة. وقيل
 كانت هذه المسيرة بعد ذلك في جمادى الأولى. وبعد رجوع الرسول من مسيرته
 إلى بنى لحيان بليال قليلة سار حتى بلغ ذا قَرَد (ماء على مسيرة يوم من المدينة)،
 وذلك أن عُيَيْنَةَ بن حصن سيد فزارة أغار مع ابنه عبد الرحمن وحبيب مع جماعة
 من فزارة الغطفانية على نوق لَقَاحٍ (حوامل ذات ألبان) كانت ترعى في الغابة
 (موضع قرب المدينة) كان فيها رجل من بنى غفار وامراته فساقوها وقتلوا

مسيرة الرسول
 إلى بنى لحيان

مسيرته إلى
 ذي قرد

الغفارى وأخذوا المراه. وكان أول من علم بهم سلمة بن الأكوع كان ناهضا إلى الغابة، فاعتلى مكانا فرأى خيلهم، فصاح ناحية المدينة قائلا: واصباحاه، واشتد في آثارهم، وأبلى بلاء عظيما واستنفذ كثيرا مما فى أيديهم، وبلغت صيحته الرسول، فصاح: الفرغ، الفرغ، فلباه عشرة من الفرسان سريعا، ومضى معهم متجها إلى الغابة، وكان أول من لحق بهم مُحَرِّز بن نَضْلَة، فقتله عبد الرحمن بن عُبَيْنَة بن حصن، وسدّد إلى عبد الرحمن سلمة بن الأكوع سهما فقتله، وقتل أبو قتادة حبيب بن عيينة، وقتل عكاشة بن مِخْصَن أوبارا وابنه عمرو قتلها برمح انتظمهما، واستردّت أكثر النوق. وسار الرسول حتى نزل بذي قرد وتلاحق به المسلمون هناك، وأقام به يوما وليلة ونحر عنده ناقة من لقاحه المسترجعة، وعاد إلى المدينة. ونام المغيرون وقامت امرأة الغفارى فجعلت لا تضع شيئا على بعير إلا رغا، حتى أتت العَصْبَاء ناقة رسول الله، فوجدتها ناقة ذلولا، فركبتها ونذرت إن نجاها الله عليها لتتحرّنها، فلما قدمت المدينة عُرِفَت ناقة رسول الله ﷺ وأُخْبِرَ بذلك، فأرسل إليها، فجاءت مع الناقة، فقالت: يا رسول الله إني نذرت إن نجانى الله أن أنحرها، فقال لها: بئس ما جزيتها، لا وفاء لنذر فى معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم. واستردّ منها الناقة.

ثم كان بعث عكاشة بن مِخْصَن فى أربعين رجلا إلى الغمر (ماء لبنى أسد) بعث عكاشة
فى شهر ربيع الأول بالسنة السادسة، وعرفوا بيعته ففرّوا وانتهى إلى غُلْيا ديارهم إلى الغمر
فلم يلق أحدا، وظفر بمائتى بعير وعاد.

وفى نفس الشهر كان بعث محمد بن مسلمة فى عشرة من الصحابة إلى ذى القَصَّة - على بعد نحو عشرين ميلا من المدينة - يريد بنى ثعلبة من ذبيان فى ربيع الأول، فقاتلوهم وقتلوا تسعة منهم، وجرح محمد بن مسلمة وحُمِلَ إلى المدينة.

بعث زيد بن حارثة إلى العيص وفى جمادى الأولى بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راکبا إلى العيص على بعد أربعة أيام من المدينة إلى قافلة لقريش أخذت طريق

إجارة زينب
لزوجها
أبى العاص

العراق، فظفر بها زيد، وأسر أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ والمغيرة بن معاوية بن أبى العاص وقدم المدينة، واستجار أبو العاص بزينب، فخرجت إلى المسجد فى صلاة الصبح وأعلنت أنها أجارته، فقال الرسول: المؤمنون يد على من سواهم يحير عليهم أدناسهم، وقد أجرنا من أجات. وردّ عليه كل ما أخذ له من مال فسار إلى مكة وأدّى إلى كلّ ذى حقّ حقه، ثم قدم المدينة مهاجرا معلنا إسلامه، فردّ الرسول عليه زينب. وأما المغيرة بن معاوية فأسر وقال الرسول لعائشة: احتفظى بهذا الأسير، فلهت عنه مع امرأة بالحديث، فخرج وما شعرت به، ودخل الرسول ﷺ فلم يره، فسألها، فقالت: غفلت عنه، وكان ههنا آنفا، فقال لها: قطع الله يدك، وخرج فأرسل بناس فى أثره، فأتوا به، ودخل على عائشة وهى تقلّب يدها، فقال لها: مالك؟ قالت أنظر كيف تُقطعُ يدي فقد دعوت على بقطعها، فاستقبل القبلة، ورفع يديه قائلا: اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيا مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بدعوة فاجعلها له رحمة.

وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى خمسة عشر صحابيا إلى ناحية نخلة فى طريق العراق لاعتراض قافلة قرشية، وعاد منها بعشرين بعيرا دون قتال. وفى نفس الشهر اعترض الهنيد بن عارض وابنه عارض دحية الكلبي وأخذوا ما معه وقدم على الرسول شاكيا فبعث معه زيد بن حارثة فى نفس الشهر المار فى طائفة من الرجال، فقدم على قبيلة جذام فى الشمال وقتل الهنيد بن عارض وابنه، واستاق ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومائة بين امرأة وصبي، وقدم زيد بن رفاعة الجذامى فى نفر على الرسول ﷺ مستغيثا به، فبعث معه على بن أبى طالب ليرد زيد عليهم ما أخذ منهم، فرد زيد ما أخذ.

وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فى سبعمائة إلى قبيلة كلب بدومة الجندل فى شهر شعبان، فأسلم سيدهم الأصبع بن عمرو الكلبي وكان نصرانيا، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ابنته، وأبت كثرة القبيلة أن تدخل فى الإسلام وكانوا نصارى ففرض عليهم الجزية.

وفي شهر شعبان أرسل عليّ بن أبي طالب في مائة رجل إلى بني سعد بن بكر في ناحية «فدك» وكانوا قد تحالفوا مع يهود خيبر، وعلموا به فتفرقوا وساق لهم خمسمائة بعير وألفى شاة، ولم ير منهم أحدا، وقَّيم المدينة.

الفصل السادس عشر

من غزوة بنى المصطلق إلى عمرة الحُدَيْبِيَّة

١

غزوة بنى المصطلق

بنو المصطلق فرع من خزاعة كان يسكن عند بئر يسمى المُرَيْسِعَ بالقرب من شاطئ البحر الأحمر بينه وبين المدينة نحو يوم ونصف، وبلغ الرسول ﷺ أنهم يعدُّون له مع سيدهم الحارث بن أبي ضيرار، وأنهم جمعوا لحربه من العرب جمعا كبيرا، فأعدَّ جيشا لحربهم، وخرج به في شعبان من السنة السادسة للهجرة، وقاد الجيش ثلاثين فرسا عشرة منهم للمهاجرين وعشرين للأَنْصَارِ سوى فرسين لرسول الله ﷺ، وخرج مع الجيش كثير من المنافقين ليصيبوا من المغنم ولقرب المريسيع منهم.

واتجه الرسول ﷺ بجيشه إلى المريسيع، وكان بنو المصطلق ومن معهم علموا بأن الرسول متجه بجيش إليهم، فتفرق عنهم من كانوا اجتمعوا إليهم من قبائل العرب وثبت بنو المصطلق مع سيدهم الحارث، وبالقرب من البئر ضربت للرسول قبة من آدم وكان فيها معه من زوجاته عائشة وأم سلمة. وكان بنو المصطلق وسيدهم الحارث اصطفوا للقتال، فصَفَّ الرسول أصحابه، فأمر عمر ابن الخطاب أن ينادى الحارث وبنى المصطلق قائلا: قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها

الوصول إلى
بنى المصطلق
وأَسْرَهُم

أنفسكم وأموالكم فأبوا، وأخذوا يترامون مع المسلمين بالنبال ساعة، وأمر الرسول المسلمين أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فلم يفلت منهم أحد، وقُتل منهم عشرة وأسر ساداتهم، وسُبيت النساء والذرية، وغُنمَت إبلهم وأغنامهم.

وأمر الرسول ﷺ بالأسرى فكُتِفُوا واستعمل عليهم بُرَيْدَةُ بْنُ الْحُصَيْبِ، وأمر بجمع متاع بنى المصطلق وسلاحهم وإبلهم وأغنامهم وجعل على الخمس وأخماس المحاربين محمية بن جَزْءٍ، وكان يعطى من الخمس اليتيم والمسكين والضعيف، وكانت الإبل ألفى بعير وكان الغنم ألفى شاة، وكان السبي مائتي أهل بيت.

وسارت بَرَّة بنت الحارث سيد بنى المصطلق فى سهم ثابت بن قيس بن شماس، فعرف أنها بنت الحارث، فكاتبها - لتحريرها - على ستِّ أواقٍ من ذهب، فبينما الرسول ﷺ فى قبة على الماء إذ دخلت عليه بَرَّة، تسأله العون فى كتابتها، وقالت له إنها ابنة الحارث سيد القوم وإنها امرأة مسلمة وتشهدت أى قالت أشهد أن لا إله إلا الله وألئك رسول الله، واستعانتها فى كتابتها، فأعجب بها وخطر له أن يؤدى عنها الأواقي الست لثابت ويتزوجها، فعسى أن يسلم أبوها وقومها إذا علموا بزواجها من الرسول وقبلت وتزوجها. وخرج الخبر إلى جيش المسلمين، فقال جنوده: أصهار الرسول وحرروا ما بأيديهم من الأسرى والسبي، وأسلم سائر بنى المصطلق، وهو ما كان أراداه الرسول من زواجه ببرة التى سماها جويرية، وأصبح ذلك اسمها. وكان عائشة لم تلتفت إلى غرض الرسول من زواجها، فظنت ظنا مخطئا أنه تزوجها لملاحقتها وحسنها، إذ قالت فى خبر يُروى عنها أنها قالت: ما هو إلا أن وَقَفْتُ بباب الخِيَاءِ (القُبَّة) تستعين رسول الله ﷺ فى كتابتها، فنظرتُ إليها، فرأيت على وجهها ملاحاة وحسنا، فأيقنت أن رسول الله إذا رآها، أعجبته، فما هو إلا أن كلمته، فقال لها رسول الله ﷺ: أَوَخير من ذلك؟ أن أؤدى كتابتك وأتزوجك. ثم قالت عائشة: وما رأيت أعظم بركة على قومها منها، فما هو إلا أن علم المسلمون أن رسول الله ﷺ تزوجها، فأعتقوا (فحرروا) ما بأيديهم من سبى بنى المصطلق، وقالوا: "أصهار رسول الله

زواج الرسول
بجويرية بنت
الحارث

ﷺ"، وأسلم جميع بنى المصطلق وردّ لهم جميع نسائهم وذريتهم. ومن العجب أن يأخذ بعض المستشرقين بكلمة عائشة الأولى وأن الرسول تزوج جويرية لحسنها، وهي كلمة قالها بغريزة الغيرة، ولو كانوا منصفين لاحتّم أن يأخذوا بكلمتها الثانية، وأن الرسول ﷺ إنما أراد بهذا الزواج تحرير الأسرى والسّبي من بنى المصطلق أملا في اعتناقهم الإسلام وهو ما تحقق فعلا، فلم يكن هذا الزواج زواج شهوة إنما كان زواج مصلحة للإسلام أن يعتنقه بنو المصطلق.

تحرير
بنى المصطلق
وإسلامهم

وشئٌ مهم للغاية، هو أنه أراد أن لا يترك قبيلة بنى المصطلق، وقد أصبح رجالها جميعا رقيقا للمسلمين، مسترقا لهم، وتلك أول مرة تحدث له بحكم قانون الحرب عند العرب أن تتحول قبيلة برمتها إلى أرقاء، وكأما أنجذته جويرية ليخلص القبيلة برمتها من الرّق ويرد إلى كل أهلها ونسائهم حريتهم كاملة. ولم يكن يمكنه أن يحرم الرق إذ كان نظاما عالميا تأخذ به كل الأمم في عصره، وقد حاول الإسلام تخفيف قوانينه، إذ جعله كفارة للمسلم عن ذنوبه الكبيرة والصغيرة كالخث في اليمين. وقد ردّ زواج الرسول بجويرية حرية قبيلتها إليها وكسب الإسلام قبيلة من قبائل خزاعة.

وفي وسط هذا الابتهاج بإسلام بنى المصطلق ورد حريتهم إليهم وأموالهم، والناس يستقون من بئر المريسيع، إذ أقبل سنان بن وبر الجهني - حليف الخزرج - يستقي من الماء، فأذلى دلوّه، وأقبل جهجاه بن مسعود الغفاري - أجير عمر ابن الخطاب - فأذلى دلوّه، والتبس اللولان، وتشاجر سنان وجهجاه، وضرب جهجاه سنانا، فسال الدم، ونادى سنان: يا للخزرج، ونادى جهجاه: يا لقريش، وأقبل الخزرج والمهاجرون وكادت تقع فتنة ولكن الله سلم.

وكان عبد الله بن أبيّ المنافق حاضرا الحادث في جمع من أصحابه المنافقين، فقال: والله ما رأيت كاليوم مذلة، لقد كاثرتا المهاجرون في بلدنا وانكروا منتنا، والله ما صرنا وجلايب (رجال) قريش إلا كما قال القائل: سَمْنٌ كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز (يريد الأنصار) منها الأذل

مقالة ابن أبيّ
وتبرؤ ابنه منه

(يريد المهاجرين). وشاع قوله، وبلغ الرسول ﷺ . وتبرأ ابنه عبد الله من فعله، وأتى رسول الله ﷺ ، فقال له: يا رسول الله أنت الأعز وهو الأذل. وقال سعد ابن عباد: يا رسول الله إن هذا الرجل يحمله حسده على النفاق، ولقد كان قومه اتفقوا على أن يتوجه بالحرز قبل قدومك المدينة ويقدموه على أنفسهم، فهو يرى أنك نزعت ذلك منه، وقد أظهر الإيمان فكلمه إلى ربّه. وقال ابنه عبد الله: يا رسول الله إن أمرتني بقتله لأقتله، فإني أخشى - يا رسول الله - إن قتله غيري أن لا أصبر عن طلب الثأر، فأقتل به مسلماً فأدخل النار، وقد علمت الأنصار أني من أبر أبنائها بأبيه، فقال له رسول الله ﷺ : برّ أباك ولا يرى منك إلا خيراً، ودعا له. وفي عبد الله بن أبي وجماعته من أهل النفاق نزلت سورة (المنافقون) وفيها يردّ الله على ابن أبي قوله السالف: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ولما وصل رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة وقف عبد الله لأبيه عبد الله بن أبي في الطريق، وقال له: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك الرسول ﷺ بدخولها فأذن له متلطفاً.

٢

حادث الإفك والبهتان

كانت عائشة مع الرسول ﷺ في غزوة بنى المصطلق وأخذ مع جيشه الطريق إلى المدينة، وباتوا ليلة فيه قبيل مرحلة من المدينة، وأذن في الناس بالرحيل فأسرعت عائشة إلى الخلاء لقضاء بعض حاجتها، وعادت والهودج موضوع أمام خيمتها لرحيلها فيه، وقد لاحظت أن عقدها النفيس الذي وضعت حول عنقها انسل منها دون أن تشعر، فرجعت أدراجها تبحث عنه دون أن تذكر لأحد أنها عائدة لالتماسه. وظلت تلتسمه في غبشة الصبح بين الخصى والعشب حتى وجدته، ورجعت لتستقل هودجها وتلحق القافلة، فلم تجد الهودج، إذ أن

المكلفين برفعه إلى بعيرها ظنوها فيه، ورفعوه وانطلقوا به مع القافلة. فرأت أن تظل في مكانها حتى إذا اقتدوها سريعا رجعوا إليها، ورقدت في انتظارهم. وكان صفوان بن المعطل السلمي تخلف عن القافلة لقضاء حاجته، فلما مر بها عرفها، فنزل عن بعيره وأناخه لها، فركبت وقادها حتى منزلها في المدينة.

ولما رأى الناس عائشة تعود مع صفوان أخذ بعض أصحاب الظن السيئ يلوكون مسيرتها وانتهز الفرصة عبد الله بن أبي المنافقون جميعا، فجعلوا يذيعونه شفاء لما في نفوسهم من غيظ وحقد على الرسول، واشترك في إذاعته ونشره في الناس مع المنافقين مسطح بن أثاثة القرشي وحمئة بنت جحش أخت زينب أم المؤمنين حملتها على ذلك الغيرة لأختها من عائشة لتفضيل الرسول لها على أختها، وساعدها في هذا الظن السيئ حسان بن ثابت.

موقف عبد الله
ابن أبي

وما كان لهذا الظن الخبيث أن يكون، وعائشة دخلت المدينة عقب دخول الرسول والجيش المدينة، فلم يكن بين دخولها المدينة ودخول الرسول والجيش المدينة وقت يسمح بأن يقوم في بعض النفوس مثل هذا الظن، غير أن الحقد الدفين على الرسول ومحاولة الكيد له بهذا الاتهام لزوجه عائشة الطاهرة المطهرة؛ وهو ليس كيدا له وحده بل هو كيد أيضا لعائشة أحب زوجاته إليه وإلى أبيها أبي بكر الصديق الساعد الأيمن للرسول. وبلغ هذا البهتان الرسول، واضطرب له اضطرابا شديدا، وأخذ يسائل نفسه أيعقل أن تخونه هذه الزوجة الوفية المملوءة له حبا وتجلّة بنت من؟ بنت أبي بكر الصديق أكبر شخصية نفعت الرسول والإسلام وعاشت له وعاشت به، وتفانت فيه، وتلك فتاته تحمل للرسول وللإسلام إخلاصا لا يماثله إخلاص، ومع ذلك يابى المنافقون وضعاف النفوس إلا أن يلفظوا باسمها ويحاولوا إلحاق الدنس بها، كبرت كلمات تخرج من أفواههم، ما يقولون إلا بهتانا وكذبا.

الكيد للرسول
وعائشة وأبيها

وكانت عائشة قد مرضت مرضا شديدا عقب عودتها، ولم يبلغها أحد شيئا من هذا الإفك عليها لما يعلمون من أنه محض افتراء، ولاحظت أن الرسول ﷺ لا

يجنو عليها كعادته، ولا ترى منه اللطف الذي كان عودها إياه حين تشتكى، إنما يدخل عليها فيسلم، ثم يقول كيف تيكمن أي كيف هذه؟ ثم ينصرف، وكان ذلك يدخل عليها الريب، وظنت أن زواجه بجويرية بنت الحارث هو الذي غيره وأنها حلت من حبه محلها، فصبرت. وزارتها قريبتها أم مسطح، وكانت تظن أنها علمت ما يلوكه ابنها مسطح عنها، فقالت: تعس مسطح، فقالت لها عائشة: بئس ما تقولين أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت لها: أولم تسمعي ما قاله؟ ثم أخبرتها بما يقوله عنها هو وأصحابه من أهل الإفك والبهتان، فازدادت مرضاً على مرض، ودخل عليها رسول الله ﷺ وكعادته سلم ثم قال: كيف تيكمن، فقالت له: أتأذن أن أتى أبوي؟ وهي حينئذ تريد أن تستيقن منهما الخبر، فأذن لها رسول الله ﷺ فجاءت أبويها، وسألت أمها قائلة يا أمي ما هذا الذي يتحدث به الناس، قالت: يا بُنيتي هوّنني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها الكلام، فقالت: سيحان الله، وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم. وتذكرت جفاء الرسول ﷺ بعد ما كان من وده ولطفه معها، ولكن ماذا تفعل؟ هل تقسم له أنها بريئة؟ وهل سيصدقها؟ وتوسّلت إلى الله أن يلهمها ما تقنعه به حتى يعود إليه حبه لها ومودته وعطفه.

عائشة تعلم
بالإفك

واختار الرسول ماذا يفعل، وكان الوحي تأخر عنه شهراً فعمد إلى استشارة بعض من حوله، ولم يستشر أبا بكر ولا فاتحه بشيء، واستشار عمر فقال له: من زوجها لك يا رسول الله؟ قال الله تعالى، فقال عمر: أتظن أن الله دلّس عليك فيها سبحانه هذا بهتان عظيم، وسأل أسامة بن زيد فقال له: هذا الباطل والكذب، ولا نعلم إلا خيراً، وسأل علي بن أبي طالب فقال له: لم يضيّق الله عليك والنساء كثير، وقد أحلّ الله لك وأطاب، ففارقها وتزوج غيرها، وإن تسأل الجارية بريرة تصدّقك، فدعا بريرة، وقال لها: هل رأيت من عائشة شيئاً يريبك؟ فقالت له: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً أعيبه عليها أكثر من أنها تنام عن عجين أهلها فتأتي الدواجن فتأكله. وسأل زوجته زينب بنت

الرسول
يستشير
أصحابه

جحش، فقالت: حاشا سمعى وبصرى ما علمت إلا خيرا، والله ما أكلمها وإنى لمهاجرتها وما كنت أقول إلا الحق. وسأل أم أيمن، فقالت حاشا سمعى وبصرى أن أكون علمت أو ظننت بها إلا خيرا.

وصعد الرسول ﷺ المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: من يعذرني فى رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتي (يريد عبد الله بن أبيّ) فوالله ما علمت عن أهلى إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا (يريد صفوان بن المعطل) ما علمت عنه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلى إلا معى. فقام أُسَيْد بن حُضَيْر الأوسى فقال: أنا أعذرک منه يا رسول الله إن كان من الأوس آتیک برأسه، وهو يعلم أنه يريد عبد الله بن أبيّ من الخزرج، ثم قال أُسَيْد: وإن يك من إخواننا الخزرج فمُرنا بأمرک يمضى لك، فغضب سعد بن عبادة سيد الخزرج، وقال له: كذبت لأنه جعل الحكم فى الخزرج لنفسه، وكأنه استشعر العصية الجاهلية التى حاربها الإسلام، وكادت تكون فتنة، فأشار الرسول بيده إلى الأوس والخزرج أن لا يتشاجروا ونزل عن المنبر، فهذه أهم حتى انصرفوا.

تبرئة الرسول
عائشة

تقول عائشة: وأصبح أبوأى عندى، وقد بكيت ليلتين لا أكتحل بنوم ولا يجفّ لى دمع، وبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى، وبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندى منذ قيل عني ما قيل، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه شئ فى شأنى، وتشهد، ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فيبرئك الله، وإن كنت ألمت بشئ مما يقول الناس، فاستغفرى الله عزّ وجلّ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه. فقالت لأبيها: أجِبْ عني رسول الله، قال: والله ما أدري ما أجيب به عنك. فقالت لأُمها أجيبى عني، فقالت: والله ما أدري ما أجيب به. فقالت عائشة: إني - والله - قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع فى أنفسكم، فصَدَّقتم به فإن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أنى منه بريئة لتُصدَّقنى. وإني والله ما أجد لى مثيلا إلا أبا يوسف (يعقوب)

محاورة الرسول
عائشة

إذ يقول حين قالوا له كذبا إن أخانا يوسف أكله الذئب وجاءوا له بقميص له ملطخ بالدم بهتاناً: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي وأنا أعلم أنى بريئة ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يُتلى.

وغشى رسول الله ﷺ ما كان يغشاه حين ينزل عليه الوحي وغطى بثوبه وجمعت وسادة من آدم تحت رأسه، وأخذته ما كان يأخذه من بُرحاء الحمسى وشدة الكرب، حتى إن العرق لينحدر منه مثل الجمان وكان اليوم شاتياً، وذلك من ثقل الوحي الذى ينزل عليه. قالت: فلما سُرئى عنه ابتسم وكانت أولى كلمة تكلم بها: يا عائشة إن الله قد أنزل براءتك، فقالت أُمى: قومى إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله. وأنزل الله فى الإفك وأصحابه آية سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما أرفق به من تشريع ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أى إثمه الكبير ﴿مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عبد الله بن أُبَيّ كبير المنافقين.

تبرئة الوحي
عائشة

وكان الرسول قد أصبح فى عودته من بنى المصطلق على غير ماء، فأُنزل الله رخصة التيمم بالتراب حين يُفقد الماء، كما فى الآية السادسة من سورة المائدة.

وكان أبو بكر ينفق على ابن خالته: مسطح بن أثاثه، وكان من فقراء المهاجرين، فلما سمع بخوضه فى قصة الإفك والبهتان على عائشة حلف أن لا ينفق عليه. ولما تاب من صنيعة السيئ تاب الله عليه، وتاب رفقاًؤه، وتاب الله عليهم. وظل أبو بكر غاضباً عليه، فأُنزل الله عقب حديثه عن إفك عائشة: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أى لا يحلف ﴿أَوْ لَوْ أَلْفَضَلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ والمراد أبو بكر وكان من أولى الفضل والخير والشراء ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ أى يعطوا ذوى الرحم، والمراد مسطح بن أثاثه ﴿وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ

١ الله ﷻ وكان مسطح من هؤلاء المهاجرين ومن حارب المشركين في غزوة بدر ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ وهي دعوة صريحة لأبي بكر أن يعفو ويصفح عن مسطح، وأكدها بقوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ولما سمع أبو بكر الآية أجاب ربه: بلى إني أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى مسطح ينفق عليه وعلى أهله وكفر عن يمينه وقسمه. وعفا الرسول ﷺ بدوره عنه وعن حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت جميعا، وأيضا عن عبد الله بن أبي.

عفو أبي بكر
عن مسطح

٣

بعوث للرسول

كان أول بعث منها بعث لزيد بن حارثة في رمضان من السنة السادسة، وكان خرج في تجارة إلى الشام ومعه عروض أو بضائع لبعض الصحابة، فهجم عليه وعلى من معه عند وادي القرى عشيرة حذيفة بن مدر الفزارية فضربوه هو ومن معه ضربا مبرحا وأخذوا ما كان معهم، وتحامل حتى قدم المدينة. وشكى للرسول ما صنعت به العشيرة البدوية الفزارية، فبعثه الرسول إليهم في نفر من الصحابة، فكانوا يكمنون لها نهارا ويسرون بالليل الداجي وصبحوهم يوما وأحاطوا بهم، وقتل سلمة بن الأكوع رجلا منهم وسبي جارية بنت مالك بن حذيفة وأمها أم قرفة، ويقال بل قتل أم قرفة قيس بن الجسر قتلا عيفا، وكان يضرب بها المثل في المنعة والعزة، فيقال أمنع من أم قرفة وأعز من أم قرفة، وكانت بنت عم زوجها مالك بن حذيفة سيد بني فزارة، وكانت أسرتهم أشرف أسرة في القبيلة، ويقال إنه كان يعلق في بيتها خمسون سيفًا لخمسين فارسًا، كلهم لها محرّم. وكانت تسب رسول الله ﷺ وتكثر من سبه، فالت على يد قيس بن الجسر جزاءها وأفيا.

بعث لعشيرة
حذيفة بن بدر
الفزارية

وبعث ثان في شوال من السنة السادسة اختار الرسول قائده عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام أمير اليهود بخير، وكان قد أرسله في ثلاثة نفر إليه في رمضان قبل ذلك لينظر أمور خبير ويعرف ما يتكلم به أهلها عن رسول الله، فوعى ذلك وعاد مع صحبه بعد ثلاثة أيام، وأخبر الرسول ﷺ بما ندبه إليه. وكان أسير يعدُّ لحرب الرسول، وذهب إلى غطفان يحرضها على الاشتراك مع يهود خيبر في حربه، وعلم بذلك الرسول ﷺ فبعث إليه في شوال عبد الله بن رواحة في ثلاثين رجلا، فقدموا خيبر، وبعثوا إلى أسير أن يؤمنهم لأنهم يحملون إليه رسالة من الرسول فأمنهم، وأتوه، فقالوا له: إن رسول الله بعثنا إليك أن تخرج إليه ليستعملك أميرا على خيبر ويحسن إليك، فطمع في ذلك، وخرج معهم في ثلاثين رجلا من اليهود. وفي أثناء الطريق ندم أسير على خروجه مع ابن رواحة وأصحابه، وغرّف ذلك منه، إذ همّ بقتل عبد الله بن أنيس أحد رجال ابن رواحة. وأسرع ابن أنيس فسلّ سيفه وقتله، ومال أصحاب ابن رواحة على من معه فقتلوهما إلا رجلا واحدا فرّ منهم ولم يُصب أحد من المسلمين. وقدموا المدينة، وأخبروا الرسول ﷺ بما حدث، فقال: نجّاكم الله من القوم الظالمين، ودعا لعبد الله بن أنيس.

وبعث ثالث جعل عليه الرسول ﷺ كُرْز بن جابر الفهري القرشي في عشرين فارسا بشهر شوال أيضا، وذلك أن ثمانية رجال من قبيلة غُرَيْسَة قَدِمُوا على الرسول ﷺ فأسلموا، وأقاموا بالمدينة، فاستوخموها وشكوا الوجع من الطّحال، فأمر الرسول ﷺ بنقلهم إلى لقاحه (نوق ذوات لبن) وكانت ترعى بذي الجُدُر - ناحية قرب قُبَاء على بعد ستة أميال من المدينة - وظلّوا هناك حتى صحّوا وسمّوا، فغدوا على اللقاح فاستاقوها. وأدركهم يسار مولى الرسول ومعه رجال فقاتلهم فأخلدوه فقطعوا يده ورجله ومثّلوا به إذ غرّزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات. ورأته امرأة أنصارية من بني عمرو بن عوف ملقى تحت شجرة فأخبرت قومها، فخرجوا إليه وجاءوا به إلى قُبَاء. فبعث الرسول ﷺ في إثر العربيين كُرْز بن جابر الفهري القرشي في عشرين فارسا، فخرجوا في طلبهم

بعث ابن
رواحه إلى أسير
ابن رزام

بعث كرز بن
جابر في إثر
العربيين

فأدركوهم وأحاطوا بهم وأسروهم جميعاً، واركبوهم خلفهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة، وأتوا الرسول ﷺ بهم، فقطعت أيديهم وأرجلهم، ومثّل بهم فسُملت (فُقتت) أعينهم، وصلبوا، ونزلت آية سورة المائدة تؤذن بالصلب وقطع الأيدي والأرجل، وتنهى عن التمثيل بالقتلى، وهى قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ولم تُسمل بعد ذلك عين لقتيل من أعداء الله ورسوله، ولم يبعث الرسول ﷺ بعثاً إلا نهاهم عن المثلة. ولما ظفر المسلمون بلقاح الرسول جعلوا عليها سلمة بن الأكوع، وكانت خمس عشرة لقحة ذات لبن غزير، ورُدّت إلى مرعاهها فى ذى الجُدُر. وكان سلمة بن الأكوع يروح منها إلى رسول الله ﷺ كل ليلة بوطّب لبن، وهو سقاء من جلد خاص باللبن.

٤

عمرة الحديبية

صعدت مكانة الرسول بعد غزوة الأحزاب، وصدق حَدّسه أن قريشاً لن تفكر فى غزو المدينة بعدها، إذ عرفت أن ذلك أمر بعيد وغير ممكن. وكان الرسول ﷺ مشغولاً بها وكيف تستجيب له وتدخل فى الإسلام، وكان يستبعد فكرة اجتياحها وإياحتنا حريباً لأن بها بيت الله، والعرب من أجل قيامها عليه تعظمها. وطرأت له فكرة أن يعلن أنه هو وأصحابه ذاهبون إليها للعمرة وزيارة بيتها أو كعبتها المقدسة التى يتجه إليها هو وأصحابه خمس مرات فى صلاتهم بكل يوم، ورأى فى النوم أنه دخل الكعبة وحلق رأسه - كما يصنع الحجاج والمعتمرون - وأخذ مفتاح الكعبة، ووقف بعرفات مع الواقفين. وكانت هذه الرؤيا فى شوال من السنة السادسة للهجرة، فصمم على تحقيق هذه الرؤيا،

رؤيا الرسول

وأبلغها الصحابة، وكثيرون منهم كانوا يتمنونها وخاصة المهاجرين الذين اشتاقوا إلى رؤية بلدهم وحُرموا من الطواف حول الكعبة منذ ست سنوات بل تزيد.

واستنفر الرسول المهاجرين والأنصار لأداء العمرة، واستجاب لاستنفره بعض الأعراب ممن ينزلون حول المدينة. وفي هلال ذي القعدة أو في أوائل هذا الشهر خرج متجها إلى مكة في عدد كبير يتراوح بين ألف وثلاثمائة وألف وخمسمائة، وأخرج معه الهدى إلى الكعبة وهو ما يضحى به عندها، وكان سبعين ناقة وبعيرا، وركب راحلته القصواء من عند بابه، وخرج معه المسلمون، وصلى الظهر بذي الحليفة: ميقات أهل المدينة، ودعا بالهدى فجلل يالقاء بُردٍ أو ثياب عليه، وأشعر منها عدة، وذلك بأن يُشق في جلدها أو تُطعن في سنامها في أحد الجانبين بمضع حتى يظهر الدم، وكانوا يجعلون في أعناق الهدى قلائد من عروة مزادة ونحوها؛ كل ذلك ليعرف أنها هدى مُهدى إلى الكعبة، وأنه لم يخرج لحرب قريش وإنما للعمرة أو زيارة الكعبة. ثم أحرم ولبس ثوب الإحرام المكوّن من رداء وإزار أبيضين خاليين من الخياطة، ويمتنع الحرم من الاتصال بالزوجة والعطور كما يمتنع عن أى شجار. وكان قد أمر المسلمين منذ خروجهم معه أن لا يلبسوا الدروع وأن لا يكون معهم سلاح سوى السيوف مُغمدة في القرب لأنهم لا يخرجون لحرب وإنما لزيارة الكعبة. وأخذ الرسول وأصحابه يقولون للناس إنما ما خرجنا إلا لأداء العمرة. وأحرم الرسول ﷺ وصلى ركعتين وركب من باب المسجد بذي الحليفة. ولما انبعثت به ناقته لبى قائلا: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شريك لك، لَبَّيْكَ إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك". وأحرم عامة المسلمين بإحرامه.

وبلغ قريشا خروج الرسول ﷺ، ففرغوا وتشاوروا وقدموا خالد بن الوليد - وقيل عكرمة بن أبي جهل - على مائتي فارس إلى كُراع الغميم (موضع قريب من مكة بين رابغ والجحفة) واستنفرُوا من أطاعهم من الأحابيش (وهم جماعة تحالفوا مع قريش في الجاهلية: أنهم يَدُّ معهم على من سواهم عند جبل يسمى حُبَشَى، فسمُوا أحابيش قريش) وصاحت معهم ثقيف، ووضعوا العيون

على الجبال، وهم عشرة رجال يوحى بعضهم إلى بعض بالصوت: فعل محمد كذا وكذا حتى ينتهى الصوت إلى قريش، وكانوا قد خرجوا إلى ضاحية بمكة، اسمها بلدح، وضربوا بها القباب والخيام ومعهم النساء والصبيان، فعسكروا بها، وأجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ومحاربتة. وكان الرسول قد أرسل يسر بن سفيان ليأتيه بخبر قريش، فأخبره بما صنعوا، واستشار رسول الله ﷺ أصحابه، فأشار أبو بكر بأن يعضوا ويقاتلوا من صلّهم عن الكعبة، وقال أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ: يا رسول الله، أرى أن نصمد لما خرجنا له، فمن صَدْنَا قَاتِلِنَاهُ. فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نخرج لقتال أحد، إنما خرجنا لأداء العمرة.

وبلغ الرسول وصحبه عسفان: منهلة بين الجحفة ومكة، وعرف أن خالد ابن الوليد دنا منهم، فقدم رسول الله ﷺ عباد بن بشر في خيله، فقام بازائه وصف أصحابه. وحانت صلاة الظهر، فأذن بلال وأقام، وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الظهر، ونزلت آية صلاة الخوف حيث: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، ومر بنا أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع، وربما كان هذا أثبت. وخشى الرسول ﷺ أن تنشب حرب بين خالد وخيله وعباد بن بشر وخيله، فنادى: هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم؟ وخرج به وبصحبه الأدلاء في طريق وعر يتلوى في شبكة من شعاب صخرية، وساتوا في الطريق، وصلى الرسول ﷺ الصبح، وساروا حتى دنا من الحديبية في طرف الحرم على بعد تسعة أميال من مكة (وقيل عنها إنها شجرة حُذباء سُميت حديبية على التصغير وسمي بها المكان وكانت شجرة طلع).

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية أخذت تفد عليه رسل وسفراء من قريش، وكان أول من أرسلوه إليه بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءِ الْخَزَاعِي فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ - وكانت خزاعة أهل مودة للرسول ﷺ - ليعرفوا مقصده. وسلم بُدَيْلُ عَلَى

بدیل بن ورقاء
أول سفیر
لقريش

الرسول، ثم قال له: جئناك من عند قومك، قد استنفرنا لك عشائر الأحابيش ومن أطاعهم، معهم العوذ المطافيل (يُكنى بذلك عن النساء والأولاد، وكانوا قد عسكروا خارج مكة كما أسلفنا). ويستمر بُدَيْل في حديثه إلى الرسول قائلاً: إنهم يقسمون بالله لا تدخلها عنوة ولا يُخْلَوْنَ بينك وبين البيت، حتى تبيد خَصْرًاؤَهم (جماعتهم). فقال الرسول ﷺ: إنما لم نأت لقتال أحد، إنما جئنا لنطوف بالبيت، فمن صدنا عنه قاتلناه. وعاد بدیل إلى قريش، واختلفوا هل يسمعون منه ما قاله الرسول أو يرفضون ذلك، وغلب من قالوا له: نسمع ما جئت به. فقال لهم ما سمعته. وتشككت قريش في صدقه لأنهم يعرفون أن خزاعة تميل إلى الرسول، فأرسلوا إلى الرسول عروة بن مسعود الثقفي أحد سادة ثقيف، وكان قد جاء مع جماعة من قومه لعون قريش، فقال له: يا محمد إني تركت قومك في عدد ضخم إذ استنفرنا لك الناس، وهم يقسمون بالله لا يُخْلَوْنَ بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين: إما أن تجتاح قومك، ولم نسمع برجل اجتاح قومه قبلك، وإما أن يخذلك من نراه معك، وما نرى معك إلا أوباشا (أخلاقا) من الناس. ولما فرغ من كلامه ردَّ عليه رسول الله ﷺ بما ردَّ به على بُدَيْل، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. ورجع عروة إلى قريش فقال: قد وفدت على كِسْرَى وهِرْقَل والنجاشي وإني - والله - ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرائهم من محمد في أصحابه، والله ما يُجِدُونَ إليه النظر ولا يرفعون عنده الصوت.. وقد رأيت قوما لا يبالون ما يُصْنَعُ بهم إذا منعوا صاحبهم وما كانوا ليسلموه أبداً، اقبلوا ما عرض فياني لكم ناصح، رجل أتى هذا البيت معظماً له مع الهدى يَنْحَرُهُ وينصرف. فقالوا له: لو غيرك تكلم بهذا، ولكن نردُّه في عامنا هذا ويرجع إلى قافل.

عروة بن
مسعود سفيان
ثان

وأرسلت قريش إلى الرسول غير شخص تثبَّت من أنه لم يجي لحرب، ومن بعثوا إليه الحُلَيْس بن علقمة سيد الأحابيش ورأسهم، فقال رسول الله ﷺ حين رآه من بعيد: هذا من قوم يعظمون الهدى فابعثوا الهدى في وجهه، فبعثوه، فلما رأى الهدى يسيل في الوادي عليه القلائد، واستقبله القوم يُلبَّون، رجع ولم يصل

إلى الرسول إعظاماً لما رأى، وقال لقريش: إني قد رأيت ما لا يحلّ صدّه، رأيت الهدى في قلائده معكوفاً (محبوساً) عن محلّه، أما والله ما على هذا حالناكم ولا عاقدناكم على أن تصدوا عن بيت الله من جاء له معظماً لحرمة ومؤدباً لحقه، والهدى معكوفاً (محبوساً) أن يبلغ محله، والذي نفسى بيده لتُخلَّن بينه وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحاييش نفرة رجل واحد. فقال له نفر من قريش: كل ما رأيت مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفّف عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به.

ولما رأى الرسول ﷺ أن قريشاً متشككة أنه جاء لحرب ولم يجئ لأداء

العمرة، صمّم أن يُرسل إليهم سفيراً من لدنه ليطمئنهم وعرض ذلك على عمر ابن الخطاب، فأشار عليه أن يُرسل عثمان بن عفان، وعمل بمشورته فأرسل إلى قريش عثمان ليخبرهم أن الرسول وأصحابه لم يأتوا لقتال أحد، وإنما جاءوا زوّاراً للبيت، ومعهم الهدى ينحرونه ويطوفون بالبيت وينصرفون. وعرض عليهم عثمان ما قاله الرسول، فأبوا أن يدخل مع أصحابه والهدى مكة ويطوفوا بالبيت، ورحب به أبان بن سعيد بن العاص وأجاره، وقالوا جميعاً: لا يدخل محمد علينا أبداً. ولما أبلغهم عثمان رسالته قالوا له: إن شئت طفت بالبيت فطُف، فقال لهم: ما كنت لأطوف بالبيت حتى يطوف به رسول الله، واحتبسته قريش عندها ثلاثة أيام، وبعثت أربعين ليصيبوا غرة من المسلمين فظفر بهم محمد بن مسلمة وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ.

الرسول يرسل
إلى قريش
عثمان سفيراً

ولما لم يرجع عثمان سريعاً من لدن قريش راجت إشاعة أنه قُتل وقُتل معه عشرة من المسلمين كان الرسول أذن لهم في رؤية أهلهم من قريش. وأرسلت قريش جماعة في إثر رجالهم الذين أسرهم محمد بن مسلمة فأسر المسلمون منهم اثني عشر فارساً. وتأثر الرسول ﷺ لما تكرر على سمعه من قتل عثمان، فدعا إلى البيعة في حرب قريش ثأراً لعثمان، فبايعه المسلمون وهو قائم تحت شجرة وارفة الظلال، ونزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُسَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، ولذلك سُميت بيعة الرضوان. وأخذ المسلمون في ذهابهم إلى

بيعة الرضوان

الحج يصلُّون عند هذه الشجرة، فأمر عمر في خلافته بقطعها خشية أن تصبح مثل ذات أنواط (شجرة كان يقدسها الجاهليون). وعاد عثمان والمسلمون الذين كانوا يزورون أهلهم وأطلق الرسول سراح من أسرههم المسلمون من قريش.

المفاوضات
بين الرسول
وقريش

ولما ثبت لقريش أن الرسول ﷺ إنما أتى لأداء العمرة أرسلت مع عثمان إليه سهيل بن عمرو ليفاوضه في تأجيل أدائها إلى العام القادم حتى لا يظن العرب أنه دخل مكة عنوة وقهرا لقريش فتسقط مكانتها بينهم، وكان مع سهيل حُوَيْطَب بن عبد العزى ومِكرز بن حفص. واستقبلهم الرسول ﷺ وأخذ سهيل يعرض عليه أن يعود إلى أداء العمرة في العام القادم ويقيم بمكة ثلاثة أيام، وكان الرسول جالسا متريعا وسهيل باركا على ركبته رافعا صوته والمسلمون جلوس حول الرسول، وأطال سهيل والرسول الكلام، وقبل الرسول عرض قريش. حينئذ وثب عمر وقال: يا رسول الله ألسنا بالمسلمين؟ فقال الرسول ﷺ: بلى. فقال عمر: فعلاَمَ نعطى الدِّيةَ في ديننا؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيِّعني. وذهب عمر إلى أبي بكر فسأله ألسنا مسلمين؟ قال أبو بكر: بلى. قال عمر: فلمَ نعطى الدِّيةَ في ديننا؟ فأخذ أبو بكر يراجع، وقال له أبو عبيدة: اتهم رأيك ولا تخالف رسول الله. فسكن عمر، وسكن من كانوا على رأيه.

وبينما الناس يتحدثون عن الصلح وقبل أن تكتب المعاهدة أقبل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو وقد أفلت من سجن أبيه له لإسلامه، وكان يرُسُف في قيده، وفرح به المسلمون، ورآه أبوه سهيل فقام إليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلايبيه، فصاح أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أُرِدُّ إلى المشركين يفتنونى في ديني؟ وقال سهيل للرسول: رُدَّه على. فقال له الرسول: إنا لم نكتب المعاهدة بعد. فقال سهيل: والله لا أكتبك على شئ حتى تردَّه إلى. وتدخَّل حُوَيْطَب ومِكرز فأجارا أبا جندل فكفَّ عنه أبوه، وقال له الرسول: اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك فرجًا ومخرجًا.

وحضرت الدواة والصحيفة، وطلب سهيل أن يكتب المعاهدة أو كتاب الصلح على أو عثمان بن عفان، فأمر الرسول ﷺ عليًا بالكتابة، وقال له: أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف الرحمن، اكتب كما نكتب: باسمك اللهم. وقال الرسول ﷺ لعلي: اكتب باسمك اللهم، هذا ما اصطلاح عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك أفترغب عن اسمك واسم أبيك: محمد بن عبد الله؟ فقال الرسول ﷺ: أنا محمد بن عبد الله فاكتب يا علي. فكتب:

معاهدة
الصلح

"باسمك اللهم هذا ما اصطلاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو اصطلاحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض. على أنه لا إسلال (أى غارة بسلّ السيوف) ولا إغلال (خيانة) وأن بيننا عية مكفوفة (أى عهدا معقودا على الوفاء نقيًا من الغدر والخداع). وأنه من أحب أن يدخل فى عهد محمد وعقده فعل، وأنه من أحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدها فعل. وأنه من أتى محمدا منهم بغير إذن وليه رده محمد إليه، وأنه من أتى قريشا من أصحاب محمد لا يردوه. وأن محمدا يرجع عنا عامه هذا بأصحابه، ويدخل علينا من قابل فى أصحابه، فيقيم بها ثلاثا، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر: السيوف فى القرب".

ولما فرغ الرسول من المعاهدة أو كتاب الصلح وانطلق سهيل بن عمرو وصاحبه، قال الرسول ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا الهدى وأخلقوا رءوسكم وجلّوا (أى اخرجوا من الإحرام) فلم يجبه أحد إلى ذلك، فكررّها ثلاث مرات فلم يفعلوا. ودخل على زوجته أم سلمة مغضبا، وسألته عن سبب غضبه فقال لها: إني قلت للناس انحروا وأخلقوا وجلّوا مرارا، فلم يجبنى أحد من الناس إلى ذلك، فأشارت عليه أن ينطلق إلى هديه فينحره فإنهم سيقتدون به. فقصد إلى هديه، فنحره رافعا صوته: باسم الله، والله أكبر، فتواثب المسلمون ينحرون هديهم. ولما رجع من نحر الهدى حلق رأسه وأذن بتقصيره.

أمر الرسول
بالنحر
والإحلال

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأتاه أبو بصير الثقفي مسلماً فاراً من قريش، فأرسلت إلى الرسول ليردّه عليها كما تقضى بذلك المعاهدة فردّه إليها مع رجلين بعثتهما في طلبه. وفي أوائل الطريق إلى مكة طلب أبو بصير من أحدهما سيفه ليراه فأعطاه له فقتله به وفرّ الثاني. وبينما هو يشكوه إلى الرسول ﷺ وصل أبو بصير إلى الرسول، وعرف أنه سيرده إلى قريش، فخرج مولياً وجهه إلى ساحل البحر ليقطع طريق الشام على قريش، وانضم إليه بعض المسلمين الفارين عن قريش منهم أبو جندل بن سهيل، فجعلوا لا يتركون لقريش عيراً ولا تجارة إلا أغاروا عليها، فكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ أن يضمهم إليه في المدينة فقد آذوهم. وبذلك أسقطوا شرط أن من يذهب إليه يجب رده إليهم.

عدم رد
المهاجرات

وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قد أسلمت بمكة، ويقال كانت بكراً ويقال كانت زوجة لعمر بن العاص، وكانت تخرج إلى البادية لزيارة بعض أقاربها، فعزمت على المسير مهاجرة. وخرجت كأنها تريد البادية على عادتها، فوجدت رجلاً من خزاعة، فأعلمته بإسلامها، فأركبها بعيره حتى قدم بها المدينة بعد ثمانية أيام، فدخلت على أم سلمة زوجة الرسول، وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وتخوّفت أن يردّها الرسول، ودخل الرسول فأعلمته بأمرها فرحّب بها. وهاجر مثلها أخريات جاء أزواجهن في طلبهن حسب شروط الصلح كما يقولون، فقال لهم إنما الشروط في الرجال لا في النساء، وقد قال الله في سورة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۚ﴾؛ واقتتعت قريش بذلك. ونزلت في عمرة الحديبية سورة الفتح، وما كان في الإسلام فتح أعظم منها، فقد كانت الحروب حجزت بين الناس فاتاحت لهم هدنة اعتنق فيها الإسلام كثيرون من العرب وبعض صناديد قريش - كما سنرى فيما بعد - وفشا الإسلام وانتشرت الدعوة له في جميع أنحاء الجزيرة العربية، إذ اعترفت قريش بأن

الإسلام من ديانات العرب وأن من حق المسلمين زيارة البيت والحج إليه. ومما يدل بوضوح على ازدياد انتشار الإسلام أن الرسول جاء في الحديبية بألف وأربعمائة مسلم وبعد ذلك بعامين جاء في فتح مكة بعشرة آلاف مسلم. وبذلك أثبتت الأيام أن الرسول بجانب كونه قائدا بارعا وسياسيا حكيما محنك، إذ كسب بصلح الحديبية للإسلام كسبا عظيما حتى ليقول الله في سورة الفتح: إنه فتح وانتصار مبین.

الفصل السابع عشر

من غزوة خيبر إلى دعوة ملوك الدول الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام

١

غزوة خيبر

كان كثيرون من بنى النضير حين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة نزلوا خيبر على مسافة نحو مائة ميل من المدينة في الشمال الشرقي منها على طريق القوافل المصعدة إلى الشام والآية منها، وهى - مثل المدينة - واحة كبيرة تحفُّ بها صخور بركانية وتتخللها سبع قلاع صخرية، وسهولها ووديانها خصبة، تموج بالبساتين وحدائق النخيل والزروع، نزلها اليهود من قديم مثل المدينة حين فرّوا بضغط الرومان إلى الحجاز. وأخذ من نزلها من بنى النضير يوغرون بها صدور أبناء عموماتهم حمّة وموجدة على الرسول، ويملئون قلوبهم حقداً وضغينة عليه، وكانوا ذوى بأس وجلد، واشتهرت خيبر بأنها منيعة لحصونها الكثيرة، وأخذت تتقدّ حمّة متأججة ضد الرسول، كما أخذ سكانها يتحدّون الرسول، إذ كانوا يخرجون كل يوم: عشرة آلاف مقاتل صفوفاء، ثم يصيحون: محمد يغزونا هيهات هيهات.

وعلى هذا النحو كانوا يعدّون لمعركة أو معارك بينهم وبين الرسول، ولم يكتفوا بذلك فقد كان بينهم وبين جيرانهم من قبائل غطفان الكثيرة حلف،

فأخذوا يؤلبونهم على الرسول ويدفعونهم إلى حربه معهم واعددين لهم بما يشاءون من ثمار خيبر. وكان أسير بن رزام زعيمهم لا يزال يجتمع ببعض قبيلة غطفان ليعقد الاتفاقات بينهم وبين اليهود على حرب الرسول والمسلمين. واستطاع بعث عبد الله بن رواحة - كما مر بنا - أن يقضى عليه في شهر شوال من السنة السادسة للهجرة، وخلفه سلام بن أبى الحقيق فأخذ يسير سيرته في تأليب غطفان على الرسول والإعداد لحربه.

يهود خيبر
يعادون لحرب
الرسول
ويؤلبون عليه
غطفان

وكان الله قد وعد أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية بسورة الفتح مغام كثيرة، وذلك قوله جلّ شأله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا. وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، ووقع في روع الرسول والمسلمين أن الفتح الذى وعد الله به هو فتح خيبر التى تعدّ العدة لحرب الرسول، وليست المغام الكثيرة التى يأخذها المسلمون إلا مغامها، وسرى عما قليل أن مغامها كانت كثيرة كثرة مفرطة.

وبعد عودة الرسول من الحديبية بنحو شهرين أمر أصحابه بالتهيؤ للغزو وشاع أنهم ذاهبون لغزو خيبر، وجاء الرسول المخلفون عنه فى عمرة الحديبية ليخرجوا معه رجاء أن يكون لهم حظ فى الغنيمة، فقال لهم: تخرجون معى للجهاد، أما للغنيمة فلا، لأن الله جعلها لأصحاب بيعة الرضوان. وكانت خيبر ثلاث مناطق، وفى كل منطقة عدة حصون منيعة، واسم المنطقة الأولى منطقة النطاة، وكان بها أربعة حصون: النطاة وناعم والصعب والزبير، وجعلوا أشداهم فى هذه الحصون، والمنطقة الثانية منطقة الشق، وبها حصنان: أبى البرى، وجعلوا فى هذه المنطقة النساء والدرارى، والمنطقة الثالثة منطقة الكتيبة وبها ثلاثة حصون: القموص أو نزار وكان لأبى الحقيق وولده، والوطيح والسّلام. وكل تلك الحصون كانت على رعوس جبال، واشتهرت خيبر بأن جموعها من أقوى جموع اليهود وأقواها بأسا وأكثرها سلاحا وأوفرها مالا.

خيبر ثلاث
مناطق على
رعوس جبال

وخرج الرسول إلى خيبر في الحرم من السنة السابعة للهجرة في ألف وأربعمائة من المشاة ومائتي فارس، وكان خروجه إليها في شهر الحرم وقيل بل في صفر أو في هلال ربيع الأول، واختلف رواية السيرة النبوية هل كان خروج الرسول ﷺ إليها في سنة ست أو في سنة سبع، فمن جعلها في سنة ست جعل السنة الهجرية تبدأ في الثاني عشر من ربيع الأول: مَقْدِم رسول الله ﷺ إلى المدينة، وَمَنْ جعلها في سنة سبع جعل شهر الحرم بدء السنة الهجرية، وبذلك أخذ الجمهور.

وأخذ الرسول ﷺ معه في هذه الغزوة من زوجاته أم سَلَمَة، وسمح لعشرين امرأة أن يصحبن الجيش لا لتحميسه في الحرب كما صنعت هند بنت عتبة وصواحبها في غزوتي بدر وأُحُد، وإنما لمداداة الجرحى ورعايتهم. وهو تقليد وضعه الرسول لأول مرة في حروب الجيوش الإسلامية، وربما أيضا في الحروب العالمية.

وكان المعتاد أن تقطع المسافة بين المدينة وخيبر في خمسة أيام، غير أن الرسول ﷺ أسرع في السير بجيشه، فوصل إلى خيبر قبل فجر اليوم الرابع، ولما أشرف عليها قال لجنوده قفوا وقلوا معي: اللهم رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين السبع وما أقلت (حملت) ورب الشياطين ومن أضلت، ورب الرياح وما ذرت (أطارت) إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. ثم قال: ادخلوا وجاهدوا على بركة الله.

واختار الرسول ﷺ أن ينزل بجيشه في وادي الرجيع أمام منطقة النطاة حتى يقطع الطريق على غطفان إذا فكرت في الانضمام إلى أهل خيبر ضد الرسول وجيشه، وكان قد عرف أن كنانة بن أبي الحقيق خرج إليها في أربعة عشر يهوديا، ودعاها إلى نصرهم ضد الرسول ﷺ ولها نصف ثمر خيبر سنة، وعاهدته على ذلك. وبمجرد أن علم سيدها عُيَيْنَة بن حصن بأن الرسول اتجه إليها بجيش أقبل في أربعة آلاف من غطفان يريد أن ينصر اليهود، وفي طريقهم

نزل الرسول
أمام منطقة
النطاة

سمعوا صياحا، فظنوا أن المسلمين خالفوهم إلى ديارهم، ففروا فرعين في كل وجه، وكفى الله الرسول شرهم.

ولما أهل الصباح وأخذت الشمس تبزغ في الأفق وترسل أشعتها فتح اليهود حصونهم، وأخذ العمال يخرجون منها إلى أعمالهم حاملين المساحي (الفتوس) والمكاتل (الزنايل) ورأوا خوذات المسلمين ودروعهم وسيوفهم تعكس أشعة الشروق بهتوا، وأخذوا يصيحون: محمد والخميس أي الجيش، وتغلغل صياحهم سريعا في حصون خيبر ووديانها من حصن إلى حصن ومن حقل إلى حقل ومن حديقة إلى حديقة، وعاد العمال سريعا إلى الحصون وأغلقوها، والرسول ﷺ يقول: الله أكبرا خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

وكان أول حصن قاتل أهله حصن النطاة، وكان قد فرّق الرايات لأول مرة، إذ كان يفرق قبلها الألوية، وكانت رايته سوداء وتسمى العقاب، ودفع رايته إلى علي بن أبي طالب، وثانية إلى الحباب بن المنذر، وثالثة إلى سعد بن عباد، وكان يغدو بالمسلمين للقتال على راياتهم.

واشتد القتال على النطاة وظل عشرة أيام والرسول يرجع بجيشه في المساء إلى الرجيع ومن جرح يُحمل إلى العسكر لتداويه النساء، وجرح من المسلمين على النطاة خمسون، وظل القتال مشتداً أمام هذا الحصن، إلى أن نادى يهودى من أهله ليلاً وقال: أنا آمن وأبلغكم، وأدخلوه إلى الرسول ﷺ فدله على ثغرة أو عورة في الحصن، فدخل المسلمون منها الحصن واستولوا عليه ووجدوا فيه منجنيقا، فأخذوه، ونفعهم نفعا كبيرا، إذ لم يكونوا يعرفون سوى حرب الغارات، فنفعهم في ضرب الحصون التالية بإحداث ثغرات فيها كانوا يستولون منها على الحصون.

الاستيلاء على
حصون منطقة
النطاة

وتحوّل المسلمون بعد استيلائهم على حصن النطاة إلى حصن ناعم وألحوا عليه برمي النبل، واليهود يقاتلون، وبرز منهم الحارث أبو زينب أخو مرحب،

واندفع إليه على بن أبى طالب، فقتله، وبرز للقتال أخوه مرحب يريد أن يأخذ بثأره - وكان يُعدُّ بطل اليهود وأهم فرسانهم - وبرز له على بن أبى طالب، وضرب عليًّا بالسيف فاتقاه بالترس فقطعه ولصق به فضربه على سيفه ضربة شديدة فلقت رأسه، ويقال بل إن محمد بن مسلمة هو الذى برز له فتجاولا ساعة، وضرب ابن مسلمة رجله ففقطعهما وسقط على الأرض فمرَّ به على فضرب عنقه وأخذ سلبه، فأعطاه الرسول ﷺ محمد بن مسلمة، وبرز بعد مرحب نفر من شجعان اليهود، فقتلهم على ومحمد بن مسلمة والزبير. واستولى المسلمون على الحصن.

ولم يكن من عادة العرب فى حروبهم أن يحملوا معهم طعاما كثيرا لأنها لم تكن تطول أياما، وطالت بالمسلمين حرب اليهود أمام حصنى النطاقة وناعم، فشكا المسلمون للرسول نقص مؤناتهم، فدعا الله لهم أن يرزقهم حصنا به مؤنسة كثيرة، واستجاب الله لدعائه، إذ تحول المسلمون إلى حصن الصعب وكانوا قد ظلوا يحاصرونه يومين، وفى اليوم الثالث تولى قتال أهله الحُباب بن المنذر، ونادى الرسول له المسلمون وحضَّهم على الجهاد، فقاتلوا أشد قتال، فانهزم اليهود وأغلَقوا الحصن عليهم، ثم خرجوا منه وكرَّوا، فانهزموا ثانية، واقتحم المسلمون الحصن يقتلون ويأسرون إلى أن استولوا عليه، ووجدوا فيه ما مؤنهم طوال حربهم فى خيبر من التمر والشعير والعسل والسمن والزيت سوى الكثير من علف الدواب، ووجدوا فيه متاعا كثيرا، من ذلك عشرون عِكْما (بقعة) من ثياب اليمن محزومة لم تُفتح، سوى ما كان فيه من خمسمائة قطيفة، وأخذوا ما كان فيه من الغنم والبقر. ودلَّهم يهودى على بيت ملى بآلات الحرب، وكان فيه منجنيق ودبابات (مركبات وآلات لهدم الحصون) وغلَّة حربية كثيرة، فاستولوا عليها وانتفعوا بها انتفاعا كبيرا فى حرب اليهود. وتحول المسلمون إلى حصن الزبير، وكان فوق قمة جبل عالية فرحف إليه الرسول ﷺ وحاصره ثلاثة أيام متوالية، وتم فتحه، وكان آخر حصون منطقة النطاقة.

وفرّ اليهود إلى منطقة الشَّقّ، وحاصر المسلمون فيها حصن أبيّ على جبل اسمه "شمران" وقاتل المسلمون اليهود فيه قتالا شديدا بقيادة أبي دُجانة الأنصاري، حتى فتحوه. وفرّ اليهود إلى حصن البريء، وأخذوا يرمون المسلمين بالحجارة والنبال، وأمر الرسول ﷺ أن ينصب المنجنيق لفتحها، ولم يلبثوا أن استسلموا؛ وبذلك سقطت منطقة الشَّقّ كما سقطت منطقة النطا، وكان بها - كما أسلفنا - النساء والذراري.

الاستيلاء على
حصون منطقة
الشَّقّ

وسبى المسلمون من منطقة الشَّقّ نساء يهوديات كثيرات، وأمر الرسول أن ينادى في هذا الجيش الزاحف بتحريم المتعة باليهوديات أى الزواج منهن بدون عقد بمجرد الرضا والقبول لأجل أو زمن يُسمى، وهى مِنّة عظيمة للرسول على النساء اليهوديات، كما كان حرّمه من قبل على المسلمات، وأصبح زواج المتعة محرّما على اليهوديات ولا يتم الزواج إلا بعقد. ولعل ذلك ما جعل السيّات اليهوديات يُكبرن الرسول ﷺ وأصبح كثيرات منهن على استعداد كامل لاعتناق الإسلام والزواج من الجنود المغيرين، وحرّم الرسول أن يتزوجوا الخوامل إلا بعد وضعهن.

تحريم زواج
المتعة
باليهوديات
مثل تحريمه على
المسلمات

وتقدم الجيش إلى منطقة الكتيبة وحاصر حصن القموص أول حصونها، وكان - كما أسلفنا - لأبى الحُقَيْق وذريته، وقاتل من بالحصن قتالا شديدا ونصب الرسول عليه المجانيق، فاضطرّ من به إلى التسليم ودخله المسلمون. وتقدم كنانة بن أبى الحُقَيْق زعيمه إلى الرسول ﷺ يطلب الصلح على أهل الكتيبة، فأمن الرجال والذرية، ودفعوا إليه الأموال من الذهب والفضة والسلاح والثياب، وسأل الرسول ﷺ كنانة عن الأموال وقال له: برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كانت عندكم أموال. فقال كنانة: نعم. وأشهد عليه نفرا من المسلمين ومن اليهود. ولم يلبث سَعِيّة بن سلام بن أبى الحُقَيْق أن دلّ الرسول على خربة، فبعث الزبير بن العوام فى نفر مع سعية، وحفروا، فإذا كنز فى جلد فيه حُلِيّ، فأتى به الزبير الرسول عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يعذب كنانة حتى يستخرج كل ما عنده، وجاءه بمال كثير، ودفعه إلى محمد بن مسلمة فقتله.

الاستيلاء على
منطقة الكتيبة

أموال وذهب
كثير بحصن
القموص

ووجد في جلد لبعير أسورة من الذهب ودماغ من الذهب، وهى أساور كبيرة تلبس في العضد، وخلائل وأقراط من الذهب وعقودَ جوهر وزمرد وخواتم ذهبية.

وكانت صفية بنت حُجَيٍّ بن أخطب سيد بنى النضير فى هذا الحصن مع زوجها كنانة بن أبى الحقيق، فدخلت على الرسول بعد قتل زوجها مع ابنة عم لها مظهرة الود والإعجاب، فألقى برده عليها وغرف أنها أصبحت فى كنفه، وأنه اصطفاها لنفسه، وأهدى ابنة عمها إلى صديق كان معه هو دحية بن خليفة الكلبي، وأعطى صفية لأم سليم حتى اعتلّت وأسلمت وتزوجها.

وبعد حصن القموص حاصر جيش المسلمين حصنى الوطيح والسلام فى الكتيبة وأيقنوا بالهزيمة، فسأل أهلهم رسول الله ﷺ أن يحقق دماء مقاتليهم ويترك لهم النساء والذراري ويخرجون من خير وأرضها، ويخلون بين رسول الله ﷺ وما كان لهم من أرض ومال وأنعام وخيل وسلاح. وبذلك تم سقوط خيبر بجميع حصونها فى أيدي المسلمين وغنموا فيها غنائم كثيرة.

وأهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم إلى رسول الله ﷺ عَنُزاً ذبحتها وشوتها وسَمَّتْها، فأمر بها، فوُضعت بين يديه، وتقدم هو وبعض أصحابه، وتناول الذراع، وكان أحب اللحم إليه، فالتهم منه قطعة، وقال: كُفُّوا أيديكم فإنها مسمومة. وكان بشر بن البراء قد طعم منها، ولم يلبث أن تغيّر لونه ثم مات. وطلب رسول الله ﷺ زينب وقال لها: سَمِّتِ الشاة؟ قالت: نعم. فقال لها: وما حملك على ذلك؟ قالت: قتلت أبى وعمى وزوجى وولت من قومي ما نلت، فقلت: إن كان نبياً فسيعرف ذلك وإن كان ملكاً استرحنا منه. واختلفت الآثار فى قتلها، والصحيح أنه دفعها إلى أولياء بشر بن البراء، فقتلوا به قصاصاً، وألّم الرسول من السم، غير أنه لم يصبه بإعياء، وظل الألف يعاوده من حين إلى حين إذ قال فى مرض الموت: ما زالت أكلة خيبر يصيبني منها وجع إلى اليوم.

مغانم خيبر - فدك - وادى القرى - تيماء أ - مغانم خيبر

اضطرب مؤرخو السيرة هل فتحت حصون خيبر جميعها قهرا بحرب أو فُتح بعضها قهرا بحرب وبعضها صلحا؟ والشبهة جاءت من أن حصنى الوطيح والسلام أسلمهما أهلهما لحقن دمائهم، وهم لم يسلموهما إلا بعد الحصار والقتال لما سبقهما من الحصون، وكانوا فيها يدافعون عن خيبر وسقطت جميعها، فلم يكن أمامهم إلا أن يحقنوا دماءهم ويسلموا الحصنين الباقيين، وبذلك سلموهما قهرا، بحيث أصبحت خيبر جميعها مفتوحة عنوة، فكان حكم أرض هذين الحصنين كحكم سائر أرض خيبر كلها غنيمة مغلوبا عليها.

وجُعِلَت النطاة والشق للمسلمين جميعا ووُزِعَتْ على الخاريين وكانوا ألفا وأربعمائة من المشاة ومائتى فارس، فجعل للماشى سهما ولل فارس سهمين. أما الكتيبة فجُعِلَت لله أى لبيت مال المسلمين لينفق منها الرسول على العدة لما سيحدث من غزوات وأعمال تستلزم النفقة كعمرة القضاء، وعلى من يرى الرسول النفقة عليهم من أهله ومن المساكين والاحتاجين؛ ويقول مؤرخو السيرة إنه أعطى أهله ورجالا من بنى عبد المطلب ونساء وأعطى اليتيم والسائل. وكانت خيبر لأهل الحديبية من شهداء ومن غاب منهم، كما قال الله فى سورة الفتح: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ﴾ أى يا أهل الحديبية ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى خيبر، وتخلّف عنها منهم رجال ومات رجلان، فأسهم الرسول ﷺ للمتخلفين منهم ولمن مات، وأسهم لمن استشهدوا فيها، ويقال إنه أسهم لعشرة من يهود المدينة غزوها معه. وأعطى مالا لمالك كانوا معه ولم يسهم لهم، وبالمثل أعطى مالا لمن رافق الجيش من النساء العشرين لمداداة الجرحى ولم يسهم لهن.

تقسيم مغانم
خيبر

وقسّم الرسول جميع الأرض في النطاقة والشق على المحاربين من المسلمين بجميع ما فيها من النخل والزروع والخيول والأنعام، وصارت الكتيبة بجميع أرضها وزروعها ونخلها لمطالب الدولة ولمن يرى الرسول إشراكهم في غنيمة خيبر من غير أهل الحديبية. وبقي من أهل خيبر من لم يؤثروا الجلاء والمسير عنها وكانوا كثيرين، وقالوا للرسول ﷺ: دعونا نعمل في الأرض ولنا النصف في حصيد الزرع ولكم النصف، وصالحهم الرسول على ذلك.

وكانت الكتيبة لله ولرسوله - كما أسلفنا - وكانت الخمس من خيبر، وذكروا ما كان يُجنى منها وما وزّعه منها الرسول، فقد كانت تنتج ثمانية آلاف حمل بعير تمرا للرسول نصفها، وثلاثة آلاف صاع من الشعير (والصاع مكّيال يسع نحو ثمانية أرتال) وللرسول النصف. وأطعم الرسول من الكتيبة كل زوجة من نسائه ثمانين حمل بعير تمرا وعشرين حمل بعير شعيرا، وربما كان في ذلك مبالغة، ويمضى المقرئ فيقول إنه أعطى فاطمة وعليّا ثلاثمائة حمل بعير شعيرا وتمرا ولأسامة بن زيد مائة وخمسين حمل بعير شعيرا وتمرا، وأطعم آخرين، وأعطى ذوى القربى من بنى هاشم وبنى المطلب. وإغنا ذكرنا ذلك لندل على عظم الغنيمة من خيبر.

وكان الرسول ﷺ كتب إلى النجاشي يطلب إليه ردّ المسلمين الذين أقاموا بالحبشة ومعهم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وكان زوجها عبيد الله بن جحش تنصّر في الحبشة ومات بها فارس لهم النجاشي إليه في سفينتين، ويقال كانوا ثمانية عشر، وقدموا المدينة فوجدوا رسول الله ﷺ بخيبر، فأتوه بها، وكان يتقدمهم جعفر ابن عمه أبى طالب، فقال عليه السلام: ما أدري بأيهما أسرّ؟ أبقدم جعفر أم بفتح خيبر؟ وعانقه وقبله بين عينيه، وأدخل المسلمون جعفرا ومن قدم معه في سهامهم، أو لعل الرسول ﷺ قسّم لهم في منطقة الكتيبة. وقدم الدوسيون على رسول الله عليه السلام ونفر من الأشعرين فيهم أبو موسى الأشعري، فكلم الرسول ﷺ فيهم المسلمين أن يشاركوهم في الغنيمة، فقبلوا، وأكبر الظن أنه أعطاهم من منطقة الكتيبة.

منطقة النطاقة
والشق
للمحاربين

منطقة الكتيبة:
الخمس
للرسول

قدوم بقية
المهاجرين إلى
الحبشة

وجعل المسلمون ينزلون دوابهم في حَرْتِ اليهود ترعى كما جعلوا يأخذون من بقلهم للطعام، وشكى اليهود ذلك إلى الرسول، فأمر عبد الرحمن بن عوف أن ينادى في المسلمين: الصلاة جامعة، وتجمعوا، فقام الرسول فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن اليهود شكوا إلى أنكم وقعتم (نزلتم) في حظائرهم (أراضيهم التي أحاطوها بما يحظرها ويحميها)، وقد أمَّنَّاهم على دمائهم وأموالهم التي في أيديهم وفي أراضيهم وعاملناهم (عاهدناهم على أن يقوموا عليها ويتعهدوها) وأنه لا تحلّ أموال المعاهدين إلا بحقّها". فوقف المسلمون نزول دوابهم في أراضي اليهود، كما وقفوا أخذ البقول منها، وهي يدٌ على أصحاب الزروع منهم تضاف إلى يده السابقة في منع زواج المتعة باليهوديات.

تحريم رعى
دواب المسلمين
في أرض
اليهود وأخذ
البقول إلا
بحقها

وكان بين المغنم التي غنمها الرسول من خير صحائف من السوراة، وجاء اليهود يطلبونها، فأمر الرسول بالمحافظة عليها وردّها إليهم وهي يد ثلاثة كريمة للرسول على اليهود، فلم يمسّها المسلمون بسوء. ولا ريب في أن هذا صنيع طيب وخاصة إذا تذكرنا ما فعله الرومان بصحف اليهود المقدسة حين طردوهم من القدس في سنتي ٧٠ و ١٣٥ للميلاد فإنهم داسوها بأرجلهم وأحرقوها. وبنى الرسول بخير مسجدا.

رد صحف من
التوراة إلى
اليهود

ب - فَدَكْ

بعد أن تم فتح خير بعث الرسول إلى «فدك» في الشمال الشرقي لخير يدعو أهلها اليهود إلى الإسلام فبعثوا إليه وفدا صالحه على أن يُخلّوا بينه وبين الأموال، وأن يظلوا فيها ويزرعوها، وللرسول ﷺ نصف إنتاجها من الأرض. وقبل الرسول وبذلك صارت فدك خالصة للرسول لأنها سلمت دون أي قتال.

ج - وادى القُرى

انصرف الرسول من خير إلى وادى القري وسكانها من اليهود شمال خير، وكانت صفية بنت حُيَيّ بن أخطب قد اعتدّت وأسلمت، فاعتقها وأعرس

زواج الرسول
بصفية

(تزوج) بها في طريقه إلى وادي القرى واتخذ لها وليمة دعا إليها أصحابه، وظلت على الوفاء له وللإسلام إلى أن توفيت في زمن معاوية وذُفنت بالقيع. وحاصر الرسول ﷺ وادي القرى وأبوا إلا القتال ورموا المسلمين بالنبل وقتل أحدهم فعبا الرسول أصحابه وصفهم للقتال، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ودعوا إلى البراز، فقتل منهم أحد عشر رجلا، وباتوا حتى إذا أصبحوا استسلموا. وبذلك فتحت قهرا وغنم الرسول ﷺ ما فيها وقسمه، وصالحوه على أن يدفع إليهم الأرض فيقوموا عليها بالزراعة وتلقيح النخل، ولهم النصف من إنتاجها.

د - تيماء

هي آخر حصون اليهود بالحجاز في الشمال الشرقي منه بين خيبر ودومة الجندل، وقصة لجوء امرئ القيس إلى سيدها السموأل ليعينه ضد بني أسد مشهورة، وأرسل أهلها من اليهود إلى الرسول ﷺ يطلبون الصلح فصالحهم على أداء الجزية المقررة في الإسلام على أهل الذمة.

وهذا الانتصار الساحق على اليهود شمالي المدينة في خيبر وأخواتها أحدث دويًا هائلا في الجزيرة العربية وفي مكة، وأخذ يتبين أن الإسلام دين لا يمكن مقاومته حربيا، وآمن المسلمون بأن مكة والعرب جميعا لا بد أن يدخلوا في دين الله.

ولما عاد الرسول ﷺ بجيشه إلى المدينة اتخذ لأول مرة المنبر، وكان له درجتان ومستراح، فكان يخطف عليه الرسول منذ هذا التاريخ، وأصبح كل مسجد يئنه المسلمون فيما بعد بمشارك الأرض الإسلامية ومغاربها يبنى فيه منبر يقام فيه ليعظ إمامه من فوقه المصلين كل يوم جمعة.

اتخاذ المنبر

وحين عاد الرسول ﷺ وجد أم حبيبة بنت أبي سفيان أرملة ابن عمته عبيد الله بن جحش الذي تنصّر في الحبشة ومات بها، وظلت تنتظر، إذ كان قد بعث إلى النجاشي ليؤوجه بها، فؤوجه بها وقدّم لها صداقها: أربعمئة دينار من عنده،

زواج الرسول
بأم حبيبة

وجاءت إلى المدينة في السفينتين اللتين أعدهما النجاشي لحمل من كان بقي عنده من أصحاب الرسول. وسواء زوّجها له النجاشي أو تزوجها حين لقيها في المدينة فإنه رحّب بها، وضمّها إلى زوجاته، وطبّعى أن يهتم بها الرسول لأنها بنت كبير قريش وزعيمها. ولم يحدث التحامها بزوجات الرسول شيئا من المضض بينهما، إذ كانت قرشية مثل أكثرهن. أما صفية بنت حُيَيّ بن أخطب فلم تكن قرشية ولا عربية، ولذلك أثار انضمامها إليهن شيئا من الغضب والغيرة، فكان يعرضن لها بأصلها اليهودي وقتل أبيها وزوجها عدوى الإسلام، وكانت ترد عليهن بقولها إن أبي هرون وعمى موسى وزوجى محمد. ولم تلبث الزوجة ضدها أن ثلاثت، وربطت الصداقة بينها وبين عائشة وحفصة برباط وثيق.

٣

كتب الرسول إلى أمراء العرب

يذكر مؤرخو السيرة النبوية كتباً متعددة من الرسول ﷺ إلى أمراء العرب في أطراف الجزيرة العربية، وتضطرب في معرفة تاريخها هل كانت في السنة السادسة بعد الحديبية أو في السنة السابعة بعد فتح خيبر أو ربما في السنة الثامنة أو بعد الثامنة. وبدأ بالشمال، فقد أرسل شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر أمير الغساسنة في الأردن يدعوهم وقومه إلى الدخول في الإسلام قائلا: سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له. وكان الغساسنة نصارى ويديون بالولاء لإمبراطور بيزنطة. وأعلن الحارث شجاع بن وهب حامل الكتاب إليه أنه سائر إلى الرسول بجيش ومحاربه، سفها منه وحقا. وكتب الرسول ﷺ عهودا لأهل أيلة وصاحبها يوحنا بن رؤبة وكانوا نصارى، وبالمثل لأهل مَقْنَا وأذرح ويُن لهم ما يجب عليهم من أداء الجزية سنويا.

كتاب إلى
الغساسنة

الأمر بعدك حتى أسلم، وإلا قصدتك وحاربتك". وحين سمع الرسول ﷺ ذلك قال: اللهم اكفنيه. فمات بعد قليل. وأسلمت اليمامة مع أميرها ثمامة بن أثال، وارتدت مع متبئها مسلمة الكذاب، وقتله خالد بن الوليد، وعاد أهل اليمامة سريعا إلى الإسلام.

وتتحول إلى شرق الجزيرة العربية، وبدأ عُمان في آخر الجنوب الشرقي للجزيرة العربية، وكانت بها قبيلة الأزد، وكان يحكمها جيفر بن الجُنْدِي، ويساعده أخوه عبد، وكانا يستشعران مع قبيلتهما الولاء للملوك الفرس. وبعث الرسول إليهما بعد فتح مكة بكتاب مع عمرو بن العاص يقول فيه: "السلام على من أتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوكما بدعوة الإسلام، أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأُنذِر مَنْ كَانَ حَيًّا وَيُحَقِّقُ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ. وَإِنكُمَا إِن أَقْرَبْتُمَا بِالْإِسْلَامِ وَلَيْتَكُمَا، وَإِن أُيْتِمَا أَنْ تَقْرَأَ بِالْإِسْلَامِ فَإِن مَلِكُكُمَا زَائِلٌ وَخَيْلِي تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمَا، وَتُظْهِرُ نُبُوتِي عَلَى مَلِكُكُمَا".

إسلام حاكمي
عُمان

واستجاب جيفر وأخوه إلى الإسلام وصدقا بالرسول، وأعانا عمرا على من خالفه، وخليا بينه وبين الزكاة، فردّها على الفقراء هناك. والكتاب يضيف بوضوح أنه إن أقرّ الأميران بالإسلام أقرّ الرسول ولايتهما على عمان، وهي إضافة لا نجدّها في الرسائل الأخرى للرسول مما يدل على أن الجزيرة العربية أصبحت جميعها في قبضته. ويذكر من أهل عمان الأسديون سكان المشقر من مدنها وقد دخلوا فيما دخلت فيه عمان. وأمر الرسول أن يعامل مجوس عمان عبدة النار معاملة أهل الكتاب.

ونمضي إلى الشرق على خليج العرب، ونجد المنذر بن ساوى واليا على البحرين للوك الفرس، وكانت المملكة الفارسية وهنت قواها في عهد الرسول بسبب حروبها المتصلة مع الإمبراطورية البيزنطية، وبسبب خلافات داخلية حتى ليقتل ولي العهد أباه؛ مما جعل قبضة الفرس على البحرين وبائل على عمان تضعف ضعفا شديدا حتى لكأنهما كانتا مستقلتين. وكما أرسل الرسول إلى

كتاب إلى المنذر
ابن ساوى
وإسلامه مع
أهل البحرين

الأمر بعدك حتى أسلم، وإلا قصصتك وحاربتك". وحين سمع الرسول ﷺ ذلك قال: اللهم اكفنيه. فمات بعد قليل. وأسلمت اليمامة مع أميرها ثمامة بن أثال، وارتدت مع متبئتها مسليمة الكذاب، وقتله خالد بن الوليد، وعاد أهل اليمامة سريعا إلى الإسلام.

وتحول إلى شرق الجزيرة العربية، وبدأ بعُمان في آخر الجنوب الشرقي للجزيرة العربية، وكانت بها قبيلة الأزد، وكان يحكمها جَيْفَر بن الجُلندي، ويساعده أخوه عبد، وكانا يستشعران مع قبيلتهما الولاء للملوك الفرس. وبعث الرسول إليهما بعد فتح مكة بكتاب مع عمرو بن العاص يقول فيه: "السلام على من أتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوكما بدعوة الإسلام، أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما".

إسلام حاكمي
عُمان

واستجاب جيفر وأخوه إلى الإسلام وصدقا بالرسول، وأعانا عمرا على من خالفه، وخليّا بينه وبين الزكاة، فردّها على الفقراء هناك. والكتاب يضيف بوضوح أنه إن أقرّ الأميران بالإسلام أقرّ الرسول ولايتهما على عُمان، وهي إضافة لا نجدّها في الرسائل الأخرى للرسول مما يدل على أن الجزيرة العربية أصبحت جميعها في قبضته. ويذكر من أهل عُمان الأسيديون سكان المشقر من مدنها وقد دخلوا فيما دخلت فيه عُمان. وأمر الرسول أن يعامل مجوس عُمان عبدة النار معاملة أهل الكتاب.

ونمضى إلى الشرق على خليج العرب، ونجد المنذر بن ساوى واليا على البحرين للوك الفرس، وكانت المملكة الفارسية وهنت قواها في عهد الرسول بسبب حروبها المتصلة مع الإمبراطورية البيزنطية، وبسبب خلافات داخلية حتى ليقتل ولي العهد أباه؛ مما جعل قبضة الفرس على البحرين وبالمثل على عُمان تضعف ضعفا شديدا حتى لكأنهما كانتا مستقلتين. وكما أرسل الرسول إلى

كتاب إلى المنذر
ابن ساوى
وإسلامه مع
أهل البحرين

عمان عمرو بن العاص أرسل إلى المنذر بن ساوى العلاء بن الحضرمي يدعو به إلى الإسلام حاملا منه كتابا إليه يقول فيه: "سلام على من أتبع الهدى، أما بعد فياني أدعوك إلى الإسلام، فأسلم تسلم، يجعل الله لك ما تحت يديك، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والخافر (الإبل والحيل)، يريد أنه سيصل إلى أقاصي العالم.

ورحب المنذر بالعلاء، وأعلن إليه إسلامه وأسلم معه أهل البحرين جميعا. وكتب إلى الرسول ﷺ أن بأرضه مجوسا ويهودا ليُعلمه فيهما بما يراه، فقال له: يظنان على دينهما وتؤخذ منهما الجزية. وبذلك عامل الرسول مجوس البحرين مثل مجوس عمان (عبدة النار). وبنفس هذه المعاملة وما تحمّل من تسامح عظيم مع الوثنيين عامل عمر بن الخطاب صابئة العراق عبدة الكواكب، وترك لأهل إيران الحق في أن يعتنقوا الإسلام فيصبح لهم ما للمسلمين من حقوق وأن يظل الإيراني معتنقا دينه المجوسى ويدفع الجزية. وظلت النار تشتعل في معابد المجوس بإيران حتى القرن الثانى الهجرى إذ اعتنق الإسلام جميع أهل إيران.

المجوس يدفعون
الجزية

٤

عالمية الإسلام - دعوة ملوك الدول الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام

أ- عالمية الإسلام

يردّد كثير من المستشرقين أن محمدا ﷺ إنما أرسل إلى العرب وحدهم، لينفوا أنه أرسل إلى المسيحيين واليهود وجميع البشر، مع أن إرساله إلى جميع الأمم مما يقتضيه العقل، إذ أرسل الله كل رسول إلى قومه فحسب، كما تشهد بذلك آيات القرآن، إذ تقول إن نوحا أرسل إلى قومه كما فى أول سورة نوح. وفى سورة العنكبوت: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾. وفى سورة الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛

فالتوراة مرسله إليهم وحدهم. وعيسى مثل موسى مُرْسَل إلى بنى إسرائيل كما في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾. وبالمثل جميع الرسل إنما أرسلوا إلى أقوامهم فحسب، فهوذا أرسل إلى قومه عاد كما في سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا... أَلَا بُعْدًا لِّعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾، ولوط أرسل إلى قومه كما في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وصالح أرسل إلى قومه ثمود كما في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، وأرسل شعيب إلى أهل مدين كما في نفس السورة: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

فجميع الرسل أرسلوا إلى أقوامهم، فكان طبيعيا ومنطقيا أن يتَّوَجَّع الله هذه الرسالات الخاصة برسالة تعمُّ الأقسام والبشر جميعا، وهي رسالة محمد التي جعلها خاتمة الرسالات، كما جاء في وصفه بسورة الأحزاب إذ يقول جَلَّ شأنه عنه إنه: ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾. وذكر الله في القرآن الكريم مرارا وتكرارا أن محمدا مُرْسَل إلى جميع البشر كما في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقد نزلت الآية ردًّا على اليهود وما كانوا يقولون من أن محمدا مرسل إلى العرب وحدهم، فهو مرسل إلى الناس جميعا عربا وغير عرب. ويكرِّر الله في سورة يوسف وسورتى ص والتكوير قوله عن القرآن الكريم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وكلمة العالمين في الآية الكريمة جمع لكلمة العالم بفتح اللام، وجمعت للدلالة على الاستغراق وأن القرآن موجه للعالم بجميع أجناسه وشعوبه شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. ويقول الله في سورة الأنبياء لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهو رحمة مهداة من رب العالمين إليهم جميعا، وهي رحمة جعلته شديد الرأفة بأتباعه. وفي ذلك أحاديث مشهورة تدعو إلى الرأفة والرحمة بين الناس، وحثُّ عليهما في معاملة الحيوان المستأنس، ونفَر من القسوة به تنفيرا شديدا قائلا: إن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت، وإن رجلا رأى كلبا يلهث من شدة العطش، فنزل بئرا وماء خُفِّه ماء وأمسكه بقمه حتى صعد فسقاه، فغفر الله له وأدخله الجنة.

الرسول مُرْسَل
إلى الناس كافة

وهذه الرحمة التي فُطر عليها الرسول في خُلُقهِ اقترنت بها رحمة واسعة في شريعته، من ذلك أنها كفلت الحرية الدينية لأهل الديانات إلهية ووثنية، إذ يقول الله جل شأنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، مما جعل المسلمين يستشعرون في ديارهم طوال العصور السالفة تسامحا عظيما مع من يخالفونهم في الدين حتى لو كانوا وثنيين مجوسا وصابئة، وتعايشوا معهم تعايشا ماديا وفكريا سديدا. وهو جانب عالمي في الإسلام يتميز به من جميع الديانات، إذ لا يُعرف هذا التسامح الشامل وما يقترن به من التعامل الحسن لغير الإسلام.

ومما يدل - بوضوح - على عالمية الإسلام وأنه نزل من عند الله مكملا للديانات ومصححا لها تصحيحا نهائيا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ في القرآن ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ من آيات التوراة والإنجيل ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أى نؤجلها ونؤخرها ﴿نَاتٍ﴾ في القرآن ﴿بَخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾. والله - في الآية - يردُّ على ما كان يقوله اليهود والنصارى من أن محمدا لو كان رسولا من عند الله ما نسخ القرآن كثيرا من أحكام التوراة والإنجيل، والله يقول لهم إنها نُسخَت لمصلحة اليهود والنصارى المكلفين بها، وكلفناهم بخير منها أو مثلها، ويؤكد ذلك في سورة الرعد قائلا: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أى لكل عصر وزمن ﴿كِتَابٌ﴾ أى شريعة ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الشرائع والأحكام ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء إثباته لمصلحة البشر ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى علمه الأزلى بما يصلح للناس في كل عصر. ويذكر الله في سورة الأعراف لليهود والنصارى أن الرسول ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الطعام ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ التى تستقذرها النفوس ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى يضع عنهم التكاليف الشاقة التى كُلفوا بها في التوراة والإنجيل.

وكل ما قدّمت يدل - بوضوح - على أن الإسلام دين عالمي للشريعة الإلهية، وأن الرسول أرسل به إلى الناس جميعا كما قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فى مشارق الأرض ومغاربها لتحمل لهم

الإسلام مكمل
للديانات
ومصحح لها

شريعتك التي تكمل وتصحح الديانتين: اليهودية والنصرانية. ولتُسعد الناس في الدنيا والآخرة.

وكما كرّر الله في القرآن أن الإسلام دين عالمي كرّر ذلك الرسول في بعض كتبه التي أَلَمنا بها، وفي أحاديثه قوله: "إِنِّي فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ، مِنْهَا أَنَّنِي أُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً" وفي حديث ثانٍ يقول: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطِ أَحَدٌ قَبْلِي" ويذكر منها: "أَن كُلَّ نَبِيٍّ كَانَ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ"، والعرب تسمى الأبيض أحمر، أى أَنَّهُ بُعِثَ إِلَى الْبَشَرِ جَمِيعًا..

ب - دعوة ملوك الدول الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام

كان الرسول ﷺ يؤمن بأن الإسلام سينتشر في الأرض كما وعده ربه، وأنه واجب عليه أن يدعو ملوك الدول من حوله إلى اعتناق هذا الدين، فأرسل كتباً إلى النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملك الروم وكسرى ملك الفرس والمقوقس حاكم مصر يدعوهم فيها إلى الإسلام. واختلف مؤرخو السيرة في تاريخها، فقليل كانت بعد الحديبية، وقيل كانت بعد فتح خيبر، ولعل ذلك هو الصحيح، إذ إن القبائل العربية أقبلت عليه تدخل في دين الله، وشعر أن الإسلام سيعمُّ فيها، ورأى أن مهمته في نشر الإسلام بالجزيرة العربية توشك على نهايتها، وأن واجبا عليه أن يدعو إلى الإسلام الأمم من حوله، وحينئذ فكر في دعوة ملوكها.

وأبدأ بكتابه إلى النجاشي الذي كان صديقاً للمسلمين طول اضطهادهم بمكة، وجعل بلاده ملجأ لهم، ورفض أن يسلمهم إلى قريش حين طلبوا إليه ذلك، وعاشوا عنده آمنين رجالاً ونساء بالعشرات، وكان يجلّ الرسول ودينه، فرأى الرسول أن يدعوهم إلى اعتناق الإسلام مع شعبه، وفيما يلي صورة من نسخة الكتاب الذي أرسله إليه :

من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة :

كتاب إلى
النجاشي ملك
الحبشة

"سَلِّمْ أَنْتَ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطَّيِّبَةِ الْخَصِيفَةِ، حَمَلَتْ بِعِيسَى: خَلَقَهُ اللَّهُ وَنَفَخَهُ، كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَنَفَخَهُ. وَإِنِّي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمَوَالَاةَ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ تَتَّبِعَنِي وَتُوقِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللَّهِ عِزِّ وَجَلٍّ، وَقَدْ بَلَغْتَ وَنَصَحْتَ، فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي وَالسَّلَامَ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى".

ويذكر بعض المؤرخين للنجاشي رسالة قبل فيها دعوة الرسول وأسلم، وليس بين أيدينا دليل تاريخي على أن النجاشي أسلم، إذ لا تزال الحبشة مسيحية إلى اليوم.

وأرسل الرسول ﷺ عبد الله بن حذافة إلى كسرى أبرويز ملك فارس، بكتاب يدعو به إلى اعتناق الإسلام، ومما جاء فيه: "سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَأَسَلِّمْ تُسَلِّمَ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَأَثِمَ الْخَوْسَ عَلَيْكَ".

وغضب أبرويز من الكتاب ومزقه، ويُقال: بل مزقه ابنه شيرويه لأنه هو الذي تسلم الكتاب إذ كان قد قتل أباه وتولى الملك بعده. وعاد عبد الله بن حذافة وذكر للرسول أن شيرويه مزق الكتاب، فدعا عليه بتمزيق ملكه. وما هي إلا سنوات حتى تمزق ملكه، وأصبحت فارس أرضا إسلامية.

وبعث الرسول بدحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل قيصر الروم بكتاب يدعو به إلى الإسلام ومما جاء فيه:

كتاب إلى
هرقل قيصر
الروم

"سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأَكَارِينِ

(الفلاحين). والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا
يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ
عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام
أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية".

ويقال إن دحية أوقف في بُصرى بالقرب من دمشق، وأخذ حاكمها الرسالة
من دحية وقُدِّمت لقيصر الروم: هرقل، وترجمت له، ولم يتخذ إزاءها أى إجراء .
وأرسل الرسول ﷺ حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عامل بيزنطة على
مصر بكتاب جاء فيه:

"سلام على من أتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام:
أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط..
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾".

كتاب إلى
المقوقس
وهديته إلى
الرسول

والآية تذكر أنهم أى النصارى اتخذوا المخلوق، وهو المسيح عليه السلام
رباً وعبدوه مع الله. وأكرم المقوقس حاطب بن أبى بلتعة حامل الكتاب إليه.
وردَّ على الرسول بكتاب لطيف جاء فيه: "سلام، أما بعد فقد قرأت كتابك،
وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أنه
يخرج بالشام، وقد كرمت رسلك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط
عظيم وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها".

وكانت الجاريتان أختين واسمهما مارية وسيرين، واختار الرسول مارية
لنفسه، وأنجب منها ابنه إبراهيم واختطفه الموت سريعا، وأهدى سيرين إلى شاعره
حسان بن ثابت.

وشاعت في كتب السيرة النبوية فرية مكدوبة على الرسول في هذا العام الثامن للهجرة، إذ قيل كذبا وبهتاناً إن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر الرسول حتى كان يظن أنه فعل الشيء وهو لم يفعله. ولا أعرف كيف قبل مؤرخو السيرة رواية هذه الفرية، والله يقول في سورة المائدة لرسوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فكيف يُسحر وهو رسول معصوم من الناس كما يقول الله؟ وهي فرية واضحة، ومن عجب أن يرويها مؤرخو السيرة، وهي محض افتراء وبهتان أثيم.

فرية سحر
الرسول

الفصل الثامن عشر

من بعوث متعددة إلى إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص

١

بعوث متعددة

كان يبلغ الرسول أن عشائر أو قبائل تتجمع لحربه، فكان يُسرع بإرسال البعوث إليها لعلها تثوب إلى رشدها وتدخل في الإسلام. وكان أول بعث أرسل به بعد خير بعث عمر بن الخطاب في شعبان سنة سبع من الهجرة إلى تربة من ديار هوازن على بعد يومين من مكة في ثلاثين رجلاً، وخرج معه دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار. وأتى الخبر أهل تربة، فهربوا إلى كل وجه، وجاء عمر إلى ديارهم فلم يجد بها أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة. وفي نفس الشهر بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى بني كلاب العامريين بنجد، وقيل بل إلى بني فزارة الغطفانيين، وسمعوا بمقدمه، ففرّوا، ويقال إنه قتل منهم، وعاد إلى المدينة.

بعث عمر بن الخطاب إلى تربة

بعث أبي بكر إلى بني كلاب

ثم أرسل الرسول ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة الغطفانيين بجوار فدك وكانوا سمعوا به، ففرّوا، فلما نزل بديارهم لم يجد أحداً، ووجد إسلاماً وأغناماً فساقها، وانحدر متجهاً إلى المدينة فأدركوه هو ومن معه ليلاً، وتراموا بالنبل، وفنى ما مع بشير وأصحابه من النبل، فأحيط بهم وقتلوا، واستاق بنو مرة

بعث بشير بن سعد إلى بني مرة

إبلهم وأغنامهم، وتحامل بشير بن سعد على نفسه حتى انتهى إلى فذك، وظلّ بها حتى اندملت جراحه، وعاد إلى المدينة.

وبعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي في مائتي رجل بشهر رمضان في سنة سبع إلى الميعة ومن بها من بنى عُوال وبنى عبد بن ثعلبة، إذ بلغه أنهم يتجمعون لحربه، وكان مع غالب أسامة وعُلبة بن زيد الحارثي، ودليلهم يسار مولى رسول الله ﷺ. والتقوا بجمع القوم وحضّ غالب من معه على الجهاد وأوصاهم بالتقوى، وحمل بهم على القوم، فقاتلوا ساعة، وانهزم القوم، وأخذوا ما لهم من الماشية والنساء. وفي هذه الغزوة تعقب أسامة بن زيد رجلا يسمى نهيك بن مرداس حتى دنا منه، فقال نهيك: لا إله إلا الله، فقتله أسامة، فقال له غالب: بنس ما فعلت، أتقتل رجلا يقول: لا إله إلا الله ومضوا بالنعيم والغنم والنساء إلى المدينة. وذكر أسامة للرسول ﷺ ما صنع من قتل نهيك بعد أن قال له: لا إله إلا الله، وجعل الرسول يعنفه ويقول له: أتقتل رجلا يقول: لا إله إلا الله فقال أسامة: إنما قالها تعوذا من القتل. فقال له: أفلا شققت على قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟ واستغفر رسول الله ﷺ لأسامة ثلاث مرات، وقال له: أعتق عن قتلك الرجل عبدا، لعل الله يغفر لك. وعقد البخاري لهذه السرية بابا ذكر فيه أن الرسول بعث أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة (وربما كان ذلك بعثا آخر)، يقول أسامة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقنا أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما لحقنا به قال: لا إله إلا الله، فكفّ الأنصاري عنه، وطعنته برمحى وقتلته. فلما قدمنا المدينة بلغ الرسول ﷺ ما صنعت به، فقال: يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ قلت: إنما كان متعوذا. فما زال الرسول يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

وبلغ رسول الله أن جمعا من غطفان في ديارهم ييمن وجبار في نجد قريبا من خير ووادي القرى واعدتهم عيينة بن حصن الفزاري ليكون معهم ليزحفوا إلى بعض أطراف المدينة، ليغنموا بعض ما بها من النعم (الإبل والغنم) والخيل، فذكر ذلك لأبي بكر وعمر، فأشارا بإرسال بشير بن سعد إليهم، فبعثه رسول

بعث غالب بن عبد الله الليثي إلى الميعة

أسامة يقتل رجلا يقول لا إله إلا الله

بعث أسامة إلى الحرقات

بعث بشير بن سعد لجمع من غطفان

الله ﷺ في ثلاثمائة رجل في شوال من السنة السابعة، فمضى حتى دنا بمن معه من القوم، فأصابوا لهم نعمًا كثيرًا، وتفرق الرعاة، فحذروا أصحابها من هجوم المسلمين وأندروهم ففارقوا ولحقوا بأعلى بلادهم. وأتى بشير بن سعد ديارهم ييمن وجبار فلم يجد أحداً فرجع بالنعم إلى المدينة، وفي طريقه لقي جمعا لعُيَنة بن حصن فناوشه وانهزم الجمع، وأسر منه رجلاً أو رجلين، فقدم بهما على رسول الله ﷺ، وأعلننا إليه إسلامهما، فأطلقهما وردَّ إليهما حريتهما.

وكل هذه المناوشات التي حدثت بعد خيبر في السنة السابعة كانت مناوشات محدودة مع بعض قبائل الأعراب في نجد لإعلامهم بالإسلام، وظلت شعبية الرسول ﷺ وجنده من الصحابة تتوطد في نفوس الأعراب بكل مكان. وظل المسلمون بالمدينة في رغد من العيش آمنين.

٢

عمرة القضاء

لما أهلَّ شهر ذى القعدة من السنة السابعة وأصبح للرسول ﷺ الحق في دخول مكة وزيارة الكعبة وأداء العمرة كما تقضى بذلك معاهدة الحديبية نادى الرسول في الناس أن يستعدوا لأداء عمرة القضاء، وأن لا يتخلف أحد من شهد الحديبية، ولَبَّاه من المسلمين عُمَارٌ (طالبو العمرة) ممن لم يشهدوا الحديبية حتى بلغ العدد ألفين، تجمعوا في ملابس الإحرام البيض، يتعطشون إلى قضاء هذه العمرة ورؤية مكة والكعبة، وخاصة المهاجرين الذي يتشوقون إلى رؤية المنازل التي ولدوا فيها وأمضوا بها صباهم وشبابهم الباكر، ورؤية الأهل والأصحاب الذين فارقوهم منذ سبع سنوات. وكان لكثير من الأنصار صلات مصاهرة في مكة ويودُّون رؤيتهم، كما كان لهم مع أثرياء مكة صلات تجارية، وكان جميع المعتمرين من المسلمين يودُّون رؤية مكة التي أنجبت الرسول والتي نزل فيها الوحي يحمله إليه جبريل. وخشى الرسول غدر قريش فجهَّز مائة فارس يتقدمون

الركب بقيادة محمد بن مسلمة الذي اشترك في جميع غزوات الرسول ﷺ ليكشف الطريق أمام الركب، وجعل الرسول ﷺ مع الركب عُدة كبيرة من الأسلحة والرماح والأقواس والسهام خشية غدر قريش. ولم يحمل المعتمرون سلاحاً إلا السيوف في أغمادها كما اشترطت معاهدة الحديبية وساق الرسول ﷺ ستين ناقة هدياً إلى الكعبة وقلدها شعارات الهدى بيده الكريمة.

وأحرم الرسول ﷺ من باب المسجد، وسار في مقدمة الركب على ناقته القصواء يلبي تلبية الحج: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شريك لك، لَبَّيْكَ إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك" ولَبَّى المسلمون معه، وكان ركبا عظيما بهر أعراب نجد في الطريق إلى مكة.

ولما وصل الرسول وركبه إلى وادي مرّ الظهران بالقرب من مكة أمر بشير بن سعد المشرف على السلاح أن ينزل به في بطن يَأَجَج (مكان على بعد ثمانية أميال من مكة)، ورأى نفر من قريش هذا السلاح فأبلغوا عنه قريشاً، فبعثت مكرز بن حفص مع نفر إلى الرسول ﷺ، فقال له مكرز: ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، أتدخل بالسلاح على قومك وقد شرطت في معاهدة الحديبية أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف في القُرْب (الأغمدة)، فقال له الرسول ﷺ: إني لا أدخل عليهم السلاح، والمعمرون معهم السيوف في القُرْب، فقال له مكرز: هذا الذي تُعرف به من الوفاء والبرّ، ورجع إلى قريش فطمأن القوم وقال لهم: إن محمداً على الشرط الذي شَرَطَ لكم.

وأمر أبو سفيان أهل مكة - حين يقرب محمد - بالخروج منها إلى التلال والجبال من حوالها حتى لا يلقاهم فيها أحد من أهلها، وحلوا خيامهم معهم ومؤنهم ونُسُطهم وانسحبوا إلى التلال والجبال، وتسلق كثيرون ذرى الجبال ليشهدوا الموكب. ودخل الرسول وركبه في بطن من الثنية في شمال مكة راكباً القصواء وعبد الله بن رواحة أخذ بزمامها يلبي وأصحابه حولوه متوشّحو السيوف يلبنون. وما زال الرسول ﷺ يلبي، وحين اقترب من المسجد الحرام وضع

أهل مكة
يخرجون منها

رداءه تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر من جهتي صدره وظهره وعدى منكبه الأيمن وذراعه، ودخل المسجد يقال راكبا، يريد الطواف، واستلم الركن عند الحجر الأسود بمخججه (عصا صغيرة معقفة كالصولجان)، وهوول في الأشواط الثلاثة الأولى، ومشى في الأربعة التالية، وكان ابن رواحة، وهو آخذ بزمام الناقة يرتجز في طوافه، فقال عليه السلام: إِيَّهَا (اسكت) قل: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فرددها المعتمرون. ولما أنهى الرسول طوافه بالكعبة انتقل مع الحجاج إلى السعى على ناقته بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وكان يهرول في جزء من الشوط، تذكارا لهرولة هاجر ومشيا السريع بينهما بحثا عن ماء لابنها إسماعيل. ويقوم الحجاج دائما بهذه الهرولة في السعى. ووقف عند فراغه من السعى قريبا من المروة، وكان قد وقف الهدى عندها، فقال: هذا منحرج، وكل فجاج مكة منحرج، ونحرج هدي، وشركه فيه من شهد الحديبية. وأخذ المعتمرون ممن لم يشهدوها يطلبون نوقا ليقدموها هديا إلى الكعبة، ومن وجد ناقة نحرها أو بعيرا، ورخص لمن لم يجد ذلك أن يهدي إلى الكعبة بقرة، وكان رجل قدم مكة ببقرة فاشترها المعتمرون منه. وحلق الرسول رأسه عند المروة، وحلق المعتمرون بعده، وبذلك أتموا مراسيم العمرة في اليوم الأول من دخولهم مكة. وكان وراءهم محمد بن مسلمة وبشير بن سعد ومن معهما من حرسه الخيل والسلاح. وبعث الرسول مكانهم قوما يحرسون الخيل والسلاح وجاءوا وطافوا وسعوا بين الصفا والمروة فأدوا بدورهم العمرة.

ثوب
الإحرام

الطواف
والسعى

الهدى

ولم يجد المهاجرون مكة التي كانوا يتمنون رؤيتها، فقد وجدوا أسواقها مقفرة وليس هناك من يبيع أو يشتري، فالحوانيت مغلقة والدور التي ولدوا فيها وشبوا بين جدرانها مقفلة، والأهل والعشيرة خرجوا من مكة، وضاع منهم الأمل في لقاء الإخوان والأصدقاء، ولم ينزل الرسول بيتا له في مكة، وضربت له قبة من آدم بالأبطح. وهو صنيع أبي سفيان وأصحابه الدهاة الذين أخرجوا أهل مكة

في مقام الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمين مدة الأيام الثلاثة التي أتاحتها قريش للرسول في معاهدة الحديبية، فلم ير المهاجر المعتمر أحدا له في مكة ولا أختا ولا أحدا من أهله، ولم يكن بإمكانه أن يزور الدار التي تربى فيها فهي مغلقة مقفلة ولا سبيل إلى أن تفتح. وبذلك ظل المهاجرون مثل بقية المعتمرين يحتشدون عند الكعبة.

وفي الغد دخل رسول الله ﷺ الكعبة وظل بها، وفيها أخذ يفكر في إبراهيم وإسماعيل وبنائهما الكعبة، ولعله أخذ يذكر موقف قريش منه ومن رسالته ومعاداتها له وحربه. ولا شك في أنه كان يرى اليوم أن هذه العمرة تعدُّ تمهيدا قويا لفتح مكة وأنه ملك بها قلوب كثيرين من أهلها. وحان وقت الظهر، فطلب بالالا مؤذن الإسلام وأمره أن يصعد إلى سطح الكعبة ويؤذن لكي يصلّي المسلمون صلاة الظهر، وصعد بلال وتعالى صوته بالأذان في أرجاء مكة وحافاتهما من التلال والجبال: الله أكبر. الله أكبر (مرتين). أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله..، وردّد المعتمرون مع بلال كلمات الأذان، وارتجت بصوته وأصواتهم كل جنبات مكة في الشمال والجنوب والشرق والغرب. وأمّ الرسول المعتمرين واستشعروا غبطة لا حدود لها، فهذا هو الإسلام يشق طريقه إلى مكة وإلى الكعبة، ويتعالى أذانه في السماء، فيصدع الصخور الخيطة. وأين آلهتهم الجاثمة في الكعبة؟ وأين الصواعق التي كان يظن القرشيون الوثنيون أنها تُرسلها على أعدائهم، لقد ثبت أنه لا حول لها ولا قوة. وبدا لكثيرين من أهل مكة رجالا ونساء أن دينهم الوثني إنما هو خرافة. وأخذ يسدو للعيان أن مكة إن لم تعتنق الإسلام اليوم فستعتنقه غدا أو بعد غد.

وكانت لزوجة عم الرسول العباس بن عبد المطلب أخت أرملة في السادسة والعشرين من عمرها خالة خالد بن الوليد تُسمّى ميمونة بنت الحارث قد أسلمت وشغفت بالرسول ودينه الحنيف، وأسرت إلى زوج أختها العباس أنها تتمنى لو تزوجت الرسول، فعرضها العباس عليه، وتزوجها ولم ير بأسا في اقترانه

بلال يؤذن
لصلاة الظهر

زواج الرسول
بميمونة

بها ظنا منه أن ذلك قد يلين له قلوب بعض أشراف مكة، وقد يسُرُّ قريشا وتسمح له بالمقام في مكة حتى يقيم لها عرسا يُنزل قريشا من التلال والجبال وتشترك فيه، فيسود الوئام والسلام بينه مع صحابته وبين قريش، ولكن ما ظنُّه لم يحدث وإن اكتسب بعض الرضا من أهلها. وجاءه عند الظهر في اليوم الرابع من دخوله مكة سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى اللذان عقدا معه معاهدة الحديبية، فقالا له: قد انقضى أجلك فاخرج عنا. فقال لهما: وما عليكم لو تركتموني فأغرستُ بيمينه بين أظهركم وصنعت طعاما؟ فقالا له: لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا نُنشدك الله والعهد الذي بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت. فأمر رسول الله بالرحيل عن مكة إلى سرف على بعد ستة أميال من مكة ليتجمع المسلمون فيها وينطلقوا منها إلى المدينة.

ونزل الرسول بسرف وأمر أبا رافع أن يحمل إليه ميمونة بنت الحارث حين يمسي، فخرج بها من مكة مساء، وبنى بها الرسول ﷺ في سرف. وكان على بن أبي طالب كلّم رسول الله ﷺ في غمارة بنت حمزة عمه - وكانت مع أمها سلمى بنت عميس بمكة، فقال له: علام نترك بنت عمنا يتيمة بين ظهرائي المشركين فخرج بها، حتى إذا قربوا من المدينة أراد زيد بن حارثة - وكان وصي حمزة وأخاه أخوة المهاجرين - أن يأخذها، وقال: أنا أحق بها ابنة أخي، فقال جعفر بن أبي طالب: الخالة والدة، وأنا أحق بها لمكان خالتها عندي أسماء بنت عميس، فقال عليّ: أراكم تختلفون في ابنة عمي، وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين، وليس لكم إليها نسب دوني، وأنا أحق بها منكم، واحتكموا إلى رسول الله ﷺ: فقال: أحكم بينكم، أما أنت يا زيد فمولى الله ورسوله، وأما أنت يا عليّ فأخى وصاحبي، وأما أنت يا جعفر فتشبه خلقى وخلقى، وأنت يا جعفر أولى بها لأن عندك خالتها ولا تتزوج المرأة على خالتها ولا على عمتها، ففضى بها لجعفر، وقال عليّ للرسول ﷺ: تزوّجها يا رسول الله قال: لا تحلّ لي إذ هي ابنة أخي حمزة من الرضاة.

عمارة بنت
حمزة

زوجات الرسول

كُتِبَتْ عن زوجات الرسول كتابات متفرقة، وأرى أن أكتب عنهن مجتمعات. كانت خديجة أولى زوجاته، تزوّجها في الخامسة والعشرين من عمره وهو ممتلئ شباباً وحيوية، وهي معجبة بنزاهته وأمانته ومحبة لشخصه غاية الحب. ولما فَجَأَهُ الوحي في غار حراء بعد خمسة عشر عاماً من زواجهما، واضطرب في أول لقاء له بجبريل غاية الاضطراب، وفيما أمره به من قراءة أول سورة العلق، واشتد به الاضطراب والفرع ولم يستطع تفسير ما رأى، انطلق من غار حراء الذي لقيه فيه جبريل هائماً في شعاب الجبل حتى مكة، ودخل على خديجة يرتجف فرعاً وهلعاً لا يدرى ما الذي جاءه في الغار أملاًك هو أو شيطان وهل سيكون نبياً أو سيكون كاهناً. واستعاذ بالله من الكهانة، وطمأنته خديجة وقالت له: أبشر يا ابن عمي، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبياً هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً. وانطلقت به إلى ابن عمها: ورقة بن نوفل، وحكى له كل ما حدث له، فقال له: لقد جاءك الناموس الأكبر (يريد جبريل) الذي نزل على موسى، وأكد لها أنه سيكون نبياً الأمة. وظلت خديجة الزوجة المخلصة المحبة لزوجها التي توليه ثقته وتشجيعها في المواقف الحرجة أيام دعوته لرسائله بمكة، واستحالت وزيرة له ومستشارة ثاقبة الرأي حتى لبّت نداء ربها في الحادية والخمسين من عمره. ومنها أنجب جميع أولاده، ما عدا إبراهيم الذي ستلده له مارية القبطية، فولدت خديجة له القاسم وتوفى سريعا، وزينب وتزوجها أبو العاص بن الربيع، وتوفيت سنة ثمان للهجرة، وعبد الله وتوفى سريعا، ورقية وتزوجها عثمان بن عفان وتوفيت يوم البشري بانتصار الرسول على قريش في بدر بالسنة الثانية، وأم كلثوم وتزوجها عثمان بعد وفاة أختها وتوفيت سنة تسع للهجرة، وفاطمة وتزوجها ابن عمها علي بن أبي طالب وولدت له الحسن والحسين ومحسنا ومات صغيرا.

خديجة

وقد عاش الرسول مع خديجة خمس عشرة سنة قبل مبعثه وعشر سنوات بعد مبعثه أى زمن شبابه وبعضه من كهولته، ولم يفكر فى أن يتزوج عليها بكرا أو ثيبا مما ينفى عنه الشهوانية التى يلصقها بها المستشرقون أمثال إرفنج وموير وفيل وشبرنجر ودرمنجم لزواجه المتعدد فيما بعد، وسرى له مبررات تبعد عنه ظن الشهوانية الآثم. وأولى زوجاته وهو بمكة بعد خديجة سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمر وكان من السابقين إلى الإسلام وهاجر بها إلى الحبشة، وعاد بها حين شاع أن قريشا دخلت فى الإسلام بعد إسلام عمر ابن الخطاب، وتوفى عنها. ولما رأى الرسول أن أحدا لم يتقدم إليها ليعولها، ولم تكن ذات جمال ولا ذات ثراء وكانت متقدمة فى السن، رأى أن يتزوجها، وهو زواج جدير فيه بكل حمد وثناء. تزوجها الرسول فى السنة الحادية عشرة من البعثة، وتوفيت فى آخر خلافة عمر بن الخطاب.

سودة بنت
زمعة

وفى شوال من السنة الأولى من الهجرة تزوج الرسول بعائشة بنت أبى بكر الصديق وزير الرسول الأول وأول من آمن به من قريش وجهر بتلاوة القرآن فى مسجده الذى أحلقه بداره، ورافقه فى هجرته فتحمل معه أذاها ومشقتها. وكان الخليفة الأول للمسلمين، وأنقذ الإسلام بحروبه أهل الردة ودفع العرب لفتح فارس والشام، وفضله على الإسلام والمسلمين أعظم من أن ألخصه فى سطور. وعرف الرسول له فضله، فطلب منه يد ابنته عائشة ابتغاء مصاهرته، إذ المصاهرة توثق الصلة بالشخص عند العرب توثيقا شديدا حتى لتصبح صلتها صلة الدم والنسب الحقيقى. وأخطأت الأخبار، فقال بعضها إن الرسول تزوج بها بنت تسع، والصحيح أنه تزوج بها فى نحو العشرين من عمرها، إذ ذكر مؤرخو السيرة النبوية نقلا عن ابن إسحاق أنها كانت من أوائل من أسلم مع أختها أسماء، ولكى نعطيها عُمرًا ليصبح وصفها بأنها أسلمت ينبغى أن يكون عمرها نحو ست سنوات أو سبع على الأقل، ومكثت مع الرسول فى مكة ثلاث عشرة سنة بعد إسلامها ثم هاجرت وتزوجها الرسول فى شوال من السنة الأولى للهجرة، وهى فى نحو العشرين من عمرها. ونفس ما انفردت به عن زوجات

عائشة

الرسول من رواية نحو ألفين ومائتي حديث يتناول كثير منها أحكام الشريعة الإسلامية، وأيضا رجوع المسلمين إليها بالفتوى في شؤون دينهم لاستيعابها أوامره ونواهيه، وأيضا كانوا يرجعون إليها في تفسير بعض الآيات القرآنية. كل ذلك يدل بوضوح على أنها كانت ناضجة السن حين زواجها بالرسول وأنه ليس بصحيح أنه تزوجها طفلة بنت تسع سنوات؛ وبذلك يسقط كل ما علق به المستشرقون وأنكروه من زواج الرسول بطفلة في التاسعة من عمرها. فالصحيح أنه تزوجها في نحو العشرين من عمرها، وفضائلها جمّة ومناقبها كثيرة، وسئل الرسول أي النساء أحبُّ إليك فقال عائشة، وقيل له فمن الرجال قال أبوها، وكان أصحاب الرسول يسألونها في أمور الشريعة. وقال عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس: كانت أفقه الناس وأعلمهم، وقال عروة بن الزبير: ما رأيت أحدا أعلم بفقهِه من عائشة. توفيت سنة ست وخمسين، وأبت أن تدفن في حجرتها مع الرسول وأبي بكر وعمر ودفنت في البقيع: مقبرة أهل المدينة. ولم يتزوج الرسول بكرا سواها.

وزوجة الرسول الثالثة في المدينة حفصة بنت عمر بن الخطاب وزيره الثاني الذي أعزَّ الله به الإسلام حين أعلن إسلامه وجاهر بالصلاة في الكعبة فلم يتعرض له أحد من قريش، وفتَّ إسلامه في عضدها وأيد المسلمين في مكة تأييدا في غاية القوة. وكان الرسول يقول: إذا اتفق أبو بكر وعمر على أمر لم أخالفهما، وكان الخليفة الثاني للمسلمين الذي وضع لهم أسس إمبراطوريتهم الإسلامية. وكان طبيعيا أن يوثق الرسول العلاقة بعمر عن طريق المصاهرة كما وثّقها بأبي بكر. وكانت حفصة متزوجة بخنيس بن حذافة السهمي، وتوفى عنها من جراحات أصابته بيلدر، وعرضها عمر على عثمان بعد وفاة زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، فقال له: لا أريد الزواج الآن، فانطلق عمر إلى الرسول يشكو إليه عثمان وأنه رفض الزواج بابنته، فقال له الرسول: تتزوج حفصة خيرا من عثمان، ويتزوج عثمان خيرا من حفصة، وكان عثمان قد طلب منه ابنته أم كلثوم، فزوّجها له. وتزوج الرسول حفصة في شعبان من السنة الثالثة، وكانت

حفصة
بنت عمر

صوامة قوامه بالصلاة ليلاً. وصادقت حفصة عائشة وصارتا صديقتين حميمتين، كما كان أبوهما صديقين حميمين. وكان عمر قد أشار على أبي بكر بعد سنتين من خلافته أن يكتب القرآن الكريم في مصحف واحد، فجمع لذلك الحفظة المشهود لهم بالإتقان، وأمر أبو بكر زيد بن ثابت أن يكتب القرآن كله على الترتيب الذي تلقاه هو ومن معه من الحفظة عن الرسول بنفس الألفاظ ونفس الحروف ونفس الصورة في العرضة الأخيرة التي تدارس فيها الرسول القرآن مع جبريل بعد تمامه. وظل المصحف عند أبي بكر حتى وفاته، ثم عند عمر حتى وفاته، ثم عند ابنته حفصة، وظل عندها حتى طلبه منها عثمان - على أن يرده إليها - بعد نسخه في مصاحفه العثمانية المشهورة التي وزعها على الأمصار الإسلامية، واتخذ عثمان لذلك لجنة من أهم الحفظة برياسة زيد بن ثابت. وفي ذلك فضل عظيم لحفصة إذ حفظت لديها النسخة الأولى من المصحف العظيم حتى أدتها إلى عثمان. وتوفيت سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وأوصت إلى أخيها عبد الله بما أوصى به أبوهما وبصدقة بمال وقفته في الغابة بضاحية المدينة.

وبعد زواج الرسول من حفصة بنحو شهر تزوج زينب بنت خزيمة أرملة ابن عمه: عبيدة بن الحارث، وكان استشهد بدير، وكان الأسباب التي دفعته إلى الزواج من سودة بنت زمعة هي نفس الأسباب التي دفعته إلى الزواج بزينب، فقد كان زوجها من السابقين، وأبلى في أول بعث للرسول للقاء جماعة من قريش وفرّ إليه المقداد وعتبة بن غزوان وأبلى في بدر، وبها لقي ربه شهيداً. وتزوج الرسول زينب بنت خزيمة كما تزوج سودة ليعلم المجاهدون من المسلمين في الحروب أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله وتركوا وراءهم زوجات لن تجوع ولن تهمل، وسيتزوجهن بعض المسلمين ليعولوهن وينفقوا عليهن. وكانت زينب بنت خزيمة خير، ولُقبت أم المساكين لرأفتها بهم. ومكثت عند الرسول بعد زواجه بها ثمانية أشهر، إذ توفيت في شهر ربيع الآخر بالسنة الرابعة للهجرة وقد بلغت ثلاثين عاماً، ولم يمض من أزواج الرسول في حياته سواها وسوى خديجة.

زينب بنت
خزيمة

وبعد زينب تزوج الرسول أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي أرملة أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد رضي الله عنه وابن عمته برة بنت عبد المطلب، وهما أول من هاجر إلى أرض الحبشة وعادا إلى مكة مع من انصرف منها حين ظنوا أن قريشاً أسلمت خيراً كاذباً. وكان أبو سلمة أول مهاجر إلى المدينة، وحُبست أم سلمة عنه سنة ثم لحقته، وكان بطلاً مغواراً، وأبلى بلاء عظيماً في بدر وأُحُد، وجُرح في أُحُد وبرئ جرحه فعقد له الرسول لحرب طلحة بن خويلد وبنى أسد، إذ بلغه أنهم يستعدون لحربه، وبعث معه مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار فعلموا بمقدماته، فشئتوا، وغنم هو ومن معه بعض أنعامهم وعادوا إلى المدينة. وانتقض جرحه ومات منه في أوائل جمادى الآخرة، وحضره الرسول وهو على فراش موته وظل إلى جانبه يدعو له حتى توفي فأسبل عينيه. وكانت قد ولدت لزوجها: برة على اسم جدتها وسلمة وعمر ودره. وكان الرسول يقدره ويقدر شجاعته، وأشفق على زوجته وأبنائها الضعاف فمن يعولهم بعد وفاة أبيهم أخيه من الرضاعة، وطلب الرسول يدها ليرعى لها أبنائها، فقالت له: إني مسنة تقدّمت بى السن وذات عيال أيتام وشديدة الغيرة، فقال لها: أنا أسنّ منك، وعيالك عيال الله ورسوله، وأدعو الله لك فيذهب عنك الغيرة، وكانت قد اعتدت بعد موت زوجها وأحلت إذ مرت على وفاته أربعة أشهر. وارتضته وتزوجها ورعى أبنائها وأخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبد الأسد. فزواج الرسول بأم سلمة إنما كان صلة رحم وعونا على تربية أبنائها؛ مما جعل المسلمين يشعرون بحق أنه أب لكل من فقد أباه شهيداً. وتوفيت سنة ستين من الهجرة.

وزوجة الرسول بالمدينة السادسة زينب بنت جحش ابنة عمته: أميمة بنت عبد المطلب، وأتى بعض الرواة إلا أن ينسجوا حولها - خطأ - قصة عن تعلق للرسول بها فقالوا إنه مرّ على دار زوجها زيد بن حارثة ورأى أن يسأل عنه، ولم يكن موجوداً فرآها ووقعت في قلبه، فقال سبحانه مقلب القلوب، ولو كان شخصاً عادياً لأمكن أن نصدق هذا القول منه، أما محمد رسول الأمة وفي بيته

أم سلمة

زينب بنت
جحش

زوجات جميلات: عائشة وحفصة وغيرهما، هل يُعقل أن يصدر ذلك عنه بمجرد رؤيته زينب بنت جحش ابنة عمته التي نمت في صباها وشبت تحت بصره؟ وأكثر من ذلك هو الذي خطبها من أخيها عبد الله بن جحش لشبنيه: زيد بن حارثة الذي كان عبداً مسروقاً وأهدته إليه زوجته خديجة فحرره، وعرضه على عبد الله بن جحش زوجاً لأخته زينب، فلم يجبه توّاً إذ العرب تستكف أن يتزوج شخص كان أصله عبداً مسروقاً بنتاً من بيت شريف كبيت عبد المطلب، وبالمثل عارضت أخته زينب هذا الزواج، وأصرّ عليه الرسول، وراجع ابن عمته عبد الله بن جحش حتى رضى. وقبل ذلك هدم لزيد فوارق الرق والسيادة إذ كان قد فرض أخوة بين المهاجرين، واختار لزيد أخوة عمه: حمزة بن عبد المطلب. والرسول حين خطب زينب ابنة عمته لزيد كان يعرفها معرفة الأب لابنته أو الأخ الكبير لأخته الصغرى، فخطأً أكبر الخطأ أن يقول راوٍ إن زينب وقعت في قلب الرسول حين رآها لأول مرة، وهو رآها قبل ذلك عشرات المرات في مكة وبعد زواجها من زيد، إذ لم يكن الحجاب قد ضرب على نساء المؤمنين في هذا التاريخ. ويضيف راوٍ ثان أنه لما فُتح باب دار زيد عبث الهواء بستارة على باب غرفة نومها وكانت ممددة على السرير في قميصها، فرأى مفاتن جسمها. وهو خبر مكذوب مثل سابقه، ويؤكد كذبه أن الله فرض - في سورة النور - الاستئذان على كل من يزور أحداً في بيته قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وكان لا ينزل أمر للمسلمين إلا ويسارع الرسول ﷺ إلى الائتمار به، وخبر دخول الرسول بيت زيد دون إذنه خبر مكذوب على الرسول ولا أساس له. ومنذ تزوجت زينب بنت جحش زيداً، كانت سيئة العشرة له متعالية عليه، ودائماً تذكره بأنه كان عبداً مسروقاً وهي من شريفات قريش، ودائماً كانت تقول له إنك لست أهلاً لي، وتمنُّ عليه بأنها رضىته زوجاً لها ولولا أن الرسول اختاره لها ما ارتضته، وكان ذلك يؤذيه إيذاء شديداً، وكان يذهب مراراً إلى الرسول يطلب منه الموافقة على طلاقها، وكان

يراجعه مراراً وخاصة أن أخاها عبد الله كان من الشهداء في غزوة أُحُد، وحُبًّا لابن عمته دفنه مع خاله حمزة بن عبد المطلب في قبر واحد، فكان الرسول يفكر فيمن يعول زينب بنت جحش بعد وفاة أخيها عبد الله في أُحُد، وربما أخذ يفكر حينئذ في أن يتزوجها بعد زيد ليعولها، غير أنه كان يخشى أن يقول الناس: طلق زينب من زيد وتزوجها، وحكى ذلك الله في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ وهو زيد أى أنعم الله عليه بالإيمان وأنعمت عليه بالعنق والتبني والمحبة، وكلما أبدى لك رغبته في طلاق زينب يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ فلا تطلقها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾، أى أن زيدا لو طلقها وتزوجتها تخشى أن يلعن الناس بأنك قبلت طلاقه لها لتزوجها، وتخشى أيضا أن يقولوا تزوجت حليمة ابنك المتبنى، ولذلك رأى الله جل شأنه أن يكمل الآية بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ أى فلما استوفى زيد حاجته منها وطلقها ﴿زَوْجَانَا كَهَا﴾ لنزع من النفوس ما تعتقده من أن زوجة الابن المتبنى مثل زوجة الابن الشرعى الحقيقى يَحْرُمُ على الأب المدعى زواجه بها، وزواجه بها صحيح أو كما قال تعالى عزَّ شأنه: ﴿لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمُ﴾ المتبنين ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾. فزواج الرسول زينب بنت جحش إنما كان بأمر إلهي لإقرار حكم شرعى بإبطال ما يزعمه الأبناء الأدعياء من حقوق لهم.

وتلك هي الحقيقة أو الحقائق التاريخية لزواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، ولا شبهة لغرام أو وكَّه يصوره بعض الرواة ولا لشهوة حسية كما يتوهم بعض المستشرقين، فكل ما زعموه باطل ولا أصل له. وانتظر الرسول بعد طلاق زيد لزينب انتهاء العدة المقررة بين الطلاق والزواج، ثم تزوجها في ذى القعدة من السنة الرابعة للهجرة، وقيل بل بعد غزوة الأحزاب في السنة الخامسة، والأول أصح. وظلت زينب تفخر بأنها الوحيدة بين نساء النبی التي تزوجها الله لرسوله. وكانت أسبقهن إلى اللحاق به، إذ توفيت سنة عشرين أو إحدى

وعشرين للهجرة، وقالت عائشة عنها هي التي تساويني في المنزلة عند رسول الله ﷺ، وما رأيت امرأة قط خيرا في الدين من زينب وأتقى الله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة. وقال الرسول عليه السلام لعمر عنها: إنها لأواهة أي الخاشعة متضرعة.

واقترن زواج الرسول بزينب بنت جحش بنزول آية الحجاب لنساء المسلمين عامة في قوله تعالى بسورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ والجلابيب جمع جلباب، وهو الإزار (أي ما يشبه الطرحة) تضعه المرأة على رأسها، ويتسلى جانباه على جانبي وجهها وتغطي به ثغرة نحرها وتسدل سائرته على كنفها ورأسها. وليس منه تغطية الوجه وإبراز العين اليسرى فالوجه معه سافر مكشوف. ومن المهم أن نعرف أن فكرة الحريم التي انتشرت في البلاد الإسلامية فكرة تركية ولا ترجع إلى أصل عربي.

آية الحجاب

وفي شعبان من السنة السادسة للهجرة قيل لرسول الله ﷺ إن بنى المصطلق يجمعون لك يريدون حربك، فأغار عليهم وهم غافلون وكانوا على ماء يسمى المريسيع، فقتل منهم نفرا وسبى الدراري والنساء واستاق الجيش لهم ألفي بعير وخمسة آلاف شاة ومائتي أهل بيت. وكلموه في رد الغنائم، وأمل فيهم الدخول في الإسلام وتمنى لو يجد فرصة، وكانت في السبي جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار سيد بنى المصطلق، ووقعت في سهم ثابت بن قيس، وفرض عليها ست أواق من الذهب، فذهبت إلى الرسول تستعين في فداها فعرض عليها أن يفديها ويتزوجها ورحبت بذلك. وبمجرد أن علم الجيش أن الرسول سيتزوجها رد كل رجل ما بيده من سبي بنى المصطلق رجالا ونساء وإبلا وغير إبل، ودخلت كل القبيلة في الإسلام. وكان اسم جويرية برة فسمّاها الرسول جويرية، وتقول السيدة عائشة: ما رأيت امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية. وواضح أن الرسول إنما تزوج جويرية ليرد الجيش غنائم قومها وسيهم

جويرية بنت

الحارث

رجاء دخولهم في الإسلام، وهو ما حدث ببصيرته النافذة. وتوفيت جويرية بالمدينة سنة ست وخمسين ودُفنت بالبقيع.

وتزوج الرسول بعد جويرية صفية بنت حُيَّ بن أخطب سيد بنى النضير، قُتل مع بنى قريظة، وكانت من سبى خير تزوجها سلام بن مشكم سيد خير ثم صفية بنت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وقُتل في غزوة خير، وطلبت لقاء الرسول فلقبها حُيَّ بن أخطب وأبدت له مودتها فاصطفأها لنفسه وأعتقها وأسلمت وتزوجها في طريقه إلى وادى القرى - كما مر بنا - وكانت حسنة الإسلام فاضلة حليلة حبيبة. وجاءت جارية لها إلى عمر بن الخطاب وهو خليفة، فقالت له إن صفية تحب السبب وتصل اليهود، فسألها، فقالت له: أما السبب فأني لم أحبه منذ أبدلتني الله به يوم الجمعة، أما صلتى لليهود فإن لي بهم رحما، وأوصت عند موتها بثلاث مالها لابن أختها وكان يهوديا. وتوفيت سنة ست وخمسين للهجرة ودُفنت بالبقيع.

ولما رجع الرسول من غزوة خير وأخواتها إلى المدينة وجد أم حبيبة بنت أبي سفيان، ويقال إنه كان أرسل إلى النجاشي فعقد له عليها، ويُقال أيضا إنه لما عاد إلى المدينة من خير زوجه لها عثمان بن عفان، وهو الأرجح، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش وتنصّر هناك وثبتت على إسلامها، وعادت من الحبشة مع من عاد منها زمن فصح خير في أوائل السنة السابعة للهجرة. وزواج الرسول بها زواج سياسى أراد الرسول به خدمة الإسلام إذ كان أبوها زعيم قريش، وأمّل الرسول أن يدفعه زواجه بابنته إلى أن يلين للمصلح معه، ويفتح الكعبة ومكة له وللمسلمين لأداء الحج والعمرة. وكانت قد ولدت لعبيد الله بن جحش ابنتها حبيبة وبها كانت تُكنى، واسمها رملة. توفيت سنة أربع وأربعين للهجرة.

وكان كاتب المقوقس حاكم مصر للروم يدعوه إلى الإسلام بعد غزوته لليهود وقرى الحجاز، ويبدو أنه كان معجبا به، فتلقى رساله: حاطب بن أبى بلتعة ومن معه لقاء حسنا، ورد عليه بخطاب لطيف، وأهدى إلى الرسول - كما

أسلفنا - هدية نفيسة كان منها عشرون ثوبا من قباطى مصر وألف مثقال عسل وبَغلة أصيلة وجاريتان قبطيتان جميلتان هما مارية وأختها سيرين، واختار الرسول مارية المصرية القبطية وتزوجها تقريبا للمقوقس وللمصريين لما للمصاهرة عند العرب من عقد علاقة وثيقة بين الزوج وأهل الزوجة، ومنح سيرين أختها إلى شاعره حسان بن ثابت. وغضبت زوجات الرسول لزواجه بقبطية مصرية واتحدن ضدها وأصبحت حياتها لا تطاق، فنقلها الرسول من دوره إلى العالية فى المدينة، وظلت غيرتهن منها شديدة، وخاصة حين ولدت له ابنه إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة، وفرح به الرسول غير أنه لم يلبث أن توفى قبل الحَبْوِ وقبل المشى وقد بلغ ستة عشر شهرا فى ربيع الأول. وقيل لم تكن زوجة بل كانت من سراريه، وتوفيت بعده بخمس سنوات.

مارية المصرية
القبطية

وآخر زوجاته ميمونة بنت الحارث تزوجها فى عمرة القضاء يريد بزواجه منها - كما أسلفنا - أن تكون شفيعا له عند قريش وهى من شريفاتهم فيحاولون عقد صلح نهائى له معهم، ويأذنون له وللصحابة بأداء العمرة والحج إذا شاءوا، ولكن قريشا لم ترحب بهذا الزواج، واضطر أن يتزوج بها فى سَرَفٍ - كما مرَّ بنا - وكان اسمها برّة فسمّاها الرسول ميمونة، تزوجها فى الجاهلية مسعود بن عمرو الثقفى، وفارقها فتزوجها أبو رُهم بن عبد العزى، وتوفى عنها فتزوجها رسول الله. توفيت فى سنة إحدى وخمسين من الهجرة وأوصت أن تُدفن فى سَرَفٍ موضع زواجها بالرسول، ودُفنت بها.

ميمونة بنت
الحارث

هؤلاء هن زوجات الرسول، وهناك من يقولون كيف علّد الأزواج لنفسه وحرّمها على المسلمين إلا أربعا كما فى سورة النساء: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، والآية نزلت فى السنة الثامنة للهجرة أى أن تحریم ما يزيد عن أربع إنما بدأ فى السنة الثامنة أما قبلها فلم يكن هناك تحديد، وكان الرجل يتزوج كما شاء عشرا أو أكثر من عشر على نحو ما هو معروف عن الجاهليين وعن النبى داود وكثرة نسائه وابنه سليمان الذى استكثر منهن كثرة مفرطة. على أن الرسول ظل مع خديجة وحدها خمسة

الرد على
المستشرقين

وعشرين عاما أو ستة وعشرين، ولو كان يفكر في المتاع الجنسي لتزوج عليها غير واحدة، وإذا استعرضنا زوجاته اللائى تزوج بهن فى العقد السادس من حياته وجدنا أنهن كن جميعا أرامل، ولو كان الغرض من زواجه المتاع لتزوجهن أبكارا جيلات. ونصّ كتاب السيرة على أنه كان بينهما من لا يتصفن بشئ من الجمال مثل سودة وزينب بنت خزيمة وأم حبيبة بنت أبى سفيان. وكانت له أغراض عليا اجتماعية وسياسية فى زواجه بنسائه، فقد تزوج سودة بنت زمعة وزينب بنت خزيمة وأم سلمة لأنهن أرامل بعض السابقين إلى الإسلام حتى يعرفن، وحتى لا يقال إنهن وأبناءهن تُركن دون عائل. وتزوج سياسيًا بكثيرات، فقد تزوج بعائشة وحفصة حتى يوثق العلاقة بأبى بكر وعمر وزبيره. وتزوج بأم حبيبة بنت أبى سفيان رجاء الصلح بينه وبين أبيها وأن يفتح الكعبة ومكة له وللمسلمين لأداء العمرة والحج. وتزوج زينب بنت جحش بأمر إلهى لإقرار حكم شرعى. وتزوج جويرية بنت الحارث لثرد غنائم جيشه على بنى المصطلق رجاء أن يسلموا وأسلموا فعلا. وتزوج صفية بنت حُيَّ بن أخطب ليصلح ما بينه وبين اليهود بعد أن استولى على حصونهم، ومرّ بنا فى خبر أنه حرّم على صحابته زواج المتعة من اليهوديات إكراما لهن. وتزوج مارية القبطية المصرية إرضاء لمُهديها المقوقس والمصريين. وتزوج ميمونة بنت الحارث إحدى شريفات مكة إرضاء لقريش وأملا فى أن تُعلن فتحها الكعبة ومكة لأداء الرسول والمسلمين العمرة والحج متى شاءوا. وكل ذلك أدلة قاطعة على أن الرسول لم يكثر من الزواج فى المدينة ابتغاء شهوة أو متاع جنسى إنما ابتغاء أغراض عليا ذكرناها خدمة للدين الحنيف. وكما حرم الله على المسلمين الزواج بأكثر من أربع فى السنة الثامنة للهجرة حرّم على الرسول أن يتزوج بغير من تزوج بهن حتى السنة السابعة للهجرة كما حرّم عليه أن يطلقهن ويستبدل بهن أزواجا غيرهن، إذ يقول له: ﴿لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَغْبَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾. ولم يحدث منه زواج بعد هذه الآية الكريمة.

إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص أخذ هؤلاء الثلاثة من أبطال قريش يفكرون في أمرها مع الرسول منذ عمرة الحديبية والوعد بأن ينزل مكة في العام القادم بجيشه لأداء العمرة، ووافى العام وجاء الرسول بجيشه لأداء عمرة القضاء بعد استيلائه على حصون خيبر ووادي القرى، وأخذ يستقر في نفوس الثلاثة أن دين محمد يعلو وأنه سيُظَلَّ مكة يوما وأن من الخير لهم أن يدخلوا في دينه ويهاجروا إليه، وكانت أجنة خيل قريش في الجاهلية وفي بدر وأُخذ إلى خالد، وكان عثمان من بنى عبد الدار الذين بأيديهم مفاتيح الكعبة، وكان عمرو بن العاص من ساسة قريش ودُهاثها.

وكان الوليد أخو خالد من السابقين إلى الإسلام والمهاجرين إلى المدينة، ودخل مكة مع الرسول وطلب أخاه خالد فلم يجده إذ كان قد خرج عن مكة وأبعد في خروجه، فكتب إليه كتابا فيه: "إني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وأنت ذو عقل راجح ومثل الإسلام لا يجهله أحد، وقد سألت رسول الله عنك فقال أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به. فقال: ما مثله يجهل الإسلام، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له وقدمناه على غيره. فاستدرك - يا أخي - ما فاتك من مواطن صالحة. وكان قد نشط للإسلام فزادت رغبته فيه، وسرته مقالة رسول الله ﷺ عنه، ولم يمض على عمرة القضاء نحو شهرين حتى صمم على اعتناق الإسلام والهجرة إلى المدينة ولقاء الرسول وإعلانه إسلامه بين يديه. وأخبر صفوان بن أمية بنيته فأنكرها عليه، فقال خالد في نفسه إنه رجل موتور قُتل أبوه وأخوه بيد، وكان عكرمة بن أبي جهل صديقه فأخبره بنيته فأنكرها عليه، وكان أبوه قُتل بيد. ولقى عثمان بن طلحة وكان صديقه، وكان أبوه طلحة وعمه عثمان وإخوة أربعة له قُتلوا في بدر، ومع ذلك شجعه على ما نواه، وقال له إني عازم على ما عزمته عليه. وخرجا بشهر

صفر من السنة الثامنة للهجرة، والتقىا على بعض أميال من مكة ومضيا في طريقهما ولقيا عمرو بن العاص فسألهما أين وجهتهما فقالا له: المدينة للدخول في الإسلام، فقال لهما: هي نفس وجهتي، وساروا معا حتى قدموا المدينة.

ودخلوا على رسول الله ﷺ، وتقدم خالد فسلم وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقال له الرسول: الحمد لله الذي هداك، فقد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير. فقال له خالد: يا رسول الله ادع الله أن يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهداها عليك. فقال له: الإسلام يجب ما كان قبله. وتقدم بعده عثمان بن طلحة، فأعلن دخوله في الإسلام بنطق الشهادتين ورحب به الرسول، وتبعه عمرو بن العاص، ونطق مثلهما بالشهادتين، وفرح بهم الرسول إذ قويت بهم شوكة الإسلام وبدأ له أن فبح مكة وتسليمها أصبح قاب قوسين أو أدنى،

الفصل التاسع عشر

من بعوث ومناوشات إلى فتح مكة

١

بعوث ومناوشات

أول بعث أرسل به رسول الله ﷺ بعد عمرة القضاء بعث ابن أبي العوجاء السُّلَمي إلى بني سليم في ذي الحجة آخر شهر في السنة السابعة، بعثه إليهم في خمسين رجلاً، وكان بينهم عيين أو جاسوس لبني سليم، فأخبرهم ببعثه وحذرهم، فأعدوا له عدتهم. وجاءهم البعث فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا له: لا حاجة لنا إلى ما تدعونا إليه. وترامت الفتنان بالنبل، وجاءت أمداد إلى بني سليم، فأحدقوا بالبعث من كل ناحية، حتى قتلوه عن آخرهم، وجرح ابن أبي العوجاء مع القتلى، فتحامل على نفسه حتى بلغ المدينة ورسول الله في أول يوم من صفر سنة ثمان من الهجرة.

بعث ابن أبي
العوجاء إلى
بني سليم

ولم يلبث الرسول أن بعث في صفر عبد الله بن غالب الكناني الليثي في بضعة عشر رجلاً، وأمرهم أن يشنوا الغارة على بني الملوحة من بني ليث بالكديد (موضع بالحجاز) فخرجوا إلى الكديد، فلقوا الحارث بن البرصاء الليثي فأخذوه وشدّوه وثاقاً خوفاً من أن يكون عينا لبني الليث، وقال لهم إنما خرجت عن قومي للقاء الرسول، فلم يعبأوا به. وكمن ابن غالب في ناحية من الوادي، وأرسل الجهنى ربيعة له أو عينا فأتى ثلاثاً مشرفاً على القوم فعلاه وانبطح عليه، فخرج رجل من خباء فقال لامرأته: إني أرى على هذا التلّ سواداً ما رأيته عليه أول

بعث عبد الله
ابن غالب إلى
الكديد

يومي هذا، وقال لها: ناوليني القوس وسهمين ورماه بسهم ثم بالسهم الثاني فما أخطأه، غير أن الجهنى لم يتحرك وثبت مكانه، فقال الرجل لامرأته: لو كان شخصا لتحرك، فإذا أصبحنا فانظريهما لا تمضغهما الكلاب. ثم دخل خباءه، وأقبلت الماشية من إبلهم وأغنامهم، فلما احتلبوا واطمأنوا وناموا شنَّ البعث عليهم الغارة، وساق النعم والشاء وانحدروا نحو المدينة، ومعهم ابن البرصاء، وسمعوا صرير القوم حين أحسوا بالغارة وتبعوهم، غير أن الله فصل بين الفتتين بواد امتلأ ماء، فلم يستطيعوا أن يجتازوه إليهم، فوقفوا ينظرون إلى البعث وما معه من النعم والشاء، ووصل البعث بما معه إلى المدينة.

وفي شهر ربيع الأول بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي في أربعة وعشرين رجلا إلى السَّيِّ (ماء على ثلاث مراحل من مكة وخمس من المدينة في طريق البصرة بنجد) يريد بنى عامر وقيل بل يريد جمعا من هوازن، فكان البعث يسير الليل ويكمن النهار حتى أصابهم وهم غافلون فغنموا نعما وشاء، وقدموا المدينة، وكان سهم كل رجل خمسة عشر بعيرا وجعلوا البعير بعشرة من الغنم. وعاد البعث إلى نجد وغاب خمسة عشر يوما وقدم بسبايا فيهن جارية، وقدم وفدهم مسلمين على الرسول فرد إليهم السبايا وما غنمه البعث منهم إلا الجارية فإنها اختارت البقاء مع قائد البعث: شجاع بن وهب.

ثم أرسل رسول الله ﷺ بعثا بقيادة قطبة بن عامر بن حديدة في عشرين رجلا إلى حى من خثعم بناحية تبالة باليمن فخرجوا إليه على عشرة أبعرة يعتقبونها (يتناوبونها) وشنوا الغارة ليلا فقاتله القوم قتالا شديدا حتى قضى قطبة عليهم، وساق النعم والشاء حتى أتى المدينة، وكان سهم كل رجل أربعة أبعرة، وكان البعير بعشرة من الغنم.

وفي شهر ربيع الأول أرسل الرسول إلى ذات أطلاح شمال وادى القرى من أرض الشام بعثا يقوده كعب بن عمير الغفارى في خمسة عشر رجلا، فقاتلوهم حتى قُتلوا جميعا إلا رجلا أفلت منهم، وكان جريحا فتحمّل على نفسه حتى أتى

بعث كعب
ابن عمير إلى
ذات أطلاح

المدينة، وأخبر الرسول بما حدث للبعث، فشقق ذلك عليه. والبعوث السالفة جميعا كانت بعوثا عارضة ولم تكن لها أهمية، وكل هذه البعوث كان الرسول ﷺ يُرسلها إلى القبائل والأحياء وتعرض عليها الإسلام فإن أبت قاتلتها، فلم يكونوا يقاتلونهم ابتداء.

٢

غزوتان وبعوث

أ- غزوة مؤتة

مؤتة قرية صغيرة عند الكرك في جنوبى الأردن، وفيها قُتل الحارث بن عمير الأزدي لما نزلها بكتاب رسول الله إلى حاكم بُصرى من قبل هرقل، قتله شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني، فشقق ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس لحربه ثارا للحارث بن عمير، فأسرعوا وتجمع له ثلاثة آلاف، وقال لهم: أميركم زيد ابن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبى طالب، فإن قُتل فعبد الله بن رواحة، وأوصاهم أن لا يغدروا وأن لا يغلُّوا (يخونوا) فى الغنيمة وأن لا يتعرضوا لرجال الصوامع الرهبان وأن لا يقتلوا امرأة ولا صبيا ولا كبيرا فانيا، وأن لا يقلعوا شجرا ولا يهدموا بيتا. وأمرهم الرسول أن يسيروا حتى مؤتة، حيث قُتل الحارث ابن عمير . ومضوا إلى غايتهم فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة.

وصايا حضارية
فى الحرب

وعلم شُرَحْبِيل بن الحارث الغساني بخبرهم، فأخذ يجمع لهم جيشا من قبائل الشام: بلى وقضاة وبهراء وغيرهم، وبعث أخاه سدوسا فى خمسين رجلا، طليعة له، فلقى الجيش فى وادى القرى فقاتلهم وقتلوه هو ومن معه. وكان الرومان فى بيزنطة يحكمون الشام وتلك البقاع فاستصرخهم شرحبيل ضد هذا الجيش الموجه لغزو أراضى الإمبراطورية المسيحية، وفى أيام قلائل كان تيودور أخو الإمبراطور أو القيصر هرقل على رأس جيش روماني مكون من مائة ألف يساعدهم شرحبيل الغساني بمائة ألف أخرى من نصارى القبائل العربية الشمالية، وكانوا مجهزين تجهيزا عسكريا تاما، ولم يكن الجيش العربي يظن أنه سيلقى مثل

هذا الجيش الضخم، إذ كان مبلغ ظنه أنه سيلقى شرحبيل الغساني ومن جمعهم لهم من نصارى العرب. ورأى بعض قاداته حين نزلوا معان بالقرب من مؤتة وتأكدوا من خبر الجيش الروماني ومن ضخامة الجيش الذي سيقاتلونه أن يكتبوا للرسول ليردهم أو ليزيدهم جندا ورجالا، وعارضهم عبد الله بن رواحة، وقال: والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة العدد ولا بكثرة السلاح ولا بكثرة الخيول إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا قرسان ويوم أُحُد ما معنا إلا فرس واحد، وإنما هي إحدى الحسينين: إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ووعد نبيّنا، وليس لوعده خُلْفٌ، وإما الشهادة فلحق ياخواننا نرافقهم في الجنان. فتشجّع الناس ومضوا إلى مؤتة.

وفي مؤتة رأى جيش المسلمين الأعداء من الروم ونصارى العرب ومعهم ما لا يكاد يحصى من عُدَد الحرب والسلاح والخيول. وحَمَى وطيس الحرب، وقاتل أمراء جيش المسلمين على أرجلهم، وأخذ زيد بن حارثة اللواء، فقاتل وقاتل الناس معه، والمسلمون ثابتون في صفوفهم، واستشهد زيد طعنا بالرماح. ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى استشهد، ويقال وجد بجثمانه اثنتان وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح. وأخذ اللواء بعده عبد الله بن رواحة فقاتل حتى استشهد. وسقط اللواء فأخذه ثابت بن أقرم، ودفعه إلى خالد بن الوليد، وكان جاء مع فرسان الجيش، وقال له: أنت أعلم منى بالقتال، فأخذه خالد، وجعل الأعداء يهجمون عليه فثبت ودفعهم عنه، وارتدوا، وحمل معه أصحابه ففضّ جمعا من جموع الأعداء، ثم هجموا عليه، فعرف كيف ينحاز بالمسلمين وينقلد الجيش ويعود به إلى المدينة. وكل من قُتل منهم في المعركة اثنا عشر فيهم أمراء الجيش المستبسلون.

أمراء الجيش
يستشهدون

إنقاذ خالد
للجيش

وحزن الرسول لاستشهاد أمراء الجيش وقواده الثلاثة، فقد كان زيد صديقه منذ صباه وكان رفيقه في الدعوة للدين الحنيف، وقاتل في جميع غزواته، وخرج للرسول في بعوث كثيرة كان يعود منها دائما مظفرا منتصرا. وكان جعفر بن أبي طالب في الرابعة والثلاثين من عمره، وكان فارسا مقادما، وكان

من أوائل المسلمين مثل زيد. وكان عبد الله بن رواحة أحد النقباء الاثنى عشر الذين اختارهم الرسول ﷺ لأهل المدينة، وشهد مع الرسول جميع غزواته وكان من شجعان الخزرج وأبطالهم.

ب - غزوة ذات السلاسل

على نحو خروج الرسول في إثر قريش ليرهبها - بعد غزوة أُحُد ونجاحه في ذلك حتى كان عملاً من أعظم أعماله، رأى أن يرهب القبائل النصرانية في الشمال التي حاربت مع الروم في مؤتة مثل بلي وقضاة وجذام وغيرهما، واختار عمرو بن العاص قائدا لهذه الحملة، لأن أمه كانت بلوية أملاً في أن تنضم إليه سريعاً قبيلة بلي وتحارب مع جيشه، فعقد له رسول الله لواء في جمادى الآخرة سنة ثمان، وأرسل معه ثلاثمائة من أصحاب الشرف في المهاجرين والأنصار وضم إليه ثلاثين فارساً. وسار عمرو عشرة أيام ونزل على ماء بأرض جذام، وعرف أن القبائل التي يريد حربها في الشمال في جموع كثيرة فبعث رافع بن مكث الجهني إلى الرسول يخبره بجمعهم ويستمدّه، فأرسل إليه مائتين من سراة المهاجرين وكبارهم أمثال أبي بكر وعمر ومعهم عدة من الأنصار، وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواءً وأمره أن لا يختلف مع عمرو بن العاص. فلما لحق بعمرو، وأراد أن يؤم الناس في الصلاة تقدّم إليه عمرو بن العاص وقال له: إنما قدمت مدداً لي، وليس لك أن تؤمّني، وأنا الأمير على من معي ومن معك، فقال المهاجرون: كلا، بل أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه، فلما لجّ قال له أبو عبيدة - وكان حسن الخلق - انظر يا عمرو، واعلم أن آخر ما عهد إلى به رسول الله أن قال: إذا قدمت على صاحبك فلا تختلفا، وإنك والله إن عصيتني لأطعنك، فكان عمرو بن العاص يصلّي بالناس، وأصبح في خمسمائة من المهاجرين والأنصار يقودهم. وهذه هي روح المسلمين الديمقراطية التي نشأهم عليها الرسول، والتي جعلتهم يرتضون أن يتأمر عليهم ويقودهم شخص أسلم حديثاً في صفر بنفس السنة.

عمرو بن
العاص قائد
الحملة

طلب المدد

ووطئ عمرو بجموعه بلاد بليّ والقبائل الشمالية في أطراف الشام ودوَّخهم، وظل يبعث سراياه وكتائبه، وكلما سمع بجمع من القبائل ذهب إليهم فنفروا، وما زال يشنُّ عليهم الغارات حتى حدود الشام. ولما تأكد أنه استطاع أن يزيل أثر هزيمة مؤتة من نفوس القبائل النصرانية في الشمال رأى هو ومن معه من كبار الصحابة أن يعودوا إلى المدينة، وعادوا سالمين لم ينزلوا جيشا لعرب الشمال حتى حدود الشام، وبالتالي لم يغنموا غنيمة كبرى يقسمها الجيش، إنما كانوا يأتون بالشاة أو البعير، فيذبجونهما ويطعمونهما جميعا.

عودة عمرو بن
العاص ومن
معه

ج - بعوث

بعث رسول الله ﷺ في رجب من السنة الثامنة بعث الحَبِط وهو الورق المتساقط من الطلح، إلى حَيٍّ من جهينة على ساحل البحر الأحمر على بعد خمس ليالٍ من المدينة، وجعل قائده أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة. وأصابهم جوع شديد إذ لم يكن معهم ميرة، وكانوا يسرون على أقدامهم واضطروا إلى أكل الحَبِط المتناثر من شجر الطلح، واشترى لهم قيس بن سعد بن عبادة خمس جزائر، كل جزور بوسقين أو حملين من تمر يؤديها حين يرجع، ونحر للقوم كل يوم جزورا لمدة ثلاثة أيام، ورزقهم الله العنبر - وهو حوت كبير - ألقاه البحر إليهم فأكلوا منه اثنتي عشرة ليلة. وأمر أبو عبيدة بضلعٍ من أضلعه فنصبت، ومرَّ تحتها بعير يرحله فلم يصبه، ويقال إنه كان يجلس في ماقٍ العين من الحوت (حرف العين منه الذي يلي الأنف) الجماعة من الناس. ولم يلق هذا البعث أحدا من جهينة فعاد أدراجه إلى المدينة.

وفي شعبان من السنة الثامنة أرسل الرسول بعثا بقيادة أبي قتادة الأنصاري في خمسة عشر رجلا إلى أرض محارب بنجد وبها عشائر من غطفان، وعرض عليهم أبو قتادة الإسلام فأبوه، وسلَّ أبو قتادة سيفه ومن معه، فظفروا بهم، وحملوا النساء وساقوا إلى المدينة مائتي بعير وألف شاة وسببًا كثيرا فعزلوا الخمس للرسول، وكان سهم الرجل اثني عشر بعيرا وكان البعير يقدر بعشرة من الغنم.

بعث أبي قتادة
إلى محارب
وغطفان

وفي رمضان أرسل الرسول أبا قتادة الأنصاري في بعث ثان يقود فيه ثمانية رجال إلى بطن إضم على ثلاثة بُرْدٍ من المدينة، ولقيهم عامر بن الأضبط الأشجعي، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فبدر إليه محكم بن جثامة الليثي فقتله وأخذ بعيره وسليبه، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ولم يلقوا جمعا من غطفان وحاولوا أن يلحقوا برسول الله في مسيرته إلى مكة.

بعث ثان
لأبي قتادة
إلى إضم

٣

نقض قريش لمعاهدة الحديبية

أ - أبو بصير وجماعته

انفلت أبو بصير حليف بني زهرة من قريش عقب عمرة الحديبية وقدم على الرسول ﷺ في المدينة مسلما. وكتب الأخنس بن شريق وأزهر بن عبد عوف إلى الرسول كتابا مع خنيس بن جابر وخرج معه مولى يقال له كوثر. وفي الكتاب ذكر معاهدة الحديبية وما فيها من رد من قديم على رسول الله من قريش إليها، وسألا الرسول أن يبعث إليهما بأبي بصير كما تقضى بذلك معاهدة الحديبية. فأمر الرسول أبا بصير أن يرجع معهما ودفعه إليهما، فقال أبو بصير: يا رسول الله تردني إلى المشركين يفتنوني في ديني، فقال له: يا أبا بصير: إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا، ودفعه إلى خنيس وصاحبه. وانتهيا به عند صلاة الظهر إلى ذي الحليفة وبه مسجد، فصلّى به أبو بصير ركعتين بصلاة المسافر، وجلسوا للغداء وعلّق خنيس سيفه على الجدار، فسأله أبو بصير أقاطع سيفك هذا، فأجابه: نعم، فقال له: ناولنيه أنظر إليه، فناوله السيف، فعلاه به

وقتله. وفرَّ كوثر نحو المدينة وتبعه أبو بصير، وأخبر كوثر الرسول بما حدث، وأقبل أبو بصير، فقال: يا رسول الله وقتُ ذمَّتْكَ إذ أسلمتني إلى العدو، وقد امتنعت بديني من أن أفتن. فقال عليه السلام: ويل أمَّه مَحَشُ (موقد) حربٍ لو كان معه رجال! وقال لكوثر: ترجع به إلى أصحابك. فقال كوثر: ليست لي به قوة. فأطلق الرسول أبا بصير، وقال له: اذهب حيث شئت. فخرج إلى العيص (ناحية على ساحل البحر الأحمر في طريق قوافل قريش التجارية إلى الشام) وألقى إليه البحر بحيتان على ساحله فاقنات بها.

وكتب عمر بن الخطاب بخبره إلى المسلمين الذين حُبسوا بمكة، وقول الرسول له: وَيْلَ أمَّه مَحَشُ حربٍ لو كان معه رجال. وأخذوا يتسلَّلون إليه حتى بلغوا سبعين مسلماً، وضيَّقوا على قريش، فلا يمر بهم أحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم قافلة إلا اقتطعوا منها، ومرَّ بهم ركب قرشيٍّ ومعهم ثمانون بعيراً، فأخذوها جميعاً، وكانوا قد جعلوا أبا بصير أميراً عليهم، فكان يصلِّي بهم ويقرئهم القرآن.

وغاز قريشا صنيع أبي بصير ومن معه وشقَّ عليهم، فكتبوا إلى رسول الله يسألونه بأرحامهم أن يدخل أبا بصير ومن معه إلى المدينة فلا حاجة إلى قريش بهم، وبذلك طلبت قريش بنفسها نقض ما شارطت عليه رسول الله في معاهدة الحديبية من ردِّه على قريش من يقدم عليه من القرشيين وأن يدفعه إليهم. فكتب الرسول إلى أبي بصير أن يقدم عليه بأصحابه، وجاءه الكتاب وهو يحتضر وتوفي وهو في يده يقرؤه، فدفنوه، وأقبلوا إلى المدينة وهم سبعون، فرحب بهم الرسول والصحابه.

ب - أم كلثوم القرشية المسلمة المهاجرة لا تُردُّ - الكافرة تُردُّ

كانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط قد أسلمت بمكة، وكانت تخرج إلى بادية لها بها أهل فتقيم أياماً ثم ترجع. حتى عزمتم على السير مهاجرة، فخرجت يوماً كأنها تريد البادية على عادتها، فوجدت رجلاً من خزاعة فأعلمته بإسلامها،

فأركبها بغيره حتى أقدمها المدينة، فدخلت على أم سلمة زوجة الرسول، وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وأنها تتخوف أن يردها الرسول ﷺ. فلما دخل على أم سلمة أعلمته فرحاً بها، وذكرت له هجرتها وأنها تخاف أن يردها فنزلت آية سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَاغْتَبِهِنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآثُوهُمْ مَّا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكِيحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.

وقدم المدينة غداة قدومها أخوها: الوليد وعمارة وقالوا للرسول: أوف لنا بشرط معاهدة الحديبية. فأبى وقال: إنها لم تذكر شيئاً عن المرأة وردّها، ولأن الله أوجب عدم ردها هي وأمثالها. وقبلت قريش حكم رسول الله لأن المعاهدة ليس فيها ذكر للمرأة. ولم يعد صنيعه مع المرأة المتزوجة نقضاً للمعاهدة. وجاءت سبيعة الأسلمية مهاجرة هاربة من زوجها صيفى بن الراهب، وجاءت أميمة بنت بشر هاربة من زوجها حسان بن الدحداح. ولم يردّ الرسول إلى قريش واحدة منهن، وتزوجت أم كلثوم زيد بن حارثة وسبيعة وأميمة سهل بن حنيف.

ومن تنمة الآية السالفة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ﴾، فطلق عمر ابن الخطاب زوجتين ظلتا على كفرهما، هما قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة، وتزوجها معاوية، وأم كلثوم الخزاعية وتزوجها أبو جهم بن حذيفة. وطلق عياض ابن غنم أم الحكم بنت أبي سفيان بن حرب وتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفي. وجميعهم يومئذ مشرك.

ج - قتال بكر بن عبد مناة ومعها قريش لخزاعة نقض للمعاهدة

لما كانت معاهدة الحديبية دخلت بكر بن عبد مناة في عهد قريش وعقدها، ودخلت خزاعة في عهد الرسول وعقده: مؤمنها وكافرها. وكان لبني بكر بن عبد مناة عند خزاعة ثأر في الجاهلية، فلما كانت الهدنة بعد الحديبية وأمن الناس

بعضهم بعضا اغتصمت عشيرة من بنى بكر الفرصة في شعبان بالسنة الثانية من صلح الحديبية وطلبت إلى بعض أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح ضد خزاعة، فأمدوهم بذلك. وخرج إليهم من أشراف قريش صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو، وجلبوا معهم أرقاءهم وهجموا على خزاعة ليلا وهم آمنون، فقتلوا منهم ثلاثة وعشرين رجلا على ماء يسمى الوثير قرب مكة، وانهزمت خزاعة إلى الحرم، وبنو بكر وأشراف قريش لا يكفون عن قتلهم. ودخلت خزاعة دور مكة مستجيبة، وكان ذلك نقضا واضحا لمعاهدة الحديبية بين الرسول ﷺ وقريش.

وخرج من خزاعة عمرو بن سالم وبديل بن ورقاء في أربعين من خزاعة معهم، فقدموا على رسول الله ﷺ مستغيثين به مما أصابهم به بنو بكر بن عبد مناة وقريش، فوعدهم الرسول بنصرهم، وقال لهم: لن ينصرني الله إن لم أنصركم، وبذلك أصبحت حرب الرسول لقريش قاب قوسين أو أدنى.

د- سفارة أبي سفيان لشد عقد الحديبية

ولدت قريش، وأجمع أمرها على أن ترسل أبا سفيان إلى الرسول ليشد عقد الحديبية ويزيد في مدة الصلح. فقدم إلى الرسول ﷺ بالمدينة وقال له: يا محمد إني كنت غائبا في صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا في المدة، فقال الرسول ﷺ: ولذلك قدمت يا أبا سفيان؟ قال: نعم. قال الرسول: هل حدث عندكم حدث؟ (وهو يعلم حدث الحرب بين خزاعة وبكر بن عبد مناة ومعها قريش) فقال أبو سفيان: معاذ الله. قال الرسول: فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا بدّل.

وقام أبو سفيان فدخل على ابنته أم حبيبة زوجة الرسول، فلما حاول أن يجلس على فراش الرسول طوته دوله، وقالت له: أنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية لقد أصابك بعدى شر. فقالت: يا أبت أنت سيد قريش وكبيرها، كيف

أبو سفيان
مع ابنته

يسقط عنك دخولك في الإسلام، وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر؟ قال: يا عجباه، وهذا منك أيضا؟ أأترك ما كان يعبد آباي وأتبع دين محمد؟

ثم خرج من عند ابنته، فلقى أبا بكر، فحدثه، وقال له: تكلم محمدًا أو تجير أنت بين الناس؟ فقال له: جوارى في جوار الرسول. ثم لقي عمر فكلّمه بمثل ما كلّم به أبا بكر، فقال له عمر: والله لو وجدت الدرّ يقاتلكم لأعنتها عليكم. فقال له أبو سفيان: جُزيت من ذى رحم شرا. ثم دخل على عثمان فقال له: ليس في القوم أحد أقرب بي رحما منك، فرد الهدنة وجَدّد العهد، فإن صاحبك لن يرده عليك أبدا. فقال له: جوارى من جوار رسول الله. فدخل على فاطمة بنت الرسول وكلّمها في أن تجير بين الناس، فقالت له: إنما أنا امرأة. قال لها: مَرى أحد ابنك يجير بين الناس. قالت: إنما هما صبيان، وليس مثلهما يجير. فجاء إلى علي بن أبي طالب فقال: يا أبا حسين أجِرْ بين الناس أو تكلم محمدًا يزيد في المدة. فقال له: ويحك يا أبا سفيان إن رسول الله عزم على أن لا يفعل ولا أحد يستطيع أن يكلمه في شيء يكرهه. فقال له أبو سفيان: يَسْرُ لي أمرى فإنه قد ضاق على الرأي. فقال له: أنت سيد كنانة فأَجِرْ بين الناس. فقال له: هل يغنى ذلك عني شيئا. فقال له: لا أظن، ولكنى لا أجِد لك غيره. فقام بين الناس، فقال: إني قد أجرت بين الناس ولا أظن محمدًا يُخفّرني (يغدر بي). ودخل على الرسول فقال: يا محمد ما أظنك تردُّ جوارى. فقال له الرسول: أنت تقول ذلك يا أبا سفيان! وخرج من عنده إلى سعد بن عباد، وقال له: لقد عرفت ما كان بيني وبينك فقد كنت لك في قومي جارا وكنت جارا لي في قومك فأَجِرْ بين الناس وزد في المدة. فقال له: جوارى في جوار رسول الله وما يجير أحد على رسول الله.

كبار الصحابة
يردّون أبا
سفيان

وركب أبو سفيان راحلته وانطلق إلى مكة وقد خابت سفارته، وقالت له قريش: هل جئنا بكتاب من محمد أو زيادة في مدة أماننا من أن يغزونا؟ فقال: والله لقد أبى عليّ، وكلّمت أصحابه فما قدرت على شيء منهم. وعرفوا منه أن سفارته أخفقت ولم يرجع لهم بطائل.

فتح مكة

رحل أبو سفيان راجعا إلى مكة، وقال الرسول لعائشة: جَهِّزِينَا وَأَخْفِي الْأَمْرَ، وَتَوَجَّهْ إِلَى اللَّهِ دَاعِيَا: "اللَّهُمَّ خُذْ مِنْ قَرِيشِ الْأَخْبَارِ وَالْعِيُونَ حَتَّى نَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً". ودخل أبو بكر على عائشة وهي تجهِّز لرسول الله ﷺ، تعمل قمحا سويقا، فقال لها: أهما رسول الله بغزو؟ قالت: ما أدري. فقال: إن كان همَّ بسفر فاعلمينا تنهيا له. قالت: ما أدري، لعله يريد بنى سليم، لعله يريد ثقيفا، لعله يريد هوازن، واستعجمت عليه. فدخل على الرسول وسأله هل أردت سفرا؟ قال: نعم. قال أبو بكر: أفأتجهِّز؟ قال: نعم. قال: فأين تريد يا رسول الله؟ قال: قريشا، وأخف ذلك يا أبا بكر. فقال له: أليس بيننا وبينهم مدة؟ قال: إنهم غدروا ونقضوا العهد (مشيرا إلى حربهم مع بنى بكر بن عبد مناة لخزاعة حليفته) وأنا غازيهم، فاطو ما ذكرت لك. وأمر الرسول الصحابة بالجهاز، وطوى عنهم الوجه الذي يريد، فمن قائل إنه يريد الشام ومن قائل إنه يريد ثقيفا أو هوازن.

ولما عزم على السير إلى مكة وعرف ذلك الناس أو بعضهم كتب واحد من الصحابة هو حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بما عزم عليه الرسول، وكان كتابه إلى ثلاثة نفر منهم: صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل، يقول فيه: إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم وقد أحببت أن يكون لي عندكم يث بكتابي إليكم. وأعطى الكتاب إلى امرأة من مزينة، وقال لها: أخفيه ما استطعت. فحملته في رأسها وفتلت عليه شعرها. وأتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليا والزبير وقال لهما: أدركا هذه المرأة فقد كتب معها حاطب كتابا يحذر قريشا. فأدركاها، فاستنزلاها والتمسا الكتاب في رحلها فلم يجدها، وقالوا لها: لتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك عارية. ولما رأت منهما الجدة قالت لهما: أعرضا عني قليلا. فأعرضا

حاطب بن أبي
بلتعة وعفو
الرسول عنه

عنها، فحَلَّتْ خصل شعرها واستخرجت منها الكتاب، فجاء به رسول الله فدعا حاطباً، وأراه الكتاب وقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيَّرت ولا بدَّلْتُ، لكني كنت امرأةً ليس لي في القوم أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم أهل وولد، فصانعتهم. قال عمر: دَعْنِي - يا رسول الله - أضرب عنقه فإنه قد نافق. فقال له الرسول: وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع يوم بدر على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وعفا عنه الرسول رحمةً لأنه من أهل بدر وإشفاقاً، مع عظم ذنبه. ومضت المرأة إلى مكة وكان اسمها سارة، وكانت مغنّية وارتدَّت وأخذت تتغنّى بهجاء رسول الله ﷺ.

وأرسل رسول الله إلى أهل البوادي وإلى من حوله من المسلمين يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسلاً في كل ناحية وقدم أهل البوادي عليه، قدمت أسلم وغفار ومُزَيْنَة وجُهينة وأشجع وبنو كعب، ولحقته بنو سليم في قُدَيْد. وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس، وكان الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس، وكانت مزينة ألفاً ومعها مائة فرس ومائة درع، وكانت أسلم أربعمائة ومعها ثلاثون فرساً، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرساً، وكانت بنو كعب خمسمائة، وكانت بنو سليم ألفاً بخيولهم غير طوائف من قيس وأسد وتميم وغيرهم من سائر العرب.

الرسول يعدّ جيشاً ضخماً

وخرج رسول الله لفتح مكة في عَشْرِ خَلَوْنٍ من رمضان في السنة الثامنة للهجرة، وخرج المسلمون وقادوا الخيول وامتطوا الإبل، وكانوا عشرة آلاف، وقيل بل اثني عشر ألفاً، وقدم الرسول الزبير بن العوام أمامه في مائتين. ولما خرج من المدينة قال: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلْيَصُمْ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَفْطُرَ فَلْيَفْطُرْ، ولحقه في الطريق عُيَيْنَة بن حصن سيد فزارة مسلماً ومثله الأقرع بن حابس أحد سادة بني تميم في عشرة من قومه مسلمين جميعاً. ورأى الرسول في طريقه كلبة تهرُّ على أولادها وتدبُّ وتدافع، وهن حولها يرضعنهن، فأمر جُعيل بن سُراقَة أن يقوم حذاءها حتى لا يتعرض أحد من الجيش لها ولأولادها رحمةً بها، ورحمته

خروج الرسول والجيش

الرافة بكلبة وأولادها في الطريق

بالحيوان فيها أحاديث كثيرة. وكان العباس عم الرسول هاجر مسلماً في تلك الأيام، فلقي الرسول بلدى الخليفة (موضع قرب المدينة) فبعث أهله ومتاعه إلى المدينة، وصحب الرسول غازياً، فالعباس - بذلك - من المهاجرين قبل الفتح، وقيل بل لقيه بالجحفة (قرب مكة) مهاجراً. وذكر الرواة أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة أخاً أم سلمة زوجة الرسول خرجا مهاجرين ولقيا الرسول قرب مكة فأعرض عنهما، ولما نزل في بعض الطريق استأذنا عليه فلم يأذن لهما فكلمته أم سلمة فيهما، وقالت: لا يكون ابن عمك وأخى أشقى الناس بك، فأذن لهما وأقبل منهما إسلامهما. ولما بلغ قديداً في منازل خزاعة لحق به بنو سليم: نحو ألف على الخيول جميعاً ومع كل رجل رمحه وسلاحه، فجعلهم مقدمته مع خالد بن الوليد.

واجتمع الجيش بمر الظهران (موضع على بعد خمسة أو ستة أميال من مكة) وقريش لا تعلم شيئاً عن مسيره، فأمر الرسول المسلمين أن يوقدوا النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نار. وبعث قريش أبا سفيان يتعرف الأخبار، وخرج معه حكيم بن حزام ابن أخت خديجة وبديل بن ورقاء الخزاعي، فرأوا بمر الظهران العسكر والنيران وسمعوا صهيل الخيل ورغاء الإبل وأفرعهم ذلك فرعاً شديداً. وكان العباس عم الرسول أهمه أمر قريش، فركب دُلْدُل بغلة رسول الله ﷺ آملاً أن يلقي رسولاً إلى قريش يخبرهم أن الرسول داخل مكة في عشرة آلاف، فسمع صوت أبى سفيان فناداه ورَّحَّب كل منهما بصاحبه، وقال العباس: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله في الناس ويا لصباح قريش فقال له: ما الحيلة؟ قال العباس: اركب خلفي إلى رسول الله، ورجع حكيم وبديل، وأخذ طريقه إلى العسكر مخترقاً صفوفه، والجنود لا يتعرضون له لأنه راكب بغلة رسول الله، ومرّاً على نار عمر فنظر إلى أبى سفيان فميزه، فقال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد. فقال له العباس: إننى أجرتك. وانطلق به وعمر فى أثره، وقال عمر: يا رسول الله هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد، فأذن لى أضرب عنقه. فقال العباس: مهلاً يا عمر فقد

العباس يسلم
ويهاجر قبل
الفتح
إسلام أبى
سفيان بن
الحارث وعبد
الله بن أبى أمية

لقاء العباس
وأبى سفيان

أجرته. وأمر الرسول العباس أن يحمله إلى رَحْله ويأتيه به صباحا، وأتى به النبي في الصباح، فقال له: ألم يَأْنِ (يَحِينُ) لك بَأْنُ تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وما أكرمك وما أوصلك لقد كان يقع في نفسي أن لو كان مع الله إله لكان يغني عني شيئا. فقال له: أما آْن (حان) لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال أبو سفيان: أما هذه فإن في النفس منها شيئا بعد. فقال له العباس: ويحك قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تُقتل. فطلق بالشهادتين وأسلم، فقال العباس للرسول: إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا. فقال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن". وكان ذلك أمانا لكل من لم يقاتل من أهل مكة.

إسلام أبي
سفيان ومن
دخل داره
فهو آمن

واختلف علماء السلف في فتح مكة هل فتحت مؤمنة، والأمان مثل الصلح أو فتحت عنوة وقهرا. ومن قال بالرأى الأول الإمامان: الشافعي وابن حنبل، وقال بالرأى الثاني الأئمة: الأوزاعي ومالك وأبو حنيفة؛ فقد قالوا إنها فتحت عنوة لأنها أُخذت غلبة بالخيْل والركاب. ويحتج أصحاب الرأى الأول بأنه لم يَجْر فيها قَسْمُ غنيمة ولا سُبَى أحد من أهلها، وظلوا مالكين لدورهم، ومن حقهم كراؤها وبيعها وشراؤها لأن من يؤمّن يحرّم ماله ودمه. وردّ أصحاب الرأى الثاني بأن مكة نُصِّت بذلك لما عظم الله من حرمتها، وأشار الرسول ﷺ إلى ذلك في خطبته غداة فتحها قائلا: "مكة حرام لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدى، وإنما أُحِلَّت لي ساعة من نهار، ثم هي حرام إلى يوم القيامة". واتفق العلماء على أنه لا يجوز القتال في مكة وما يتبعها من الحرم. وحرّمها قال الرسول إن شجرها لا يقطع وبالمثل شوكها، وحرّمت الغنيمة، وحرّم الصيد فيها، فإن وقع في يد أحد صيد فيها أرسله إلا ما يؤذى مثل العقرب والحية والسباع.

فتح مكة
قهرا

حرمة مكة

وأمر الرسول عمه العباس أن يقف بأبي سفيان في مضيق الوادي ليصبر بعينه جنود الله في هذا الجيش الضخم، وأخذت كتائب القبائل في الجيش تمرّ

بألويتها وراياتها والعباس يُعرفه بكل كتيبة أو قبيلة، فيقول له هذه قبيلة سليم ويذكر له عددها، وهذه غفار وهذه مزينة وهذه جهينة إلى غير ذلك من عشرات القبائل، وكل حامل لواء لقبيلته إذا حاذى أبا سفيان كبر بمن معه ثلاثاً ومضوا. وأخيراً أقبلت كتيبة رسول الله الخضراء وهو على ناقته القصواء ومعه المهاجرون والأنصار ومعهم الرايات والألوية وهم في الحديد لا يُرى منهم إلا الحدق، وعمر ابن الخطاب يسوَّى الصفوف ويمنعها من التفرق وله صوت عال كأنه الرعد. وكان في الكتيبة ألف دارع، وسعد بن عباد الأنصاري يحمل راية رسول الله أمام الكتيبة، فلما مرَّ بأبي سفيان، وهو واقف مع العباس نادى: اليوم يوم الملحمة (الحرب الشديدة) اليوم تُستحل الحُرمة، اليوم أذلَّ الله قريشاً، فلما حاذى أبا سفيان الرسول ناداه: أيا رسول الله هل أمرت بقتل قومك؟ وذكر له ما قاله سعد بن عباد، وإنى أنشدك الله في قومك، فأنت أبرُّ الناس وأرحم الناس وأوصل الناس، فقال الرسول: يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزَّ الله فيه قريشاً، وأرسل إلى سعد فعزَّله، وجعل اللواء لابنه قيس حتى يرضيه.

وأُسرع أبو سفيان فتقدم الناس مخافة أن تقتل قريش مع جيوش المسلمين، وصاح في القرشيين إنه لا قِبَلَ لهم بلقاء الجيوش الضخمة المقبلة. وصاح فيهم ثانياً: من دخل داره وأغلقها فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن. وكان العباس بن عبد المطلب يشترك معه في هذا النداء. وأمر الرسول ﷺ قواده أن لا يدخلوا مكة مجتمعين، بل يدخلوها متفرقين من طرق ومداخل مختلفة، حتى يفتَ ذلك في عضد قريش فلا تستطيع جماعاتها أن تقتتلهم في جميع مداخل مكة، وتضعف بالتالي مقاومتهم. وأمر الزبير بن العوام وكان على ميسرته أن يدخل مكة من أعلاها وأن ينصب رايته بالحجون، وتم له ذلك دون أن يعترضه أحد. وأمر خالد بن الوليد وكان على ميمنته أن يدخل بمن معه مكة من أسفلها، وكان أمر القواد بقتال من قاتلهم. ولم يكد خالد يصل بجموعه إلى أسفل مكة حتى وجد جمعاً غفيراً من قريش عليه السلاح، ويقودهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، حلفوا بالله جميعاً أن لا

قتال خالد

يدخل محمد مكة غنوة أبدا، وأبوا إلا قتال خالد فناوشهم أصحاب خالد القتال، واستشهد من المسلمين ثلاثة، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون ومعهم أربعة من هذيل وانهزم جمعهم ومعهم صفوان وعكرمة وسُهَيْل. ولهذا القتال يقول أكثر العلماء إن مكة فُتحت عنوة، ومع ذلك خُصَّت لمكانتها الدينية كما أسلفنا بأنه لا يكون فيها غنيمة ولا سبى.

ودخل رسول الله ﷺ إلى «أذاخر»، ونظر إلى بارقة، فقال: ما هذه البارقة؟ ألم أنه عن القتال؟ فقالوا له: خالد بن الوليد قوتل، فقاتل، فقال: قضاء الله خير. وكان أبو رافع ضرب للرسول بالحجون قبة (خيمة) من أدم، وكان يأتي المسجد من الحجون لكل صلاة، وكانت ابنة عمه أم هانئ بنت أبي طالب قد أجمعت قريبين لزوجها: هبيرة بن أبي وهب المخزومي هما عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي والحارث بن هشام المخزومي، فدخل عليها أخوها علي بن أبي طالب يريد قتلها، فقالت له: إني أجرتكما. فقال لها: تجيرين مشركين؟ فحالت دونهما وخرج، فذهبت إلى خيمة الرسول، فقال لها: مرحبا أم هانئ. فحككت له إجمعتها شخصين وأن أخاها عليا حاول قتلها، فقال لها: ما كان ذلك له، قد أمنا من أمنت وأجرنا من أجرت. وكان الوقت ضحى فصلّى ثمان ركعات ولبس السلاح وركب ناقته القصواء حتى انتهى إلى الكعبة، فتقدم على راحلته، فاستلم الركن بمِخْجَنِهِ (عصا معوجة الرأس) وكبر، فكبر المسلمون لتكبيره وارتجت مكة تكبيرا ثم طاف.

دخول
الرسول مكة

وكان على الكعبة وحولها ثلاثمائة وستون صنما مثبتة بالرصاص وهُبُل على باب الكعبة وإساف ونائلة. وجعل كلما مرّ بصنم أشار بقضيب في يده قائلا: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ فيقع الصنم لوجهه. وانتهى إلى المقام فصلّى ركعتين، وانصرف إلى زمزم وقُدّم له منها دلو ماء فشرب منه وجلس بالمسجد في ناحية منه وحوله الناس. وجاءته قريش فأسلموا طوعا وكرها، وقالوا: يا رسول الله اصنع لنا شيئا، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء (جمع طليق، وهو الأسير المحرّر)، وفي هذا القول ما يشهد للقائلين بأن

هدم الأصنام

إسلام قريش
ومبايعتها

مكة فُتحت قهرا وكان سؤاله لهم ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال لهم بلطف: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾. ثم اجتمعوا لمبايعته، فجلس على الصفا، وجلس عمر أسفل مجلسه يأخذ على الناس البيعة على السمع والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا. ثم جاء النساء فأخذن البيعة على عمر والرسول على الصفا. والإسلام دائما يسوَّى بين المرأة والرجل في جميع المسئوليات والواجبات الدينية.

وأرسل الرسول ﷺ بلالا إلى عثمان بن طلحة ليأتيه بمفتاح الكعبة إذ كانت لأسرته حجابتها أى سدانتها ومعها مفتاح الكعبة فمنعته أمه، فجاء أبو بكر وعمر فأعطته إليه، فأتى به رسول الله فلما تناوله قال العباس: يا رسول الله اجمع لنا (أى لبنى هاشم) السقاية (سقاية الحجاج وكانت معه) والحجابة. فأبأها عليه، وبعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب مع عثمان بن طلحة ليفتح الكعبة ولا يدع صورة إلا محأها سوى صورة إبراهيم الخليل فمحأها الرسول. ودخل الرسول الكعبة ومعه بلال وأسامة بن زيد فمكث فيها فترة وصلى بها ركعتين، الحجابة لبنى عبد الدار حتى وقال له ولأسرته من بنى عبد الدار: خذوها (أى الحجابة) خالدة تالدة إلى يوم القيامة. وخطب رسول الله ﷺ خطبة مشهورة ألغى فيها مآثر الجاهلية إلا سقاية الحجاج وحجابة البيت. وحانت صلاة الظهر فأمر الرسول بلالا أن يؤذن فوق ظهر الكعبة، وكان ذلك إيذانا صريحا بانتهاء عهد الجاهلية المظلم فى مكة والكعبة وانبثاق نور الإسلام فيهما إلى يوم الدين.

وكان الرسول ﷺ حين دخل مكة آمن الناس إلا ستة رجال وامرأتين استثناهم، أولهم عبد الله بن خطل وكان أسلم وبعثه الرسول مصدقا جامعاً للزكاة من إحدى القبائل ومعه مسلم فقتله وارته ولحق بالمشركين، فقتل يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة، وثانيهم الحويرث بن نقيذ وكان دائم الإيذاء للرسول وهو فى مكة وقتله على بن أبى طالب يوم الفتح، وثالثهم مقيس بن صُبابة كان أتى الرسول مسلما ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ولحق بمكة

المستثنون
من الأمان

مرتدا. وثلاثة آخرون استؤمن لهم فأمنهم وأسلموا وهم هبار بن الأسود الأسدي وعبد الله بن سعد بن أبي سرح استأمن له عثمان بن عفان فأمن وأسلم وحسن إسلامه، وولاه عثمان مصر وغزا تونس وافتتحها لأول مرة، وعكرمة بن أبي جهل استأمنت له الرسول ﷺ زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فأمنه ورحب به، وأسلم وحسن إسلامه وكان من فضلاء الصحابة واستشهد في موقعة اليرموك. وكان الرسول ﷺ أهدر دم قينتي ابن خطل فقتلت إحداهما واستؤمن للأخرى وأسلمت. وكان سهيل بن عمرو أغلق بابيه عليه وأرسل ابنه عبد الله إلى الرسول يستأمنه له فأمنه وأسلم بالجرعانة (موضع بين مكة والطائف) وحضر موقعة حنين واستأمن عمير بن وهب لصفوان بن أمية وكان قر متجها إلى اليمن فأمنه الرسول ورجع وأكرمه الرسول، وأسلم بالجرعانة.

وبعث الرسول البعوث حول مكة تدعو الناس إلى الإسلام ولم يأمرهم بقتال، وخرج خالد بن الوليد إلى بني جذيمة من كنانة، فقالوا له: نحن مسلمون. ولم يقبل إقرارهم بالإسلام وقتل منهم وسبا، فبعث الرسول بمال كثير مع علي بن أبي طالب، فدفع لهم دياتهم وبقي معه مال فأعطاه لهم قائلا إنه هدية لهم من رسول الله. وبعث خالد بن الوليد إلى بيت العزى بنخلة (بين الطائف ومكة) فهدمه. وبعث الطفيل الدوسي إلى صنم قبيلته، فحرقه بالنار. وبعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة فهدمها. وبعث عمرو بن العاص إلى صنم هذيل «سواع» فهدمه. وأقام الرسول ﷺ بمكة - على ما في صحيح البخاري - خمس عشرة ليلة، وقيل بل أكثر، وقيل بل أقل.

البعوث إلى
حدود مكة

هدم
العزى ومناة
وغيرهما

الفصل العشرون

من غزوة حُنين إلى تبوك

١

غزوة حنين

أقام المسلمون في مكة بعد فتحها نحو أسبوعين مبتهجين بما أفاء الله عليهم وعلى رسوله من فتحها دون قتال إلا بعض مناوشات ضئيلة، ومن دخول أهلها في الإسلام إلا قلة معدودة. ودوَّى هذا الفتح في الجزيرة العربية وخاصة بما اقترن به من تحطيم الأصنام بالكعبة. وأصبحت الجزيرة العربية على وشك أن يعمَّ فيها الإسلام إلا بعض جيوب محدودة، وكان أهمها جيب ثقيف بالطائف وقبائل هوازن من حولها. وما إن علمت هوازن بفتح مكة حتى ثارت ثائرتها خشية أن يغزوها الرسول وتدور عليها الدوائر، وجمَّع قبائلها سيدها مالك بن عوف النصرى وأجابه منها قومه بنو نصر وبنو جشم ومعهم سيدهم دريد بن الصمة، وبنو سعد الذين تربَّى الرسول ﷺ فيهم صبيًا وطائفة من بني هلال بن عامر، ولم يجه أحد من كعب ولا كلاب من هوازن، وأجابه ثقيف مع سيديها قارب بن عبد الله وذى الخمار سبيع بن الحارث. وأمرهم مالك أن يأتوا جميعًا بأموالهم من الإبل وبنسائهم وأبنائهم لحرب الرسول ونزلوا بوادي أوطاس في ديار هوازن، فقال دريد بن الصمة لقومه جُشَم: مالى أسمع رُغاء البعير ونهاق الحمير وُغناء الشاء! فقالوا له: ساق مالك مع الناس أموالهم وعيالهم، فقال: راعى ضأنٍ والله وهل يرد المنهزم شئ؟.

مالك بن عوف
يقود هوازن
وثقيفا ويأمرهم
باصطحاب
أسرهم

وكان الرسول ﷺ لا يزال يذكر أيامه في صباه بنى سعد من هوازن كما يذكر رحلته إلى الطائف قبل الهجرة بستين داعيا لهم إلى الإسلام ولم يجبه إليه أحد، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأسلحتها فأغارها له. وخرج لحرب هوازن في السادس من شوال، وولّى على مكة عتاب بن أسيد وعمره نحو عشرين سنة وجعل معه معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري يعلمهم السنن والفقه، وخرج معه لحرب هذيل اثنا عشر ألف رجل، عشرة آلاف جاءوا معه من المدينة لفتح مكة وألفان من أهل مكة الذين سماهم الرسول باسم «الطلقاء».

خروج
الرسول إلى
فتح هوازن

ومضى الرسول بجيشه الضخم لست من شوال سنة ثمان يريد أن يهاجم به هوازن، غير أنه كان على من يهاجمها أن يمر بواد مضيق يسمى وادي حُيْن، وكان يقضى إلى ما وراءه من وديان هوازن وسهولها، وعرف مالك بن عوف أن جيش المسلمين لابد أن يخترق هذا المضيق الذي تحفّ به الجبال، والذي لا يعطى الفرصة لجيش ضخم يمر به، بل لابد أن يمر به في جماعات صغيرة. فلما دخلت مقدمة الجيش من بنى سليم بقيادة خالد المضيق وكان مالك بن عوف قد جعل لها في جانبي المضيق كمينا يقدفهم بالنبال والسهم وكان مرورهم في سحر اليوم العاشر من شوال، فاضطربت المقدمة، وكانوا يخرجون على رجالها بالسيوف من الكهوف، فتراجع رجال المقدمة منهزمين لا يلوون، وتراجعت وراءهم القبائل البدوية لا يلوى أحد على أحد، والرسول يهتف بالناس أن يثبتوا في مواجهة العدو ولا أحد يجيبه.

مضيق
وكمين

وثبت معه أبو بكر وعمر وجماعة من أهل بيته وعشيرته والرسول على بغلته: دلدل، وعمه العباس آخذ بمحيط لجامها المستدير في قم البغلة وابن عمه أبو سفيان بن الحارث آخذ بمؤخرة السرج، والرسول يهتف في الفارين المنهزمين: أيها الناس إلى أين؟ أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله. وأمر عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادى في الأنصار والمهاجرين الذين وقفوا معه في حروبه ودافعوا لا يخشون الموت في خير وغيرها من الحروب، وقال للعباس: اهتف: "يا معشر الأنصار، يا معشر المهاجرين" فلما سمعوا صوت العباس

ثبات الرسول

أجابوا: لبيك، لبيك. حتى إذا اجتمع حول الرسول نحو مائة استداروا ليواجهوا المضيق واستحالت الهزيمة إلى نصر. واشتدت الحرب، وقال الرسول: الآن حمى الوطيس (نار الحرب) من أتونها، وقذف الله - عز نصره - فى قلوب هوازن ومن جمعهم معها المرعب. ومن أبلى فى هذا اليوم بلاء عظيمًا أبو طلحة الأنصارى وزوجته أم سليم، وانهزمت هوازن وهلك منها العيال والأموال، واستحرَّ القتل فى ثقيف، وقُتل منهم سبعون رجلاً ورئيسان هما ذو الخمار وأخوه عثمان، وكان قارب بن الأسود فرَّ بقومه حين اشتد القتال، واستحرَّ القتل فى بنى نصر أصحاب مالك بن عوف وقُتل دريد بن الصمة، وفرَّت هوازن إلى الطائف وإلى نخلة، وعسكرت جماعة منها فى أوطاس.

وبعث الرسول ﷺ إلى من عسكروا من هوازن فى أوطاس أبا عامر الأشعرى فى طائفة من المسلمين فيهم أبو موسى الأشعرى ابن أخيه فشدَّ على أبى عامر أحد أبناء دريد بن الصمة المسمى سلمة، فقتله، وحمل أبو موسى الأشعرى الراية من عمه، وشدَّ على سلمة بن دريد فقتله. وتفرق جمع هوازن بأوطاس، واستشهد من المسلمين أربعة رجال لا غير. وذكر الله - جلَّ شأنه - فى سورة التوبة كيف كانوا فرحين بكثرتهم وهُزموا ونصرهم الله قائلاً: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، فانتصروا انتصاراً عظيماً.

٢

الطائف - قسمة غنائم حنين - عمرة الرسول

أ- الطائف

اتجه الرسول بجيشه بعد غزوة حنين إلى الطائف وقومها من ثقيف وأرسل
بغنائم حنين إلى الجعرانة (بين مكة والطائف) لتقسّم هناك، ووجد فى طريقه إلى
إرسال الغنائم إلى الجعرانة

الطائف حصنا لمالك بن عوف فهدهم، وتقدم إلى الطائف، وكانت أمتع حصن، ودخل عندهم مالك بن عوف وكثيرون من هوازن ممن انهزموا معه. وعسكر الرسول بجيشه قريبا من حصن الطائف، فرمى الجيش بببل كثير أصيب به جماعة منه، فحوّل الرسول أصحابه إلى موضع المسجد المعروف بعد ذلك. وأقام الرسول على حصار الطائف بضع عشرة ليلة، وكان في إقامته تلك يصلى ركعتين بين قُبتين بيننا لزوجتين كانتا معه: زينب وأم سلمة، فلما أسلمت ثقيف بُنى مسجد على مصلاه. ونصب الرسول على حصن الطائف المنجنيق يُقال عمله بيده سلمان الفارسي، ويقال بل قدم به وبدبابتين بعض الصحابة واستطاعت ثقيف أن تحرق الدبابتين، وتقتل من المسلمين جماعة. ورأى الرسول أن ينتقم منهم بقطع أعنابهم، وأخذ الصحابة يقطعونها فناداه سفيان بن عبد الله الثقفي: يا محمد لِمَ تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن انتصرت علينا، وإما أن تدعها لله وللرحم كما زعمت. فقال الرسول: إني أدعها لله وللرحم. وكفّ الصحابة عنها، ونادى منادى الرسول عبيد ثقيف: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرّ. فخرج إليه بضعة عشر رجلا، منهم أبو بكرّة نقيع تدلّى من الحصن ببكرة إلى الرسول فسُمّي أبا بكرّة، فأعتقهم جميعا حين جاءوه، ودفع كل شخص منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمّله، وأمرهم أن يقرئوهم القرآن ويعلموهم السنن. وكان بُجَيْر بن زهير بن أبي سلمى الشاعر ابن الشاعر شهد غزوتي حنين والطائف.

حصار الطائف

ولما طال الحصار على الطائف، وكانت عند أهله متونة كبيرة واستشهد في حصارهم بضع عشرة من المسلمين رأى الرسول ﷺ من الأفضل رفع الحصار عن الطائف، فأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل. وشق على المسلمين رحيلهم بغير فتح، فأمرهم أن يقولوا: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. ولما استعدوا للمسير قال لهم: قولوا: آييون إن شاء الله تائبون عابدون لربنا حامدون. وقيل له عند الرحيل: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف. فقال: اللهم اهدِ ثقيفاً إلى الإسلام.

رفع الحصار

دعاء الرسول
الرحيم

ب- قسمة غنائم حنين

ترك الرسول ﷺ حصار الطائف ومضى إلى الجعرانة بالقرب من حنين
 لخمس خلون من ذي القعدة والغنائم بها محبوسة وبالمثل السبي وكان ستة آلاف،
 وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير وناقدة، وكانت الغنم أربعين ألفاً. وأمر
 الرسول ﷺ بن سفيان الخزاعي أن يقدم مكة فيشتري للسبي ثياباً يكسوهم
 وكساهم جميعاً. واستأنى الرسول ﷺ بالسبي لا يقسمه متربصاً أن يقدم وفدهم، وبدأ
 بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، وأعطى غيرهم. وجاء وفد
 مجي وفد هوازن
 هوازن مسلمين راغبين في العطف، فقال لهم: قد كنت استأنت في قسمة السبي
 فلم تحضروا، وأنا أسألكم: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا له:
 خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا وما كنا نعدل بالأحساب شيئاً فردوا علينا أبناءنا
 ونساءنا. فقال لهم: أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب وبنى هاشم فهو لكم،
 وأسأل لكم الناس، فإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إنا نستشفع
 برسول الله على المسلمين وبالمسلمين على رسول الله. فقال عليه السلام: أما ما
 كان لي ولبنى عبد المطلب وبنى هاشم فهو لكم، وقال المهاجرون والأنصار: أما
 ما كان لنا فهو لرسول الله. وامتنع الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن
 الفزاري مع قومهما أن يردوا عليهم شيئاً مما وقع لهم، وامتنع العباس بن مرداس
 مثلهما أن يرد شيئاً من السبي، غير أن قومه من بني سليم قالوا: ما كان لنا فهو
 لرسول الله. وجارتهم القبائل البدوية في ذلك، فقال الرسول ﷺ: من ضمن
 منكم بما في يديه من السبي نعوضه منه. فردّ عليهم الرسول ﷺ نساءهم
 وأبناءهم، وعوض من لم تطب نفسه بترك نصيبه من السبي أعواضاً رضوا بها؛
 وهي مائة إنسانية عظيمة له، وكان يصطنعها دائماً في غزوه كما مرّ بنا في
 غزوة بني المصطلق، إذ كان دائماً يكرم النساء العربيات أن يصبحن سيئات.
 وكان بين أسيرات هوازن امرأة متقدمة في السن طلبت لقاء الرسول، ولما رآته
 قالت له: يا محمد أنا الشيماء أختك في الرضاعة من أُمي حليلة في بني سعد.
 فقربها منه وبسط لها رداءه فجلست معه عليه كما كانت تجلس بجواره حين كانا

مائة

إنسانية

الشيماء

صبيين، وأعلنت له إسلامها وأعطاهما ثلاثة أعبد وجارية ومالا، ورجعت إلى قبيلتها مسرورة بقاء الرسول أخيها في الرضاة وبدينها وبهداياها لها.

ورأى الرسول أن يتألف قلوب أشرف قريش والعرب بأعطيات من الإبل الكثيرة التي غنمها في حنين، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وبالمثل لابنيه يزيد ومعاوية ولحكيم بن حزام والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وسهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزى وصفوان بن أمية والعلاء بن جارية، وبالمثل أعطى عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس التميمي ومالك بن عوف النصري الذي جمع له هوازن وثقيفا وغيرهم. وقال لوفد هوازن إن جاءني مسلما رددت إليه أهله وماله، وبلغ ذلك مالكا في ثقيف ففرّ منها ليلا وقدم على الرسول في الجعرانة، فرد عليه ماله وأهله وأعطاه مائة من الإبل، واستعمله على قومه وعقد له لواء، فأغار على المشركين وثقيف وغنم وحسن إسلامه. هؤلاء أصحاب المئين، وأعطى الرسول رجالا من قريش والعرب دون المائة، منهم عباس ابن مرداس السلمي وتسخط شعرا أن لم يأخذ مائة، فقال الرسول: كفّوا لسانه عني، فأعطوه حتى رضى. وكل ما أعطاه الرسول إنما كان من خمس الغنيمة الذي أجازته له سورة الأنفال. وعند إعطاء الرسول ﷺ هذه العطيات قيل إنه تعرض له رجل يسمى ذا الحويصرة التميمي قائلا: قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم يا محمد، فقال له الرسول ﷺ كيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت. فغضب الرسول ﷺ وقال له: ويحك إن لم يكن العدل مني فمَنْ من يكون؟ فقال عمر للرسول: دَعْنِي أضرب عنقه يا رسول الله. فقال: لا، دعوه فسيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية.

ودخل سعد بن عباد على الرسول ﷺ فقال له: يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم بما صنعت في هذا الفيل الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت قوما من العرب عطايا عظاما ولم يكن في هذا الحى من الأنصار منها شيء. فقال له: اجمع لى قومك. فجمع سعد له الأنصار فأتاهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر الأنصار ما قاله بلغتنى عنكم

أعطيات
المؤلفة قلوبهم

موقف بعض
الأنصار

موجدة وجدتموها في أنفسكم، أما والله لو شئتم لقاتم فصدقتهم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك، وعائلا (فقيرا) فواسيناك، أوجدتكم - يا معشر الأنصار - في أنفسكم في لعاعة (بقية ضئيلة) من الدنيا تألفت بها قوما ليُسلموا ووكلتكم إلى إيمانكم، ألا ترضون - يا معشر الأنصار - أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟ والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا وسلك الأنصار شِعْبًا لسلكت شِعْب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا. وانصرفوا راضين.

وأمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ووَزَّعَها على الناس، وكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة، وإن كان فارسا أخذ اثنتي عشرة من الإبل أو مائة وعشرين شاة.

ج- عمرة الرسول من الجعرانة

بعد أعطيات المؤلفة قلوبهم خرج الرسول ﷺ من الجعرانة إلى مكة لاثنتي عشرة ليلة من ذى القعدة، وأحرم للعمرة ولَبَّى حتى استلم الركن، وطاف فرمل في الأشواط الثلاثة مهرولا. ولما أكمل طوافه سعى بين الصفا والمروة على راحلته ثم حلق رأسه عند المروة ولم يَسُقْ هَذِيًا. وكان قد استعمل على مكة عتاب بن أسيد، وخلف معه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يعلمان الناس القرآن والتفقه في الدين، وقال لعتاب: استعملتك على أهل الله وبلغ عني أربعاً: لا يصلح شرطان في بيع، ولا بيع وسلف، ولا بيع ما لم يُضْمَن، ولا يأكل أحد ربح ما ليس عنده.

وفي هذه السنة: سنة ثمان بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جَيْفَر وعمر بن الخطاب بن الجَلْدِي بَعْمَان مَصْدَقًا، فأخذ الصدقة من أغنيائهم وردّها على

عتاب بن أسيد
وال على مكة

بعث عمرو بن

العاص إلى ابني

الجلندي

فقرائهم، وأمره أن يأخذ الجزية من مجوس عُمان، وبذلك عامل المجوس معاملة أهل الكتاب. وفي هذه السنة أقام عتّاب بن أسيد الحج للناس، وحج الناس على ما كانت عادة العرب في الحج، وحجّ ناس من المشركين على عادتهم. وكان عتّاب خيرا فاضلا.

أخذ الجزية من
مجوس عمان

ودخل الرسول ﷺ المدينة لستّ بقين من ذى القعدة، وكانت غيبته عنها منذ خرج إلى مكة في اليوم العاشر من رمضان فافتحها ودخلت راضية في الإسلام، وأعانه منها ألفان في معركة هوازن وفي حصار الطائف مدة شهرين وستة عشر يوما. ولما قفل الرسول ﷺ عائدا قال لأصحابه: قولوا: آيئون، تائبون، عائدون، لربنا حامدون. وقال له بعض الصحابة: يا رسول الله ادع الله على ثقيف، فقال: اللهم اهدِ ثقيفا وآت بهم. وفعلا آتاه بهم.

عودة الرسول
إلى المدينة

٣

مولد إبراهيم - اتفاق زوجات الرسول ﷺ عليه أ- مولد إبراهيم

في السنة التي فُتحت فيها مكة، وهي السنة الثامنة للهجرة توفيت ابنة الرسول زينب الكبرى بناته، وكان يعزّها. وتزوجت - كما مرّ بنا - ابن خالتها أبا العاص بن الربيع، وكانا متحابين. ولم تكد تنتهي هذه السنة حتى بُشّر الرسول في شهر ذى الحجة بميلاد جاريته مارية القبطية بابنه إبراهيم. ولم تكن تنزل بجوار المسجد مثل زوجات الرسول، إذ أنزلها الرسول في العالية أو العوالي من ضواحي المدينة، وكان الذي بشّره بميلاد ابنه أبو رافع زوج سلمى قابلتها فوهب له عبدا، وذبح لابنه في يوم سابعه كبشا احتفالا به، وحلق أبو هند رأسه، فتصدق الرسول بوزن شعره فضة فرّقها على المساكين، وسماه إبراهيم تيمنا باسم إبراهيم الخليل جد الأنبياء.

بشّر الرسول
بابنه إبراهيم

وأخذ الرسول ﷺ يكثّر من زيارة مارية والمكث عندها للمتاع برؤية ابنه. ومنذ ولدته مارية دبّت غيرة شديدة بين زوجات الرسول من تلك الجارية القبطية التى ولدت للرسول طفله. وحتى عائشة العاقلة الذكية لم تكن تخفى ذلك، فقد حمّله الرسول إليها فرحاً به، وقال لها إنه يشبهنى، فقالت له: إنه لا يحمل أى شبهه بك.

غيرة زوجاته

وحدث أن مارية جارية الرسول جاءت، وكانت حفصة ذهبت فى زيارة إلى والدها، فاختلأ بها فى منزلها، وصادف ذلك عودة حفصة، فثارت ثورة شديدة على الرسول، وقالت له: إنك أدخلت مارية بيتى لم صنعت هذا بى من بين نسائك؟ إنك ما صنعت إلا من هوانى عليك، فهذاها وقال إرضاء لها إنها حرام إن قربت منها، فقالت له: كيف تحرم عليك وهى جاريك ومملوكتك؟ فحلف لها أنه لن يقربها، ثم قال لها: لا تذكرى شيئاً من ذلك لعائشة. وكانتا متصادقتين متواتتين.

لقاء الرسول
بمارية فى بيت
حفصة

ولم تلبث حفصة أن ذكرت الحادثة لعائشة، إذ جعلتها الغيرة من مارية لا تطيق كتمانها، وذكرت عائشة للرسول فعرف أن حفصة لم تصن سرّه. وأشاعت حفصة وعائشة الحادثة بين زوجات الرسول وما عزم عليه من عدم رؤيته مارية ولقائها، وغضب غضباً شديداً، فأنزل الله عليه سورة التحريم مفتتحاً لها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ معاتباً للرسول ﷺ، وأعقب الله ذلك بأنه شرع كفارة اليمين قائلاً: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ ولم تكن مارية زوجة له، إنما كانت أمة له مملوكة. والله - جل شأنه - يعاتب الرسول على تحريمه مارية على نفسه بيمين، ويأمره أن يكفر عنه، ويشير الله إلى قصة حفصة وإذاعتها السر الذى سأها الرسول كتمانها، ثم يتجه إلى حفصة وعائشة قائلاً: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ومالت إلى الخير ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أى وإن تعاونتما ضد الرسول ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

آيات سورة
التحريم

وقد تابت حفصة وعائشة من هذه الغيرة الشديدة من أم إبراهيم التي دفعتهما إلى إغراء عامة زوجات الرسول بالغيرة عليه من مارية، يقول عمر بن الخطاب - كما في البخاري رواية عن أنس: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فنزل قوله تعالى عقب ذكره الحادثة السالفة ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾. ويصف الله لزوجات الرسول أنه إن طلقهن يبدله الله خيرا منهن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا. ويصف الله لزوجات الرسول أنه إن طلقهن يبدله الله خيرا منهن مسلمات مؤمنات قانتات أي مطيعات لله ورسوله، تائبات أي مقلعات عما يرتكبن من الذنوب، وكأن الله يذكر أنهن تائبات تحريضا لحفصة وغيرها من زوجات الرسول على التوبة من غيرتهن الشديدة، عابدات مقبلات على عبادة الله سائحات أي مهاجرات مثل حفصة وعائشة وقيل بل صوامات، ثيبات مثل حفصة وصواحبها من زوجات الرسول وأبكارا مثل عائشة.

توبة حفصة
وعائشة

وذهب بعض المفسرين إلى أن سبب نزول آيات سورة التحريم ليس ما قدمناه من خلوة الرسول في بيت حفصة بمارية أم إبراهيم، وإنما سببه أنه دخل على زوجته زينب بنت جحش، وكانت امرأة أهدت إليها زقا من عسل النحل، ودخل عليها الرسول ﷺ، فسقته منه، ومكث عندها فترة، وعرفت عائشة ذلك، فقالت لحفصة: أما والله لنحتالن له. وكان من عادته إذا صلى العصر أن يدنو من إحدى زوجاته، فقالت لحفصة: إذا دنا منك فقلولي له: أكلت مغاير (صمغ شجر العرفط) وسبقول: لا. فقلولي له: ما هذه الرائحة التي أجدها منك؟ فسبقول لك: سقتني زينب عسلا. فقلولي له: جرست (رعت) نخله شجر العرفط. وسأقول له ذلك، وأعلمت بما دبرت سودة وصفية. وكان الرسول ﷺ كلما دنا من إحداهن قالت له: يا رسول الله أكلت مغاير. فيقول: لا. فتقول: ما هذه الرائحة التي أجدها منك؟ فيقول: سقتني زينب عسلا. فتقول له: جرست نخله العرفط. فنزلت آيات سورة التحريم. ويبعد أن تكون هذه الحادثة إن صحت سبب نزولها، والأصح ما ذكرناه أولا. والحادثة تدل على أن زوجاته كن دائما يستشعرن الغيرة إذا بدا إشاره لإحداهن حتى ياطالة جلسة مع

غيرة من زينب
بنت جحش

إحداهن. ومن المؤكد أن الغيرة ازدادت بهن من مارية القبطية حين ولدت للرسول إبراهيم، ولعل غيرة أزواجه الشديدة من مارية وابنها هي التي جعلت الرسول ﷺ يسارع إلى إبعاد إبراهيم عنهن في البوادي عند مرضعته خولة بنت المنذر في بني مازن، وعندها توفي بربيع الأول سنة عشرة من الهجرة وغسلته وحملته إلى أبيه على سرير صغير، فصلّى عليه وكبّر أربعاً ودفنه بالبقيع ورشّ عليه الماء.

ب - اتفاق زوجات الرسول ﷺ عليه

بدأ الرسول حياته في مكة على شيء من الثراء، إذ كانت أسرته من أشرف قريش، وكان قد وُلِدَ يتيماً وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب. وكان طبعاً حين شبّ أن يسعى في الحياة ليكسب عيشه، واستخدمته خديجة في تجارتها، وكانت أرملة وثرية ثراء طائلاً، وأعجبت بأمانته وخلقه الكريم وتزوجته، وأخلصت له منتهى الإخلاص وعاش معها هائلاً. غير أن تغيراً روحياً أصابه، فأخذ يعتزل مكة والناس، واختار غار حراء في جبل بجوار مكة ليقوم فيه مفكراً في أمر الكون وخالقه، وانصرف عن المتاع الدنيوي وجاءته الرسالة، فانسح في هذا الانصراف، وأقبل على الزهد في نعيم الحياة. حتى إذا هاجر إلى المدينة أخذ يعيش هو وزوجاته فيها على التقشف في الحياة، وهو تقشف كان يُرى في مسجده الذي خلا من كل زخرف وزينة، وبالمثل في دور زوجاته التي أحلقها بمسجده، وفي كل ما اتخذهن فيها من أثاث، وكان ينام مثلهن على حصير، وكان يعيش مثل زوجاته على الشريد والتمر واللبن، وكانت ثيابه وثيابهن بسيطة، وكان متواضعاً إلى أقصى حد، وكان يشترك مع زوجاته في بعض الأعمال بدورهن، فكان يخطط ملابسه ويخصف نعله ويحلب شاته، وكان يكره لنفسه ولزوجاته ارتداء الثياب الفاخرة. وهذه المعيشة القانعة التي تكتفي بالكفاف في المسكن والملبس والمطعم كانت زوجات الرسول ﷺ تقبلها برضا في سنوات الهجرة الأولى، إذ لم يكن عند الرسول ﷺ مال يستطيع أن يتسع به

انصراف
الرسول عن
المتاع الدنيوي

إقبال الرسول
على الشظف
والزهد

فى الإنفاق على زوجاته. غير أنه مع الزمن أخذ ورود المال للرسول يكثر منذ أصبحت أرض بنى النضير فى المدينة فيئاً أو مغنماً خالصاً له وللمهاجرين فى السنة الثالثة للهجرة، وفى السنة الخامسة صار له الخمس من أرض بنى قريظة ومغانمها، وكثر الخمس من مغانم البعوث ومغانم خيبر فى أوائل السنة السابعة للهجرة، وهذا المال كان يقفه على حروبه وصدقاته.

وقد ظل الرسول لا يأخذ من أموال أرض بنى النضير وما جاءه بعد ذلك من خمس الغنائم من قريظة وخيبر لنفقته ونفقة زوجاته إلا ما يقتضيه قوام حياته وحياتهم القائمة على الشطف والكفاف، وكان الباقي الكثير يُرصدُ شطر منه على السلاح والخيول والإبل عُدةً وأهبةً للحرب، وشطر يُنفق على الفقراء والمساكين والأرامل واليتامى والمحتاجين. ويبدو أن كثرة الغنائم جعلت بعض المهاجرين والأنصار ينفق على زوجاته وأهله عن سعة، وظلت نساء الرسول طويلاً ينتظرن منه السعة فى النفقة عليهن، وهو مشغول عن متاع الدنيا زاهد فيه، ومن حين إلى آخر كن يومئذٍ إليه ولا يلتفت، وبعد لأى ومطاوله امتدت سنوات، رأت زوجاته جميعاً مصارحته وأنهن جميعاً يُرذُن شيئاً من الترف فى المسكن والملبس والمطعم، وألحن عليه فى ذلك، وأخذ يضيق بهن ضيقاً شديداً، وصمم على أن يعتزلن جميعاً شهراً فلا يقرب فيه واحدة منهن أدباً لما أفرطن فيه من طلب الترف الدنيوى، واختار غرفة منعزلة فوق الدور ينام فيها ويقضى أوقات فراغه، وظل معتزلاً زوجاته فيها شهراً.

رغبة زوجات
الرسول فى
شىء من الترف
وزينة الحياة

وفى هذا الشهر تصادف أن عمر بن الخطاب غضب يوماً على امرأته فإذا هى تراجعته، فأنكر أن تراجعته، فقالت له: أتنكر أن أراجعك، ووالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال عمر: فانطلقت، فدخلت على حفصة، فقلت لها أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت له: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: أفأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله؟ ثم قال لها: لا تراجعى رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسلينى من مالى ما بدا لك.

مراجعة عمر
حفصة

وإنما سقنا هذا الخبر لما جاء فيه من قول عمر لابنته حفصة زوجة الرسول: "لا تسأليه شيئا وسليني من مالي ما بدا لك"، مما يدل - بوضوح - على أن زوجات الرسول - حفصة وزميلاتها - كن يطلبن من الرسول ﷺ مالا يتيح لهن شيئا من نعيم الحياة في الملبس وغير الملبس. ويقول عمر: إن رجلا أبلغه ذات مساء أن رسول الله ﷺ طلق زوجاته جميعا، فلما صلى الصبح لبس ثيابه ونزل فدخل على حفصة، وسألها: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، إنه معتزل في هذه المشربة أو الغرفة. وأشارت إليها، فأنى غلاما له أسود على باب الغرفة. فقال له: استأذن لي الرسول. فدخل الغلام وخرج وقال: إنه صمت ولم يأذن. ويقول عمر: فذهبت إلى المسجد فإذا بعض الصحابة مجتمعون عند المنبر، ويقولون: إن الرسول طلق زوجاته. فرجع إلى الرسول وقال للغلام قل: عمر يستأذن. فدخل الغلام على الرسول، واستأذن، فصمت الرسول هنيهة ثم أذن له، فدخل، فوجده متكئا على حصير أثر في جسده، فقال له: أطلققت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليه وقال: لا. فقلت: الله أكبر. ثم قال له: لو رأيتمنا - يا رسول الله - وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطلق نساؤنا يتعلمن من نساءهم، فغضبت على امرأتي يوما، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: تنكر أن أراجعك ووالله إن أزواج الرسول ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل؟ فذهبت إلى حفصة، وسألتها عن ذلك فقالت: نعم. فقلت: أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ﷺ فقال عمر: أستاذس. قال: نعم. فجلس وأخذ ينظر في الغرفة المتواضعة فلم ير فيها شيئا يردّ البصر إلا ثلاثة جلود، فقال لرسول الله ﷺ: اذعُ الله - يا رسول الله - أن يوسع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالسا، وقال: أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا. ولم يلبث أن نزل عليه قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ وَأَسْرَحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا. وَإِنْ

عمر وإشاعة
طلاق الرسول
لنساته

استئذان عمر
على الرسول
وتكذيب
الإشاعة

كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا. والله - جلَّ وعزَّ - يأمر رسوله أن يخير أزواجه بين أن يفارقه ويتزوجن غيره ممن يحصلن عنده على الحياة الدنيا وزينتها وترفها وبين أن يصيرن عنده على ضيق الحياة وشظف المعيشة وكفافها إرضاء لله ورسوله وانتظارا لما أعدَّهن في الآخرة من النعيم المقيم. وخيرهنَّ الرسول ﷺ بين الفراق ورضا الله ورسوله والدار الآخرة، فجميعهن رفضن الفراق وآثرن رضا الله ورسوله الذي آثر لنفسه ولهن الزهد في متاع الحياة وزينتها. والتمتع في الآية إعطاء الزوج زوجته حين يطلقها عطية جبرا لخاطرها، والسراح الجميل: الطلاق الجميل الذي لا يُصحب بغضب ولا كراهية ولا إيذاء. وقد روى البخاري عن عائشة أن الرسول حين جاءه الأمر بتخير أزواجه بدأ بي، فقال: إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تتعجلني حتى تستأمرى أبويك - وقد علم أن أبوي لم يكونا يسأمراني بفراقه - ثم قال إن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُمْ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذين أستأمر أبوي فيأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. وخير الرسول ﷺ جميع أزواجه، فقلن مثل ما قالت عائشة، وكن يومئذ تسعا: سنا من قريش: عائشة وحفصة وسودة وأم سلمة وأم حبيبة وزينب بنت جحش الأسدية، وثلاثا غير قرشيات: ميمونة بنت الحارث الهلالية وجويرة بنت الحارث المصطلقية وصفية بنت حبيّ النضيرية.

تخير الرسول
لزوجاته بين
الطلاق والرضا
بمعيشته

وفي الجزء السابق من تحزُّب زوجات الرسول ﷺ عليه وأنهن كن يراجعنه بينما لم يكن يسمح رجال مكة لزوجاتهم بمراجعتهن ما يشير إلى اختلاف الإسلام عن الجاهلية في معاملة المرأة، ومعروف أنه سوَّى بين الرجل والمرأة في الفروض والحقوق الدينية من صلاة وزكاة وصيام وحج ونعيم في الجنة، وورثتها ولم يكن أهل الجاهلية يورثونها، وأشركها مع الرجل في المسؤولية الاجتماعية والسياسية، وفرض لها حريتها في التصرف بأموالها، وأوصى الرسول الأزواج مرارا بحسن معاملتهم لأزواجهم، ومن قوله في ذلك "استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه

كسوته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء" وهو يشير بأعلى الضلع إلى لسانها وما قد يند عنها من ألفاظ نابية ينبغي أن يغفرها لمن الأزواج حتى تستمر العشرة ولا يحدث الفراق.

والرسول ﷺ كان مثلاً أعلى في حسن معاملته لزوجاته فكان يعاشرهن معاشرة كريمة فيرفق بهن ويجد عندهن المودة الصافية والسكينة والراحة والطمأنينة، وكمن يبادلنه المحبة والإخلاص، وقد سمّاهن أمهات المؤمنين رفعا لمعنوياتهن ومكانتهن بين المسلمين. وقد حرم عليهن الزواج بعده حتى لا يُكوّن أسراً وعشائر تتخاصم على الحكم، وحين اتفقن على التحزب ضده من أجل زيادة النفقة عليهن لم يدخل معهن أو مع إحداهن في جدال أو مغاضبة وشقاق، بل احتجب عنهن شهرا، حتى نزل الحكم الإلهي بتخيرهن السالف. وليس في هذا التخير وهجر الرسول لزوجاته شهرا ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن هذا الهجر كان بسبب حادث مارية وحفصة السالف كما يزعم بعض المستشرقين أو بسبب غيرة زوجاته عليه، إنما كان بسبب تحزبن عليه وطلبهن منه أن يتمتعن بالتزلف وزينة الحياة، وغُذّن إلى طاعة الله ورسوله، راضيات بما أراد لمن من الزهد والعيش الكفاف المقيم للحياة.

٤

جباة فريضة الزكاة وبعوثها - تبوك

أ- جباة فريضة الزكاة

أخذت كثرة القبائل العربية تعتنق الإسلام قبيل فتح مكة، وكان فتحها مؤذنا بأن ينتشر الإسلام في أقاصى الجزيرة العربية، وقد أسلمت هوازن، ولم يبق خارجا على الإسلام سوى ثقيف، وكل شئ يؤكد أنها لابد أن تستجيب قريبا لدعوة الدين الحنيف. فكان طبيعيا أن يهنأ الرسول ﷺ بانتشار الإسلام في الجزيرة العربية، إذ بلغت أضواؤه كل مكان فيها وكل ركن. ورأى الرسول في

أوائل السنة التاسعة أن يرسل الجُباة والبعوث إلى القبائل ليأتوه بضريبة الزكاة التي تعدُّ ركناً أساسياً مفروضاً على المسلمين. ومضى جباته ومن كانوا يرافقونهم إلى القبائل ولقيتهم بالترحاب، وأدت إليهم ما يجب عليها من الزكاة إلا ما كان من بعض القبائل والعشائر أبت أن تؤديها، فكان الرسول ﷺ يرسل إليهم بعض البعث فيذعنون لأدائها بعد مناوشات وقِصال. لذكر منهم عشيرة بنى العنبر التميمية، فإنها نهبت زكاة بنى خزاعة وبعث إليها الرسول عُيَيْنَةُ بن حِصْن الفزاري في خمسين فارساً، فخرج في آثارهم ولحقهم وأسر منهم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً وجلبهم إلى المدينة. وقدم على الرسول ﷺ وفد من تميم كان يتكون من عشرة من أشrafهم ورؤسائهم، وقام خطيبهم عطارد بن حاجب مفاخراً وردَّ عليه ثابت بن قيس فافحمه، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فألقى قصيدة مفاخراً فرد عليه حسان بن ثابت وأفحمه، وأعلنوا إسلامهم فأعتق النبي أسرى تميم وردَّهم إليهم.

بعث عيينة
إلى بنى العنبر

وأرسل قطبة بن عامر إلى خثعم فقاتلوه هو ومن معه وانتصر عليهم وساق النعم والشاء والنساء إلى المدينة. وأرسل الضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب وقتلهم وهزمهم. وقدم على الرسول وفد بليّ، وأرسل إلى رعية السحيمي كتاباً في جلد فرقع به دلو، فأرسل إليه بعثاً لتأديبه، فساق أهله إلى المدينة وأسلم فردَّ الرسول عليه أهله. وأرسل علقمة بن مجزَّر إلى أهل الشعبية، ثم أرسل على بن أبي طالب إلى صنم طيى، فهدمه وفي أثناء ذلك حاربوه فهزمهم وساق النعم والشاء والسبي إلى المدينة وكانت فيه سفانة بنت حاتم الطائي، فأكرمها الرسول وكان أخوها عدى نصرانياً ولحق بالشام فحسنت له الإسلام، فقدم على الرسول وأكرمه وأسلم وحسن إسلامه.

خروج قطبة
إلى خثعم

بعث على بن
أبي طالب إلى
صنم طيى

ب - تبوك

جاءت الرسول ﷺ الأنباء بأن الروم يهيئون جيشاً في البلقاء (بالأردن) لغزو حدود العرب الشمالية، وانضمت إليه قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة

الموالية لهم فصمّم على مبادرة هذا الجيش. ولم يكن من عادته أن يعلن عن وجهته في الحرب إلا في هذه الغزوة، فإنه أعلنها لبعده المسافة والحاجة المجاهد فيها إلى المال للنفقة، ولما كانت الغزوة تحتاج إلى مال كثير للنفقة عليها رغب رسول الله ﷺ أهل الغنى في الخير، وبادر المسلمون إلى ذلك حتى إن الرجل كان يأتي بالبعير إلى رجل أو رجلين ويقول لهما: هذا البعير بينكما تعتقانه. ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيهما بعض من يخرج، وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة جهّز بها جماعة من المُعسرين في تلك الغزوة، ورؤي أنه أنفق فيها ألف دينار. وأتت النساء بكل ما قدرن عليه من المعاضد والخلاخل والأقروطة والخواتم. واجتمع نفر من المنافقين في بيت سويلم اليهودي عند بئر جاسوم وأخذوا يشبّطون الناس عن الغزو، فبعث إليهم رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله في جماعة وأمرهم أن يجرّقوا عليهم البيت، وفرّوا. وأتى رسول الله في هذه الغزوة البكاءون وهم سبعة طلبوا إليه ما يحملهم فيها من الإبل، ولم يجدوا عنده ما يحملهم عليه فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما يُحمّلون عليه فسُمّوا البكائين.

صدقات
المسلمين
للإنفاق منها
على الجيش

وخرج رسول الله ﷺ إلى الغزوة في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، وكانت الغزوة في أول الخريف والطقس حار حرارة شديدة، والعام مجذب وطاب حينئذ أول الثمر. وتخلّف عن الغزوة عبد الله بن أبيّ في نيف وثمانين رجلاً من المنافقين وأهل الريب. وسار مع الجيش رهط من المنافقين رجاء الغنيمة. وتخلّف من صالحى المسلمين ثلاثة: كعب بن مالك ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وعزّ ذلك على الرسول، لأنه كان يعرف إيمانهم وفضلهم.

خروج الرسول
في الجيش

وكان الجيش ثلاثين ألفاً يتقدمهم عشرة آلاف فارس، وقطع الطريق الشاق في الحر الشديد حتى انتهى إلى الحِجْر من ديار ثمود قوم صالح، فأمر الرسول ﷺ أن لا يتوضّئوا من بئرها ولا يعجنوا خبزاً بمائها ولا يستعملوا شيئاً منه، فقليل له: إن قوماً عجنوا منه، فأمر بالعجين فطُرِح. وعطش الجيش عطشاً شديداً، فدعا الرسول ﷺ ربه فأرسل عليهم سحابةً ارتووا منها هم ودوابهم وإبلهم وأخذوا حاجتهم من الماء.

ومضى الجيش إلى تبوك وعرف الروم أمره فأثروا الانسحاب من البلقاء في الأردن، وعرف الرسول ﷺ انسحابهم فلم ير تعقبهم في أرضهم وحصونهم، وظل الجيش مرابطاً في تبوك نحو عشرين يوماً، وكاتب الرسول ﷺ الأمراء المقيمين على الحدود ليدعوا له أو يغزوهم، وجاءه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة في أعلى خليج سيناء وكان مسيحياً، وقدم إلى الرسول الهدايا والطاعة، فصالحه على الجزية وأن تؤدي أيلة إلى الرسول ثلاثمائة دينار سنوياً، وجاءه أهل جرباء وأذرح من أرض البلقاء وصالحوه على الجزية مثل أيلة. وفكر الرسول ﷺ في أمر أكيدر صاحب دومة الجندل القريبة في شمال نجد إلى حدود الشام، وكان نصرانياً موالياً للروم، فبعث إليه الرسول خالد بن الوليد في خمسمائة فارس بليلة مقمرة، وتصادف أن كان خرج منها مع أخيه حسان لصيد البقر فقتل حسان وأسر أكيدر، وساق خالد من مدينته ألفي بعير وثلاثمائة شاة وأربعمائة حمل بعير من بُر وأربعمائة درع، ولحق بالرسول - ومعه أكيدر - في المدينة، فعرض الرسول الإسلام على أكيدر، فأسلم وقيل بل ظل نصرانياً وصالحه على الجزية، وأصبح له حليفاً مثل يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة.

يوحنا بن رؤبة
صاحب أيلة

أهل جرباء
وأذرح

خالد وصاحب
دومة الجندل

وكان نفر من المنافقين بنوا مسجداً بالقرب من مسجد قباء لغرض الإضرار بجماعة المسلمين ومحاولة التفريق بينهم، وطلبت هذه الجماعة من الرسول أن يفتحه قبل خروجه إلى تبوك فاستمهلهم حتى يعود من الغزوة، وبمجرد عودته ومعرفته لمقصدهم منه أمر بإحراقه حتى يقضى على مكيدتهم وما يريدون من الطعن على الرسول والصحابة. وما كاد ينقضي شهران حتى توفي عبد الله بن أبي راسهم.

عودة الرسول
إلى المدينة

وجاء عامة من تخلفوا عن تبوك من المنافقين واعتذروا إليه، وقبل عذرهم، أما الصلحاء الثلاثة من المسلمين فاعترفوا للرسول بذنبهم في التخلف، وهم كعب بن مالك، ومرة بن الربيع وهلال بن أمية، وكلهم من الأنصار تخلفوا بدون عذر، فقال لهم: إني أترككم حتى يقضى الله فيكم. ونهى الرسول الصحابة عن كلامهم وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، وعفا الله عنهم بعد خمسين

كعب بن مالك
ومرة وهلال

ليلة، إذ يقول عنهم جل شأنه في سورة التوبة ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾^١ أى عن القضاء فى شأنهم فلم يعدلهم رسول الله ولا يأسهم من التوبة، فمعنى التخليف فى الآية الإرجاء، وبذلك فسّر كعب بن مالك أحد الثلاثة معنى ﴿خُلِّفُوا﴾ فى الآية، فقال فى حديث مروى عنه فى الصحيح: ليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو وإنما تخليفه إيانا إرجاؤه أمرنا، وقام الآية ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أى غفر لهم، بعد إرجاء الحكم فيهم وشعورهم بالحزن والهم والكرب لهذا الإرجاء ﴿لِيَتُوبُوا﴾ من الذنب ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تذييل يفيد الامتنان عليهم جميعا. وغزوة تبوك هى آخر غزوات الرسول ﷺ فلم يقيم بعدها بغزوة، إذ دخلت الجزيرة العربية جميعها فى الدين الحنيف.

الفصل الحادى والعشرون

من إسلام ثقيف إلى وفود بقية القبائل وموت إبراهيم

١

إسلام ثقيف - إسلام كعب بن زهير أ- إسلام ثقيف

عاد الرسول ﷺ من تبوك إلى المدينة ممثلاً بشراً وثقةً، فإن الروم تراجعوا في اللقاء، ولم يفكروا فى لقائه. وبادرت جيوب نصرانية على الحدود فى الشمال بينه وبين الروم مثل جرباء وأذرح فصالحته على أداء الجزية، ومثلها صاحب أيلة فى أعلى خليج سيناء وصاحب دومة الجندل فى شمالى نجد، وقيل إن صاحبها أثر اعتناق الإسلام .

وكان الرسول واثقاً من أن ثقيفاً ستدخل فى دين الله قريباً، إذ أسلمت القبائل من حولها، وخاصة قبائل هوازن الغيطة بها. وكان عروة بن مسعود الثقفى أحد سادة ثقيف غائباً عن الحصن فى أثناء غزوة الرسول فى حنين وحصاره للطائف، ورجع عقب فكه للحصار، وهدهاه الله لاعتناق الإسلام، فلاحق بالرسول ﷺ قبل دخول المدينة، فأعلن إليه إسلامه، واستأذن الرسول ﷺ فى أن يرجع إلى قومه ثقيف فيدعوهم إلى الإسلام، فقال: إنهم إذن قاتلوك، فقال له: لأننا أحب إليهم من أبكار أولادهم ثم استأذن ثانية وثالثة، فقال له: إن شئت

عروة بن
مسعود الثقفى

فأخرج. ووثق بمكانه منهم، فانصرف إليهم، ودخل الطائف عشاء، ودخل منزله، ولم يأت ربّتهم: اللات، وكانت صخرة تعبدها ثقيف بالطائف، جعلوا لها بيتاً سموه بيت الرّبة، يضاهون به الكعبة: بيت الله في مكة. ودعا قومه إلى الإسلام، فانصرفوا عنه، حتى إذا طلع الفجر أذن بالصلاة فرموه بالسهام، وأصابه سهم فقتله، ولحق ابنه أبو مُلَيْح وابن أخيه قارب بن الأسود برسول الله ﷺ فأسلما، ونزلا على المغيرة بن شعبة. وأوصى عروة أن يُدفن مع شهداء المسلمين في حصار الطائف، فدفن معهم.

ولم يلبث قوم ثقيف أن رأوا العرب في الجزيرة جميعاً دخلوا في دين الله وأن لا طاقة لهم بمحاربتهم وتضييقهم عليهم، فاتفقوا على أن يرسلوا رسولا إلى النبي من ساداتهم وشيوخهم، واجتمع رأيهم على إرسال عبد ياليل بن عمر، فخاف أن يُصنع به ما صنّع بعروة بن مسعود، فأبى، ثم رضى واشترط أن يرسلوا معه رجالا، فأرسلوا معه خمسة من رجالاتهم في شهر رمضان سنة تسع من الهجرة. ولما اقتربوا من المدينة رأهم المغيرة بن شعبة الثقفي، فعرفهم، وأسرع إلى الرسول يخبره بهم، ولقي أبا بكر، فعرف منه الخبر، وبشر أبو بكر به الرسول، وأتوه، فرحب بهم ونزلوا في دار المغيرة. وضرب لهم الرسول خيمات بناحية من المسجد، وكانوا لا يزالون على دينهم الوثني، فكانوا يستمعون إلى قراءة القرآن فيه ليلا وتهجد الصحابة، وينظرون إليهم وهم يصلون الصلوات المفروضة نهارا، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم الطعام من عنده في خيامهم أو في دار المغيرة، وكان الذي يمشى بينهم وبين الرسول خالد بن سعيد بن العاص. ومكثوا أياما يقدون على الرسول ويخلفون أصغرهم عثمان بن أبي العاص على رحالهم، وكانوا إذا رجعوا وناموا بالهجرة ذهب إلى الرسول ﷺ وسأله عن الدين فأقرأه القرآن، وأسلم سرا وهم لا يعلمون.

وظلوا يختلفون إلى الرسول وهو يدعوهم إلى الإسلام، وقال له عبد ياليل هل ستكتب بيننا وبينك كتاب صلح حتى نرجع إلى قومنا، فقال له: إن أنتم أقررتم بالإسلام كتبت بيني وبينكم كتاب صلح وإلا فلا صلح بيني وبينكم.

وقال له عبد ياليل: إنا قوم نتجر ونبعد عن نسائنا، ولا صبر لنا على العزوبة، فهل نسلم وتأذن لنا في الزنا ومضاجعة النساء، فقال له: بل هو مما حرم الله، قال عبد ياليل: فما الرأي في الربا، فقال له الرسول ﷺ: الربا حرام، فقال له عبد ياليل: إن أموالنا كلها ربا، قال الرسول له: لكم رءوس أموالكم، قال عبد ياليل: وما الرأي في الخمر فإنها عصير أعنابنا ولا بد لنا منها؟ قال الرسول: إن الله حرمها. وخلا بعضهم إلى بعض، وقال لهم عبد ياليل: أنرجع إلى قومنا بهذه الخصال، لا تصبر ثقيف عن الخمر ولا عن الزنا أبدا.

ومشى خالد بن سعيد بن العاص بينهم وبين رسول الله، ولانوا للإسلام وسألوا الرسول أن يترك لهم صنم اللات ولا يهدمها ثلاث سنوات فأبى رسول الله إلا هدمها، وسألوه أن لا يهدموا أوثانهم ولا يحطموها بأيديهم وقالوا إنما أردنا أن نسلم بتركها لسفهاتنا ونسائنا، ونخاف أن نروّع قومنا بهدمها إلى أن يدخلوا في الإسلام، وكانوا سألوه مع ترك عبادة اللات أن يعفيهم من الصلاة، فقال لهم: لا خير في دين بدون صلاة.

إسلام الوفد

وأسلموا وكتب لهم الرسول ﷺ كتاب الصلح - كنه خالد بن سعيد بن العاص - وتعلموا فرائض الإسلام، وصاموا بقية شهر رمضان، وأمر عليهم الرسول عثمان بن أبي العاص الذي أسلم قبلهم سرا، وقال له: اتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا، ومضوا إلى الطائف. وأرسل الرسول معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفي لهدم اللات، وكانت لأبي سفيان مصاهرة في ثقيف، وكان له فيها أرض، فأقام في أرضه وقال للمغيرة: ادخل أنت على قومك فلن يأخذوا على يدك. وأخذ المغيرة في هدم اللات، وحماه قومه. وخرج نساء ثقيف يبكين اللات مكشوفات الرؤوس ينحن عليهن. وهدمها المغيرة وأخذ ما كان عندها من مال وخلى ومضى بهما مع أبي سفيان إلى الرسول. وكان أبو مليح بن عروة بن مسعود وابن عمه قارب أسلما كما أسلفنا فطلبنا من الرسول أن يأمر المغيرة وأبا سفيان أن يقضيا دين أبويهما من مال اللات، فأمرهما بذلك. ودخل أهل الطائف جميعا في الإسلام، وعم جميع الجزيرة العربية.

تأمير عثمان
ابن أبي العاص
عليهمهدم المغيرة
اللات

ب- إسلام كعب بن زهير

تلحق كعب الشعر عن أبيه زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي المشهور وكان هو وأخوه بُجَيْرَ يرعيان الغنم، وسمعا بالرسول ورسالته، ولم يجد كعب رغبة عنده في الإسلام ولا في لقاء الرسول، أما بجير فإن الله ألهمه أن يلحق بالرسول ويعتق الدين الخفيف، بينما ظل كعب وثنيا مشركا بالله، وكان أخوه بجير يرسل إليه بأشعار يحثه فيها على الإسلام، فكان يرد عليه بأشعار آذى بعضها رسول الله فتوعدده.

وظل كعب على وثنيته بعد فتح الرسول ﷺ لمكة، وكتب إليه أخوه بجير يذكر أن الرسول قتل كل من يؤذيه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم، ونصحه أن يبادر إلى لقاء الرسول وإعلان إسلامه، ولم يجبه سريعا. ويقال إنه لما أسلمت ثقيف - ويقال بسل قبل إسلامها - شرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة، واتخذ أبا بكر شفيعا له عند الرسول، فلما سلم الرسول ﷺ من صلاة الصبح جاء به أبو بكر وهو متلثم بعمامته، فقال: يا رسول الله هذا رجل يبايعك على الإسلام، فبايعه وحسر كعب اللثام عن وجهه، وقال للرسول: أنا كعب بن زهير، وهذا مقام العائد بك. فأمنه، وألقى كعب بين يديه قصيدة لامية رائعة في مديحه، وفيها يقول:

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

وعفا عنه الرسول ﷺ وكساه بُرْدَةً كانت عليه، فسُمِّيَتِ القصيدة باسم البردة وعارضها الشعراء بعده مرارا وتكرارا.

٢

نهاية ابن أبي - حج أبي بكر بالناس
أ- نهاية ابن أبي

مرّ بنا أن أهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا على وشك أن يتوَّجَّوا ابن أبي عليهم، وهاجر الرسول ﷺ إليهم فلم يتم هذا التتويج، مما جعله يحمل

لِلرَّسُولِ شَيْئًا مِنَ الْمَوْجِدَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ وَجَدَ الْخَزْرَجَ وَالْأَوْسَ جَمِيعًا يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ، فَدَخَلَ مِثْلَهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ ظَاهِرًا، وَظَلَّ يَبْطِنُ الْحَسَدَ وَالْحَقْدَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَاجْتَمَعَ مَعَهُ عَلَى شَاكِلَتِهِ نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِهِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَبِذَلِكَ كَانَ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ فِي الْمَدِينَةِ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ الْإِسْلَامَ وَيَبْطِنُونَ الْكَيْدَ لَهُ وَلِرَسُولِهِ. وَمَرَّتْ بِنَا مَوَاقِفَ لَهُ ذَمِيمَةٍ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَقَدْ خَرَجَ مَعَ جَمَاعَتِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِلْإِشْرَاقِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ ثُمَّ انْصَرَفَ مَعَ جَمَاعَتِهِ قَبْلَ نَشُوبِ الْحَرْبِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْمُسْلِمِينَ، وَمَرَّ بِنَا أَيْضًا أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ بِغَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ حِينَ اخْتَصَمَ مَوْلَى لَهُ مَعَ مَوْلَى لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَبَلَغَهُ اخْتِصَامُهُمَا فَقَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا (يُرِيدُ نَفْسَهُ وَأَمَثَلَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ) الْأَذْلَ (مِنَ الْمُسْلِمِينَ). وَرَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وَكَانَ دَائِمًا يَعْتَذِرُ لِلرَّسُولِ وَيَقْبَلُ اعْتِذَارَهُ كَرَمًا مِنْهُ وَلُطْفًا.

وَمَرَضَ ابْنُ أَبِي فِي شَهْرِ شَوَّالٍ بِالسَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ وَظَلَّ مَرِيضًا عَشْرِينَ يَوْمًا وَمَاتَ فِي شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ، وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ آخِذًا فِي ذَلِكَ بِالْعَفْوِ عَنْ أَخْطَايَاهُ مَعَهُ وَمَعَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ لَهُ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أَيْ الصَّفْحَ عَنْ ذَنْبِ الْمَذْنِبِ وَاجْعَلْهُ صِفَةً لَكَ تُلَازِمُكَ؛ وَمَعْرُوفٌ أَنَّهُ عَفَا عَنْ كُلِّ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَهْمَا كَانَتْ إِسَاءَتُهُ إِلَيْهِ وَإِلَى الْإِسْلَامِ. وَدَخَلَ عَلَى ابْنِ أَبِي وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَسَأَلَهُ إِنْ مَاتَ أَنْ يَحْضُرَ غَسْلَهُ، وَطَلَبَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَعْطِيَهُ قَمِيصَهُ لِيَكْفَنَ فِيهِ، فَخَلَعَ قَمِيصَهُ الْأَعْلَى - وَكَانَ عَلَيْهِ قَمِيصَانِ - وَحَاوَلَ أَنْ يَنَاولَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ: بَلِ الَّذِي يَلِي جِلْدَكَ، فَتَزَعَّ قَمِيصَهُ الَّذِي يَلِي جِلْدَهُ، فَأَعْطَاهُ لَهُ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي: صَلَّى عَلَىَّ وَاسْتَغْفَرَ لِي.

تسامح الرسول
مع ابن أبي

وَحَضَرَ الرَّسُولُ ﷺ غُسْلَهُ وَكَفَنَهُ. ثُمَّ حُمِلَ ابْنُ أَبِي إِلَى مَوْضِعِ الْجَنَائِزِ، فَقَامَ الرَّسُولُ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَوُثِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُصَلِّيُ عَلَى ابْنِ أَبِي؟ وَأَخَذَ يَعِدُّدُ مَوَاقِفَهُ وَأَقْوَالَهُ مِنَ الرَّسُولِ وَالْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: تَأْخُرُ عَنِّي يَا عُمَرُ، فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرُنِي فَأَخْزَتْ - يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى لِلرَّسُولِ:

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ - ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له زدت عليها. وصلى عليه الرسول وأطال عليه الوقوف.

ويتجلى فى ذلك كله مدى تسامح الرسول مع أعدائه وبرّه بهم، فهذا ابن أبيّ كبير المنافقين الذى انسحب من الحرب فى غزوة أُحُد مع كتيبة من المنافقين. والذى قال فى غزوة المريسيع: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ (يريد نفسه) منها الأذلّ (يريد الرسول والمهاجرين) مع مواقف أخرى لا تقل سوءاً عن هذين الموقفين، ويغفر الرسول ﷺ لابن أبيّ كل ذلك حتى إذا طلب منه قميصه الذى على جلده أهدها إليه، وطلب منه حضور غسله عند الموت، فحضره وصلى عليه غافراً له كل إساءاته؛ إنه مثال التسامح والرحمة حتى لأعدائه.

تسامح الرسول
مع أعدائه

ب- حج أبى بكر بالناس

أخذت وفود القبائل من أنحاء الجزيرة العربية تتوالى بعد فتح مكة ودخول ثقيف فى الإسلام على المدينة لإعلان إسلامها للرسول ﷺ. وأخذت أشهر السنة التاسعة للهجرة تتعاقب حتى اقترب موعد الحج، وفكر الرسول ﷺ هل يحج بالناس هذا العام أو يؤجل حجه إلى العام القادم؟ وخاصة أن الكفار من قريش والجزيرة العربية سيحجون مع المسلمين على الصورة الوثنية التى كانوا يحجون بها فى الجاهلية، وكان رجال منهم يطوفون بالكعبة عراة ليس على أحد منهم ثوب، يعظمون بذلك حرمتها قائلين نطوف بالبيت كما ولدتنا أمهاتنا وليس علينا ثوب أو شئ من الدنيا خالطه ظلم. فكره الرسول أن يحج فى ذلك العام، وقرر البقاء فى المدينة، حتى يتم الله نعمة الإسلام على من لا يزال كافراً، وعهد إلى أبى بكر أن يحج بالناس فى هذا العام فخرج إليه فى ثلاثمائة مسلم، وبعث معه عشرين ناقة قربانا للنحر بمكة، وساق أبو بكر معها خمس بدنان، وحجَّ معه صديقه عبدالرحمن بن عوف من كبار الصحابة، وأهدى بدوره بدنان للنحر بمكة.

كراهية الرسول
الحج فى السنة
التاسعة

وأخذ الرسول ﷺ بعد خروج أبي بكر للحج يفكر في حج المشركين مع المسلمين، وقد تعهد أن لا يصد أحدا عن الكعبة، وأيضا فإن بينه وبين بعض القبائل عهودا إلى آجال مسمّاة، وإذن فسيظل المشركون يحجون إلى الكعبة، مع أن الأصنام التي كانت فيها والتي كانوا يحجون إليها حُطمت عن آخرها حطما، أفليس هذا الحطم داعيا لمنعهم من الحج إلى الكعبة التي طُهرت من الأصنام والشرك بالله؟ وبينما كان يطيل التفكير في ذلك نزل عليه صدر سورة براءة: نحو ثلاثين آية ينقض ما بين الرسول والمشركين من عهود إلا العهود التي عُقدت لآجال مسمّاة فإنها تبقى حتى تستوفى آجالها. وبعث الرسول ﷺ علي بن أبي طالب بصدر سورة براءة ليقرأها على الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، وينادى فيهم: يا أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته. ويبدأ صدر سورة براءة بقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾. وأول الآية يبلغ المشركين بفسخ العهود بينهم وبين رسول الله ﷺ وسقوط تبعاتها حتى يكونوا على بصيرة، وكان المراد ذوى العهود المطلقة غير المؤقتة، وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ تأجيل لنقض العهود وفسخها، حتى يرجع كل قوم إلى ماأنهم. والأشهر الأربعة تبتدى من عاشر ذى الحجة يوم النحر إلى عاشر ربيع الآخر، حتى إذا انقضت تلك الأشهر أذن للمسلمين بقتال المشركين حتى يدخلوا في دين الله، ويستثنى الله من فسخ العهود للمشركين العهود المسمّاة الآجال قائلا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾. فأصحاب العهود من المشركين الذين لم ينقصوهم شيئا مما عاهدوهم عليه ولم يظاهروا أو يعينوا عليهم عدوا، فهولاء لا تنقضوا عهودهم بل تمتد إلى المدة التي عاهدتموهم عليها. ويحرم الله في الآيات تحريما باتا دخول

إعلان علي بن
أبي طالب
صدر سورة
براءة

المشركين المسجد الحرام في العام القابل قائلًا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾. والله يقول إنه لا يحق للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله أى أن يتعبدوا فيها لألهتهم الوثنية معترفين بأنهم كفار. والمراد فى الآية بمساجد الله المسجد الحرام وما يلحق به من المسعى وعرفة والمشعر الحرام (المزدلفة) ومنى والجمرات. ويعود الله فى صدر سورة براءة إلى تحريم دخول المشركين المسجد الحرام قائلًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. ونجاسة المشركين تعود إلى شركهم بالله، فهى نجاسة معنوية توجب على الكفار أن يتطهروا منها، ولذلك أوجب الإسلام على المشرك حين يدخل فيه الغسل تطهيرا من نجاسة الشرك وقذارته. والمراد بمنع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام منعهم من حضور موسم الحج بعد هذا العام. ولم يلبث كل من كانوا لا يزالون مشركين فى الجزيرة ومكة أن اعتنقوا الدين الحنيف، وأصبحت الجزيرة العربية دارا كبيرة للإسلام، وفُرضت الجزية على كل من لم يسلم من أهل الكتاب.

تحريم دخول
المشركين
المسجد الحرام

وبعد أن تعقبنا صدر سورة براءة الذى نودى به فى منى بحجاج السنة التاسعة للهجرة بقصد جمع العرب فى الحج بالعام القابل على دين الإسلام، نتعقب حجة أبى بكر فى العام التاسع من الهجرة وقد أقام للناس الحج على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، وقد عهد إليه الرسول أن يخالف مشركى مكة فلا يقف بمزدلفة مثل قريش بل يقف مثل العرب بعرفة، ولا يدفع الناس منها حتى تغرب الشمس، ويدفع الناس من المزدلفة قبل طلوع الشمس. ورحل - بعد هذه الوصية - حتى أتى مكة، وهو مفرد بالحج (أى دون العمرة) فخطب قبل التزوية (يوم التزوية: اليوم الثامن من ذى الحجة) بيوم بعد الظهر. وطاف يوم التزوية - حين زاغت الشمس - بالبيت سبعا، ثم ركب راحلته. وصلّى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمنى. ولم يركب حتى طلعت الشمس على جبل ثبير. وانتهى إلى نَمرة فى عرفة، فنزل فى قُبّة (خيمة) من

إقامة أبى بكر
الحج للناس

شعر، فأمضى فيها وقت القيلولة .. ولما زاغت الشمس ركب راحلته، فخطب بطن عُرنَة وصَلَّى الظهر والعصر بأذان وإقامتين. وركب راحلته ووقف بالهضاب من عرفة. ولما أفطر الصائم سار سريعا حتى نزل بجمع (المزدلفة) قريبا من النار التي على قُزَح وهو الموضع الذي كانت قريش توقد فيه - في الجاهلية - النيران. ولما طلع الفجر صلاَّه، ودفع الناس قبل طلوع الشمس، وسار سريعا حتى انتهى إلى وادي محسّر فأسرع براحلته، ولما جازها خفف سرعته، حتى رمى الجمار راكبا، ثم رجع إلى المنحر، فنحر بدناته ثم حلق شعره. وخطب يوم النحر بعد الظهر راكبا على راحلته، وقام يرمى الجمار راكبا وقيل ماشيا، ولما رمى الجمار في اليوم الرابع صَلَّى بالأبطح الظهر والعصر، وصلى بمكة المغرب والعشاء. وسار من ليلته قافلا إلى المدينة.

٣

وفود القبائل

لما فتح رسول الله ﷺ مكة ونصره الله يوم حنين وأسلمت ثقيف وانصرف من تبوك أقبلت إليه وفود العرب من كل مكان، وأخذت شكل سيول متلاحقة. ولم يحاول كتاب السيرة النبوية التأريخ الدقيق لها، وقالوا إن العامين التاسع والعاشر للهجرة عاما الوفود، وكان الرسول يستقبلهم استقبالا كريما ويعلمون إليه إسلامهم ويحيزهم.

وربما كان أول وفد لقبيلة وقد على الرسول في سنة تسع وفد تميم، وذلك أن المصدق أو جابي الصدقات والزكاة لرسول الله ﷺ ذهب إلى خزاعة ليأخذ منهم الصدقة، وكانت تنزل عندهم عشيرة من تميم، وجاءوه بالصدقة من كل ناحية، فاستكثرت ذلك العشيرة التميمية، فمنعوا المصدق من أخذها وشهروا سيوفهم ففر إلى الرسول بالمدينة، وأخبره بما فعلت العشيرة التميمية، وكانت خزاعة ردتها إلى ديارها في شرقي الجزيرة، فندب الرسول لهم عُيَيْنَة بن حصن

في خمسين فارسا في الحرم من سنة تسع - كما مر بنا - فوجدهم يؤمنون أرض بنى سليم، فأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا وجلبهم إلى المدينة.

وعلمت تميم بامرهم فقدم وفد من رؤسائها وسادتها، فيهم قيس بن عاصم وعمر بن الأهتم وعطار بن حاجب خطيبهم والزبرقان بن بدر شاعرهم ليفكوا الأسرى ويأخذوا السبي، ولما لم يجدوا الرسول بالمسجد اتجهوا إلى بيته وحجراته، وأخذوا ينادونه في غلظة، وخرج إليهم فرفعوا أصواتهم فوق صوته رفعا متجاوزا المعتاد في جهر الأصوات. وفيهم نزلت آيات سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلِتَقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. والآيات تحمل ما ينبغي على بنى تميم والمسلمين من الآداب في خطاب الرسول ﷺ، وأول أدب أدب الله به المسلمين في حضرة رسول الله أن لا يرفعوا أصواتهم بين يديه فوق صوته ولا يشتدوا في جهرهم له بأصواتهم كجهر بعضهم لبعض، حتى لا تبطل أعمالهم الصالحة أو الطيبة دون أن يشعروا. وأدب ثان في خطاب الرسول ﷺ أن يغض المخاطب له صوته ويخفضه، والأدبان مطلوبان من المسلم في خطاب كل الناس تلطفا محبوبا. وأدب ثالث هو التلطف في النداء على شخص في داره، ويقال إن وفد بنى تميم نادى جميعه على الرسول من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا، فإن مدحنا زين، وذمنا شين، نحن أكرم العرب، وأرشد الله إلى الأدب مع الرسول في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وكان مع وفد بنى تميم الأقرع بن حابس التميمي وعُيَّنة بن حصن الفزاري، وكانا قدما على الرسول قبل فتح مكة وأسلما، وشهدا معه فتح مكة وحبنا وحصار الطائف. وأقام بلال الصلاة، وصلى الرسول بالصحابة الظهر، ثم جلس لوفد بنى تميم فقلدوا عطاردا بن حاجب خطيبهم، فتحدث في خطبته عن مفاخر تميم، ثم قال الرسول لثابت بن قيس: قم فأجب خطيبهم، فقام وخطب خطبة رفيعة بدأها بالحمد لله خالق السموات والأرض الذي اصطفى للناس من خلقه رسولا، ويشيد به وبالمهاجرين والأنصار وجهادهم ونصرتهم للدين الحنيف. ثم وقف شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد قصيدة يفتخر فيها بنى تميم ومكارمهم ورد عليه حسان بقصيدة رائعة يفاخرهم فيها بالرسول والمهاجرين من قريش فخرا بديعا. وتقدم الوفد إلى الرسول وكل منهم يعلن إيمانه، وأكرمهم الرسول إكراما عظيما، وردَّ عليهم أسرى عُيَّنة بن حصن والسيبي جميعا، وأجازهم وكان يميز جميع الوفود حين تقدم عليه، وكانت جوائزهم على يد بلال، لكل رجل اثنتا عشرة أوقية ونصف من الفضة، وكان معهم غلام، فأعطاه خمس أواق.

خطيب الوفد

شاعر الوفد

وكان الرسول ﷺ أرسل في سنة ثمان من الهجرة إلى عمان على الخليج العربي وسيدتها جَنْفَر وعمر بن عمرو ابني الجُلْدِي عمرو بن العاص - كما مر بنا - ليأخذ الزكاة فأخذها من أغنيائهم وردَّها على فقرائهم، وأخذ الجزية من الجوس، إذ عاملهم الرسول - كما أسلفنا - معاملة أهل الكتاب، واقتداء بصنيعه معهم صنع عمر بن الخطاب مع إيران في خلافته - وأرسل قبل فتح مكة العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى (من عبد القيس) أمير البحرين فأسلم وحسن إسلامه، وظل العلاء عنده أميرا لرسول الله ﷺ على البحرين، وكانت قبيلة عبد القيس تنزل على الخليج أمام البحرين وكان وفدا منها وفد على الرسول قبل فتح مكة وأسلم ويظن ظنا أن العلاء بن الحضرمي عمل على نشر الإسلام فيها وكان لا يزال فيها نفر من الجوس والنصارى. ونرى سيدها منها هو الجارود العبدى يَفِد على الرسول ﷺ في طائفة منها غير مسلمة في السنة

إسلام المنذر بن

ساوى ووفد

عبد القيس

إسلام الجارود

ووفد

عبد القيس

التاسعة للهجرة، وكان الجارود نصرانيا فأسلم هو ومن معه، وكان فاضلا صليبا في ذات الله، وحسن إسلام عبد القيس جميعا.

وقدم على رسول الله ﷺ من اليمامة وفد بنى خيفة ومعهم مسيلمة الكذاب، وخلفوه في رحلهم، ودخلوا على رسول الله، وقيل بل دخل معهم، وأعلنوا إسلامهم، وأجازهم الرسول فلما انتهوا إلى اليمامة موطنهم ارتد مسيلمة وتبأ، وقال إني قد أشركت في الأمر مع محمد وأحلّ لهم الخمر والفحشاء ووضع عنهم الصلاة، وكتب إلى الرسول ﷺ: "من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإني قد أشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون". فكتب إليه الرسول بعد البسملة: "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد فالسلام على من اتبع الهدى. وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده". وظل مسيلمة في غيّه وضلاله، حتى قُتل بحروب الردة في موقعة مع خالد بن الوليد.

وقدم وفد طيى على رسول الله ﷺ يقوده إليه زيد الخيل فارسهم وسيدهم، فكلّمهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا جميعا وحسن إسلامهم، وقال الرسول في زيد الخيل: ما ذكر لي رجل من العرب بصفة ثم جاءني إلا رأيتته دون ما وُصف به إلا زيد الخيل فإن وصفه لم يبلغ كل ما فيه وسماه زيد الخير وكان أسير في الجاهلية عامر بن الطفيل فارس بنى عامر وجزّ ناصيته.

وكان على بن أبى طالب حين ذهب في بعث للرسول لهدم صنم طيى كما مرّ بنا ساق سفانة بنت حاتم الطائي في السبي، وكان أخوها عدى نصرانيا، فحين جاءه الخبر بخيل ابن أبى طالب حمل أسرته وفرّ بها إلى الشام. ومرّ الرسول ﷺ بسفانة وهي أسيرة، فتعرّضت له قائلة: يا رسول الله هل لك الوالد وغاب الرافد، فأمّن عليّ من الله عليك، فسألها من رافدها؟ فقالت: عدى بن حاتم. فقال لها: الفارّ من الله ورسوله؟ وأكرمها الرسول وقال لها: لا تعجلى حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى ديارك واستأذنيني. وأقامت

وقد
بنى خيفة

وفد طيى

المعاملة الطيبة
لسفانة
بنت حاتم

حتى وجدت ركبا من قبيلة بليّ أو قضاة الجاورتين للشام، فقالت للرسول : وجدت رهطا من قومي فيهم ثقة وبلاغ. فكساها رسول الله ﷺ وحملها على بعير وأعطها نفقة. وقدمت على أخيها عدى بالشام ، فأقنعتة بوفوده على الرسول فوفد عليه في طائفة من قومه وهو لا يدري أملك هو أو نبي، ولما دخل عليه وعرفه رَحَّب به واصطحبه إلى بيته. قال عدى: ولقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفتها، فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها، وقلت في نفسي والله ما هذا بملك، ومضيئا، حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من آدم (جلد) محشوة ليفا، فقلدها إلى فقال اجلس على هذه. فقلت: بل أنت فاجلس عليها. قال: بل أنت. فجلست عليها وجلس بالأرض. فقلت في نفسي: ما هذا بملك، ثم قال لي : يا عدى بن حاتم ألم تكن ركوسيا؟ (فرقه تخلص بين الدينين المسيحي والصابئي) قلت: بلى. قال : أولم تكن تسير في قومك بالرباع؟ (أى تأخذ منهم ربع الغنيمة) قلت: بلى. قال: إن ذلك لم يكن يحلُّ لك في دينك. قال عدى : قلت أجل. وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل. ثم قال الرسول لعدى: لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول في الإسلام ما ترى من حاجة المسلمين، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله لتوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور الكعبة لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من الدخول في الإسلام أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، فوالله لتوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت لهم. قال عدى: فأسلمت.

المعاملة الكريمة
لأخيها عدى

وكل ما وعد به الرسول المسلمين في هذا الحوار تحقق فقد أثرى المسلمون ثراء واسعا، وأُمن الطريق من الشام إلى مكة، وصارت لهم القصور البيض من أرض فارس، بل صارت لهم فارس جميعها. ولم أرو خبر سفانة بنت حاتم وأخيها عدى بطوله إلا ليرى قارئ السيرة النبوية صورة من مروءة الرسول في المعاملة

الطيبة للمرأة حتى الأسيرة، وعجب عدى منه حين رآه في طريقهما إلى بيته تستوقفه امرأة عجوز ضعيفة طويلاً، ويقف لها - ومعه ضيف - غير برم ولا ضجر لطفاً وأدبا ليس بعده أدب، وبحق يقول: أذنبى ربى فأحسن تأديبى. ودخل مع عدى بيته، فقدم له وسادة ليجلس عليها وجلس هو على الأرض. وليس ذلك إكراماً للضيف فحسب، بل هو أيضاً تواضع حميد ليس يماثله تواضع، وكان يعمّمه في تعامله مع أصحابه جميعاً، فأحجّوه حباً مَلَك عليهم شغاف قلوبهم كما ملك شغاف أتباعه إلى اليوم. وبهر الرسول عدياً بسلوكه، وعرض عليه الإسلام كما عرض عليه دينه من النصرانية وما حدث فيها من الشرك بالله، وأسلم عدى وحسن إسلامه، وتبعه قومه وحسن إسلامهم جميعاً.

وكان الرسول إذا قدم الوفود لَبَسَ أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك. وكانت الوفود تنزل في ضيافته، وكان يميزها حين تهم بمبارحة المدينة. وكانت تتعلم القرآن والفرائض، وكثيراً ما أعطى الوفود كتاباً بما يجب عليهم من الزكاة أو الصدقة وكيف أنها في الزروع بماء السماء العشر وبالذلو والآلات نصف العشر، ويعرفهم بما يجب عليهم من الزكاة في الإبل والبقر والغنم.

ووفود كثيرة للقبائل وفدت عليه فأعلنت إسلامها وأكرمها وأجازها من وفود كثيرة ذلك وفد عبس، وفزارة، وبنى سعد هذيم من قضاة، وثعلبة وسعد بن بكر، وبهراء، وبلى.

ووفد على الرسول ﷺ وفد بنى عامر، وفيهم من سادتهم وفرسانهم عامر ابن الطفيل وأربد بن قيس أخو لييد الشاعر لأمه، وكانا عدوين لله ورسوله، وجاءا مع وفد قومهما، وهما يضمران الشر للرسول والغدر، وكان عامر قد قال لأربد: إني شاغل محمداً عنك بالكلام، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف، وجعل يسأل الرسول سؤال الأحمق، ورسول الله ﷺ صابر، ويقول من حين لآخر: لا أجيبك على شئ مما سألت عنه حتى تؤمن بالله ورسوله. وأنزل الله على أربد الرعب فلم يرفع يداً. ولما يئس منه عامر قال للرسول مهديداً: يا محمد

وفد
بنى عامر

والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا. فلما انصرفا قال الرسول: اللهم اكفني عامر ابن الطفيل وأربد بن قيس. وقال عامر لأربد: ما منعك أن تفعل ما تعاقدا عليه؟ فقال له: لا تعجل عليّ، والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلت بيني وبينه حتى ما أرى غيرك أقاضرك بالسيف؟ وارتحلا راجعين إلى ديارهم، حتى إذا كانا ببعض الطريق أصاب عامر بن الطفيل طاعونا في عنقه، فأدخله أربد بيت امرأة من بنى سلول فجعل يصيح أغدّة كغدّة البعير (سمى خراج الطاعون غُدّة) وموتّا في بيت سلولية (يريد أنه لا يموت في ميدان البطولة والحرب) وواراه أربد التراب. ووصل إلى دياره، فلم يلبث إلا يوما أو يومين حتى ركب بعيرا في حاجة، فنزلت عليه صاعقة من السماء أحرقتة هو وبعيره.

وأرسل فروة بن عمرو عامل الروم على فلسطين وما حولها ومن يليها من العرب وفدا إلى الرسول، وكان موضعه بمُعان من أرض فلسطين وكتب مع الوفد إلى الرسول ياسلامه، وأهدى إليه بغلة بيضاء، وعلم الروم فأصابوا منه غيرة مكنتهم من القبض عليه فأخذوه وألقوا به في سجن ثم قتلوه.

عامل الروم
على فلسطين
يسلم

وأخذت وفود كثيرة تفد على الرسول ﷺ من الجنوب واليمن، من ذلك وفد الأزد وسيدهم صُرد بن عبد الله الأزدي فأمره على من أسلم من قومه وحرب من لا يزالون على الشرك، فحصر خثعم في جُرَش وقاتلها وأسلمت وذهب منها وفد إلى الرسول يعلن إليه إسلامها. وقدم على الرسول وفد قبيلة مراد مع فروة بن مُسيك، واستعمله الرسول على قومه مراد وقبيلتي زُبيد ومذحج وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الزكاة. وجاء الرسول وفد زُبيد ومعه فارسها عمرو بن معد يكرب الزبيدي. وقدم على الرسول وفد كندة مع الأشعث بن قيس في ستين راكبا معلنين جميعا إسلامهم. وقدم عليه وفد قبيلة تجيب سائقين إليه حق الله من الزكاة في أموالهم، فقال لهم ردوها على فقرائكم، فقالوا له: ما قدمنا إلا بما فضل عن فقرائنا، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد بهم سرورا وأكرمهم.

وفود اليمن

وقدم على الرسول ﷺ كتاب ملوك حمير بطاعتهم لله ورسوله وإسلامهم مع رسولين هما الحارث بن عبد كلال والنعمان قَيْلَ ذِي رُعَيْن ومعاشر وهمدان، فردَّ عليهم بكتاب وجَّهه إلى الرسولين ذكر فيه فريضة الزكاة على المسلمين ومقدارها، وعلى أهل الكتاب الجزية. ويذكر مقدار الزكاة في الكتاب لأن كثيرين يخطئون فيها، يقول:

"على المؤمنين من الصدقة عن العقار عُشْر الحصيد مما سقته السماء من العَيْن (الحقل) وما سقاه الغَرْب (الدلو ومثله الآلات) نصف العشر، وأن في الإبل الأربعين ابنة لبون (بنت ناقة داخلية في السنة الثالثة) وفي الثلاثين ابن لبون (ولد ناقة داخل في السنة الثالثة) وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبع (ولد البقرة في سنته الأولى) جَذَع (صغير أو تبعة جذعة)، وفي كل أربعين من الغنم راعية شاة. وإنها فريضة الله التي فرضها على المؤمنين في الصدقة (الزكاة)".

٤

بقية الوفود في سنة عشر - وفاة إبراهيم

أ - بقية الوفود في سنة عشر

قَامَ على الرسول ﷺ في شعبان لسنة عشر من الهجرة وفد قبيلة خَوْلَان اليمنية، وكانوا عشرة وقالوا للرسول: نحن على من وراءنا، ونحن مؤمنون بالله عزَّ وجلَّ مصدِّقون برسوله، قدمنا زائرين لك، وسألهم الرسول عن صنمهم المسمى «عم أنس» الذي كانوا يعبدونه في الجاهلية، فقالوا: بدَّلنا الله ما جئت به، ولا يزال بعض كبار السن من الرجال والنساء يتمسكون به، وسنهدمه حين نعود. وسألوه عن فرائض الإسلام فعرفهم بها، وأمرهم بالوفاء بالعهد وأداء

الأمانة وحسن الجوار وأن لا يظلموا أحداً، وقال: إن الظلم ظُلُمات يوم القيامة. وأضافهم أياماً وأجازهم وودَّعوه، وبمجرد أن عادوا إلى ديارهم هدموا صنمهم.

وجاء الرسول وفد بني محارب بنجد، وكانوا ردوه رداً قبيحاً حين عرض عليهم نفسه ورسائله في بعض مواسم الحج، وكانوا أغلظ العرب، فجاء منهم عشرة في السنة العاشرة من الهجرة تائبين عن ورائهم، فعرفهم وأضافهم، وقعد معهم يوماً من الظهر إلى العصر يحادثهم عن فرائض الإسلام وما يجب عليهم من الزكاة، وأطال النظر إلى رجل منهم كان أساء إليه حين عرض نفسه عليهم في سوق عكاظ، فقال للرسول ﷺ: كأنك يا رسول الله رأيتني حينذاك. فقال له الرسول: نعم. فقال الرجل: لقد رأيتني وكلمتني وكلمتك بأقبح الكلام ورددت عليك بأقبح الرد، فالحمد لله الذي أبقاني حتى صدقت بك. ثم قال: يا رسول الله استغفر لي من مراجعتي لك. فقال له الرسول: الإسلام يجب ما كان قبله. وأضافهم أياماً وأجازهم وعادوا إلى قومهم.

وفد
بني محارب

ووفد على الرسول ﷺ في شهر رمضان هذه السنة من اليمن وفد غامد: حيّ من أحيائها أصحاب زرع وضرع، فعرفهم فرائض الإسلام وبعض أوامر الشريعة، وأكرمهم وأجازهم وعادوا إلى ديارهم. وقدم على الرسول ﷺ أيضاً في شهر رمضان سنة عشر وفد من الشمال من غسان، وكانوا ثلاثة نفر أسلموا، وقالوا للرسول: لا ندرى أيتبعنا قوماً أو لا. وعلمهم فرائض الإسلام وشيئا من القرآن الكريم، وأجازهم وعادوا إلى قومهم وعرضوا عليهم الإسلام فلم يستجيبوا لهم. وأسلمت غسان فيما بعد وحسن إسلامها.

وفد غامد

ووفد على الرسول عليه السلام في شوال سنة عشر وفد من سلامان (عشيرة من قضاة) وكان الوفد سبعة نفر فيهم حبيب بن عمرو السلمي، فأعلنوا إليه إسلامهم، وسأله حبيب: ما أفضل الأعمال؟ فقال: الصلاة في وقتها. وصلوا معه الظهر والعصر، وشكوا له جلد بلادهم، فدعا الله لهم أن يسقيهم الغيث في ديارهم، وأقاموا في ضيافته ثلاثة أيام علمهم فيها فرائض

وفد سلامان

الإسلام، وأمر لهم بجوائز، فأعطى بلال كلا منهم خمس أواق. وعادوا إلى ديارهم فوجدوها مَطْرَت مطرا غزيرا.

وكان الرسول ﷺ أرسل خالد بن الوليد في ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا، فإن أجابوا أقام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام، وإن أبوا قاتلهم، فخرج خالد إليهم، ودعاهم فأجابوا وأسلموا، وأقام فيهم، وكتب إلى رسول الله ﷺ يعلمهم إسلامهم. ثم عاد إلى الرسول مع وفد منهم فيه قيس بن الحُصَيْن. وعادوا إلى نجران في بقية شوال أو في ذى القعدة، وأمر عليهم الرسول قيس بن الحُصَيْن. وبعث إليهم الرسول عمرو بن حزم يفتقهُم في الدين ويعلمهم شرائع الإسلام ويأخذ صدقاتهم وكتب له كتابا ليحملهم عليه، بين لهم فيه الأحكام والزكاة ومقادير الديات، وتوفي الرسول وعمر بن حزم على نجران.

وكان آخر وفد قديم على الرسول ﷺ وفد قبيلة النخع اليمنية ويقال إن قدومهم عليه كان في منتصف شهر الحرم سنة إحدى عشرة للهجرة، وكانوا مائتي رجل فنزلوا دار الأضياف، ثم جاءوا رسول الله ﷺ مقررّين بالإسلام، إذ كانوا بايعوا في اليمن عامله هناك معاذ بن جبل، وأكرمهم رسول الله، وعادوا إلى ديارهم.

ب- وفاة إبراهيم

كان مولد إبراهيم بن رسول الله ﷺ من مارية جاريته القبطية في ذى الحجة من سنة ثمان من الهجرة، وقد فرح به الرسول وكان قرّة عين له، إذ كان له ولدان من خديجة: القاسم وعبد الله توفيّا طفليّن صغيرين في حجر أمهما خديجة، وفجعه الموت في أخواتهما - ما عدا فاطمة - بعد أن أصبحن زوجات وأمّهات. وكان يزوره بعد فراغه من استقباله الوفود وقيامه برسالته وأدائه لحقوق المسلمين وحقوق أسرته، حتى إذا وجد عنده بعض الفراغ ذهب إلى

إبراهيم تدفعه إليه عاطفة الأبوة، وأخذ يحمله ويتملى برؤيته، وإبراهيم ينمو، وينمو معه حبه له. واتخذ له منذ مولده حاضنة هى أم سيف، وكانت ترضعه وتسقيه من لبن ماعز أهده الرسول إليها. وبلغ نحو ستة عشر شهرا، ومريض، فنقلته حاضنته إلى نخل بجوار مسكن أمه، وأخذت مع أختها سيرين تمرّضه. ولم يطل به المرض، وعلم الرسول أنه يحتضر فى حجر أمه، فجاء إليه مسرعا فرآه يجود بنفسه، فوضعه فى حجره وتماسك رغم حزنه الشديد وقال: "يا إبراهيم إنا لا نغنى عنك من الله شيئا" وانطفأت الحياة فى إبراهيم فأكبّ عليه وعيناه تذرفان الدموع ثم قال: "تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب". ونظر إلى أمه وأختها وهما تبكيان أحرّ البكاء، فقال لهما: إن له لرضعا فى الجنة إذ لم يكن أكمل رضاعته. وغسلته حاضنته وحمل على سرير صغير، وصلى عليه، وكبر أربعاً وشيعه، ومعه جماعة من الصحابة، إلى قبره فى البقيع ودفنه فيه وسوى عليه التراب، ورشّ عليه الماء قائلا: "الحق بسلفنا الصالح".

أم سيف
حاضنة إبراهيم
وفاة إبراهيم

وصادف موت إبراهيم كسوف الشمس، فقال بعض الصحابة: إن هذه معجزة وإن الشمس انكسفت لموته، وذكر ذلك للرسول ولم يتعزّ بمثل هذا القول بل خطب فيمن حوله قائلا: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفن لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة". وذلك هدى الرسول لا يؤمن بخرافة ولا بشعوذة وكهانة.

رفض الرسول
كون كسوف
الشمس معجزة
لوفاته

الفصل الثانى والعشرون

من حجة الوداع إلى وفاة الرسول

١

حجة الوداع

دخل العرب طوال السنتين التاسعة والعاشرة فى دين الله أفواجا، ولم تبق فى الجزيرة العربية قبيلة إلا جاء وفاء منها يعلن إسلامه للرسول ﷺ وينلقى عنه تعاليم الدين الحنيف. وكان يرسل إلى القبائل معلّمين يأخذونهم بتعاليم الإسلام. ومن أرسلهم معاذ بن جبل؛ أرسله إلى اليمن، وسأله: بم تحكم بين الناس؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسوله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو (أقصر). ووجد من بعض اليمنيين نفورا فكتب إلى رسول الله ﷺ، فبعث إليه بعلى بن أبى طالب، ولم يجد النافرون مفرّا فاستسلموا. ودخلت اليمن جميعها فى الدين الحنيف راضية مرضية، وبلغ من رضاها وإقبالها عليه أن اعتنقه نصارى نجران حين نزل فيهم خالد بن الوليد، وقدم منهم وفاء إلى الرسول معلّنا دخولهم فى الإسلام. وبذلك أصبح العرب فى الجزيرة العربية شمالا وجنوبا وشرقا وغربا أمة إسلامية واحدة يظلها دين واحد، وتستظل بلمواء حاكم واحد هو رسول الله ﷺ، وتتجه بجميع القارات فى صلواتها الخمس يوميا إلى قبلة واحدة هى الكعبة.

وكان الرسول ﷺ فكر فى السنة التاسعة أن يحج بالناس ثم عدل لأنه كره أن يحج وفى الجزيرة ومكة نفر لا يزالون وثنيين فخشى أن يحج منهم أحد فى

السنة التاسعة يتضرع إلى آهته أو يحج وهو عريان كما كانوا يصنعون في الجاهلية. وأرسل على بن أبي طالب - وراء أبي بكر - كما مرّ بنا - بصدر سورة براءة، ينسأدى فيهم: لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وصدق حَدْسُه فإن مشركى مكة والجزيرة جميعا دخلوا في دين الله سرّيعا. وقرّت عيناه بإسلام من كان ظل وثنيا من أهل مكة عقب حجة أبي بكر تَوّاً، وبالمثل من كان ظل على إشراكه في الجزيرة أعلن إسلامه، فعمّها الدين الحنيف.

وأذن رسول الله ﷺ في الناس بأنه يحجّ في هذا العام العاشر، فقدم المدينة عرب كثيرون يريدون أن يقتندوا به في الحج ويعملوا مثل عمله فيه ولم يكن حجّ من المدينة إلى مكة طوال السنوات التسع الماضية، فهي حجتّه الأولى منها، وأيضا الأخيرة، ولذلك تسمى حجة الوداع، وكأنه ودّع فيها أصحابه. وسار من المدينة في اليوم الخامس والعشرين من ذى القعدة متدهنا (متطيّيا) متزجّلا (مسرّحا) شعره مطيّبه) لابسا ثوبين: إزارا ورداء بعد أن صلّى الظهر بالمدينة، وقيل بل صلاّها بذي الحليفة (على بعد ستة أميال من المدينة) ومعه أزواجه على الهوادج وأهل بيته وعامة المهاجرين والأنصار وعامة الحجاج من العرب وهم جميعا يلبسون أردية الإحرام البيضاء التي تسوّى بين الأغنياء والفقراء في أخوة الإسلام العظيمة وما دعا إليه من المساواة بين المسلمين. وصلّى العصر من ذلك اليوم بذي الحليفة، وبات بها الليلة التالية ليلة الجمعة، وصلّى بها الصبح ثم طيّبته عائشة أم المؤمنين بيدها بطيب فيه مسك، ثم طلب الهدى وكان أهدي إلى الكعبة أكثر من ستين ناقة، وأشعر النوق في جانبها الأيمن بما يدل على أنها هدىّ موجهة إلى الكعبة. وقال للناس: من أراد منكم أن يهّل بحج وعمره معا فليفعّل، ومن أراد أن يهّل بعمره فليفعّل، ومن أراد أن يهّل بحج فليفعّل. وأمر من كان معه هدىّ أن يقرن العمرة بالحج مثله. وأحرم وركب راحلته القصواء، وسار وبين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله أمم لا يحصون كثرة، يقال كان معه في مسيرته تسعون ألفا، وقيل بل مائة وأربعة عشر ألفا. ويقال: بل أكثر من ذلك.

خروج الرسول
وإحرامه

ملابس الإحرام
والتلبية من
مظاهر المساواة

وكان يأمر المشاة أن يركبوا بُدْنَهُ أو هديه - وأخذ منذ ركب ناقته، وسار يُهَلِّ بالتوحيد: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شريك لك، لَبَّيْكَ إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك" وهى تلبية يرددها المسلم طوال الحج إيدانا بأنه انفصل عن عالم الدنيا الى عالم ربه الروحى. وملابس الإحرام من أكبر مظاهر المساواة وأن لا فرق بين غنى وفقير وبالمثل صلاة الجماعة والجمعة. وكان يصلّى طوال الرحلة من المدينة إلى مكة قصرا ركعتين بدلا من أربع. وأمره ربُّ العزة أن يأمر الآلاف من أصحابه جميعا أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فكانت تتجاوب بهذا التوحيد فى النداء به الأودية والبوادي. ومرَّ بامرأة فى محفّتها ومعها ابن صغير، فسألته: يا رسول الله ألهذا (وأشارت إلى ابنها) حج؟ قال: نعم ولك أجر. ولما وصل إلى سرف (على بعد عشرة أميال من مكة) قالت له أم المؤمنين عائشة إن العادة الشهرية جاءتني وكانت قد أهلت بعمره فقط، فأمرها أن تغتسل ولا تحل من عمرتها بل تدخل على نية الحج، وتعمل جميع أعماله ما عدا الطواف بالكعبة، فمتى تطهرت طافت. وقال الرسول ﷺ للناس: من لم يكن منكم معه هدى وأراد أن يجعلها عمرة فليفعَل ومن كان معه هدى لا يحلّ. وسار الرسول ﷺ حتى نزل وادى ذى طوى (بينه وبين مكة نحو ميل واحد)، فبات به ليلة الأحد لأربع من ذى الحجة فصلى الصبح به.

ودخل الرسول ﷺ مكة نهارا من الثَّيِّبَةِ العُليَا (كسداء) صبيحة يوم الأحد المذكور ونزل بالأبطح. ولما رأى البيت (الكعبة) رفع يديه قائلا: "اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة، وزد من عظّمه من حجّه واعتمره تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وبرّا". ولما دخل المسجد بدأ بالطواف قبل الصلاة. وطاف بالكعبة سبعا راكبا على راحلته، مدخلا رداء الطواف تحت إبطه الأيمن مغطيا به إبطه الأيسر، وهو لبسُ الحرم بالحج كما هو معروف. ورمّل (أسرع فى المشى) فى ثلاث من طوافه ومشى أربعاء، وفى كل طوافه كان يستلم (يمسح ويقبّل) الركن اليماني والحجر الأسود وكان يقول: بسم الله، والله أكبر. وكان يأمر من يستلمون الركن اليماني والحجر الأسود أن يقولوا: بسم الله، والله

طواف الرسول

أكبر، إيماننا بالله وتصديقنا بما جاء به محمد ﷺ . وقال فيما بين الركن اليماني والحجر الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. وانتهى من طوافه خلف مقام إبراهيم أبي الأنبياء وصلى عنده ركعتين قرأ في كل منهما سورة الفاتحة وسورتى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ورجع إلى الحجر الأسود فاستلمه. ثم خرج إلى الصفا قائلا: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾. وقال وهو على الصفا: أبدأ بما يدأبه الله. وكان شاكيا ولذلك سعى على راحلته، ولما صعد الصفا استقبل البيت وكبر سبع تكبيرات، وقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده". ودعا وصنع مثل ذلك على المروة. ولما نزل من الصفا إلى المروة هرول في بعض الطريق أثناء السعى وكان يقول في أثنائه "رب اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم". والسعى بين الصفا والمروة ذكرى لهرولة هاجر بينهما باحثة عن ماء لطفها إسماعيل. ومن ليس معه هدى يصوم ثلاثة أيام. ولما أكمل الطواف والسعى أمر كل من لا هدى معه بالإحلال (أى من إحرامه والتحول إلى المتعة) لمن كان قارنا العمرة بالحج أو كان أحرم بالعمرة وحدها وأن يبقوا كذلك إلى يوم الزوية الثامن من ذى الحجة، وهو يوم منى إذ يهللون حينئذ بالحج، ويحرمون عند سيرهم إلى منى. وأمر من معه الهدى بالبقاء على إحرامه قارنا مثله، فلا يحل حتى ينحر الهدى، وكان أبو بكر وعمر وطلحة والزبير قد ساقوا الهدى فلم يحلوا. ولم تسق أمهات المؤمنين هديا وكن قارنات حجا وعمرة فأحللن، ومثلهن فاطمة بنت الرسول وأسماء بنت أبي بكر ولم تحل أم المؤمنين عائشة من أجل العادة الشهرية كما أسلفنا. ورجع حينئذ على بن أبي طالب من اليمن، فوجد فاطمة بنت الرسول زوجته قد أحلت، فأكر ذلك عليها، فقالت له: أمرنى بذلك أبى. فسأله، فقال له: صدقت. وكان قد ساق هديا معه، فأتم نوق الرسول مائة، وسأله الرسول: بم أهملت؟ قال: سقت الهدى، وقرنت العمرة بالحج. فقال له: إذن لا تحل مثلى. وسأل الرسول سراقه بن مالك عن هذه المتعة

السعى

الإحلال

أى الإحلال من العمرة ثم الحج بعد أيام منها هل هى لهذا العام وحده أم للأبد؟ فقال: إنها لأبد الأبد. وأقام الرسول ﷺ بمكة محرماً أربعة أيام من يوم الأحد إلى صباح الخميس، لأنه لم يكن أحلّ بسبب مرافقة الهدى له. وأمر كل من كان أحلّ بالإهلال بالحج فى هذا اليوم يوم الخميس يوم التزوية الثامن من ذى القعدة، وهو يوم التوجه إلى منى.

وركب الرسول ﷺ فى هذا اليوم يوم التزوية إلى منى وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصبح يوم الجمعة ولم يركب من منى حتى طلعت الشمس فركب إلى عرفة، وكان قد أمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة فى غرنة فاتجه إليها، ونام نومة الظهيرة فى ظل صخرة، وأزواجه فى قباب خز. ولما زالت الشمس أمر بالقصواء راحلته فرحلت له (فوضع عليها رحلها استعداداً لركوبه)، ولما ركبها قال: اللهم حجة لا رياء فيها ولا سُمعة. وأتى بطن غرنة على ناقته، وخطب الناس، فلما انتهى إلى آخر خطبته أذن بلال، ولما فرغ من أذانه أناخ راحلته، وأقام بلال الصلاة، فصلى عليه الصلاة والسلام الظهر قصراً: ركعتين، ثم أقام بلال الصلاة ثانية، فصلى العصر قصراً: ركعتين جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين فى وقت الظهر. ثم ركب حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته إلى صخرات مفترشات فى أسفل جبل الرحمة وسط أرض عرفات، وجعل تل مجتمع المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، ولم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، ونزلت عليه حينئذ آية سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بعقيدته وشريعته وأعماله ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بأدائكم الحج ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ إلى الأبد. وكان أهل مكة يقفون فى الجاهلية بالمزدلفة والعرب يقفون بعرفة، فجعل الرسول الوقوف بعرفة للناس جميعاً من أهل مكة وغيرهم، وكان عرب الجاهلية يسرون من عرفة والشمس على رءوس الجبال كهينة العمائم، فأقر الرسول السير من عرفة حين غربت الشمس.

خطبته فى
عرفة

إكمال الدين

وسار الرسول ﷺ من عرفة عشيةً على راحلته إلى المزدلفة وأبو سفيان عن يمينه والحارث بن هشام عن يساره، ويزيد ومعاوية ابنا أبى سفيان على فرسين

أمامه، وكان يسير مسرعا قليلا، فإذا وجد فُسْحَةً بين الناس أسرع، وكان يأمر الناس بالتؤدة والسكينة. وصَلَّى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد لهما وإقامتين، لكل صلاة منهما إقامة، ولم يَسْبَح بينهما شيئا ثم اضطجع رسول الله حتى قرب طلوع الفجر، واستيقظ في الفجر، وأَذِنَ للضعفاء من الذرية والنساء في التقدم من المزدلفة قبل الفجر أو قبل زحمة الناس، ورمى الذين تقدموا الجمرة مع الفجر. وصَلَّى الصبح في المزدلفة بأذان وإقامة، وكانوا في الجاهلية لا يسرون من المزدلفة قبل طلوع الشمس. وركب راحلته قبل طلوعها ودعا الله وكَبَّرَ وهَلَّلَ ووَحَّدَ، وسار منها إلى المزدلفة، وحمل منها حصا العقبة، وأسرع في وادي محسر بالمزدلفة (وهو موضع بينها وبين منى)، ودفع إلى منى ولم يقطع التلبية حتى رمى جمرة العقبة وهو على راحلته سبع حصيات، وهي الجمرة الكبرى، وكان يكبر مع كل حصاة، وهو حصا صغير يُرمى بأطراف الأصابع، رماه إلى الجمرة من بطن الوادي. وخطب الناس في هذا اليوم، وهو يوم السبت يوم النحر خطبة جامعة مثل خطبة عرفة لأوامره ونواهيته التشريعية. وسار إلى المنحر بمنى ذكرى لأضحية إبراهيم حين قدم ابنه إسماعيل لربه وفداه بكبش عظيم، فنحر بيده ثلاثا وستين بدنة (ناقة) ثم أمر عليا أن ينحر بقية ما كان معهما إلى المائة، وضحى عن نسائه ببقر، ورمى الخصال ليلا يوم النحر، وقال إن منى كلها منحر، ومثلها فجاء مكة، وحلق شعره وحلق مثله بعض الصحابة، وقصّر بعضهم. ثم أمر أن يؤخذ من كل بدنة قطعة لحم، فجعلت في قدر وطُبخت، فأكل هو وعلى من اللحم وشربا من المرق، وأمر عليا بقسمة لحومها وجلودها وأن لا يعطى الجازر منها شيئا وأعطاه أجرته، وطيبته عائشة بطيب فيه مسك.

النحر في منى
ذكرى أضحية
إسماعيل

ثم نهض عليه السلام راكبا إلى مكة في هذا اليوم يوم السبت، فطاف طواف الإفاضة قبل الظهر، وشرب من ماء زمزم بالدلو ومن نبيذ السقاية وهو ماء به زبيب، وصَلَّى الظهر في ذلك اليوم بمكة. وكانت عائشة أم المؤمنين قد ظهرت من العادة الشهرية بعد الوقوف بعرفة، فطافت في ذلك اليوم. ثم رجع عليه السلام إلى منى فسئل عما تقدم بعضه على بعض من الرمي والحلق

تقديم بعض
الأعمال على
بعض

والإفاضة والنحر، وقال في كل ذلك: لا حرج. وكذلك قال في تقديم السعى بين الصفا والمروة على الطواف. وظل بمنى طوال أيام التشريق من باقى يوم السبت إلى مغرب يوم الثلاثاء. وكان فى الأيام الثلاثة أيام الأحد والاثنين والثلاثاء يرمى الجمار فى الأيام الثلاثة: سبع حصيات لكل جمرة مع التكبير، وأمر فى آخر أيام التشريق وهو اليوم الثالث عشر من ذى الحجة أن تضرب له قبة أو خيمة بالأبطح فى مكة وزار فى مقامه بمكة قبر خديجة وقبر عمه أبى طالب.

وأمر الناس أن لا ينصرفوا عن مكة حتى يكون آخر عهدهم بها الطواف بالكعبة، ورخص فى ترك ذلك لمن عليهن العادة من النساء. ودخل مكة فى الليل سحرا قبل صلاة الصبح من يوم الأربعاء، وصلى الصبح ثم رجع إلى منى، وأمر بالرحيل. وكانت مدة إقامته بمكة منذ دخلها إلى أن خرج منها عشرة أيام. ولما عاد ورأى المدينة كبر ثلاث مرات، وقال: "لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، آيئون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده". ثم دخل المدينة.

أوامر ونواهٍ فى حجة الوداع

لا أقصد الأوامر والنواهى فى أداء فريضة الحج، فقد بينها الرسول عليه السلام قولاً وعملاً فى حجة الوداع، وعُيّنت فى الصفحات السابقة أن أنقل بدقة أدائه لها وكل ما اقترن به من أقواله وأوامره ونواهيهِ المتصلة بفريضة الحج. والأوامر والنواهى التى أريد الوقوف عندها قليلاً هى نواهيهِ وأوامره فى خطبتي يوم عرفة ويوم النحر بمنى، فقد اشتملتا على كثير من التشريعات الإسلامية، ونراه يدعو بالرحمة لمن يسمع مقالته فيعيها ويؤديها ويقول: رب حامل فقه ليس

لديه ما يفهم به الفقه، ورب حامل فقه لمن يفوقه فى فهمه. وتتوالى أوامره ونواهيه.

وأول ما ذكر منها فى الخطبتين حرمة الدماء والأموال والأعراض، وبذلك حرّم الإسلام إلى الأبد غارات القبائل بعضها على بعض كما كان يصنع العرب فى الجاهلية وما كان يتصل بها من سفك الدماء ونهب الأموال، وهى حرمة تجعل المسلمين ينتهون عن القتل ثأراً وتصون أموالهم فلا يظلمهم فيها أحد برّبا وغير ربا ولا يَنْهَبُها، وتصون الأعراض فلا يذكرهم أحد بسوء، ولا يغتابهم، ويشبّه الله فى سورة الحجرات من ينتهك أعراض الناس ويغتابهم بما يسيئهم بمن يأكل لحم أخيه الميت تقبيحاً لهذا الخلق الدميم، فضلاً عما يحمله من إثم عظيم.

حرمة الدماء
والأموال
والأعراض

ويوجب الرسول ﷺ على المسلمين أن من كانت عنده أمانة ائتمنه عليها أحد وطلبها منه صاحبها أن يؤديها إليه، وأوجب الله ذلك على المسلمين فى القرآن الكريم بمثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، فعلى المسلم أن يؤدى الأمانة إلى صاحبها الذى ائتمنه عليها فى موعدها المضروب، أما إن جحدّها وقال لصاحبها: "ليس لك عندى شئ" فإنه يكون قد خانها، وخيانة الأمانة من أعظم الذنوب والآثام.

أداء الأمانة

ويحرّم الرسول على المسلمين الرّبا، وهو كل قرض يؤخذ به أكثر منه، لأنه يقتضى أخذ مال المقرض بغير عوض يؤديه له صاحب المال، وهو ابتزاز واضح من الأغنياء فى الأمة لأموال المحتاجين وأخذها دون أى مقابل. وتوعّد الله صاحبه فى سورة آل عمران بالعذاب الشديد، إذ بدلا من أن يواسى الغنىّ احتجّج فى الأمة يستغله أسوأ استغلال، وكانوا فى الجاهلية، وخاصة فى مكة يتعاملون بالربا فى التجارة تعاملًا واسعًا، ولذلك قال الرسول: ألا إن ربا الجاهلية موضوع أى باطل، وأول ربا أبداً ببطلانه ربا العباس بن عبد المطلب.

تحريم الربا

وأوجب الرسول ﷺ على المسلمين أن يبنّوا كل الضغائن بينهم وطلب الثأر نبذاً نهائياً، لأنه يؤدى إلى تسلسل القتل فى عشيرتى المقتول والقاتل، إذ

تحريم طلب
الثأر

كانت العشيرة حين يُقتل أحد منها تأخذ بثأره، فتقتل شخصا أيًا كان من عشيرة القتال، وترد عشيرته بقتل أحد أبناء عشيرة القاتل، وكان ذلك يتسلسل في العشيرتين، وهو أحد الأسباب المهمة التي كثرت من أجلها الحروب في الجاهلية، فأبطل الإسلام قتل الثأر، وأقام مقامه القصاص، وردَّ حقَّ للدولة فهي التي تحقق في القتل لتعيين القاتل وقتله بصاحبه قصاصا عادلا، ولذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، إذ أبطل قتل الثأر المتسلسل مما جعل الرسول يقول تأكيداً لذلك في حجة الوداع: "وإن دماء الجاهلية موضوعة" أى باطلة إذ تقوم على قانون الثأر وقد أبطله الإسلام، ويقول: وإن أول دم أبدأ ببطلان الثأر فيه دم إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب. وكان صبيبا مسترضعا في بني سعد، فأصابه حجر أو سهم من هذيل فقتله.

ويقول إن المكارم المتوارثة عن الجاهلية باطلة إلا ما أقرَّه الإسلام، مثل مكرمة السدانة وهي خدمة الكعبة وكانت لبني عبد الدار القرشيين، وجعلها الرسول لهم وحدهم في الإسلام إلى الأبد، ومكرمة السقاية وهي ما كان يُسقاه الحجاج من الماء المطروح فيه الزبيب، وكانت لبني هاشم، وكان يتقلدها في عهد الرسول عمه العباس بن عبدالمطلب.

وذكر الرسول حكم القتل، فقال إن كان عمدا أو متعمدا فحكمه القود أي القصاص، وهو قتل الدولة للقاتل بالقتل، وإن كان شبه عمد أى حدث بدون قصد كالقتل بعصا أو بحجر أصاب شخصا عفوا ففيه مائة بغير تُهلَى إلى أهل المقتول.

ثم قال: أيها الناس وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلُّونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُجَلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ والنسيء: التأجيل والتأخير. وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يؤجلون ويؤخرون في الأشهر الحرم حسب حاجتهم من الغزو والقتال، فلم يلتزموها في الأشهر الثلاثة المتوالية: ذى القعدة وذى الحجة والحرم

تحريم تأجيل
بعض الأشهر
الحرم

وهي التي يحرم فيها القتال بجعل ثالثها الحرم، وكانوا يجعلونه صفرا، وأيضا كانوا يجعلون الحج عامين في كل شهر، فيحجون في الحرم عامين وفي صفر عامين إلى أن وافت حجة أبي بكر في ذي القعدة قبل حجة الرسول وكانت في ذي الحجة كما مر بنا. والله ينعي عليهم هذا الصنيع. ويلزمهم الرسول بأن يكون الحج دائما في ذي الحجة بقوله: "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" أي أن الحج أصبح وقته في ذي الحجة كما أراد الله دون أي تأجيل له أو تقديم، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثة منها متواليات هي ذو القعدة وذو الحجة والحرم، وواحد فرد هو رجب الذي بين جمادى وشعبان، وكانوا يعتمرون فيه.

وأوصى الرسول بالنساء خيرا وبالرفق بهن غاية الرفق، وقال إن للرجال عليهن حقا، ولهن حق على الرجال. فأما حق الرجال فهو أن لا يؤتين أحدا إلى فُرْشهم وأن لا يدخلن أحدا يكرهونه إلا بإذنهم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فقد أذن الله للرجال أن يمنعهن من الخروج وأن يهجرن الزوجات في المضاجع، وأن يضربوهن ضربا غير مبرح (خفيفا)، ويقول: فإن التهين عن عصيانهن وأطعنهم، فلهن حق عليهم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وهو حق دائم في الإسلام، إذ على الرجل لزوجته أن ينفق عليها مهما كانت ثرية. ثم يقول: وإنما النساء عندكم عوان (بمنزلة أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذنهن بأمانة الله واستحللتموهن بكلمة الله (وليت المأذونين الذين يقومون على عقد الزواج يذكرون ذلك حين العقد، فإن في ذلك توثيقا عظيما للعقد). يقول الرسول ﷺ: فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا.

التوصية
بالنساء

ويوصي الرسول المسلمين بالحفاظ على الأخوة الدينية تاليا قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وهي أخوة تجعل على المسلم لإخوانه المسلمين حقوقا وواجبات هي نفس واجبات الأخوة الحقيقية أخوة النسب. فهو يمد إليهم يده بالعون إذا احتاجوه. وهي أخوة يرعاها الله ويتعهد بها

الأخوة الدينية

كما جاء في الحديث النبوي، وما أروع تصوير الرسول عليه السلام لها في قوله: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى". ويقول الرسول: "لا يحلُّ لأمرئٍ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفسٍ منه".

ويوصي المسلمين بقوله: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض، فإنني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله وسنتي. وهو ينهى المسلمين عن الشقاق شقاقا يستل فيه بعضهم السيوف لبعض، ويقطع فيه بعضهم رقاب بعض، وكأنما غابت عن الصحابة هذه الوصية سريعا، فإذا فتنه عمياء صماء تنشب في خلافة عثمان الخليفة الثالث ويسفك فيها دمه، وينقسم المسلمون ويكفر بعضهم بعضا ويحملون السيوف ويشهرونها ويضرب بعضهم رقاب بعض كما حدث في خلافة علي وحروب الجمل وصفين.

ويقول الرسول: أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. وهو بذلك يحض على المساواة المطلقة بين أفراد النوع الإنساني في جميع البقاع والأقطار والشعوب والأمم، إذ جميع الناس شرقا وغربا وشمالا وجنوبا متساوون في أبوة واحدة وأصل واحد. وهذا المبدأ الإسلامى القويم هو التفسير الصحيح لقيام الإمبراطورية الإسلامية الضخمة سريعا من الهند شرقا إلى المحيط الأطلنطي غربا، إذ جعل الإسلام المواطنين في كل تلك الأنحاء يشعرون بمساواة حقيقية بينهم وبين جميع الناس. ويكمل الرسول هذا المبدأ بقوله: "وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ولا فضل لأحمر (أبيض) على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى". وبذلك سوَّى بين العرب والعجم من المسلمين، ورد التفاضل بينهم إلى التقوى. وبالمثل سوَّى بين البيض والسود، وهو بذلك أقام بين المسلمين قانون المساواة الخالد في الإسلام، فجميع الناس عربا وغير عرب وبيضا وسودا متساوون، ولا يتفاضلون إلا بتقوى الله. وبالتالي ألغى نهائيا العصبية القبلية بين القبائل، فلا مصرية ولا يمنية، وألغى العنصرية بين الأمم والشعوب، فلا أبيض ولا أسود، إذ الناس متساوون، وقد ألغيت صور التفاضل

النهى عن
الشقاق

المساواة
ولا عصبية
ولا طبقية
ولا عنصرية

بينهم ماعدا التفاضل بفضيلة الإسلام، وهى تقوى الله حق تقواه. والإسلام - بذلك - عمل بقوة على تثبيت مبدأ المساواة بين أفراد المسلمين وبينهم وبين الأمم والشعوب منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، بينما لا تزال بعض الحكومات تتعثر فى تطبيق هذا المبدأ الإنسانى إلى اليوم بين أفراد شعبها من البيض والسود.

العنصرية فى
القرن العشرين

٣

إكمال الدين

فى يوم عرفة نزل على الرسول ﷺ الوحي بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ والمراد بالدين فى الآية الشريعة الإسلامية وما تضمنته من العقيدة وقواعد الإسلام وآخرها الحج وشرائع المعاملات والعقود مثل عقد الزواج، ويقول تعالى لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بحيث اتضحت الشريعة الإسلامية اتضاحاً تاماً بالقرآن والسنة فى العبادات والمعاملات والفروض فى جميع أزماتها الحاضرة والمستقبلية، بحيث أصبح دين الإسلام كاملاً يؤدى لكل عصر فى آجل الأيام حاجاته التشريعية. وهذا - فى رأينا - معنى إكمال الدين أو الإسلام فى الآية الكريمة.

القرآن والسنة
أوضحا
الشريعة

وليس فيها ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن الدين كان ناقصاً. وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بإكمال الدين فى الآية إكمال انتصاره، إذ دخلت الجزيرة العربية جميعها فى دين الله، ولم يعد بها وثنى يحجج إلى البيت كما حدث فى حجة أبى بكر بالسنة التاسعة للهجرة، فقد آمن بالإسلام عقب حجته من كانوا قد ظلوا وثنيين من أهل مكة والجزيرة العربية، وهو تفسير بعيد. وقال مفسرون آخرون إن المراد بإكمال الدين إكمال تشريعات الحلال والحرام، وهو أيضاً تفسير بعيد، لأن الحلال والحرام كان مقرراً ومعروفاً فى الشريعة قبل يوم عرفة. وأوضح من ذلك أن يقال إن المراد بإكمال الدين إكماله بفريضة الحج

التي تعد قاعدة أساسية فيه والتي نزلت على الرسول في أدائه الآية الكريمة. واقتضت حكمته أن تنزل تشريعات الإسلام متدرجة ليتمكن رسوخها في نفوس المسلمين. ومما لا خلاف فيه أن تشريعات الإسلام تكاملت حينئذ، ويقول ابن عباس إنه لم ينزل بعد هذه الآية تحليل ولا تحريم ولا فرض، فقد تمت الشريعة الإسلامية، والله لذلك إنما يحكى واقعا. وحقق القرآن الكريم لا يحمل الوقائع الجزئية التي ستحدث للناس في المستقبل إنما يحمل قواعد كلية، وبالمثل لا يحمل العقود والمعاملات اليومية بين الناس، إنما حملت بعض ذلك السنة كما في قوله جل شأنه: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. فالدين قد بينه القرآن الكريم والسنة النبوية بيانا تاما كاملا.

واستدل أصحاب المذهب الظاهري بهذه الآية على صحة مذهبهم لأن الله يقول إنه أكمل الدين بالقرآن وبما أمر فيه من الأخذ بسنة رسول الله، فهما كافيان في التشريع، يؤخذ منهما، ولا داعي لأن نضيف إليهما في الأخذ بأصول الدين ما أخذت به الجماعة من الإجماع والقياس. غير أن الجماعة (من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل) اعتدلت بالإجماع والقياس في أصول الدين، لأن الرسول أخذ بهما فهما داخلان فيما أوجب الله على المسلمين أن يأخذوا به من سنة الرسول. أما الإجماع فلما جاء فيه من قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾؛ فإذا أجمعت الأمة على رأى واحد في حكم وجب الأخذ به، ويقول الرسول ﷺ: "لا تجتمع أمتي على ضلالة"، ويقول: "من فارق الجماعة قيد (قدر) شبر فقد خلع ربقة (عهد) الإسلام". ومن أجل النص على الإجماع في القرآن والحديث جعلته جماعة المسلمين الأصل الثالث في أصول الدين بعد الكتاب والسنة. وأما الاجتهاد وما يداخله من القياس فقد نص الله عليه بقوله لرسوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، أى أن الله أنزله بالأحكام الكلية

المذهب

الظاهري

ينكر الإجماع

والقياس

الجماعة تأخذ

بهما في أصول

الدين

الاجتهاد في
الشريعة

التي تدرج فيها الأحكام الجزئية. واستدل بذلك الإمام الشافعي وفقهاء الأمة على وجوب الاجتهاد في الشريعة على ما لم يأت فيه نص في الكتاب والسنة. وفي الحديث أن الرسول حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لتعليم الناس أمور الدين قال له وهو يودعه: بم تقضي؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله. قال له: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو (أقصر). قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسوله. فالاجتهاد وما يطوى فيه من القياس نص عليهما القرآن والسنة كما نصا على الإجماع، وبذلك عُذَّ القياس الأصل الرابع من أصول الدين.

المعتزلة

وذهبت المعتزلة إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هو إكمال بينات الدين وإظهار شرائعه، والآية واضحة ولا تحتاج إلى هذا التأويل. ويقول تعالى: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. ويجوز أن يكون المراد بالنعمة إكمال الدين، فتكون الصيغة مؤكدة لما قبلها، ويجوز أن يكون المراد بالنعمة الدين أي الإسلام، ويجوز أن يكون المراد بإتمام النعمة انتهاء ما كانوا يلقونه من الخوف فأصبحوا آمنين. ويقول الله للمسلمين: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي أنه هو الدين المرضي عند الله بشهادة قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

٤

مرض الرسول ووفاته - استخلاف أبي بكر أ- مرض الرسول ووفاته

عاد الرسول ﷺ من حجة الوداع قرير العين، فقد دخلت الجزيرة العربية في دين الله، ولم ينج إلى الكعبة بيت الله في مكة مشرك. وظل في بقية ذي الحجة والحرم وصفر هاتما بما أكرمه الله به من انتشار الإسلام في الجزيرة العربية جنوبا وشمالا وشرقا وغربا. وجاءته الأنبياء بأن ثلاثة كذابين ادَّعوا النبوة في

ثلاثة متنبئون

قومهم، وهم الأسود العنسي بصنعاء في اليمن وطلحة بن خويلد في بني أسد ومسيلمة بن حبيب في اليمامة وخطب في أولهم وآخرهم فقال: أيها الناس إني رأيت ليلة القدر وأنسيتها ورأيت في ذراعيّ سوارين من ذهب فكرهتهما، ونفختهما فطارا وأولتهما هذين الكذابين: صاحب اليمن الأسود العنسي وصاحب اليمامة مسيلمة، فأما الأسود فقتلته امرأة له كان قتل زوجها الأول، وأما مسيلمة فقتله خالد بن الوليد في حروب الردة واستراح قومهما منهما، وأما طلحة فكان جمع جموعا من قومه - بعد غزوة أُحُد - لحرب الرسول، وعلم الرسول بصنيعه، فأرسل إليه أبا سلمة عبد الأسد في مائة وخمسين رجلا، ووصل بمن معه إلى مائهم فوجدهم علموا بمقدمه وتفرقوا في كل وجه ولم يلق أحدا فرجع إلى المدينة، وانضم طلحة بعد ذلك إلى قريش في غزوة الأحزاب. ودخل بنو أسد بعد ذلك في الإسلام، وكان وفدها من الوفود التي قدمت على رسول الله معلنا دخول قومه في دين الله، وظل طلحة نافرا من الإسلام، وأعلن في بني أسد نبوته بعد وفاة الرسول ﷺ وتبعه بعض قومه وقضى خالد بن الوليد في حروب الردة على ثورته، وعاد إلى الإسلام وحسن إسلامه.

وكان الرسول ﷺ يطيل التفكير في غزوة مؤتة التي حدثت بين العرب والروم في جمادى الآخرة من السنة الثامنة للهجرة، واستشهد فيها زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة قادة الجيش بهذا الترتيب، وفكر في غزوة تبوك أن يوجهها إلى الروم وأن يأخذ لهم بثأرهم جميعا، ثم رأى العودة ولم يتم فيها قتال. حتى إذا عاد من حجة الوداع، وانضوت الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام أخذ يفكر في غزو ديار الروم جنوبى فلسطين ردا على غزوة مؤتة وهزيمة المسلمين فيها. وفي اليوم الرابع من آخر صفر أمر المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم فلما كان الغد دعا أسامة بن زيد - وكان شابا في نحو العشرين من عمره - وقال له: سيرُ إلى موضع مقتل أبيك زيد بن حارثة أول قائد لحملة مؤتة، فأوطئهم الخيل، فقد وليتكَ على الجيش الداهب إلى غزو الروم، فأغزُ صباحا على أهل أُنْسى (بالقرب من مؤتة) في البلقاء (جنوبى فلسطين) فإن ظفرك

تولية أسامة بن

زيد على جيش

لغزو الروم

(نصرك) الله فأقلل اللَّبَثَ (الإقامة) فيهم وخذ معك الأدلّاء، وقدّم العيون والطلائع معك.

وبعد يومين بدأ مرض رسول الله في يوم الأربعاء الثامن والعشرين من صفر، إذ حُمّ - وقيل إنها كانت حمة الملاريا - وفي صبيحه اليوم التالي عقد لأسامة لواء بيده، ثم قال له: اغزُ باسم الله وفي سبيل الله. ولم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب في الاشتراك بتلك الغزوة، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص. وتكلم نفر وقالوا كيف يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين؟ فغضب رسول الله ﷺ من هذا القول غضبا شديدا، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، فصعد المنبر، وحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس ما مقالة بلغتنى عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي له فلقد طعنتم في إمارتي أباه زيدا من قبله وإيم الله إن كان زيد خليقا بالإمارة وإن ابنه من بعده خليق بها، فاستوصوا به خيرا فإنه من خياركم. وذكر المعترضون السن، ولم يذكروا أن أباه كان عبدا وحرره الرسول، ولعل ذلك كان في نفوسهم. والرسول لم يكن يهمه في تعيين قواده السن ولا المكانة الاجتماعية في العالم. وتعيين أسامة قائدا لهذا الجيش أحد خطوطها المهمة. وتم لأسامة إعداد جيش، غير أنه لم يسرع به النظارا لما يحدث بالرسول إذ كانت الحمى تشتد عليه يوما بعد يوم، فعسكر بجيشه في الجرف على بعد فرسخ من المدينة.

مرض الرسول

لا يراعى السن

ولا المكانة

الاجتماعية في

تولية القيادة

وكان الرسول ﷺ يظن أن السنة العاشرة آخر سنوات حياته، وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، وكان جبريل يعرض عليه القرآن مرة واحدة كل سنة، فلما كانت السنة العاشرة عرض عليه القرآن مرتين، فقال: ما أظن أجلى إلا قد حضر، فاعتكف في رمضان العشر الأوسط والعشر الأواخر وكأنا كان ذلك نذيرا بوفاته. ولعل ذلك ما جعله يقول في خطبته بحجة الوداع: "أيها الناس اسمعوني أبين لكم، فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا". وكانت آخر سورة نزلت على رسول الله سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ

توقع الرسول

اقتراب وفاته

اللَّهُ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿١﴾ قال ابن عباس: أعلم الله رسوله بهذه السورة باقتراب أجله.

وكان أول ما شكاه منه الرسول ﷺ في مرضه الصداع، واشتد به المرض وهو في بيت زوجته ميمونة وقيل بل في بيت زوجته زينب، فاستأذنها واستأذن نساءه جميعاً أن يمرض في بيت عائشة، فأذن له، وكانت تنتابه في مرضه حمى شديدة وآلام معوية قاسية. وكان يقول لها في مرضه: ما زلت أجد ألم الطعام الذي أكلته بخير، وما زالت تلك الآلام تعاودني وجعلها بعض أصحابه السبب في مرض الرسول. ولعل السبب الحقيقي هو ما بذله من جهود شاقة أشد المشقة في رسالته ودعوته أهل مكة إليها ثلاث عشرة سنة، وكل يوم فيها يحمل إليه عتسا شديداً من قريش وعدوانا عليه، وظل طوال سنوات هجرته يجاهد العرب جهاداً شاقاً عنيهاً لم يهدأ إلا في السنتين الأخيرتين، ومع ذلك ظل يشغل بنشر الإسلام في الجزيرة وخارجها، وكأنه لم يجد راحة أبداً، مع ما قاساه في مكة هو وأصحابه من الاضطهاد الشديد. كل ذلك أثر في جسده، وجعله لا يتحمل الحمى والصداع اللذين ألما به نحو أسبوعين.

وأمر الرسول ﷺ بالخروج إلى البقيع ليستغفر لشهادته ويصلي عليهم، ويكون ذلك توديعاً للأموات قبل الأحياء، فوثب من مضجعه في جوف الليل - كما تقول عائشة - فقالت له: إلى أين؟ فقال لها: أُمِرت أن أستغفر لأهل البقيع. وكان إذا خف عنه ما يجد خرج فصلّى بالناس. واشتد به وجعه فأمر بسبع قرب من الماء تراق عليه وأريقت، وقال حين عجز عن الخروج إلى المسجد: مروا أبا بكر فليصل بالناس؛ وكأنما رشحه بذلك لخلافته. وكان أبو بكر يصلي بالناس الصبح ذات يوم فخرج الرسول إلى المسجد متوكئاً على العباس وعلى ليصلي وراءه وشعر به أبو بكر فحاول أن يتأخر ليؤم الرسول الناس فمنعه، وصلى وراءه ركعة ثم أتم الركعة الثانية. وهي إشارة كريمة منه ثانية لخلافته له.

أول شكواه
الصداع
استئذان
الرسول
زوجاته أن
يمرض في
بيت
عائشة

خروج الرسول
إلى البقيع
لتوديع الشهداء
صلاة أبي بكر
بالناس

وخرج في يوم السبت العاشر من ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة عاصبا رأسه فخطب في أصحابه، وكأنه أراد أن يودعهم، وبدأها بالاستغفار لشهداء يوم أُحُد ثم قال: إن عبدا من عباد الله خيّر بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله. فبكى أبو بكر وقال: بأبي وأمي أنت، نفديك بآبائنا وأمّهاتنا، وبأنفسنا وأموالنا. فقال: على رسلك يا أبا بكر. ثم قال: سُدّوا هذه الأبواب الشوارع إلى المسجد إلا باب أبي بكر، فإن أمنّ الناس عليّ في صحبتي وعماله أبو بكر فلو كنت متخذاً في الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. وكان هذا ترشيحا واضحا لخلافة أبي بكر له، وكان بابه غرب المسجد. ثم ذكر أسامة ابن زيد فقال: أنفذوا بعث أسامة. وكرّرها ثلاثا، وقال: لئن قلت في إمارته فلقد قلت في إمارة أبيه من قبله، وإنه - والله - خليق بالإمارة، وأبوه من قبله، وكان أبوه من أحب الناس إليّ. ومما أوصاهم به حيث شد أن يجيزوا الوفود القادمة إلى المدينة من الجزيرة بما كان يحيزها به، وأن يحسنوا إلى الأرقاء في معاملتهم، وأن لا يجتمع في الجزيرة العربية دينان، وكان من دان بالجنوسية على الخليج العربي اعتنق الإسلام في حياة الرسول، وبالمثل اعتنقه نصارى لجران على يد خالد بن الوليد في حياته، فلم يبق في الجزيرة مجوسى ولا نصرانى، وبقي بعض اليهود في خيبر وغيرها من مدن الحجاز، وخرجوا منها في خلافة عمر بن الخطاب. وقال الرسول: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

الخطبة الأخيرة

ترشيح أبي بكر
للخلافة

واشتد الألم والوجع بالرسول يوم الأحد، وكان طوال مرضه لا يشكو ولا يتوجع ولا يتأوه، ودعا بقدر ماء كان يضع فيه يده ويمسح بها على وجهه، وكان يتسم لعائشة، وهى تحاول تخفيف الحرارة عن وجهه بخرقه مبللة. وكان يغيب عن وعيه في لحظات من مرضه، وظلت عائشة تعطف عليه وتقوم بواجبها في تريضه مما جعله يستعيد قواه أحيانا فيخطب الناس أو يصلى معهم. واستعاد بعض قوته في صبيحة آخر أيامه في دنياء يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول، فخرج ﷺ فصلّى بهم، وكأنه خرج ليودّعهم السوادع الأخير، واستبشر الصحابة بخروجه وصلاته بهم، وظنوا أن المرض سيزيله، وعاد إلى فراشه عند

يوم وفاة
الرسول

عائشة، واشتدت به الحمى والألم، وأخذ يقول: اللهم أعني على كُربِ الموت وسكراته. وجعل يكرّر: إلى الرفيق الأعلى، مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. حتى إذا كان وقت الضحى الذي دخل فيه المدينة مهاجرا وبنفس اليوم شخصت عيناه ولم تطرفا، وسقط رأسه في حجر عائشة، فعرفت أنه لبي نداء ربه، فوضعت رأسه في رفق على وسادة، وأغلقت عينيه وقبّلت جبين زوجها الذي شغفت به، رسول الأمة، وغطت جسده ببردة، والدموع تسيل على خديها، وقماسكت، وانطلقت إلى فناء كانت نساء الرسول ينتظرن فيه الأخبار في قلق، وأبلغتهن النبأ المروّع. وعلا الصياح والعيول في دور نساء الرسول وسرعان ما ذهب عمر إلى المسجد حيث اجتماع الصحابة، وكانوا قد رأوا الرسول في الصباح، فلم يصدق كثير منهم الخبر، حتى عمر لم يصدق موته! وظنها وعكة وستزول، وخطب في الناس قائلا: "إن المنافقين يقولون إن رسول الله ﷺ توفّي، والله ما مات رسول الله ﷺ ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم، والله ليرجع رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات". وفي أثناء ذلك جاء أبو بكر فسار إلى بيت ابنته عائشة ووجدها بجوار الرسول باكية، فكشف البردة عن وجهه، وقبّل جبينه، وقال: ما أطيبك حيّا وما أطيبك ميتا، ثم ذهب إلى المسجد وسمع مقالة عمر وهو يرددها في الناس، فقال له: اجلس يا عمر، فأبى، فتنحّى عنه، وقام خطيبا فانصرف الناس إليه، فقال أبو بكر خطبته المشهورة: "أيها الناس! من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت". ثم تلا الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾. قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلا الآية حتى دهشت ولم تحملني رجلاي فوقعت على الأرض، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات وعرف ذلك الصحابة.

صدمة عمر

ب - استخلاف أبي بكر

ولما أيقن الناس أن الرسول ﷺ قد توفي تفرقوا، وانحاز فريق من الأنصار إلى سعد بن عبادَةَ في سقيفة بني ساعدة، وانحاز المهاجرون ومعهم أبو بكر وأسيّد ابن حُضَيْر إلى بني عبد الأشهل، وكان الرسول في بيت عائشة لم يُفرغ من أمره، قد أغلق أهله الباب من دونه.

وأتى شخص إلى أبي بكر وعمر فأنبأهما نبأ الأنصار وأنهم انحازوا إلى سعد ابن عبادَةَ، وقال لهما أدركوا الناس قبل أن يتفاقم الأمر، فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى هؤلاء الأنصار حتى ننظر ما هم عليه. وفي طريقهم لقيهم من الأنصار رجلاً، فذكرا للمهاجرين أن الأنصار قد اتفق رأيهم على سعد بن عبادَةَ فأسرعوا واقتضوا بأمرهم، فقال عمر: والله لنأتينهم. وأتوهم، وقام خطيبهم، فأتى على الله بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم - يا معشر المهاجرين - رهط منا وقد تجمع نفرٌ من قومكم، وإذا هم يريدون أن ينحسروا عن أصلنا، ويغضبونا من الأمر. وأراد عمر أن يتكلم، فقال له أبو بكر: على رسلك (قهل) يا عمر ثم قال أبو بكر موجهًا خطابه للأنصار: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل. نحن المهاجرون أول الناس إسلامًا، وأمسهم رحما برسول الله وقدّمنا عليكم في القرآن، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾. فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء - وكان جالسا بين عمر وأبي عبيدة - وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيدة بن الجراح. وكثر اللغط وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف، فنادى عمر على أبي بكر: ابسط يدك يا أبا بكر، فبايعه عمر بخلافة الرسول، وهو يقول: إنك أحبنا إلى رسول الله، وقد ولّك الصلاة بالناس مكانه فأنت خليفته، ونحن نبايعك، وقام المهاجرون فبايعوه في سقيفة بني ساعدة، ثم بايعه الأنصار.

وفي اليوم التالي اجتمع الناس فجلس أبو بكر على المنبر، وتكلم عمر قائلاً للناس: إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة عامة على ملأ منهم ورضا بعد بيعة السقيفة. وتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

"أيها الناس أما بعد فإنني قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة والضعيفُ فيكم قوَّى عندى حتى أريح (أردُّ) عليه حقَّه إن شاء الله، والقوَّى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلِّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

خطبة أبي
بكر عقب
توليهِ الخلافة

وبعد بيعة أبي بكر الصديق البيعة العامة أقبل الناس على جهاز رسول الله ودفن جثمانه الطاهر، ولم يحضر غسله وتكفينه إلا أهل بيته، غسله على بن أبي طالب وكان الفضل ابن عمه العباس وشقران مولاه يصبان عليه الماء والعباس عمه يساعدهم، وقيل كان معهم أسامة بن زيد. ولما فرغ من غسله كُفِّنَ في ثلاثة أثواب: ثوبين يمينيين وبرد حبرة أدرج فيه إدراجا. واختلفوا أين يُدفن، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قُبِضَ نبيُّ إلا دُفِنَ حيث يُقْبَضُ، فُرفِعَ الفراش الذي توفي فوقه، وحُفِرَ له تحتُه. ثم دخل الناس يصلون عليه جماعات وهو مسجَّى: دخل الرجال، حتى إذا فرغوا أُدْخِلَ النساء، وبعدهن أُدْخِلَ الصبيان. ودفن في وسط الليل ليلة الأربعاء؛ ونزل قبره على بن أبي طالب والفضل بن العباس وأخوه قُثم وشقران مولاه.

ولما تُوفِّي أبو بكر بعد خلافته دُفِنَ بجواره ﷺ، ثم دفن عمر بجوار أبي بكر، وظلت عائشة تعيش سعيدة في حبرتها بجوارهم. ورأت حين حضرتها

الوفاة أن تُدفن بالبقيع: مقبرة أهل المدينة. وطلبت فاطمة ابنة الرسول من أبي بكر أن يعطيها من تركة الرسول من أرض خيبر وفدك فأجابها بقول الرسول: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة". وهكذا خرج الرسول ﷺ من الدنيا لا يملك شيئاً صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين.

تم . والحمد لله رب العالمين

الفهارس

- ١ - فهرس الأعلام
- ٢ - فهرس القبائل والطوائف والأمم
- ٣ - فهرس البلدان والمواضع
- ٤ - فهرس الغزوات والمسيرات والبعوث

فهرس الأعلام

- أ
أبان بن سعيد بن العاص ٢٩٢
إبراهيم الخليل ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٦، ٤٥، ٧٤، ٧٢، ٦٩، ٥٤، ٥٣، ٥٢
١٧٣، ١٢٨، ١٢٦، ١٠٣
١٨٤، ١٨٠، ١٧٥، ١٧٤
٣٥٥، ٣٢٣، ٣١٦
إبراهيم بن الرسول ٣٩٣، ٣٦٤، ٣٣٤
٣٩٤
أبرهة (القائد الحبشي) ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٤٤
٦٠
ابن أخطل ٣٥٦
ابن إسحاق ١٢٠، ١٠٩، ١٠٧، ١٠٦، ٤٦
١٨٠، ١٧٢، ١٧١، ١٥٠، ١٤٢
٣٢٦، ١٨٣
أبو أمامة (انظر أسعد بن زرارة)
أبو أمية بن المغيرة ٣٤٦، ٧٣
أبو أيوب الأنصاري ١٦٠، ١٥٧
أُبَيّ بن خلف ٢٤٦
أُبَيّ بن كعب ٢٣٢، ٢٣١، ٢٠٠
الأخنس بن شريق ٢١١
إدريس (النبي) ١٢٨
آدم ٢٣٣، ١٨٤، ١٢٨، ٥٢
أربد بن قيس ٣٩٠، ٣٨٩
- أرطاة بن عبد شريحيل ٢٤٥، ٢٤٤
الأرقم بن أبي الأرقم ٢٣٧، ٨٧
أزهر بن عبد عوف ٣٤٤
أسامة بن زيد ٢١٦، ٢٠٧، ١٦٠، ١٠٦
٣٥٥، ٣١٩، ٣٠٥، ٢٨٣
٤١٥، ٤١٢، ٤١٠، ٤٠٩
إسحاق (النبي) ١٠٣، ٥١، ٥٠
أسد بن عبيد ٢٧٠
أسعد بن زرارة ١٤١، ١٤٠، ١٣٩، ١٣٨
١٥٧، ١٤٥، ١٤٤، ١٤٢
١٥٨
إسفنديار ٢١٦، ١١٩
أسماء بنت أبي بكر ١٧١، ١٦٠، ١٥٣، ٨٧
٣٩٨
أسماء بنت عمرو ١٤٤
أسماء بنت عميس ٣٢٤، ٩٩
إسماعيل بن إبراهيم الخليل ٥١، ٥٠، ٤٨
١٠٣، ٦٩، ٥٥، ٥٣، ٥٢
١٨٠، ١٧٥، ١٧٤، ١٧٣
٤٠٠، ٣٩٨، ٣٢٣، ٣٢٢
إسماعيل بن عبد الرحمن (أبو الفداء) ١٠٦
الأسود العنسي ٤٠٩
الأسود بن المطلب ٢٢٩، ١١٦، ٩٣
الأسود بن عبد الأسد القرشي ٢١٣

أهـرمـن (إله للفرس) ٤١	الأسود بن عبد يغوث ١١٦
الأوزاعي (صاحب المذهب) ٣٥٢	أسيد بن حضير ١٣٧، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥
أوس بن ثابت ٧٧	٢٤٢، ٢٤٩، ٢٦٥، ٢٨٤
أوس بن حنجر ١٥٦	٢٩٠، ٤١٤
أوس بن قيثى ٢٦٤، ٢٦٣	أسيد بن سعية ٢٧٠
إياد ٤٤، ٣٧	أسير بن رزام ٢٨٧، ٢٩٨
إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب	أشجع ٢٦٠
٤٠٣	الأشعث بن قيس ٣٩٠
إياس بن قبيصة ٣٧	الأصبغ بن عمرو الكلبي ٢٧٦
إياس بن معاذ ١٣٧	الأصيرم عمرو بن ثابت ١٤١
ب	الأقرع بن حابس التميمي ٣٥٠، ٣٦١
بجير بن زهير بن أبي سلمى ٣٦٠، ٣٧٩	٣٦٢، ٣٨٦
بجرا الراهب ٦٤، ٦٧	أكيدر (صاحب دومة الجندل) ٣٧٤
البخاري ١٧١، ١٩٢، ٢٣٤، ٣١٩، ٣٦٦	إليوس جالوس ٣٤
أبو البخترى بن هشام ١١٤، ٢١١، ٢١٤	أمامة بنت أبي العاص بن الربيع ٧٦
بختنصر ٢٥٥	أم أيمن ٦١، ٦٢، ١٦٠، ٢٥٦، ٢٨٤
بديل بن ورقاء الخزاعي ٢٩٠، ٢٩١، ٣٤٧	امروء القيس ٣٧، ٣٠٧
٣٥١	آمنة بنت وهب (أم الرسول) ٥٩، ٦٠، ٦١
أبو براء ٢٥١	٦٢، ٨٦، ٢٤٢
البراء بن معرور ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥	أمية بن أبي الصلت ٧٨
١٧٣	أميمة بنت بشر ٣٤٦
البراض الكنانى ٦٤	أمية بن خلف ٩٣، ٩٥، ٩٦، ١٢١، ٢١٠
برّة بنت الحارث (انظر جويرية)	٢١١، ٢١٥
برّة بنت عبد المطلب (عمة الرسول) ٨٧	أميمة بنت عبد المطلب (عمة الرسول)
٣٢٩	٨٧، ٢٥٦، ٣٢٩
برّة بنت أبي سلمة ٣٢٩	الأمين (لقب محمد) ٦٦، ٧٠، ٧٣
بريدة بن الحصيب الأسلمي ١٥٥، ٢٧٩	أنس بن مالك ٣٦٦
بريرة (جارية) ٢٨٣	أنيسة بنت الحارث (أخت الرسول في
	الرضاعة) ٦١

- بسر بن سفيان الخزاعي ٣٦١
 بَسْبَس بن عمرو الجهني ٢٠٩، ٢٠٨
 بشر بن البراء ٣٠٣
 بشر بن سعد ٣٢١، ٣٢٠، ٣١٩، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٢
 ٣٢٢
 أبو بصير الثقفي ٣٤٥، ٣٤٤، ٢٩٥
 ابن بطوطة ٤٧
 أبو بكر بن أبي قحافة ٩٤، ٨٦، ٨٥، ٧٧، ٩٦، ٩٥، ١٥٢، ١٣٤، ١٢٧، ٩٧، ٩٦، ٩٥
 ١٥٧، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٣
 ٢٠٨، ١٨١، ١٧١، ١٦٨، ١٦٠
 ٢٣٢، ٢٣١، ٢١٧، ٢١٥، ٢١٤
 ٢٨٢، ٢٥٥، ٢٤٧، ٢٤١، ٢٤٠
 ٣١٨، ٢٩٣، ٢٩٠، ٢٨٦، ٢٨٥
 ٣٤٢، ٣٣٥، ٣٢٨، ٣٢٧، ٣١٩
 ٣٥٨، ٣٥٥، ٣٤٩، ٣٤٨، ٣٤٧
 ٣٨٣، ٣٨٢، ٣٨١، ٣٧٩، ٣٧٧
 ٤١٠، ٤٠٨، ٤٠٤، ٣٩٨، ٣٩٦
 ٤١٥، ٤١٤، ٤١٣، ٤١٢، ٤١١
 ٤١٦
 أبو بكر نقيع ٣٦٠
 بلال بن رباح ١٧٣، ١٧٢، ١٦٥، ٩٦
 ٣٥٥، ٣٢٣، ٢٤٢، ٢١٥
 ٣٨٩، ٣٨٨، ٣٨٦، ٣٧٢
 ٣٩٣
 بنانة (امراة الحكم القرظي) ٢٧٢
 بولس ١٨٩
 بيحرة بن فراس ١٣٤
 ت
 تانج (أسرة صينية) ٤١
 تيتوس ٢٥٥
 تيودور ٣٤٠
 ث
 ثابت بن أقرم ٣٤١
 ثابت بن قيس بن الشماس ٣٣٢، ٢٧٢
 ٣٨٦، ٣٧٢
 ثعلبة بن صعية ٢٧٠
 ثمامة بن أثال ٣١٠، ٣٠٩
 ثمود (شعب) ٣٧٣، ٦٧
 ثوية (جارية أبي هب) ٦٠
 ج
 جابر بن اليمان ٢٤٦
 جابر بن عبد الله ١٣٨
 الجاحظ ٣٦
 الجارود العبدى ٣٨٦
 جارية بنت مالك بن حليفة ٢٨٦
 جالوت ٢٢٦، ١٩١، ١٨٩
 جبريل (مَلَك) ١٠٣، ٨٤، ٨٣، ٨٢، ٨٠
 ١٢٨، ١٢٥، ١٢٠، ١٠٩
 ٢٣٠، ١٥٢، ١٣٠، ١٢٩
 ٣٢٥، ٣٢٠، ٢٦٨، ٢٣٢
 ٤١٠
 جبريل (صانع السيوف) ١٢٠
 جبير بن مطعم بن عدى ٢٤٤، ٢١٨، ١٤٦
 جعفر بن أبي طالب ١٠١، ١٠٠، ٩٩، ٨٤

الحارث بن ضرار ٢٧٨	٣٤٠، ٣٢٤، ٣٠٥
الحارث بن عامر ٢١٤، ٢١١	٤٠٩، ٣٤١
الحارث بن عبد المطلب ٦٠	جهيل بن سراقه ٣٥٠
الحارث بن عبد العزى ٦٠	الجلال بن طلحة ٢٤٥
الحارث بن عبد كلال ٣٩١، ٣٠٩	أم جهيل (أخت أبي سفيان) ٩١، ٨٩، ٧٦
الحارث بن عمير الأزدي ٣٤٠	جهيل بن معمر ١٠٨
الحارث بن عوف المزي ٢٦٥، ٢٦٠	أبو جندل بن سهيل بن عمرو ٢٩٥، ٢٩٣
الحارث بن غيظة ١١٦	جهجاه بن مسعود الغفاري ٢٨٠
الحارث بن كعب ٣٩٣	أبو جهل بن هشام المخزومي ٩٥، ٩٤، ٩٣
الحارث بن هشام ٣٦٢، ٣٥٤، ١٥٠	٩٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١١٤
٣٩٩	١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٣٢، ١٥٠
أبو حارثة (أسقف بنجران) ١٨٢	١٥١، ١٩٦، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢١٠
حاطب بن أبي بلتعة ٣٤٩، ٣٣٣، ٣١٦	٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦
الحباب بن المنذر ٢٤٧، ٢٤٦، ٢٤٢، ٢٠٩	٢١٧، ٣٤٩
٣٠١، ٣٠٠	أبو جهنم بن حليفة ٣٤٦
حبان بن العرقه ٢٦٤	جوستنيان ٤٢
حبشي (عبد) ٢٤٤، ٢٤٠	جويرية (بنة) بنت الحارث ٢٨٠، ٢٧٩
حبشي ٥٦	٢٨٣، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٧٠
حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ١٢٤	جيفر بن الجندى ٣٨٦، ٣٦٣، ٣١٠
حبيب بن عمرو السلامي ٣٩٢	
حبيب بن عينة ٢٧٤	ح
أم حبيبة بنت أبي سفيان ١٠١، ٩٩، ٤٦	الحارث أبو زينب ٣٠٠
٣٤٧، ٣٣٥، ٣٣٣، ٣٠٧، ٣٠٥	الحارث بن أبي شمر ٣٠٨
٣٧٠	الحارث بن البرصاء الليثي ٣٣٩، ٣٣٨
حجر (والد امرئ القيس) ٣٧	الحارث بن الصمة ٢٥١، ٢٤٧، ٢٤٦
حجير بن إهاب ٢٥٠	الحارث بن أبي ضرار ٣٣٢، ٢٧٨
حليفة بن اليمان ٢٦٧، ٢٤٦، ٢٣٢	الحارث بن حرب بن أمية ١٤٦
أبو حليفة بن عتبة بن أبي ربيعة ٢١٢، ٩٨	الحارث بن سويد بن الصامت ٢٥٢، ١٩٣
حرام بن ملحان ٢٥١	الحارث بن طلحة ٢٤٥

- حرملة بن عمرو ٢١٤
٢١٤، ٢١٣، ٢٠٤، ١٩٩
- ابن حزم ٧١
٢٤٦، ٢٤٤، ٢٤١، ٢٤٠
- حسان أخى أكيدر ٣٧٤
٣٣١، ٣٣٠، ٣٢٤، ٢٤٨
- حسان بن الدحداح ٣٤٦
٢٨٦، ٢٨٢، ٢٨١، ٢٨٠
- حسان بن ثابت ٣٣٤، ٣١٦، ٢٨٦، ٢٨٢
٣٨٦، ٣٧٢
- الحسن بن على بن أبى طالب ٧٨، ٧٧
٣٢٥
- الحسين بن على بن أبى طالب ٧٨، ٧٧
٣٢٥
- حفصة بنت عمر بن الخطاب ٢٥٥، ٢٣٢
٣٣٥، ٣٣٠، ٣٢٨، ٣٢٧
- حويط بن عبد العزى ٢٩٣، ٢٢٩، ٢١٠
٣٦٢، ٣٤٧، ٣٢٤
- أبو الحيسر أنس بن رافع ١٣٧
٢٦٣، ٢٦٢، ٢٦٠، ٢٥٩
- حصى بن أخطب ٢٧٤، ٢٧١، ٢٦٨، ٢٦٦
- خ
- خازن الجنة ١٢٨
- خالد بن البكير ٢٥٠
- خالد بن الوليد ٢٤٣، ٢٤٠، ١٨٤، ١٤٩
٢٩٠، ٢٨٩، ٢٦٤، ٢٤٦
- خليل بن حبشية ٥٦
٣٣٦، ٣٢٣، ٣١٠، ٣٠٩
- حليم بن خويلد ٢٥٢
٣٥٣، ٣٥١، ٣٤١، ٣٣٧
- حليمة بنت أبى ذؤيب (مرضعة الرسول)
٣٩٣، ٣٥٨، ٣٥٦، ٣٥٤
- ٣٦١، ٦١، ٦٠
- حماسة أم بلال بن رباح ٩٦
١١٢، ١٠٨، ٩٥، ٦٠
- خالد بن سعيد بن العاص ٣٧٧، ١٠١
٣٩٠، ٣٧٨
- خالد بن سنان ٧٨، ٤٦
١٩٧، ١٩٦، ١٩٢، ١٢١

ذ	خباب بن الأرت ٢٣٦، ١٨٨، ١٠٦
ذكوان بن عبد قيس الزرقى ١٣٨	خبيب بن عدي ٢٦٣، ٢٥١، ٢٥٠
ذكوان من بنى سليم ٢٥٢، ٢٥١	خديجة بنت خويلد ٦٩، ٦٨، ٦٧، ٦٦، ٥٩
ذو الحمار سبيع بن الحارث ٣٥٩، ٣٥٧	٧٦، ٧٤، ٧٢، ٧١، ٧٠
ذو الحويصرة ٣٦٢	٨٢، ٨١، ٨٠، ٧٩، ٧٧
ذو رعين (النعمان - قيل) ٣٩١، ٣٠٩	١١٤، ٨٦، ٨٥، ٨٤، ٨٣
ذو نواس (ملك يمني) ٤٣	١٤٢، ١٢٣، ١٢٢، ١٢١
	٢٥٦، ٢٥٥، ٢١٨، ١٧١
	٣٦٧، ٣٣٠، ٣٢٨، ٣٢٥
ر	٤٠١، ٣٩٣
أبو رافع (مولى الرسول) ٣٢٤، ١٦٠	خلاد بن سويد ٢٧٢
٣٦٤، ٣٥٤	خنيس بن جابر ٣٤٤
رافع بن خديج الأوسى ٢٠٧	خنيس بن حذافة السهمي ٣٢٧
رافع بن مالك الخزرجي ١٤٥، ١٣٨	خنيس بن شريق ٣٤٤
رافع بن مكيث الجهني ٣٤٢	خوات بن جبير ٢٦٣
ربيعه بن أبي براء ٢٥١	خولة بنت المنذر ٣٦٧
رستم ٢١٦، ١١٩	
رعية السحيمي ٣٧٢	د
ابن أبي رفاعه ٢١٤	داود (النبي) ١٩١، ١٨٩، ١٢٨، ٦٥، ٤٤
رفاعة بن سمؤال القرظي ٢٧٢	٣٣٤، ٢٢٦
رفيدة الأسلمية ٢٧٣، ٢٧١	أبو دجاجة بن خرشة ٢٤٦، ٢٤٤، ٢٤٣
رقية بنت علي بن أبي طالب ٧٧	٣٠٢، ٢٥٥، ٢٤٧
رقية بنت الرسول ٢١٦، ٩٨، ٧٧، ٧٦، ٧٤	أبو الدحداح ١٦٩
٣٢٧، ٣٢٥	دحية الكلبي ٣١٥، ٣٠٣، ٢٧٦
رملة (انظر أم حبيبة)	درة بنت أبي سلمة ٣٢٩
أبو رهم بن عبد العزى ٣٣٤	أبو الدرداء ٢٣٢
أم رومان ١٦٠، ١٥٣	دريد بن الصمة ٣٥٩، ٣٥٧
ريحانة بنت زيد ٢٧٢	ديودور الصقلي ٥٤

ز

٣٦٦، ٣٦٠، ٣٣٥

٤١١، ٣٧٠

زينب بنت خزيمة ٣٣٥، ٣٢٨، ٢٥٥

زينب بنت علي بن أبي طالب ٧٧

زينب بنت الرسول ٢١٨، ٧٦، ٧٥، ٧٤

٣٢٥، ٢٨٢، ٢٧٦

٣٦٤

زيرة (من الإمام) ٩٦

س

السائب بن أبي السائب ٦٦

سارة (زوجة إبراهيم) ٥٠، ٤٩

سالم بن عمير ٢٢٣

السامري ١٧٩

سباع بن عبد العزى ٢٤٤

سبيعة الأسلمية ٣٤٦

سدوس بن الحارث الغساني ٣٤٠

سراقة بن مالك المدلجي ٣٩٨، ١٥٥، ١٥٤

سرجون الثاني ٢٥٥

أبو سعد بن أبي طلحة ٢٤٥

سعد بن أبي وقاص ٢٠٤، ٢٠٠، ١٩٧، ٨٦

٢٤٥، ٢١٦، ٢٠٨

٤١٠، ٢٦٩

سعد بن الربيع الخزرجي ١٦٤، ١٤٥

سعد بن خيثمة ١٥٧، ١٤٥

سعد بن عبادة ٢٦٢، ٢٤٢، ١٥٧، ١٤٥

٣٠٠، ٢٨٤، ٢٨١، ٢٦٥

٤١٤، ٣٦٢، ٣٥٣، ٣٤٨

سعد بن معاذ ٢٠٩، ٢٠٨، ١٤١، ١٤٠

الزبرقان بن بدر ٣٨٦، ٣٨٥، ٣٧٢

الزبير بن العوام ٢٤٥، ٢٤٣، ٢٠٨، ٨٦

٣٠٢، ٣٠١، ٢٧١، ٢٦٥

٣٩٨، ٣٥٣، ٣٥٠، ٣٤٩

الزبير بن باطا ٢٧٢

زرادشت ٤١

زرعة بن ذى يزن ٣٠٩

زمنة بن الأسود ٢١٤، ٢١٠، ١١٤

زهرة بن كلاب ٦٥، ٥٥

زهير بن أبي أمية ١١٦، ١١٤

زهير بن أبي سلمى الشاعر ٣٧٩، ٣٩

زيد الخيل ٣٨٧

زيد بن الدثنة ٢٥١، ٢٥٠

زيد بن ثابت ٢٣٢، ٢٣١، ٢١٩، ١٥٧

٣٦٣، ٣٢٨

زيد بن حارثة ١٦٠، ٨٦، ٨٥، ٧٧، ٧٥

٢٣٦، ٢٢٩، ٢١٨، ٢٠٧

٢٦٣، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٣٩

٣٢٤، ٢٨٦، ٢٧٦، ٢٧٥

٣٤٠، ٣٣١، ٣٣٠، ٣٢٩

٤٠٩، ٣٤٦، ٣٤١

زيد بن رفاعه الجذامي ٢٧٦

زيد بن نُفَيْل ٧٨، ٤٦

زيد بن نوفل ٤٦

زينب بنت الحارث ٣٠٣

زينب بنت جحش ٢٥٦، ٢٥٥، ٢٥٤

٢٨٣، ٢٥٨، ٢٥٧

٣٣١، ٣٣٠، ٣٢٩

سلمة بن الأكوع ٢٨٨، ٢٨٦، ٢٧٥	٢٤٩، ٢٤٢، ٢٤١، ٢٤٠
سلمة بن خويلد ٢٥٢	٢٧١، ٢٦٥، ٢٦٤، ٢٦٢
سلمة بن دريد ٣٥٩	٢٧٣
أم سلمة بنت أبي أمية ١٤٨، ٩٨، ٨٧	سعية بن سلام ٣٠٢
٢٥٦، ٢٥٥، ٢٥٤، ١٤٩	سعيد بن العاص ٢٣٢
٢٩٩، ٢٩٥، ٢٩٤، ٢٧٨	سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ١٠٦، ٨٧
٣٦٠، ٣٥١، ٣٤٦، ٣٢٩	٣٥٦، ٢٣٦، ١٨٨
٣٧٠	سفانة بنت حاتم الطائي ٣٨٨، ٣٨٧، ٣٧٢
أبو سلمة بن عبد الأسد ١٤٨، ٩٨، ٨٧	أبو سفيان بن الحارث ٣٥٨، ٣٥١، ٩١
٣٢٩، ٢٥٦، ٢٥٢، ١٤٩	أبو سفيان بن حرب ١١٣، ٩٩، ٧٦، ٤٦
٤٠٩	١٩٧، ١٩٢، ١٥٠، ١٢١
سلمى أم عبد المطلب ١٣٦	٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٦
سلمى بنت عميس ٣٢٤	٢٢٠، ٢١٢، ٢١١، ٢١٠
سلمى بنت قيس ٢٧٢	٢٤١، ٢٤٠، ٢٣٩، ٢٢٧
سليط بن عمرو العامري ٣٠٩	٢٤٧، ٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤٢
أم سليم ٣٥٩، ٣٠٣	٢٥٩، ٢٥٣، ٢٥١، ٢٥٠
سليمان (الرسول) ١٨٠، ١٧٤، ١٧٣، ٥٣	٢٦٦، ٢٦٤، ٢٦٢، ٢٦٠
٣٣٤، ١٨٩	٣٢٢، ٣٢١، ٢٦٨، ٢٦٧
السموأل بن عاديا ٣٠٧، ٤٤	٣٥٢، ٣٥١، ٣٤٩، ٣٤٨
سمية أم عمار بن ياسر ٢٠٥، ٩٦	٣٩٩، ٣٧٨، ٣٦٢، ٣٥٣
سنان بن وبر الجهني ٢٨٠	سفيان بن عبد الله الثقفي ٣٦٠
سهل بن حنيف ٣٤٦، ٢٥٥، ٢٢١	سفيان بن عبد شمس ٢٦٠
سهل بن عمرو ١٥٧	السكران بن عمرو ٣٢٦، ٩٩
سهيل بن عمر ٣٢٦	سلام بن أبي الحقيق ٢٩٨، ٢٧٤، ٢٥٩
سهيل بن عمرو ٢١٨، ٢١١، ٢١٠، ١٥٧	٣٠٢
٣٤٧، ٣٢٤، ٢٩٤، ٢٩٣	سلام بن مشكم ٣٣٣، ٣٠٣، ٢٢٧
٣٥٦، ٣٥٤، ٣٥٣، ٣٤٩	سلمان الفارسي ٣٦٠، ٢٦٠، ١٦٥
٣٦٢	سلمة بن أبي سلمة ٣٢٩، ١٤٨
سهلة بنت سهيل بن عمرو ٩٨	سلمة بن أسلم الأوسي ٢٦٣

- السهيلى ١٣٤، ١٣٣، ١٢٠
سو (أسرة صينية) ٤١
سودة بنت زمعة ٧٧، ٩٩، ١٦٠، ١٧١،
٢١٨، ٢٥٥، ٣٢٥، ٣٢٨
٣٣٥، ٣٦٦، ٣٧٠
سويد بن الصامت الأوسى ١٣٦، ١٣٧،
٢٥٢
سويلم اليهودى ٣٧٣
ابن سيد الناس ١٠٦
سيرين أخت مارية القبطية ٣١٦، ٣٣٤،
٣٩٤
أم سيف (حاضنة إبراهيم) ٣٩٤
ش
الشافعى (صاحب المذهب) ٢٤٨، ٣٥٢،
٤٠٧، ٤٠٨
شاول ٢٢٦
شجاع بن وهب الأسدى ٣٠٨، ٣٣٩
شَرْحَبِيل بن الحارث الغسانى ٣٤٠، ٣٤١
شعيب (النبي) ٣٥، ٦٣، ٣١٢
شقرا (مولى الفضل بن العباس) ٤١٥
شيبه بن ربيعة ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ٢١٠،
٢١١، ٢١٣، ٢٢٠
شيبه بن هاشم ٥٧
شيوخه ٣١٥
الشيما بنت الحارث (أخت الرسول فى
الرضاعة) ٦١، ٣٦١
ص
صالح (الرسول) ٦٣
الصَّنْدِيق (انظر أبا بكر)
صُرْد بن عبد الله ٣٩٠
صفوان بن المعطل ٢٨٢، ٢٨٤
صفوان بن أمية ٢١١، ٢٢٩، ٢٣٩، ٢٥١،
٣٣٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٣
٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٢
سفيان بن عبد شمس ٢٦٠
صفية بنت حُثَيِّ بن أخطب ٣٠٣، ٣٠٦،
٣٠٨، ٣٣٣، ٣٣٥
٣٦٦، ٣٧٠
صفية بنت عبد المطلب ٨٦، ٨٨
صُهَيْب الرومى ١٥١، ١٦٥
صَوَّاب ٢٤٥
صيفى بن الراهب ٣٤٦
ض
الضحاك بن سفيان ٣٧٢
ضرار بن الخطاب الفهري ٢٦٤
ضمضم بن عمرو ٢١٠
ط
طالب بن أبى طالب ٢١٢
أبو طالب بن عبد المطلب ٦٢، ٦٣، ٦٦،
٦٧، ٧٦، ٨٤، ٨٥، ٨٨، ٩٠
٩١، ٩٦، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٦
١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٠، ١٤٠

عاصم بن ثابت ٢٥٠، ٢٤٥	الطاهر (لقب عبد الله بن الرسول) ٧٤
أبو عامر الأشعري ٣٥٩	طعيمة بن عدى ٢١٠
عامر بن الأضيظ الأشجعي ٣٤٤	الطفيل بن عمرو الدوسي ١٣٣، ١٣٢،
أبو عامر الأوسي ٢٤٣، ٢٤١	٣٥٦
عامر بن الحضرمي ٢١٣، ٢١٢، ١٢٠	أبو طلحة الأنصاري ٣٥٩
عامر بن الطفيل ٣٩٠، ٣٨٩، ٢٥١	طلحة بن أبي طلحة ٢٤٤
عامر بن عقبة بن أبي معيط ٣٤٦	طلحة بن خويلد ٣٢٩، ٢٦٠، ٢٥٦
عامر بن فهيرة ٢٥١، ١٥٥، ١٥٣	طلحة بن عبيد الله ٢٤٥، ٢٣٢، ٨٦
عامر بن لؤي ٢٦٤	٣٩٨، ٣٧٣، ٢٤٧، ٢٤٦
عباد بن بشر ٢٩٠	الطيب (لقب عبد الله بن الرسول) ٧٤
عبادة بن الصامت ٢٢٦، ١٤٥، ١٣٨	طيحوس (قيصر) ٤٣
ابن عباس ١٢٧، ١١٦، ١١٠، ٨٧، ٨٣	
٣٢٧، ٢٢١، ٢١٨، ١٩٢، ١٧٣	ع
العباس بن عباد بن نضلة ١٤٥، ١٣٩	عائشة بنت أبي بكر ٨٧، ٨٠، ٧٩، ٧١
العباس بن عبد المطلب ٩٤، ٨٨، ٨٤، ٦٢	١٣٠، ١٢٩، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٥
٢١٤، ٢١١، ١٤٤، ١٤٣	٢٧٦، ٢٥٥، ١٧١، ١٦٠، ١٥٣
٣٥٢، ٣٥١، ٣٢٣، ٢٤٠	٢٨٢، ٢٨١، ٢٨٠، ٢٧٩، ٢٧٨
٤٠٣، ٣٥٨، ٣٥٥، ٣٥٣	٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢٦، ٢٨٥، ٢٨٤
٤١٥، ٤١١	٣٦٥، ٣٤٩، ٣٣٥، ٣٣٢، ٣٣٠
العباس بن مرداس ٣٦٢، ٣٦١	٣٩٨، ٣٩٧، ٣٩٦، ٣٧٠، ٣٦٦
عبد الدار بن قُصي ٥٦	٤١٥، ٤١٣، ٤١٢، ٤١١، ٤٠٠
عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ٢٣٢	عاتكة بنت عبد المطلب ١١٤
عبد الرحمن بن الزبير ٢٧٢	عاد (شعب) ٣١٢
عبد الرحمن بن عوف ٢١٥، ١٦٤، ٩٨، ٨٦	أبو العاص بن الربيع ٢١٨، ٧٦، ٧٥، ٧٤
٣٨١، ٣٠٦، ٢٧٦	٣٦٤، ٣٢٥، ٢٧٦
عبد الرحمن بن عيينة ٢٧٥، ٢٧٤	العاص بن سعيد ٢١٤
أبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة البلوي ١٣٨	العاص بن منية ٢١١
عبد العزى بن عبد المطلب ٨٩، ٨٨، ٦٠	العاص بن هشام ٢١٤
١٣٣، ١٣١، ١١٣، ٩١	العاص بن وائل ١١٦، ٩٣

- ٢١٨
عبد الله بن أبي أمية ١١٧، ١٢٢، ٣٥١
عبد الله بن أبي ١٨٢، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٢٦
٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٤
٢٥٨، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٨٠
٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦
٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٩، ٣٨٠
٣٨١
عبد الله بن أبي بكر ١٥٣، ١٦٠، ٣٢٨
أم عبد الله بن أبي خيثمة ١٠٥
عبد الله بن أبي ربيعة ٩٩، ٢١٠، ٢٢٩
٣٥٤، ٢٤٣
عبد الله بن أريقط ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥
١٦٠
عبد الله بن الحارث (شقيق الرسول في
الرضاعة) ٦٠، ٦١
عبد الله بن الزبير ٧٤، ٢٣٢
عبد الله بن أنيس ٢٨٧
عبد الله بن جبير ٢٤٦
عبد الله بن جحش ٨٧، ٩٩، ٢٠٠، ٢٠١
٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧
٢١٢، ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٥٧
٣٣٠، ٣٣١
عبد الله بن جدعان سيد تيم
(حلف الفضول) ٦٥
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ٩٩
عبد الله بن حذافة ٣١٥
عبد الله بن خطل ٣٥٥
عبد الله بن رواحة ١٤٥، ٢٦٣، ٢٨٧
٢٩٨، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٤٠
٣٤١، ٣٤٢
عبد الله بن زيد ١٧٢، ١٧٣
عبد الله بن سعد بن أبي سرح ٣٥٦
عبد الله بن سلام ١٥٧، ١٧٨، ٢٧٠
عبد الله بن سهيل بن عمرو ٣٥٦
عبد الله بن طارق ٢٥٠
عبد الله بن عبد الله بن أبي ٢٨١
عبد الله بن عبد المطلب (والد الرسول)
٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١
عبد الله بن عتيك ٢٧٤
عبد الله بن عثمان ٧٧
عبد الله بن عثمان الثقفي ٣٤٦
عبد الله بن عمر ٩٦، ٢٠٧
عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي ١٤٣
١٤٥
عبد الله بن غالب الكناني الليثي ٣٣٨
عبد الله بن الرسول ٧٤، ٣٢٥، ٣٩٣
عبد الله بن مسعود ٨٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٨
٢١٥، ٢٣١، ٢٣٢
عبد المسيح العاقب ١٨٢
عبد المطلب بن هاشم ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٢
٨٨، ١٢٢، ٢٥٦، ٣٦٧
عبد الملك بن مروان ١٦٠
عبد شمس بن عبد مناف ٥٦
عبد مناف بن قصي ٥٦
عبد ياليل بن عمرو بن عمير ١٢٤، ١٢٥
٣٧٧
عبد الله بن جحش ٤٦، ٧٨، ٩٩، ١٠١

عدى بن أبى الزغباء الجهنى ٢٠٩، ٢٠٨	٣٣٣، ٣٠٧، ٣٠٥
عدى بن حاتم ٣٨٩، ٣٨٨، ٣٨٧	أبو عبيدة بن الجراح ٢٤٣، ٢٤٢، ٩٩، ٨٧
عدى بن زيد العبادى ٤٥	٤١٠، ٢٩٣، ٢٤٧
عروة يثرب ٥٧	٤١٤
عروة بن أسماء السلمى ٢٥١	عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ١٩٧، ٨٧
عروة (الرحال) ٦٤	٣٢٨، ٢٥٦، ٢١٣، ٢٠٤
عروة بن الزبير ٣٢٧	أم عيسى (جارية) ٩٧
عروة بن مسعود الثقفى ٣٧٦، ٢٩١، ١٢٠	عتاب بن أسيد ٣٦٣، ٣٥٨
عزال بن سموأل ٢٦٦، ٢٦٢	عتبة بن عبد العزى (ابن أبى هب) ٧٦،
عصماء بنت مروان ٢٢٣	عتيبة بن عبد العزى (ابن أبى هب) ٧٦،
عصبة من بنى سليم ٢٥٢، ٢٥١	عتبة بن أبى وقاص ٢٤٦
عطاء بن أبى رباح ٣٢٧	عتبة بن ربيعة ١٢١، ١١٦، ١١٢، ٩٨،
عطارد بن حاجب ٣٨٦، ٣٨٥، ٣٧٢	٢١١، ٢١٠، ١٢٥، ١٢٤
عطية القرظى ٢٧٢	٢٤٠، ٢٢٠، ٢١٣، ٢١٢
أبو عفك ٢٢٣	عتبة بن غزوان ٢٤٤، ٢٠٠، ١٩٧، ٩٩،
عقبة بن أبى معيط ٢١٠، ١١٩، ٩٦، ٩٥	٣٢٨
٢١١، ٢١٦، ٢١٧	عثمان بن أبى العاص ٣٧٨، ٣٧٧
٣٤٥	عثمان بن أبى طلحة ٢٤٥، ٢٤٤
عقبة بن الحارث بن عامر ٢٥٠	عثمان بن الحارث ٣٥٩
عقبة بن عامر بن نابى الخزرجى ١٣٨	عثمان بن الحويرث ٧٨، ٤٦
عكاشة بن محصن ٢٧٥	عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ٢٦٠، ١٤٩
عكرمة بن أبى جهل ٢٤٣، ٢٤٠، ١٩٧	٣٥٥، ٣٣٧، ٣٣٦
٢٦٦، ٢٦٤، ٢٤٦	عثمان بن عبد الله ٢٠١، ٢٠٠
٣٤٩، ٣٣٦، ٢٨٩	عثمان بن عفان ٩٨، ٩٤، ٨٦، ٧٧، ٧٦،
٣٥٦، ٣٥٤، ٣٥٣	٢٤٠، ٢٣٢، ٢٣١، ٢١٦، ١٥٨
٣٦٢	٣٣٣، ٣٢٧، ٣٢٥، ٢٩٤، ٢٩٢
علاء بن الحضرمى ٣٨٦، ٣١١	٤٠٥، ٣٧٣، ٣٥٦
العلاء بن جارية ٣٦٢	عداس النصرانى ٢١١، ١٢٥
علبة بن زيد الحارثى ٣١٩	عدنان ٥٥، ٣٨

٢٨٣، ٢٨٠، ٢٧٨، ٢٦٥	علقمة بن مجزر ٣٧٢
٣١٨، ٣١١، ٢٩٣، ٢٩٢	على بن أبي العاص بن الربيع ٧٦
٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢٦، ٣١٩	على بن أبي طالب ٧٧، ٨٤، ٨٥، ٨٦
٣٤٢، ٣٣٥، ٣٣٣، ٣٣٢	١٥٩، ١٥٢، ١٥٠، ١٣٤
٣٥٠، ٣٤٦، ٣٤٥، ٣٤٢	٢٣١، ٢١٣، ٢٠٨، ٢٠٧
٣٦٠، ٣٥٨، ٣٥٥، ٣٥٣	٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٠، ٢٣٢
٣٨٠، ٣٦٩، ٣٦٨، ٣٦٦	٢٦٩، ٢٦٤، ٢٤٧، ٢٤٦
٤١٣، ٤١٢، ٤١٠، ٣٩٨	٢٨٣، ٢٧٧، ٢٧٦، ٢٧١
٤١٥، ٤١٤	٣٠٥، ٣٠١، ٣٠٠، ٢٩٤
عمرو أبو الطفيل الدوسي ١٣٣	٣٤٩، ٣٤٨، ٣٢٥، ٣٢٤
عمرو بن أبي سفيان ٢١٠	٣٧٢، ٣٥٦، ٣٥٥، ٣٥٤
عمرو بن الأهم ٣٨٥، ٣٥٨	٣٩٦، ٣٩٥، ٣٨٧، ٣٨٢
عمرو بن الجلودى ٣٨٦، ٣٦٣	٤١٥، ٤١١، ٣٩٨
عمرو بن الحضرمى ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٤	على بن أمية بن خلف ٢١١، ٢١٥
٢١٣، ٢١٢، ٢٠٧	عمار بن ياسر ٩٦، ٩٩
عمرو بن الربيع ٧٥	أم عمار ١٤٤
عمرو بن العاص ٩٩، ١٠١، ١١٢، ٢٦٤	عمار بن الوليد ٩٩
٣٣٦، ٣١١، ٣١٠، ٢٩٥	عمار بنت حمزة ٣٢٤
٣٥٦، ٣٤٣، ٣٤٢، ٣٣٧	عمر بن أبي سلمة ٣٢٩
٣٨٦	عمر بن أسد (عم خديجة) ٦٩
عمرو بن أمية ٢٥١	عمر بن الخطاب ٨٧، ٩٦، ١٠٢، ١٠٥
عمرو بن حزم ٣٩٣، ٣٠٩	١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩
عمرو بن سالم ٣٤٧	١١١، ١١٢، ١٢١، ١٤٩
عمرو بن سعدى ٢٧٠	١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٥٧
عمرو بن عبد ودّ ٢٦٤	١٥٨، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣
عمرو بن عمير بن عوف ١٢٤، ١٤٩	١٨٧، ١٨٨، ٢٠٨، ٢١١
١٥٠	٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٧
عمرو بن عوف ١٤٩، ١٥٠	٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧
عمرو بن عكاشة ٢٧٥	٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٥٥

٣٩٨، ٣٩٣، ٣٤٨، ٣٢٥

٤١٦

فراث بن حيان ٢٢٩

فراس بن النضر بن الحارث ٩٩

فروة بن عمرو ٣٩٠

أبو فكيهة (مولى لبنى عبد الدار) ٩٦

فنحاص اليهودي ١٨١

ق

أبو قابوس النعمان ٤٥

قارب بن الأسود ٣٧٧

قارب بن عبد الله ٣٥٩، ٣٥٧

القاسم بن الرسول ٣٩٣، ٣٢٥، ٧٤

أبو قتادة الأنصاري ٣٤٤، ٣٤٣

أبو قتادة حبيب بن عينة ٢٧٥

القرطبي ١٩٣

أم قرفة ٢٨٦

قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة ٣٤٦

قرمان ٢٤٥، ٢٤٤

قُسّ بن ساعدة الإيادي (أسقف لجران)

٧٨، ٦٦

قسطنطين ٤١

قصي بن كلاب ١١٧، ٥٦، ٥٥

قطبة بن عامر بن حديدة الخزرجي ١٣٨،

٣٣٩

قطبة بن عامر بن نابي ٣٧٢، ١٣٨

ابن قمينة ٢٤٧، ٢٤٦

أبو قيس بن أبي أوس ٧٨

قيس بن الحصين ٣٩٣

عمرو بن معديكرب ٣٩٠

عمير بن أبي وقاص ٢٠٧

عمير بن الحُمام ٢١٤، ٢١٣

عمير بن عديّ ٢٢٣

عمير بن وهب ٣٥٦، ٢١١

ابن أبي العوجاء السلمي ٣٣٨

عوف بن الحارث ١٣٨

عوف بن عفراء ٢١٥، ٢١٣

عويم بن ساعدة ٢٥٢، ١٣٩

عياش بن أبي ربيعة ١٥١، ١٥٠، ٩٩

عياض بن غنم ٣٤٦

عيسى بن مريم ١٠٢، ١٠١، ٨٧، ٤٥

١١٩، ١١٨، ١١٦، ١٠٣

١٨٠، ١٦٥، ١٢٨، ١٢٦

١٨٥، ١٨٤، ١٨٣، ١٨٢

٢٣٤، ١٨٩، ١٨٧، ١٨٦

٣١٥، ٣١٢، ٣١١

عينة بن حصن الفزاري ٢٧٤، ٢٦٥، ٢٦٠

٣٢٠، ٣١٩، ٢٩٩

٣٦٢، ٣٦١، ٣٥٠

٣٨٦، ٣٨٤، ٣٧٢

غ

غالب بن عبد الله الليثي ٣١٩

ف

فاطمة بنت الخطاب ١٨٨، ١٠٦، ٨٧

فاطمة بنت الرسول ٨٨، ٧٨، ٧٧، ٧٤

٢١٦، ١٦٠، ١٢٣، ٩٦

- أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ٢١٤
 قيس بن الجسر ٢٨٦
 قيس بن زيد ٢٥٢، ١٩٣
 قيس بن سعد بن عبادة ٣٥٣، ٣٤٣
 قيس بن شماس ٢٧٩
 أبو قيس صيفي بن الأسلت ١٤١
 قيس بن عاصم ٣٨٥
 قيس عيلان ٣٨
- ل
- أبو لبابة بن عبد المنذر ٢٧٠
 لبننة (اشترأها أبو بكر) ٩٦
 ليبد بن الأعصم اليهودي ٣١٧
 لقمان ١٣٦
 أبو لهب (انظر عبد الغزي)
 لوط (النبي) ٣١٢، ٤٩
 ليلي بنت عمرو من بني النجار ١٣٦
- م
- مارية القبطية ٣٣٤، ٣٢٥، ٣١٦، ٧٤
 ٣٦٧، ٣٦٥، ٣٦٤، ٣٣٥
 ٣٩٣
 مالك (صاحب المذهب) ٤٠٧، ٣٥٢، ٢٤٨
 مالك بن عوف النصري ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٥٧
 ٣٦٢، ٣٦٠
 مالك بن حليفة ٢٨٦
 مالك بن مرة ٣٠٩
 ماني (المانوية) ٤١
 المثني بن حارثة الشيباني ١٣٥، ١٣٤
 مجدي الجهني ١٩٦
 المجلر بن زياد ٢٥٢، ٢١٤، ١٩٣
 محرز بن نضلة ٢٧٥
 محسن بن علي بن ابي طالب ٣٢٥
 محكم بن جثامة الليثي ٣٤٤
- ك
- كرز بن جابر الفهري القرشي ١٩٨،
 ٢٨٧، ٢٠٤، ٢٠٣
 كسرى الثاني ٣١٤، ٢٩١، ١٥٥، ٤٥، ٣٧
 ٣١٥
 كعب بن أسد ٢٦٩، ٢٦٨، ٢٦٢
 كعب بن الأشرف ٢٥٤، ٢٢٤، ٢٢٣
 كعب بن زهير ٣٧٩
 كعب بن زيد ٢٥١
 كعب بن عمير الغفاري ٣٣٩
 كعب بن مالك ٣٧٤، ٣٧٣، ١٤٣
 كعبية الأسلمية ٢٧١
 كلثوم بن الهدم ١٥٧
 أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ٢٩٥،
 ٣٥٤، ٣٤٦
 أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ٧٧
 أم كلثوم بنت الرسول ٧٧، ٧٦، ٧٤
 ٣٢٧، ٣٢٥، ١٦٠
 كنانة بن أبي الحقيق ٢٩٩، ٢٥٩، ١٩٦
 ٣٣٣، ٣٠٢

محمد بن مسلمة ٢٢٣، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٧٥	معاذ بن الحارث الخزرجي ١٣٨
٢٩٢، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٢١	معاذ بن جبل ٣٠٩، ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٩٣،
٣٢٢	٤٠٨، ٣٩٥
مخرمة بن نوفل ٢١١	معاوية بن أبي سفيان ١٢٧، ٣٤٦، ٣٦٢،
مخشي بن عمرو ١٩٨	٣٩٩
مرارة بن الربيع ٣٧٣، ٣٧٤	معاذ بن عفراء ١٥٧، ٢١٣، ٢١٤،
مرحب ٣٠١، ٣٠٠	أم معبد الخزاعية ١٥٥
مرثد بن أبي مرثد ٢٠٧، ٢٥٠	معبد بن أبي معبد ٢٥٠
مريم ٤٥، ١٠١، ١٠٢، ١١٨، ١٨٣، ١٨٤	معتب بن قشير ٢٦٣
٣١٢	معوذ بن عفراء ٢١٣، ٢١٥،
مزدك ٤١	المغيرة بن شعبة ٣٧٧، ٣٧٨،
مسافع بن طلحة ٢٤٥	المغيرة بن معاوية ٢٧٦
أم المساكين (انظر زينب بنت خزيمة)	مفروق بن عمرو ١٣٤، ١٣٥،
أم مسطح ٢٨٣	المقداد بن الأسود ٩٩، ١٩٧، ٢٠٧، ٢٠٨،
مسطح بن أثانة القرشي ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥	٣٢٨
٢٨٦	المقرئزي ١٣٣، ٣٠٥،
مسعود بن رخیلة ٢٦٠	المقوقس ٧٤، ٣١٤، ٣١٦، ٣٣٣، ٣٣٤،
مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي ١٢٤،	٣٣٥
٣٣٤	مقيس بن صبابه ٣٥٥
المسيح (انظر عيسى)	مقيس بن عمرو الجمحي ٢١١
مسيلمة الكذاب ٢٤٤، ٣١٠، ٣٨٧	ابن أم مكتوم ١٣٩، ١٤٢،
مسيلمة بن حبيب ٤٠٩	مكرز بن حفص ٢١٨، ٢٩٣، ٣٢١،
مصعب بن عمير ٩٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١،	مكسيموس تياروس (مؤرخ) ٥٤
١٤٢، ١٧٣، ٢٠٨، ٢٤٢	مَلَك الجبال ١٢٥
٢٤٨، ٢٤٦	ملك الموت ١٢٨
مضاض بن عمرو ٥٥، ٥٧	ملك النقرة ١٢٨
المطعم بن عدی ١١٤، ١٢٥	أبو مليح بن عمرو بن مسعود ٣٧٨
المطلب بن عبد مناف ٥٦، ٥٧	أبو مليحة ٣٧٧
معاذ بن الجموح ٢١٤، ٢١٥	المنذر أمير الغساسنة ٣٧

- المنذر بن ساوى ٣٨٦، ٣١١، ٣١٠
المنذر بن عمرو الخزرجى ٢٤٣، ١٤٥
المنذر بن عمرو الساعدى ٢٥١
المنذر بن محمد ٢٥١
مهجع (مولى عمر بن الخطاب) ٢١٣
موسى ١١٨، ١١٦، ١٠٣، ٨٣، ٨٢، ٦٥
١٧٨، ١٤٥، ١٢٩، ١٢٨، ١٢٦
١٩١، ١٨٩، ١٨٤، ١٨٠، ١٧٩
٤١٣، ٣١١، ٢٣٤، ٢٢٢، ٢٠٨
أبو موسى الأشعرى ٣٥٩، ٣٠٥، ٢٣٢
٣٦٣
ميسرة (غلام خلدجة) ٦٧
ميمونة بنت الحارث (برّة) ٣٢٤، ٣٢٣
٣٣٥، ٣٣٤
٤١١، ٣٧٠

هـ

- هاجر ٣٩٨، ٣٢٢، ٥٣، ٥١، ٥٠، ٤٨
هاشم بن عبد مناف ٥٧، ٥٦
أم هانئ بنت أبى طالب ٣٥٤
هانئ بن قبيصة الشيباني ١٣٥، ١٣٤
هبار بن الأسود السدى ٣٥٦
هبيرة بن أبى وهب ٣٥٤، ٢٦٥، ٢٦٤، ٩١
هدريان (قيصر) ٢٥٥، ٢٢٤، ٤٣
هرقل قيصر الروم ٣١٥، ٣١٤، ٢٩١، ٤٢
٣٤٠
هرون (النبي) ١٢٨
أبو هريرة ٢٣٢
ابن هشام ١٣٤، ١٣١، ١١٩، ١٠٦، ٨٧
١٧١، ١٦٠، ١٥٩

ن

- أبو نائلة ٢٢٣
نابت بن إسماعيل ٥٣
نافع بن بديل بن ورقاء ٢٥١
الناموس الأكبر (انظر جبريل)
نباش بن قيس ٢٦٩
النجاشي (ملك الحبشة) ١٠١، ١٠٠، ٩٩
٣١٤، ٣٠٧، ٣٠٥، ٢٩١، ١١٢
٣٣٣، ٣١٥
النضر بن الحارث ١٣٢، ١٢١، ١١٩، ٩١
٢١٧، ٢١٦، ٢١١، ٢١٠
النضر بن كنانة ٥٥
النعمان أبو قابوس ٤٥، ٣٧

هشام بن العاص بن وائل ٩٩، ١٥٠، ١٥١	ي
هشام بن عمرو ١١٤، ١١٣	يحيى (النبي) ١٢٨
هلال بن أمية ٣٧٣، ٣٧٤	يزيد بن أبي سفيان ٣٦٢، ٣٩٩
هند بنت أبي أمية بن المغيرة ٣٢٩	يسار (مولى رسول الله) ٢٢٨، ٣١٩
هند بنت عتبة (زوجة أبي سفيان) ١٩٢،	يسر بن سفيان ٢٩٠
٢٢٠، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣،	يعرب بن قحطان ٥٣
٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٩٩	يعقوب (النبي) ٥٢، ١٠٣، ٢٨٤
الهيثم بن عارض ٢٧٦	يوحنا بن رؤبة ٣٠٨، ٣٧٤
هود ٣١٢	يوسف (النبي) ١٢٨
هوزة بن علي ٣٠٩	يونس بن متى ١٢٥
أبو الهيثم بن التيهان الأوسي ١٣٩، ١٤٤	
١٤٥ -	
هيرودوت (مؤرخ) ٥٤	

و

وائل بن حجر ٣٠٩
واقد بن عبد الله ٢٠١
الواقدي (المؤرخ) ١٣٣
وحشى (قاتل حمزة) ١٩٢، ٢٤٤
ورقة بن نوفل ٤٥، ٤٦، ٧٨، ٨٢، ٨٣، ٨٤،
٣٢٥
الوليد بن المغيرة ٧٢، ٩٣، ١١٦، ١٢٠،
١٣١، ٢٣٥
الوليد بن الوليد بن المغيرة ١٥١، ٣٣٦
الوليد بن عبد الملك ١٥٨
الوليد بن عقبة بن أبي معيط ٣٤٦
الوليد بن عتبة ٢١٣، ٢٢٠

فهرس القبائل والطوائف والأمم

أهل الغضا (العرب) ٣٥	أ
أهل الكهف ١١٩	الأحاييش ٢٩١، ٢٨٩
الأوس (قبيلة) ١٣٧، ١٣٦، ٤٣، ٣٨، ٣٧	الأحباش ٤٤، ٣٨
١٤٨، ١٤٦، ١٤٥، ١٤٢، ١٣٨	الأحزاب ١٩٥، ١٨٧، ١٦٦، ١٤١، ١٣٣
١٧٧، ١٦٤، ١٦١، ١٥٦، ١٥١	٤٠٩، ٢٦٨، ٢٦١، ٢٥٩، ١٩٩
١٩٣، ١٨٦، ١٨٢، ١٨٠، ١٧٨	الأحناف (انظر الحنيفية)
٢٤١، ٢٢٦، ٢٢٤، ٢٢٠، ١٩٤	الأرثوذكسية (عقيدة) ٤٢
٢٧١، ٢٧٠، ٢٦٨، ٢٥٢، ٢٤٢	الأزد (قبيلة) ٣٩٠، ٣١٠، ٣٧
٣٨٠، ٣٧٩، ٢٨٤، ٢٧٤	الأسباط ١٠٣
ب	بنو أسد ٢٥٦، ٢٥٢، ٨٩، ٧١، ٣٨، ٣٧
بجيلة ٣٧	٤٠٩، ٣٢٩، ٣٠٧، ٢٦١، ٢٦٠
البراهمة (فى الهند) ٤١	إسرائيل (شعب) ١٨٩، ١٨٤، ١٧٣، ١٣٦
البكّاءون ٣٧٣	٣١١، ٢٥٥، ٢٠٨
بكر (قبيلة) ٣٨	بنو أسلم ٣٥٠
بنو بكر بن عبد مناة (قبيلة) ٣٤٧، ٣٤٦	الأمسيديون ٣١٠
٣٤٩	بنو أشجع ٣٥٠
بنو بكر من هوازن ٦٠	الآلمان ٤٢
بنو بكر بن كلاب ٣١٨، ٢٧٤، ٦٠	بنو أمية بن زيد ١٤١
بليّ (قبيلة) ٣٧٢، ٣٤٣، ٣٤٢، ٣٤٠، ٣٧	بنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ٧٧
٣٨٩، ٣٨٨	٢٦٠
بهاء (قبيلة) ٣٨٩، ٣٤٠، ٣٧	الإنجيل (كتاب مقدس) ١٢٠، ١٠٤، ٨٢
البوذية (عقيدة) ٤١	٢٣٥، ٢٣٤، ١٢٩
بيزنطة ٣٠٨، ٥٦، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٦	الأنصار ٢٠٨، ١٦٠، ١٣٨، ١٣٦، ١٣٥
	٤١٤، ٢٤٠

بنو جشم ٣٥٧	٣٤٠، ٣١٦
بنو جمح ١٢٤	
جهينة ٣٥٣، ٣٥٠، ٣٤٣، ٣٧	ت
	تجار مكة ٦٦
ح	تحيب (قبيلة) ٣٩٠
بنو الحارث بن كعب ٣٠٩، ١٣٣	تغلب ٤٤، ٣٨
بنو حارثة ٢٦٤، ٢٦٣، ١٤٠	بنو قعيم ٣٨٤، ٣٧٢، ٣٥٠، ٣٩، ٣٨
الحبيشة ٩٨، ٧٦، ٥٧، ٥٦، ٤٧، ٤٤، ٣٤	٣٨٦
١١١، ١٠٩، ١٠٥، ١٠١، ٩٩	تنوخ ٣٧
١٧١، ١٣٦، ١١٢	بنو تيم ٩٧، ٨٩، ٨٥، ٦٥
بنو حليفة بن مدر الفزارية ٢٨٦	التوراة ١٧٨، ١٢٩، ١٠٣، ٦٤، ٤٤
جمير في اليمن ٣٩١، ٣٠٩، ٥٦، ٣٩، ٣٧	٢٧٢، ٢٣٥، ٢٣٤، ١٨٩، ١٨١
بنو حنيفة ٣٨٧، ٣٠٩، ١٣٣، ٣٨	٣٠٦، ٢٧٣
الحنيفية ١٨٤، ١٧٥، ٧٨، ٤٦، ٤٥، ٤٣	ث
خ	بنو ثعلبة ٣٨٩، ٢٧٥، ٢٥٣، ١٣٤، ١٣٣
ختعم (قبيلة) ٣٩٠، ٣٧٢، ٣٣٩، ٣٩	الشموديون ٣٤
خزاعة (قبيلة) ٢١٢، ١٢٥، ٥٦، ٥٥، ٣٧	
٣٤٦، ٣٤٥، ٢٩٥، ٢٩١، ٢٤٩	ج
٣٨٤، ٣٧٢، ٣٥١، ٣٤٧	الجاهلية (العصر الجاهلي) ٤٠، ٣٩، ٣٦
الخزرج (قبيلة) ١٣٧، ١٣٦، ٤٣، ٣٨، ٣٧	١٧٨، ٧٨، ٥٨، ٤٦، ٤٣
١٤٥، ١٤٤، ١٤٣، ١٤٢، ١٣٨	١٩٤، ١٩٣، ١٩٢، ١٩١
١٦١، ١٥٦، ١٥١، ١٤٨، ١٤٦	٢٤٨، ٣٤٦، ٢١٢، ٢٠١
١٨٢، ١٨٠، ١٧٨، ١٧٧، ١٦٤	٣٩١، ٣٨٤، ٣٨١، ٢٨٤
٢٢٦، ٢٢٤، ٢٢٠، ١٩٤، ١٨٦	٤٠٣
٢٦٥، ٢٦٢، ٢٥٢، ٢٤٢، ٢٤١	بنو جحش ١٥٠
٣٧٩، ٢٨٤، ٢٨٠، ٢٧١، ٢٦٨	جدام (قبيلة) ٣٧٢، ٣٤٢، ٢٧٦، ٤٤، ٣٧
٣٨٠	بنو جليمة من كنانة ٣٥٦
خطمة (من بطون بني عبد الأشهل) ١٤١	جرهم (قبيلة) ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٥١، ٤٨

- خولان (قبيلة) ٣٩١، ٣٩٩
بنو سعد بن بكر ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٦٧،
٢٧٧، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١
- د
دوس (قبيلة) ١٣٢، ١٣٣، ٣٠٥
الدوسيون (انظر دوس)
الدولة البيزنطية ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٤١
دولة كويتا (في الهند) ٤١
- ذ
ذبيان (قبيلة) ٣٨
بنو ذهل ٣٨، ١٣٤
- ر
رعل ٢٥١، ٢٥٢
الركوسية (لحلة مسيحية) ٤٥، ٣٨٨
الرماة ٢٤٥
الروم ٣١٥، ٤٠٩
الرومان ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٢٩٧، ٤٠، ٣٤٠
- ز
زبيد (قبيلة) ٣٩٠، ٣٩٩
بنو زهرة ٥٩، ٨٦، ٨٩، ٢١١، ٢٤٤
- س
الساسانيون ٤٠، ٤٢
بنو سالم بن عوف ١٥٧
السبيون ٣٨
سعد (قبيلة) ٣٨
- ش
الشام ٤٢، ٤٤، ٥٤، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٣، ٦٦،
٦٧، ٦٨، ٧٥، ١١٧، ١٤٢، ١٤٦،
١٧٣، ١٨٧، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥،
١٩٦، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢١٨، ٢٢٧،
٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٩، ٣٤٣، ٢٥٥،
٣٣٩، ٣٨٨
بنو شيبان ٣٨، ١٣٤
- ص
الصابتة ٣١١
الصقالبة ٤٢
الصليبيون ١٩٠
- ض
ضبة (قبيلة) ٣٨
بنو ضمرة ١٩٨

بنو عوال ٣١٩	ط
	طَيّ ٣٨٧، ٣٧٢، ٢٥٢، ٢٢٣، ٤٤، ٣٧
غ	
غامد (قبيلة) ٣٩٢	ظ
الغساسنة ٣٠٨، ٤٤، ٤١، ٣٧، ٣٦	بنو ظفر ١٤٠
غسان (قبيلة) ٣٩٢، ٣٧٢، ١٣٣، ٥٦	
٣٩٢	ع
غطفان (قبيلة) ٢٢٩، ٢٢٨، ١٩٦، ٣٨	بنو عامر ٣٣٩، ٢٥١، ١٥٠، ١٣٤، ٣٨
٢٦٣، ٢٦٢، ٢٦١، ٢٦٠، ٢٥٣	عاملة (قبيلة) ٣٧٢، ٤٤، ٣٧
٢٩٩، ٢٩٨، ٢٩٧، ٢٦٧، ٢٦٦	العباديون ٤٤، ٣٧
٣٤٤، ٣٤٣، ٣١٩، ٣١٨	بنو عبد الأسد ١٤٩، ١٤٨
بنو غفار ٣٥٣، ٣٥٠	بنو عبد الأشهل ٤١٤، ١٤١، ١٤٠، ١٣٧
ف	بنو عبد الدار ٢٤٥، ٢٤٤، ١٤٩، ٩٦، ٧٣
الفجار (حرب) ٢٠٣، ٦٥، ٦٤	٤٠٣، ٣٥٥
الفرس ١١٩، ٥٦، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٩	عبد القيس (قبيلة) ٣٨٦، ٣٨
٣١٠، ٢١٦	بنو عبد المطلب ٣٦١، ٨٩، ٨٧
بنو فزارة ٣١٨، ٢٧٤، ٢٨٦، ٢٦٠، ١٣٣	بنو عبد ثعلبة ٣١٩
٣٨٩	بنو عبد شمس ٨٧
بنو فهر ٨٧	عبد مناة (قبيلة) ٢٤٠
ق	بنو عبد مناف ٨٩، ٨٧
قحطان (شعب) ٣٨	بنو عيس ٣٨٩، ١٣٣، ٧٨، ٤٦، ٣٨
قرقرة الكدر ٢٢٨	عجل (قبيلة) ٣٨
بنو قريظة ٢٢٤، ١٩٩، ١٩٥، ١٨٧، ٤٣	بنو عدى ٩٦، ٨٧، ٧٣
٢٦٦، ٢٦٥، ٢٦٣، ٢٦٢، ٢٥٤	بنو عذرة ١٣٣، ٣٧
٢٧١، ٢٧٠، ٢٦٩، ٢٦٨، ٢٦٧	غرينة (قبيلة) ٢٨٧
٢٦٨، ٣٣٣، ٢٧٤، ٢٧٣	عصية من بنى سليم ٢٥٢، ٢٥١
قشير (قبيلة) ٣٨	بنو عمرو بن عوف ٢٨٧
	بنو عمون ٢٧٣
	بنو العنبر ٣٧٢

بنو محارب ٣٩٢،٣٤٣،٢٥٣	قضاة (قبيلة) ٣٤٢،٣٤٠،٥٥،٤٤،٣٧
بنو مخزوم ٩٦،٩٥،٨٩،٦٦	٣٨٩،٣٨٨
بنو مدالج ١٩٨،١٥٥،١٥٤	القوط ٤٢
مدحج (قبيلة) ٣٩٠،٣٩	قيس عيلان ٣٨
بنو مراد (قبيلة) ٣٩٠،٣٩	بنو قيلة ١٥٦،
بنو مرة العطفانيين ٣١٨،٢٦٠،١٣٣	بنو قينقاع ٢٢٥،٢٢٤،٢٢٢،١٥٧،٤٣
مزينة (قبيلة) ٣٥٣،٣٥٠،٣٨	٢٧١،٢٢٧،٢٢٦
المسيحية (انظر النصرانية)	
بنو المصطلق ٢٧٩،٢٧٨،١٩٩،١٩٥	ك
٣٣٢،٢٨٥،٢٨١،٢٨٠	الكاثوليكية (عقيدة) ٤٢
٢٨٠،٣٦١،٣٣٥	بنو كعب ٣٥٧،٣٥٠
مُضَرَّ (قبائل) ٤٠	بنو كلاب العامريين ٣٧٢،٣٥٧،٣١٨
بنو المطلب ١١٤،١١٣،٩٦،٧٧،٦٥	كلب ٢٧٦،١٣٣،٤٤،٣٧
٣٠٥،١٤٧،١٤٦	كليب ٣٨
معافر ٣٩١	كنانة (قبيلة) ٢٦٠،٦٤،٥٥،٣٩،٣٨
المعتزلة ٤٠٨	٣٥٦،٣٤٨،٢٦١
المعينيون ٣٨	كندة ٣٩٠،١٣٣،٣٧
بنو المغيرة ١٤٩،١٤٨	الكنعانيون (شعب) ١٨٩
الملكانية (لحمة مسيحية) ٤٥	
بنو الملوح ٣٣٨	ل
المناذرة (دولة) ٤٤،٣٧،٣٦	بنو لحيان ٢٧٤،٢٥١
المهاجرون ٢٤٠،١٧٧،١٦٠	لَحْم (اللخميون) ٣٧٢،٤٤،٣٧
المؤلفة قلوبهم ٣٦٢	بنو ليث ٣٣٨
ن	م
بنو النجار ٢٢٣،١٥٧،١٤٤،٦١،٥٩	بنو مازن ٣٦٧
٢٥١	المجوس (شعب) ٣١٠،١٦٢،٤١،٣٩
النخع (قبيلة يمنية) ٣٩٣	٤١٢،٣٦٤،٣١١
النساطرة (نسطوريوس) ٦٤،٤٥،٤٤	

بنو نصر ٣٥٩، ٣٥٧، ١٣٣	ي
النصرانية ٦٧، ٥٧، ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣	اليعاقية (يعقوب البرادعي) ٤٥، ٤٤
١٧٥، ١٤٢، ١١٩، ١١٨، ١٠٥	اليهودية (اليهود) ٦٧، ٦٤، ٤٦، ٤٤، ٤٣
١٩٠، ١٨٥، ١٨٤، ١٨٣، ١٨٠	١٤١، ١٣٨، ١٣٧، ١١٩، ١٠٥
٣١٤، ٣٠٩، ٢٣٤، ٢٣١، ٢٠٦	١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٤٤، ١٤٢
٤١٢، ٣٧٦، ٣٤٣، ٣١٦	١٧٨، ١٧٧، ١٧٦، ١٧٥، ١٧٤
بنو النضير ٢٥٣، ٢٢٧، ٢٢٤، ٢٢٣، ٤٣	١٨٤، ١٨٣، ١٨٢، ١٨١، ١٨٠
٣٣٣، ٣٠٣، ٢٩٧، ٢٥٩، ٢٥٥	٢٠٦، ١٩٥، ١٩١، ١٨٦، ١٨٥
٣٦٨	٢٣٤، ٢٣٢، ٢٣١، ٢٢٢، ٢٢٠
النمر (قبيلة) ٣٨	٢٦٠، ٢٥٩، ٢٥٤، ٢٤٢، ٢٤١
بنو نوفل ٩٩	٣١٤، ٣٠٩، ٣٠٧، ٣٠١، ٢٩٨
	٤١٢

هـ

بنو هاشم ١١٣، ١١٢، ٩٦، ٨٧، ٧٧، ٦٥
٢١٣، ١٥٢، ١٤٧، ١٤٦، ١١٤
٤٠٣، ٣٦١، ٣٥٥، ٣٠٥، ٢١٤
هذيل (قبيلة) ٣٥٨، ٢٥٠، ٣٩، ٣٨
بنو هلال بن عامر ٣٥٧، ٣١٨
الهلينية (حضارة) ٤٢
همدان (قبيلة) ٣٩١، ٣٠٩، ٣٩
هوازن (قبيلة) ١٩٦، ٦٤، ٦٠، ٣٩، ٣٨
٣٥٨، ٣٤٩، ٣٣٩، ٣١٨
٣٧١، ٣٦٢، ٣٦١، ٣٥٩
٣٧٦
دولة الهون ٤١

و

وائل (من بطون بني عبد الأشهل) ١٤١
واقف (من بطون بني عبد الأشهل) ١٤١

فهرس البلدان والمواضع

- إسبانيا (أندلس) ١٩٠، ١٧٠، ٤٢
 أسماء أصنام العرب ٣٩
 آسيا ٣٣
 آشور ٢٥٥
 إضم ٣٤٤
 إفريقيا ٥٦، ٤٧
 أفغان ٤١
 اللات (صنم) ٧٩، ٦٧، ٥٥، ٥٤، ٣٩
 ٣٧٨، ٣٧٧، ١٣١، ١٢٣، ١٠٩
 إنجلترا ٤٢
 إيران ٣١١، ١٦٥، ١٥٥، ٥٨، ٤٠
 أيلة ٣٧٦، ٣٧٤، ٣٠٨
- ب
- باب الصفا ٧٣
 بادية السماوة ٣٣
 بادية الشام ٣٣
 بئر زمزم ٦٣، ٥٧، ٥٥، ٥١، ٥٠، ٤٨، ٤٧
 ٤٠٠
 بئر معونة ٢٥١
 بحر العرب ٣٤، ٣٣
 البحر الأحمر (بحر القلزم) ٤٧، ٣٤، ٣٣
 ١٥٤، ٩٩، ٧٢، ٥٤، ٤٨
 ٣٤٣، ٢٢٢، ٢١١، ١٩٦
- أ
- الأبلق (حصن) ٤٤
 أبنى (بالقرب من مؤتة) ٤٠٩
 الأبناء ٢٤٢، ٢٠٧، ١٩٧، ٦٢
 أبو قنيس (جبل) ٥٣، ٤٧
 أبنى (حصن) ٣٠٢، ٢٩٨
 أجا (جبل) ٣٧
 أجنادين ١٤٩
 أحد ١٤١، ١٣٩، ١٣٨، ١٣٣، ١٢٥
 ١٩٨، ١٩٥، ١٩٣، ١٩٢، ١٤٤
 ٢٤٢، ٢٤١، ٢٣٩، ٢٢٩، ١٩٩
 ٢٦١، ٢٥٦، ٢٥٣، ٢٤٩، ٢٤٧
 ٣٨١، ٣٣٦، ٢٩٩
 الأحساء ٣٤
 الأحقاف (صحراء) ٣٤، ٣٣
 الأخدود ٤٣
 أذاخر ٣٥٤
 أذربيجان ٢٣٢
 أذرح ٣٧٦، ٣٧٤، ٣٠٨
 الأراك (شجر) ٣٨
 إريتريا ٤٧
 الأردن ٣٤٠، ٤١، ٣٦
 أرمينيا ٢٣٢
 أساف (صنم) ٣٥٤

بحران ٢٢٩	البرينيه (جبال) ٢٣٨
البحرين ١٦٢، ٣٩، ٣٨، ٣٥، ٣٤، ٣٣،	
٣٨٦، ٣١١، ٣١٠، ٢٣٢	ت
بدر ١٣٣، ١٠١، ٩٩، ٩٦، ٩٥، ٧٧، ٧٥،	تبالة (في اليمن) ٣٣٩
١٩٨، ١٩٧، ١٩٥، ١٩١، ١٤١	تبوك (واحة) ٣٧٤، ٣٧٢، ٣٧١، ٣٥
٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠٢	٣٧٥
٢١٨، ٢١٧، ٢١٦، ٢١١، ٢١٠	تدمر (إمارة) ٣٦، ٣٣
٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٢، ٢٢٠، ٢١٩	تُرّة ٣١٨
٢٤٠، ٢٣٩، ٢٣١، ٢٢٩، ٢٢٧	التناضب ١٥٠
٢٩٩، ٢٨٣، ٢٥٣، ٢٤٩، ٢٤٣	التنعيم ١٤٩
٣٣٦، ٣٢٨، ٣٢٧	تهامة ٦٧، ٦٦، ٤٧، ٣٤
البصرة ٢٣٢	تونس ٣٥٦
البرى (حصن) ٣٠٢، ٢٩٨	تيماء (واحة) ٤٧، ٤٤، ٤٣، ٣٨، ٣٧، ٣٣
بُصرى (من أعمال دمشق) ٣١٦، ٦٧، ٦٤	٣٠٧
٣٤٠	
بطحاء مكة ٩٦، ٤٧	ث
بطرا ٣٦، ٣٥	ثقيف ١٩٦، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٣، ٧٨، ٣٨
البقيع ٤١٥، ٤١١، ٣٩٤، ٣٢٧	٣٦٢، ٣٦٠، ٣٥٧، ٣٤٩، ٢٨٩
بكة (انظر مكة)	٣٨١، ٣٧٨، ٣٧٧، ٣٧٦، ٣٧١
البلقاء ٤٠٩، ٣٧٦، ٣٧٤، ٣٧٢	الثنية العليا (كداء) ٣٩٧، ٣٢١
بواط ١٩٨	ثور (جبل) ١٥٤، ١٥٣
بيت الرّبة ٣٧٧	ثور (غار) ١٧١، ١٥٤، ١٥٣
بيت الله (انظر الكعبة أو المسجد الحرام)	ثبير (جبل) ٣٨٣
بيت المدراس ١٨١	
بيت المقدس ١٢٩، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٦، ٥٣	ج
١٧٥، ١٧٤، ١٧٣، ١٤٣، ١٤٢	الجابية ٣٦
١٨٤، ١٨٠	جاسوم (نثر) ٣٧٣
بيت لحم ١٢٦	جبار ٣٢٠، ٣١٩
بيوت الرسول ١٦٠	الجُحفة ٣٥١، ٢٩٠، ٢٨٩، ٢١١، ١٩٧

جُلَّة ٧٢، ٤٧، ٣٤	حرّة (واحة يشرب) ٣٤
جرباء ٣٧٦، ٣٧٤	حرثا ٣٧
جُرُوش ٣٩٠	الحرقات ٣١٩
الجزيرة العربية ٤١، ٣٩، ٣٦، ٣٥، ٣٣،	حرم مكة ٢٠٠
٢٢١، ٢١٩، ٩٠، ٥٧، ٥٤	حضر موت ٣٧، ٣٤
٣٥٧، ٣١٤، ٣٠٧، ٢٩٥	حراء الأسد ٢٤٩
٣٧٨	حُثَيْن (مضيق) ٣٥٩، ١٩٩، ١٩٦، ١٩٥
الجعرانة ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٦١، ٣٥٩، ٣٥٦	٣٨٦، ٣٧٦، ٣٦١، ٣٦٠
جَلَّق ٣٦	الخيرة ٥٨، ٤٥، ٤٤، ٤٠، ٣٧، ٣٦، ٣٥
الجولان ٣٦	

خ

خط ٣٤	ح
خليج عدن ٣٣	حباشة (سوق) ٦٧، ٦٦
الخليج العربي ٣٣، ٣٤، ١٦٢، ١٢٤	الحبشة ٣٤، ٤٤، ٤٧، ٥٦، ٥٧، ٧٦، ٩٨
خليج عُمان ٣٣	٩٩، ١٠١، ١٠٥، ١٠٩، ١١١
الهندق ١٣٣، ١٤١، ١٦٦، ١٨٧، ١٩٥	١١٢، ١٣٦، ١٧١
١٩٩، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٠٩	حبشى (جبل) ٢٨٩
خير (واحة) ٣٤، ٤٣، ٤٤، ١٠١، ١٣٣	الحجاز ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٤٣، ٤٧، ٦٣، ٢٢١
١٩٥، ١٩٦، ١٩٩، ٢٥٥، ٢٧٤	٤١٢، ٣٣٣
٢٧٧، ٢٨٧، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩	الحجر الأسود ٥٣، ٥٥، ٧٣، ٣٢٢، ٣٩٧
٤٣٠، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١٤، ٣١٩	٣٩٨
٣٣٣، ٣٣٦، ٣٦٨، ٤١٢، ٤١٦	الحجر (مدائن صالح) ٣٤، ٣٥، ٣٧٣

2

دار الأرقم ٢٣٧	٣٢٤، ٣٢١، ٣٢٠، ٣١٤، ٣٠٨
دار الندوة بمكة ١٥٦، ١٤٦، ١٥١، ٢٦٠،	٣٤٦، ٣٤٥، ٣٤٤، ٣٣٦
دبا ٣٤	الخليدة ٣٤
دجلة ٤٠	جِراء (غار) ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ١٢٥،
دمشق ٦٤، ٦٧	٣٦٧، ٣٢٥

الركن الشامي ٧٣	الدَّهْنَاء (صحراء) ٣٨،٣٥،٣٣
الركن اليماني ٣٩٨،٣٩٧،٧٢	الدولة البيزنطية ٤١،٤٠،٣٧،٣٦
الروحاء ٢٥٠	دولة كويتا (في الهند) ٤١
روما ٤٢	دومة الجندل ٢٥٤،٤٤،٣٧،٣٥،٣٣
	٣٧٦،٣٧٤،٣٠٧،٢٧٦
ز	ديار ثمود ٦٧
زَبِيد ٣٤	ديار مدین ٦٧
الزبير (حصن بخير) ٣٠١،٢٩٨	دير بصرى ٦٤
	دير بحيرا ٦٧
س	ذ
سد مأرب ٣٨،٣٧	ذات أطلاق ٣٣٩
سدرة المنتهى ١٣٠،١٢٨	ذات أنواط ٢٩٣
السَّراة (جبال) ٤٧،٣٥،٣٤	ذو الجدر ٢٨٨
سَرِف ٣٩٧،٣٣٤،٣٢٤	ذو الحَلِيفَة ٣٩٦،٣٤٤،٢٨٩
سقوان ١٩٨	ذو القَرَد ٢٧٤،٢٣٠
السلام (حصن) ٣٠٤،٣٠٣،٢٩٨	ذو القصة ٢٧٥
سلع (جبل) ٢٦٢	ذو الحجاز (سوق) ١٣٥،١٣٣،٩٠،٥٨
سلمى (جبل) ٣٧	ذو أمر ٢٢٨
سواع (إله) ٣٩	
سوريا ٣٣	ر
سوق مكة ١٣٥،١٣٣،٩٠	رايخ ٢٨٩،١٩٧
السِّي (ماء) ٣٣٩	الراين (نهر) ٤٢
سيل العرم ٣٨،٣٧	ربة (عاصمة بني عمون) ٢٧٣
ش	الريذة ٢٣٠
الشام ٦٦،٦٣،٥٩،٥٨،٥٦،٥٤،٤٢	الربع الخالي ٣٣
١٤٦،١٤٢،١١٧،٧٥،٦٨،٦٧	الرجيع (ماء لذيلى) ٢٦٣،٢٥١،٢٥٠
١٩٥،١٩١،١٩٠،١٨٧،١٧٣	٣٠٠،٢٩٩
٢٢٧،٢١٨،٢٠٦،٢٠٣،١٩٦	رَضَوَى ١٩٨

ظ	٢٥٥،٣٤٣،٢٣٩،٢٣٢،٢٢٩
ظفار ٣٤	٣٨٨،٣٣٩
الظواهر: ظواهر مكة ٤٧	شرقى الأردن ٤٤،٣٦
	شعاب مكة ١١١،١٠٨
ع	شُعْب أبى طالب ١١٤،١١٣،١١٢،٧٧
عجل آبيس ١٧٨	الشُعْبِيَّة ٩٨،٤٧،٣٤
عدن ٣٤	الشق ٣٠٤،٣٠٢،٢٩٨
العراق ٥٤،٥٣،٤٩،٤٥،٤٤،٣٥،٣٣	شمران (حصن) ٣٠٢
٣١١،٢٢٩،٦٤،٦٣	
العرش ١٢٨	ص
عرفة ٣٩٩،٣٨٣	صحار ٣٤
غرنة ٣٨٤	صحراء نجد ٤٨،٤٧
العريض ٢٢٨	الصعب (حصن) ٢٩٨
العُزَى (صنم) ٧٩،٦٧،٥٤،٤٦،٣٩	الصفاء ٣٢٢،١٠٨،٩٥،٨٩،٨٧،٧٣،٥٠
٣٥٦،١٣١،١٠٩	٣٩٨،٣٦٣
عُسفان ٢٧٤،٢٥٣	الصُفَّة ١٥٨
عضل (قرية) ٢٦٣،٢٥٢،٢٥٠	صقلية ٤٢،٣٧
عقبة منى ٢٠٨،١٤٤،١٤٣،١٣٩،١٣٨	صنعاء ٥٨،٤٤،٣٤
٤٠٠	الصين ٢٢١،٤١
عكاظ (سوق) ١٣٣،٩٠،٧٨،٦٦،٥٨	
٣٩٢،١٣٥	ط
عم أنس (صنم) ٣٩١	الطائف ١٢٤،١٢٣،١٢٠،٣٨،٣٧،٣٥
عُمان ٣١١،٣١٠،٣٩،٣٧،٣٤،٣٣	١٩٠٧،١٩٥،١٣٦،١٣١،١٢٥
٣٨٦،٣٤٦	٣٦٠،٣٥٩،٢٠٤،٢٠٠،١٩٩
العيص ٢٧٥	٣٨٦،٣٧٦
عين التمر ٤٥	طُليطلة ١٩٠،٤٢
غ	الطور (جبل سيناء) ٢٢٢،١٧٨،١٢٦
غزوان (جبل) ٣٥	طيشقون (انظر المدائن)

الغمر ٢٧٥	الققيعان (جبل) ٤٧
الغور ٣٤	القلزم (انظر البحر الأحمر)
	القليس (كنيسة) ٤٤
	القموص (حصن) ٣٠٢، ٢٩٨
ف	
فذك (واحة) ٣٠٦، ٢٧٧، ٤٤، ٤٣، ٣٤	
٤١٦، ٣١٩، ٣١٨	
الفرات ٣٧، ٣٥	الكتيبة (حصن) ٣٠٥، ٣٠٤، ٣٠٢، ٢٩٨
فرنسا ٤٢	الكديد ٣٣٨
فلسطين ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٣، ٣٣	كراع الغميم ٢٨٩
٢٢٢، ٦٧، ٦٤، ٥٥، ٥٤، ٥٣	الكرك ٣٤٠
٤٠٩، ٣٩٠، ٢٢٤	الكعبة ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٤٨، ٤٧
	٨٣، ٧٣، ٧٢، ٦٢، ٦٠، ٥٨، ٥٧
	١١٣، ١٠٨، ٩٥، ٩٤، ٩٣، ٩٠
ق	
القادسية ٣٨٨	١٤٣، ١٤٢، ١٣٢، ١٢٤، ١١٦
القارة (قرية) ٢٦٣، ٢٥٢، ٢٥٠	١٧٦، ١٧٥، ١٧٤، ١٧٣، ١٥٠
قُباء ١٥٩، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٠، ١٤٩	٢٨٩، ٢٨٨، ٢٦٠، ٢١٦، ١٨٠
٣٧٤، ٢٨٧، ٢٥٢، ٢٤٠	٣٣٥، ٣٢٧، ٣٢٣، ٣٢٢، ٢٩٠
قبر إسماعيل ٥٣	٣٩٦، ٣٨٢، ٣٥٥، ٣٥٤
قبر هاجر ٥٣	كنيسة القليس في اليمن ٤٤
القبلة ١٧٣	كنيسة القيامة ١٧٣
أبو قبيس (جبل) ٥٣، ٤٧	كوريا ٤١
القُدَيْد ٣٥١	الكوفة ٢٣٢
قرطبة ١٧٠	الكويت ٣٤
قرقرة الكندر ٢٢٨	كويتا (دولة) ٤١
قرن الثعالب ١٢٥	
القسطنطينية ٤٥، ٤١	ل
قطر ٣٤	اللوار (نهر) ٤٢
قطن (جبل) ٢٥٢	
القُطَيْف ٣٤	

م	مقنا ٣٠٨
مأرب ٣٨	مناة (صخرة) ١٠٩،٣٩
محنة (سوق) ١٣٥،١٣٣،٩٠،٥٨	مهرة ٣٤
مخطط الهندى ٣٤،٣٣	مناسك الحج ٥٢
مدائن (عاصمة الفرس) ٤٥،٤٠،٣٧	المنبر ٣٠٧
المدارس ٤٤	منى ٣٨٢،١٤٥،١٤٣،١٣٨،١٣١،٥١
مدن فلسطين ٦٧	٤٠١،٤٠٠،٣٩٩،٣٨٣
مدين ٣١٢،٦٧،٣٥	مؤتة (غزوة) ٤٠٩،٣٤١،٣٤٠
المدايح ٥٠	الميفعة ٣١٩
مرّ الظهران ٣٥١،٣٢١،٢٦٠،٢١١	ن
المروة ٣٩٨،٣٦٣،٣٢٢،٥٠	نائلة (صنم) ٣٥٤
المريسيه (ماء) ٣٨١،٣٣٢،٢٨٠،٢٧٨	ناعم (حصن) ٣٠٠،٢٩٨
مزدا (إله فارسي) ٤١	نجد ٤٨،٤٧،٤١،٣٨،٣٥،٣٤،٣٣
المزدلفة ٣٩٩،٣٨٤،٣٨٣	٣١٨،٢٥١،٢٢٨،١٣٧
المسجد الأقصى ١٢٨،١٢٧،١٢٦	نجران ٣٠٩،٢٣٤،٧٨،٤٤،٤٣،٤١،٣٤
المسجد الحرام ٩٤،٩٣،٨٠،٧٣،٥٣،٥٢	٣٩٥،٣٩٣
١٢٦،١١١،١٠٦،٩٥	نحلة (وادي) ٢٧٦،٢٠٤،٢٠٠،١٩٧
٢٠٥،٢٠٢،٢٠١،١٢٧	٣٥٦
٣٨٣،٣٢١	نزار (حصن) ٢٩٨
المسجد النبوى ٢٣٢	نسر (صنم) ٣٩
مسجد حمزة ٢٤٨	النطاة (حصن) ٣٠٤،٣٠٠،٢٩٨
مسجد خير ٣٠٦	النفود (صحراء) ٣٣
مسجد عمر ١٧٣	نمرة ٣٩٩،٣٨٣
مسقط ٣٤	النوبة ١٣٦
المشعر الحرام (انظر المزدلفة)	هـ
المشقر (مدينة عمانية) ٣١٠	هبل (صنم) ٣٥٤،٧٩،٥٧
مصر ٥٨،٥٦،٥٣،٥٠،٤٢،٣٤	هجر ٣٤
معونة (بئر) ٢٥١	
مقام إبراهيم ٥٣	

الهند ١٦٥، ١٧٠، ٢٢١

و

واحات الحجاز ٤٣

وادي الخزار ١٩٧

وادي الرجيع ٢٩٩

وادي القرى ٣٤، ٤٣، ٤٤، ٢٨٦، ٣٠٦،

٣٠٧، ٣١٩، ٣٣٣، ٣٣٦،

٣٣٩، ٣٤٠

وادي أوطاس ٣٥٧

وادي حنين ٣٥٨

وادي محسر ٣٨٤، ٤٠٠

الوتير (ماء قرب مكة) ٣٤٧

الوجه ٣٤

وَدَ (صنم) ٣٩، ٥٤

وَدَّان (انظر الأبواء)

الوطيح (حصن) ٢٩٨، ٣٠٣، ٣٠٤

ي

اليابان ٤١

يأجج ٣٢١

يعوق (إله) ٣٩

يغوث (إله) ٣٩

اليمامة (وادي) ٣٣، ٣٥، ٣٨، ١٤٤، ٢٣١

٣٠٩، ٣٨٧، ٤٠٩

اليمن ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٨

٤٨، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ١٥٣

٣١٩، ٣٢٠، ٣٥٦

ينبع ٣٤، ١٩٨

فهرس الغزوات والمسيرات والبعوث

أولاً: غزوات الرسول:

- | | |
|------------------------|--------------------|
| ١- بدر الكبرى ٢٠٣-٢١٩ | ٦- خيبر ٢٩٧-٣٠٦ |
| ٢- أُحُد ٢٣٩-٢٤٩ | ٧- فتح مكة ٣٤٩-٣٥٦ |
| ٣- الأحزاب ٢٥٩-٢٦٨ | ٨- حُنين ٣٥٧-٣٥٩ |
| ٤- بنو قريظة ٢٦٩-٢٧٣ | ٩- الطائف ٣٥٩-٣٦٣ |
| ٥- بنو المصطلق ٢٧٨-٢٨٠ | |

ثانياً: مسيرات الرسول إلى:

- | | |
|--------------------|---------------------|
| ١- الأبواء ١٩٧ | ٩- بحران ٢٢٩ |
| ٢- بواط ١٩٨ | ١٠- حمراء الأسد ٢٤٩ |
| ٣- العُشيرة ١٩٨ | ١١- ذات الرقاع ٢٥٣ |
| ٤- طلب كرز ١٩٨ | ١٢- بدر ٢٥٣ |
| ٥- بنى سليم ٢٢٧ | ١٣- دومة الجندل ٢٥٤ |
| ٦- السوق ٢٢٨ | ١٤- بنى لحيان ٢٧٤ |
| ٧- قرقرة الكدر ٢٢٨ | ١٥- ذى قرد ٢٧٤ |
| ٨- ذى أمر ٢٢٨ | ١٦- تبوك ٣٧٢ |

ثالثاً: بعوث الرسول :

- ١٩- أسامة بن زيد إلى الخرقات ٣١٩
- ٢٠- بشير بن سعد لجمع من غطفان ٣١٩
- ٢١- ابن أبي العوجاء إلى بنى سليم ٣٣٨
- ٢٢- عبد الله بن غالب إلى الكديد ٣٣٨
- ٢٣- شعاع بن وهب إلى السى ٣٣٩
- ٢٤- قطبة بن عامر إلى خثعم ٣٣٩
- ٢٥- كعب بن عمير إلى ذات أطلاح ٣٣٩
- ٢٦- عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل ٣٤٢
- ٢٧- أبي عبيدة إلى جهينة (الخبط) ٣٤٣
- ٢٨- أبي قتادة إلى محارب و غطفان ٣٤٣
- ٢٩- أبي قتادة الثاني إلى إضم ٣٤٤
- ٣٠- خالد بن الوليد إلى بنى جديعة من كنانة ٣٥٦
- ٣١- حول مكة للعوة للإسلام ٣٥٦
- ٣٢- عيينة بن حصن إلى بنى العنبر ٣٧٢
- ٣٣- قطبة بن عامر إلى خثعم ٣٧٢
- ٣٤- علي بن أبي طالب إلى طي ٣٧٢
- ٣٥- الضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب ٣٧٢
- ٣٦- إلى رعية السحيمي ٣٧٢
- ٣٧- علقمة بن محرز إلى أهل الشعبة ٣٧٢
- ٣٨- خالد بن الوليد إلى دومة الجندل ٣٧٤
- ٣٩- عمرو بن العاص إلى ابني الجندى بعمان ٣٨٦
- ٤٠- العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوى ٣٨٦
- ١- حمزة إلى ساحل البحر الأحمر ١٩٦
- ٢- عبيدة بن الحارث إلى بطن رايغ ١٩٧
- ٣- سعد بن أبي وقاص إلى وادي الخرار ١٩٧
- ٤- عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة ٢٠٠
- ٥- زيد بن حارثة إلى ذى القرد ٢٣٠
- ٦- أبي سلمة بن عبد الأسد إلى جبل قطن ٢٥٢
- ٧- محمد بن مسلمة إلى بنى بكر بن كلاب (القرطاء) ٢٧٤
- ٨- عكاشة بن محصن إلى الغمر ٢٧٥
- ٩- محمد بن مسلمة إلى ذى القصة ٢٧٥
- ١٠- زيد بن حارثة إلى العيص ٢٧٥
- ١١- عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ٢٧٦
- ١٢- زيد بن حارثة لعشيرة حديفة بن بدر الفزاري ٢٨٦
- ١٣- ابن رواحة إلى أسير بن رزام ٢٨٧
- ١٤- بعث كرز بن جابر في إثر العرنيين ٢٨٧
- ١٥- عمر بن الخطاب إلى تربة ٣١٨
- ١٦- أبي بكر إلى بنى كلاب العامريين ٣١٨
- ١٧- بشير بن سعد إلى بنى مرة ٣١٨
- ١٨- غالب بن عبد الله الليثي إلى الميعة ٣١٩

المحتويات

الصفحة

٥

مقدمة

١١

تمهيد

الفصل الأول: الجزيرة العربية والعالم قديما

٣٣

(١) الموقع الجغرافى

٣٦

(٢) العصر الجاهلى

إمارة الغساسنة - إمارة المناذرة - هجرات القبائل اليمنية - القبائل العدنانية -

قبائل بدوية - قانون الأخذ بالثأر - حياة العرب فى القرى - الوثنية - الشعر

الجاهلى - الكهّان - وأد البنات - خصال العرب

٤٠

(٣) العالم فى عصر البعثة النبوية: أوائل القرن السابع الميلادى

وثنية الفرس - دولة كويتا فى الهند - البوذية - الصين - بيزنطة - الأرثوذكسية

والكاثوليكية - إنجلترا - إسبانيا

٤٣

(٤) اليهودية والنصرانية والحنيفية

أ - اليهودية : يهود اليمن - يهود الحجاز

ب - النصرانية : فى اليمن - فى الشمال الغربى - فى تغلب والحيرة - رقيق

نصرانى بمكة - التثليث والفرق المسيحية

ج - الحنيفية بمكة : الخنفاء

الفصل الثانى: مكة والكعبة وقريش قبل الإسلام

٤٧

(١) موقع مكة

٤٨

(٢) مكة وبناء إبراهيم للكعبة

أ - تاريخ مكة: التعريف بإبراهيم - فى فلسطين - فى مصر - إبراهيم وسارة

وهاجر - هاجر وإسماعيل

ب - بناء الكعبة: إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة - إشارة الله ببناء إبراهيم

للكعبة - إسماعيل وسدانة الكعبة

٥٣ (٣) سُدانة الكعبة بعد إسماعيل

مكة مركز للقوافل والحج - جرهم وأصنام الكعبة - خزاعة تتولى سُدانة الكعبة

٥٥ (٤) قريش - غزو الحبش لها - انتعاش تجارتها

قصى وسُدانة الكعبة - مناصب السُدانة - هاشم وازدهار التجارة - حفر بئر

زمزم - نذر عبد المطلب - غزو أبرهة لمكة - انتعاش التجارة

الفصل الثالث: محمد من الميلاد إلى الزواج من خديجة

٥٩ (١) الميلاد والرضاع

عبد الله بن عبد المطلب - مولد محمد - حليلة مرضعة محمد - محمد مع أمه فى

يثرب

٦٢ (٢) فى كفالة عبد المطلب وأبى طالب

رحلة محمد مع عمه إلى الشام - بحيرا الراهب - حرب الفجار - حلف الفضول

٦٥ (٣) رعى الغنم - التجارة

أ - رعى الغنم

ب - التجارة: أسقف نجران - الأمين وتجارته لخديجة

٦٨ (٤) الزواج من خديجة

الفصل الرابع: من صفة محمد وخديجة إلى المبعث

٧٠ (١) صفة محمد وخديجة

أ - صفة محمد

ب - صفة خديجة: فى تجارة خديجة

- ٧٢ (٢) بناء الكعبة
حكم محمد في حمل الحجر الأسود
- ٧٤ (٣) أبناء محمد وبناته
القاسم وعبد الله - إبراهيم - زينب - زينب وفداء أبى العاص - رقية وأم
كلثوم - زواج رقية بعثمان - زواج عثمان بأم كلثوم - فاطمة - زواج على
بفاطمة
- ٧٨ (٤) تحنث محمد - بدء نزول الوحي
أ - التحنث والخلوة في غار حراء: التأمل في الكون
ب - بدء نزول الوحي: الرؤيا الصادقة - نزول الوحي - خديجة تبشر محمدا
بالنبوة

الفصل الخامس: من المبعث إلى إيذاء الرسول وأصحابه

- ٨٢ (١) المبعث
ورقة بن نوفل - انقطاع الوحي مدة - عودة الوحي وجبريل
- ٨٤ (٢) المسلمون الأولون
خديجة - على بن أبى طالب - زيد بن حارثة - أبو بكر - عثمان والزبير وابن
عوف وسعد وطلحة
- ٨٦ (٣) الجهر بالرسالة
من أوائل المسلمين - دعوة العشيرة - الدعوة جهرا لجميع الناس - معارضة
وعداء - قريش توسط أبا طالب - السفهاء من الشعراء - قول المشركين إن
القرآن سحر - الوليد بن المغيرة ورفاقه
- ٩٣ (٤) إيذاء الرسول وأصحابه
عداوة أبى جهل - عداوة عقبة بن أبى معيط وأميمة بن خلف - إسلام حمزة -
إيذاء عقبة - تعذيب عمار بن ياسر - تعذيب بلال - شراء أبى بكر للمعذبين
من الإماء والعبيد

الفصل السادس: من الهجرة إلى الحبشة إلى حصار الرسول والمسلمين في الشَّعْب

- ٩٨ (١) الهجرة إلى الحبشة
سفيران لمكة إلى النجاشي - جعفر بن أبي طالب يجيب النجاشي - عودة بعض
المهاجرين إلى الرسول
- ١٠٢ (٢) عقيدة الإسلام - إسلام عمر
أ- عقيدة الإسلام
ب - إسلام عمر: خباب بن الأرت يقرئ سعيد بن زيد وزوجته - قراءة عمر
لأول سورة الحديد وشعوره بأنه في الحضرة الإلهية
- ١٠٩ (٣) قصة الغرانيق
نقض القصة - ربط بعض المفسرين بين القصة وآية في سورة الحج - المستشرقون
والقصة
- ١١٢ (٤) حصار الرسول والمسلمين في الشَّعْب
سفارة عتبة بن ربيعة إلى الرسول - مقاطعة الرسول وأصحابه - قرشيون
يساعدون المحاصرين - فك الحصار

الفصل السابع: مواقف قريش وأحداث مختلفة

- ١١٥ (١) مواقف قريش
المستهزئون بالرسول - طلب معجزات حسية من الرسول - معجزة القرآن -
الرسول بشر - إيذاء النضر بن الحارث للرسول - إرسال النضر وعقبة لأحبار
اليهود - تهكم القرآن بقريش
- ١٢١ (٢) وفاة أبي طالب وخديجة
أبو طالب وكبراء قريش - أبو طالب عند الوفاة - وفاة خديجة - عام الحزن
- ١٢٣ (٣) الخروج إلى الطائف

دعاء الرسول ربّه - عذّاس والرسول

١٢٦

(٤) الإسراء والمعراج

أ - الإسراء: رحلة الرسول على البراق إلى بيت المقدس - الإسراء بالروح أم

بالجسد؟

ب - المعراج: سدرّة المنتهى - المعراج بالروح أم بالجسد؟

الفصل الثامن: من عرض الرسول نفسه على القبائل إلى البيعة الثانية الكبرى

١٣١

(١) عرض الرسول نفسه على القبائل

التنفير من الإسلام - إسلام الطفيل الدوسي - عرض الرسول نفسه على القبائل

- نفر من شيان

١٣٥

(٢) بدء عرض الرسول نفسه على الأنصار

سويد ومجلة لقمان - حروب الأوس والخزرج - عرض الرسول الإسلام على

بعض الأنصار

١٣٨

(٣) بدء إسلام الأنصار والبيعة الأولى - بعث الرسول مع الأنصار مصعب

ابن عمير وابن أم مكتوم

أ - بدء إسلام الأنصار والبيعة الأولى

ب - بعث الرسول مع الأنصار مصعب بن عمير وابن أم مكتوم: إسلام أسيد بن

خُضَيْير - إسلام سعد بن معاذ - إسلام بنى عبد الأشهل - صلاة

الجمعة

١٤٢

(٤) البيعة الثانية الكبرى

البراء بن معرور يصلّى إلى الكعبة - التواعد في العقبة - البيعة الكبرى - قريش

تعلم بالبيعة - الأمر بالهجرة إلى يثرب - تشاور قريش في هجرة الرسول -

الاتفاق على قتل الرسول

الفصل التاسع: من الهجرة إلى الإخاء والمساواة في تكوين الأمة الإسلامية

- ١٤٨ (١) هجرة الصحابة
المهاجرون الأوائل - عثمان بن طلحة يصحب أم سلمة إلى يثرب - هجرة عمر -
تابع هجرة الصحابة
- ١٥١ (٢) هجرة الرسول
تخفى الرسول في غار ثور - ذات النطاقين - بدء الهجرة - سراقه بن مالك
وسواى كسرى - أم معبد
- ١٥٦ (٣) بدء تكوين الأمة الإسلامية وإعلان دستورها
أ - بدء تكوين الأمة الإسلامية: الهجرة بدء تاريخ الإسلام - مسجد قباء - أول
جمعة بيثرب - نزول الرسول على أبى أيوب - بناء مسجد المدينة بجوار دار
أبى أيوب - المسجد دار عبادة وعلم وقضاء وتشاور - بدء تكوين الأمة
الإسلامية - فريضة الصلاة - أول خطبة بالمدينة - بيوت الرسول
ب - دستور الأمة: عالمية الإسلام - التسامح الدينى
- ١٦٣ (٤) الإخاء والمساواة في تكوين الأمة الإسلامية
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار - المساواة أمام الله ولا كهنوت ولا طبقية -
بشرية الرسول

الفصل العاشر: من الزكاة وزواج الرسول بعائشة إلى وفد نصارى نجران

- ١٦٧ (١) الزكاة - زواج الرسول بعائشة
أ - الزكاة: العدالة الاجتماعية - الصدقة - حل مشكلة الفقراء والأغنياء
ب - زواج الرسول بعائشة: سن عائشة عند الزواج
- ١٧١ (٢) الأذان - القبلة - الصيام - زكاة الفطر
أ - الأذان: بلال والأذان

ب - القبلة: الكعبة قبله المسلمين - خطأ المستشرقين - القبلة توحد المسلمين في

جميع بقاع الأرض

ج - الصيام: قيام شريعة الإسلام على اليسر - الصيام سمور وحي

د - زكاة الفطر

١٧٧

(٣) احتدام جدل اليهود

زعم اليهود أن رسولاً سيعث وينصرهم - معارضة اليهود - رد القرآن على

اليهود - جدل اليهود - منافقون من اليهود - منافقون من الأوس والخزرج

١٨٢

(٤) وفد نصارى نجران

مؤتمر للدیانات الإلهية الثلاث - الرد على اليهود - حوار نصارى نجران في

عقيدتهم المسيحية

الفصل الحادى عشر: من حملات الغرب على حروب الرسول

إلى بعث عبد الله بن جحش

١٨٥

(١) حملات الغرب المسيحية على حروب الرسول

حياة المسيح - ضرورة الحرب في الإسلام - الاختلاف في نشأة المسيحية

والإسلام - خطأ المؤرخين في عد بعث الرسول سرايا - انتشار الإسلام بالقرآن

لا بالسيف - سعى الرسول حروبه جهادا ولم يجعلها من أركان الإسلام - أخذ

الرسول بشريعة الحروب - حروب الرسول ليست عدوانية - حروب الصليبيين

١٩٠

(٢) قوانين رحمة الحروب الرسول والمسلمين

حروب المسلمين - أسرى الحرب لا يقتلون ولا يمثل بهم - الأغلال لا توضع في

رقاب الأسرى - إبطال الإسلام قانون الأخذ بالثأر

١٩٤

(٣) من قوانين الإسلام الرحمة في الحروب

تحريم قتل الصبية والنساء والشيوخ والرهبان - تحريم النهب - تحريم قطع

الأشجار وإتلاف الزروع - البعوث الأولى - غزوات الرسول الأولى مسيرات -

بعوث استطلاعية

٢٠٠

(٤) بعث عبد الله بن جحش

الفصل الثاني عشر: غزوة بدر الكبرى

- ٢٠٣ (١) موقف الرسول قبل غزوة بدر
 عود إلى بعث عبد الله بن جحش - مزاعم بعض المستشرقين - الإذن للمهاجرين بالجهاد
- ٢٠٦ (٢) مسيرة الرسول وقريش إلى بدر
 أ - مسيرة الرسول: عقد الرسول لمجلس استشاري - منزل الرسول في بدر - عريش للرسول
 ب - مسيرة قريش إلى بدر: أبو سفيان يعدل عن الطريق المعتاد - حكيم بن حزام وعتبة وأبو جهل
- ٢١٣ (٣) المعركة
 قتل أبي جهل - بلال يقتل أمية بن خلف
- ٢١٥ (٤) الغنيمة والأسرى والتشاور فيهم - لفتة حضارية
 أ - الغنيمة والأسرى: قتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط
 ب - لفتة حضارية: انتصار بدر إرهاب برسوخ الإسلام وقيام إمبراطوريته
- الفصل الثالث عشر: من آثار بدر إلى مباحث قرآنية
- ٢٢٠ (١) آثار بدر
 قتال الملائكة - نصر بدر نصر رباني
- ٢٢٢ (٢) حمقى اليهود - بنو قينقاع
 أ - حمقى اليهود: قتل عصماء - قتل أبي علفك - قتل كعب بن الأشرف
 ب - إجلاء بنى قينقاع: تحرش بالرسول - حصار بنى قينقاع - عبد الله بن أبي يشفع لهم - إبطال الإسلام لقانون الأخذ بالثأر - وضع قانون القصاص الإسلامي
- ٢٢٧ (٣) خمس مسيرات للرسول سميت غزوات، وبعث زيد

مسيرة إلى بنى سليم - مسيرة السويق - مسيرة قرقرة الكندر - مسيرة ذى أمر
- مسيرة بحران - بعث زيد بن حارثة إلى قافلة قرشية

(٤) مباحث قرآنية - وجه من الإعجاز لم ينتبه إليه الأسلاف ٢٣٠

أ - مباحث قرآنية: نزول القرآن منجماً - مصحف أبى بكر - مصحف عثمان
- السور المكية والمدنية - هيمنة القرآن على التوراة والإنجيل - إعجاز
القرآن

ب - وجه من الإعجاز لم ينتبه إليه الأسلاف

الفصل الرابع عشر: من غزوة أُحُد إلى إجلاء بنى النضير والزواج بأُم سلمة وزينب

(١) الاستعداد لغزوة أُحُد ٢٣٩

استنفار قريش للقبائل - النساء يصحبن الجيش - مجلس حبرى - خروج الرسول
للقتال - رجوع عبد الله بن أُبَيّ

(٢) معركة أُحُد ٢٤٢

وصية الرسول للرماة - الفتك ببني عبد الدار من حملة اللواء - مخالفة الرماة
وصية الرسول - خالد بن الوليد وكثره على الرماة - هزيمة المسلمين - طعن
الرسول أبى بن خلف - التمثيل بحمزة - دفاع طلحة عن الرسول - إصابات
الرسول

(٣) مسيرة - خيانات - بعث ومسيرات ٢٤٩

أ - مسيرة إلى حمراء الأسد عمل سياسى باهر

ب - خيانات: خيانة الرجيع - خيانة بئر معونة - خيانة الحارث بن سويد

ج - بعث ومسيرات: بعث أبى سلمة - مسيرات لم يكن فيها قتال - مسيرة

ذات الرقاع - مسيرة الى بدر - مسيرة دومة الجندل

(٤) إجلاء بنى النضير - زواج الرسول بأُم سلمة وزينب بنت عمته ٢٥٤

أ - إجلاء بنى النضير: حصار بنى النضير - إجلاءات اليهود

ب - زواج الرسول بأم سلمة وزينب بنت عمته: الزواج بأم سلمة - زينب بنت جحش تعاشر زيدا معاشرة مرة - زواج الرسول بزینب - الرد على المستشرقين

الفصل الخامس عشر: من غزوة الأحزاب وحصار بنى قريظة إلى بعوث ومسيرتين للرسول

٢٥٩ (١) الاستعداد لغزوة الأحزاب

تأليب اليهود لقريش والعرب - سليمان الفارسي يشير بحفر الخندق - حفر الخندق - الرسول يشترك في الحفر

٢٦١ (٢) حصار الأحزاب للمدينة

نقض بنى قريظة لعهد الرسول - رجوع المنافقين إلى المدينة - إصابة سعد بن معاذ - مبارزة عليّ لعمر بن عبد ود - مفاوضة غطفان - نعيم بن مسعود في تخذيل بنى قريظة والأحزاب - ريح عاتية - رحيل قريش والأحزاب - أمر الله بالخروج إلى بنى قريظة.

٢٦٩ (٣) حصار بنى قريظة

أبو لبابة - التسليم بنزولهم على حكم الرسول - حكم سعد بن معاذ - داود يمثل برجال عاصمة بنى عمون - وفاة سعد بن معاذ

٢٧٤ (٤) بعوث متعددة ومسيرتان للرسول

قتل سلام بن أبي الحقيق - بعث محمد بن مسلمة إلى بنى بكر بن كلاب - مسيرة الرسول إلى بنى حيان - مسيرته إلى ذي قرد - بعث عكاشة إلى الغمر - بعث محمد بن مسلمة إلى ذي القصة - بعث زيد بن حارثة إلى العيص - إجارة زينب لزوجها أبي العاص

الفصل السادس عشر: من غزوة بني المصطلق إلى عمرة الحُدَيْبِيَّة

٢٧٨

(١) غزوة بني المصطلق

الوصول إلى بني المصطلق وأسْرهم - زواج الرسول بجويرية بنت الحارث - تحرير
بني المصطلق وإسلامهم - مقالة ابن أبيّ وتبرؤ ابنه منه

٢٨١

(٢) حادث الإفك والبهتان

موقف عبد الله بن أبيّ - الكيد للرسول وعائشة وأبيها - عائشة تعلم بالإفك -
الرسول يستشير أصحابه - تبرئة الرسول عائشة - محاورة الرسول عائشة - تبرئة
الوحى عائشة - عفو أبي بكر عن مسطح

٢٨٦

(٣) بعوث للرسول

بعث لعشيرة حذيفة بن بدر الفزارية - بعث ابن رواحة إلى أُسَير بن رزام - بعث
كرز بن جابر في إثر العرنيين

٢٨٨

(٤) عمرة الحُدَيْبِيَّة

رؤيا الرسول - الخروج إلى العمرة - إحرام الرسول والصحابّة - بديل بن ورقاء
أول سفير لقريش - عروة بن مسعود سفير ثان - الرسول يرسل إلى قريش
عثمان سفيراً - بيعة الرضوان - المفاوضات بين الرسول وقريش - معاهدة
الصلح - أمر الرسول بالنحر والإحلال - عدم رد المهاجرات

الفصل السابع عشر: من غزوة خيبر إلى دعوة ملوك الدول

الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام

٢٩٧

(١) غزوة خيبر

يهود خيبر يعدّون لحرب الرسول ويؤلبون عليه غطفان - خيبر ثلاث مناطق على
رءوس جبال - نساء لمدّاواة الجرحى - نزول الرسول أمام منطقة النطاة -
الاستيلاء على حصون منطقة النطاة - الاستيلاء على حصون منطقة الشق -

تحریم زواج المتعة باليهوديات مثل تحریمه على المسلمات - الاستيلاء على منطقة
الكتيبة - أموال وذهب كثير بحصن القموص - صفية واصطفاء الرسول لها -
تسليم حصنى الوطيح والسلام - الشاة المسمومة

٣٠٤

(٢) مغنم خيبر - فذك - وادى القرى - تيماء

أ - مغنم خيبر: تقسيم مغنم خيبر - منطقتا النطاة والشق للمحاربين - منطقة
الكتيبة: الخمس للرسول - قدوم بقية المهاجرين إلى الحبشة - تحریم رعى
دواب المسلمين في أرض اليهود وأخذ البقول إلا بحقها - رد صحف من
التوراة إلى اليهود

ب - فذك

ج - وادى القرى: زواج الرسول بصفية

د - تيماء: اتخاذ المنبر - زواج الرسول بأم حبيبة

٣٠٨

(٣) كتب الرسول إلى أمراء العرب

كتاب إلى الغساسنة - كتاب إلى ملوك حمير - المعاملة الرحيمة بأهل الكتاب -
إسلام نصارى نجران - بنو حنيفة في اليمامة - إسلام حاكمى عُمان - كتاب إلى
المنذر بن ساوى وإسلامه مع أهل البحرين - الخوس يدفعون الجزية

٣١١

(٤) عالمية الإسلام - دعوة ملوك الدول الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام

أ - عالمية الإسلام: الرسول مُرسل إلى الناس كافة - الإسلام مكمل للديانات
ومصتح لها

ب - دعوة ملوك الدول الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام: كتاب إلى النجاشى
ملك الحبشة - غضب كسرى من دعوته إلى الإسلام - كتاب إلى هرقل
قيصر الروم - كتاب إلى المقوقس وهديته إلى الرسول - فريسة سحر
الرسول

الفصل الثامن عشر: من بعوث متعددة إلى إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص

٣١٨

(١) بعوث متعددة

بعث عمر بن الخطاب إلى توبة - بعث أبي بكر إلى بني كلاب - بعث بشير بن سعد إلى بني مرة - بعث غالب بن عبد الله الليثي إلى الميعة - أسامة يقتل رجلا يقول لا إله إلا الله - بعث أسامة إلى الحرقات - بعث بشير بن سعد لجمع من غطفان

٣٢٠

(٢) عمرة القضاء

الرسول يحرم ويتقدم الركب - أهل مكة يخرجون منها - ثوب الإحرام - الطواف والسعي - الهدى - بلال يؤذن لصلاة الظهر - زواج الرسول بميمونة - عمارة بنت حمزة

٣٢٥

(٣) زوجات الرسول

خديجة - سودة بنت زمعة - عائشة - حفصة بنت عمر - زينب بنت خزيمة - أم سلمة - زينب بنت جحش - آية الحجاب - جويرية بنت الحارث - صفية بنت حيي بن أخطب - أم حبيبة - مارية المصرية القبطية - ميمونة بنت الحارث - الرد على المستشرقين

٣٣٦

(٤) إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص

الفصل التاسع عشر: من بعوث ومناوشات إلى فتح مكة

٣٣٨

(١) بعوث ومناوشات

بعث ابن أبي العوجاء إلى بني سليم - بعث عبد الله بن غالب إلى الكديد - بعث شعاع بن وهب إلى السبي - بعث قطبة بن عامر إلى خثعم - بعث كعب بن عمير إلى ذات أطلاق

٣٤٠

(٢) غزوتان وبعوث

أ - غزوة مؤتة : وصايا حضارية في الحرب - أمراء الجيش يستشهدون - إنقاذ
خالد للجيش

ب - غزوة ذات السلاسل: عمرو بن العاص قائد الحملة - طلب المدد - عودة
عمرو بن العاص ومن معه

ج - بعوث: بعث أبي عبيدة إلى جهينة - بعث أبي قتادة إلى محارب وغطفان -
بعث ثمان لأبي قتادة إلى إضم

٣٤٤ (٣) نقض قريش لمعاهدة الحديبية

أ - أبو بصير وجماعته

ب - أم كلثوم القرشية المسلمة المهاجرة لا ترد - الكافرة ترد

ج - قتال بكر بن عبد مناة ومعها قريش لخزاعة نقض للمعاهدة

د - سفارة أبي سفيان لشدة عقد الحديبية: أبو سفيان مع ابنته - كبار الصحابة
يردون أبا سفيان

٣٤٩ (٤) فتح مكة

حاطب بن أبي بلتعة وعفو الرسول عنه - الرسول يعد جيشا ضخما - خروج
الرسول والجيش - الرأفة بكلية وأولادها في الطريق - العباس يسلم ويهاجر قبل
الفتح - إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية - لقاء العباس وأبي
سفيان - إسلام أبي سفيان ومن دخل داره فهو آمن - فتح مكة قهراً - حرمة
مكة - قتال خالد - دخول الرسول مكة - هدم الأصنام - إسلام قريش
ومبايعتها - الحجابة لبنى عبد الدار حتى يوم القيامة - المستثنون من الأمان -
البعوث إلى حدود مكة - هدم العزى ومناة وغيرهما

الفصل العشرون: من غزوة حنين إلى تبوك

٣٥٧ (١) غزوة حنين

مالك بن عوف يقود هوازن وثقيفا ويأمرهم باصطحاب أسرهم - خروج الرسول
إلى فتح هوازن - مضيق وكمين - ثبات الرسول - هزيمة هوازن

(٢) الطائف - قسمة غنائم حنين - عمرة الرسول ٣٥٩

أ - الطائف : إرسال الغنائم إلى الجعرانة - حصار الطائف - رفع الحصار - دعاء الرسول الرحيم

ب - قسمة غنائم حنين : مجيء وفد هوازن - مائدة إنسانية - الشيماء - أعطيات المؤلف قلوبهم - موقف بعض الأنصار - توزيع الغنائم
ج - عمرة الرسول من الجعرانة : عتاب بن أسيد والى على مكة - بعث عمرو بن العاص إلى ابني الجلندى - أخذ الجزية من مجوس عمان - عودة الرسول إلى المدينة

(٣) مولد إبراهيم - اتفاق زوجات الرسول عليه ٣٦٤

أ - مولد إبراهيم : بشرى الرسول بابنه إبراهيم - غيرة زوجاته - لقاء الرسول بمارية في بيت حفصة - آيات سورة التحريم - توبة حفصة وعائشة - غيرة من زينب بنت جحش

ب - اتفاق زوجات الرسول عليه : انصراف الرسول عن المتاع الدنيوي - إقبال الرسول على الشطط والزهد - رغبة زوجات الرسول في شىء من الترف وزينة الحياة - مراجعة عمر لحفصة - عمر وإشاعة طلاق الرسول لنسائه - استئذان عمر على الرسول وتكذيب الإشاعة - تخيير الرسول لزوجاته بين الطلاق والرضا بمعيشته - المعاشرة الكريمة لزوجاته

(٤) جباة فريضة الزكاة وبعوثها - تبوك ٣٧١

أ - جباة فريضة الزكاة: بعث عيينة إلى بنى النضير - خروج قطبة إلى خثعم - بعث على بن أبى طالب إلى صنم خثعم

ب - تبوك: صدقات المسلمين للإنفاق منها على الجيش - خروج الرسول في الجيش - يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة - أهل جرباء وأذرح - خالد وصاحب دومة الجندل - عودة الرسول إلى المدينة - كعب بن مالك ومروارة وهلال

الفصل الحادى والعشرون: من إسلام ثقيف إلى وفود بقية القبائل وموت إبراهيم

٣٧٦ (١) إسلام ثقيف - إسلام كعب بن زهير

أ - إسلام ثقيف : عروة بن مسعود الثقفى - وفد ثقيف - إسلام الوفد - تأمير

عثمان بن أبى العاص عليهم - هدم المغيرة اللات

ب - إسلام كعب بن زهير

٣٧٩ (٢) نهاية ابن أُبَيٍّ - حج أبى بكر بالناس

أ - نهاية ابن أُبَيٍّ : تسامح الرسول مع ابن أبى - تسامح الرسول مع أعدائه

ب - حج أبى بكر بالناس : كراهية الرسول الحج فى السنة التاسعة - إعلان

على بن أبى طالب صدر سورة براءة - تحريم دخول المشركين المسجد الحرام -

إقامة أبى بكر الحج للناس

٣٨٤ (٣) وفود القبائل

وفد تميم - خطيب الوفد - شاعر الوفد - إسلام المنذر بن ساوى ووفد عبد

القيس - إسلام الجارود ووفد عبد القيس - وفد بنى حنيفة - وفد طيى -

المعاملة الطيبة لسفانة بنت حاتم - المعاملة الكريمة لأخيها عدى - وفود كثيرة -

وفد بنى عامر - عامل الروم على فلسطين يسلم - وفود اليمن - كتاب ملوك

حمير - مقدار فريضة الزكاة

٣٩١ (٤) بقية الوفود فى سنة عشر - موت إبراهيم

أ - بقية الوفود فى سنة عشر : وفد خولان - وفد بنى محارب - وفد غامد -

وفد سلامان - إسلام نجران النصرانية - وفد النخع

ب - وفاة إبراهيم: أم سيف حاضنة إبراهيم - وفاة إبراهيم - رفض الرسول

كون كسوف الشمس معجزة لوفاته

الفصل الثانى والعشرون: من حجة الوداع إلى وفاة الرسول

٣٩٥

(١) حجة الوداع

خروج الرسول وإحرامه - ملابس الإحرام والتلبية من مظاهر المساواة - طواف
الرسول - السعى - الإحلال - خطبته فى عرفة - إكمال الدين - النحر فى
منى ذكرى أضحية إسماعيل - تقديم بعض الأعمال على بعض - الطواف قبل
الرحيل - عودته إلى المدينة

٤٠١

(٢) أوامر ونواهٍ فى حجة الوداع

حرمة الدماء والأموال والأعراض - أداء الأمانة - تحريم الربا - تحريم طلب الثأر
- مكرمات السدانة والسقاية - حكم القتل - تحريم تأجيل بعض الأشهر الحرم -
التوصية بالنساء - الأخوة الدينية - النهى عن الشقاق - المساواة ولا عصبية ولا
طبقية ولا عنصرية - العنصرية فى القرون العشرين

٤٠٦

(٣) إكمال الدين

القرآن والسنة أوضحها الشريعة - المذهب الظاهرى ينكر الإجماع والقياس -
الجماعة تأخذ بهما فى أصول الدين - الاجتهاد فى الشريعة - المعتزلة

٤٠٨

(٤) مرض الرسول ووفاته - استخلاف أبى بكر

أ - مرض الرسول ووفاته : ثلاثة متنبئون - تولية أسامة بن زيد على جيش لغزو
الروم - مرض الرسول - لا يراعى السن ولا المكانة الاجتماعية فى تولية
القيادة - توقع الرسول اقتراب وفاته - أول شكواه الصداع - استئذان
الرسول زوجاته أن يمروا ببيت عائشة - خروج الرسول إلى البقيع لتوديع
الشهداء - صلاة أبى بكر بالناس - الخطبة الأخيرة - ترشيح أبى بكر
للخلافة - يوم وفاة الرسول - صدمة عمر

ب - استخلاف أبى بكر: خطبة أبى بكر عقب توليه الخلافة

٤١٩	فهرس الأعلام
٤٣٧	فهرس القبائل والطوائف والأمم
٤٤٣	فهرس البلدان والمواضع
٤٥١	فهرس الغزوات والمسيرات والبعوث

كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

فى الدراسات الإسلامية

✻ الوجيز فى تفسير القرآن الكريم

الطبعة الأولى، ١٠٥٢ صفحة

✻ سورة الرحمن وسور قصار

"عرض ودراسة"

الطبعة الرابعة، ٤٠٤ صفحة

✻ محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى، ٤٧٦ صفحة

✻ عالمية الإسلام

الطبعة الأولى، ١١٩ صفحة

✻ الحضارة الإسلامية من القرآن

والسنة

الطبعة الأولى، ٣٣١ صفحة

فى تاريخ الأدب العربى

✻ العصر الجاهلى

الطبعة الحادية والعشرون، ٤٣٦ صفحة

✻ العصر الإسلامى

الطبعة السابعة عشرة، ٤٦١ صفحة

✻ العصر العباسى الأول

الطبعة الخامسة عشرة، ٥٧٦ صفحة

✻ العصر العباسى الثانى

الطبعة التاسعة، ٦٥٧ صفحة

✻ عصر الدول والإمارات

(الجزيرة العربية - العراق - إيران)

الطبعة الثالثة، ٦٨٨ صفحة

✻ عصر الدول والإمارات (الشام)

الطبعة الثالثة، ٣٥٦ صفحة

✻ عصر الدول والإمارات (مصر)

الطبعة الثالثة، ٥٠٠ صفحة

✻ عصر الدول والإمارات (الأندلس)

الطبعة الثالثة، ٥٥٢ صفحة

✻ عصر الدول والإمارات

(ليبيا - تونس - صقلية)

الطبعة الأولى، ٤٤٦ صفحة

✻ عصر الدول والإمارات (الجزائر -

المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان)

الطبعة الأولى، ٧٠٦ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية

الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة الثالثة عشرة، ٥٢٤ صفحة

الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة الثانية عشرة، ٤٠٠ صفحة

التطور والتجديد في الشعر

الأموى

الطبعة العاشرة، ٣٤٠ صفحة

دراسات في الشعر العربي

المعاصر

الطبعة التاسعة، ٢٩٢ صفحة

شوقي شاعر العصر الحديث

الطبعة الثالثة عشرة، ٢٨٦ صفحة

الأدب العربي المعاصر في مصر

الطبعة الحادية عشرة، ٣٠٨ صفحة

البارودي رائد الشعر الحديث

الطبعة الخامسة، ٣٠٨ صفحة

الشعر والغناء في المدينة ومكة

لعصر بنى أمية

الطبعة الخامسة، ٣٣٦ صفحة

البحث الأدبي (طبعته -

مناهجه - أصوله - مصادره)

الطبعة السابعة، ٢٧٨ صفحة

الشعر وطوايعه الشعبية على مر

العصور

الطبعة الثانية، ٢٥٦ صفحة

في التراث والشعر واللغة

الطبعة الأولى، ٢٧٦ صفحة

في الشعر والفكاهة في مصر

الطبعة الأولى، ١٢٨ صفحة

في الدراسات النقدية

في النقد الأدبي

الطبعة الثامنة، ٢٥٠ صفحة

فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثالثة، ٣٦٨ صفحة

في الأدب والنقد

الطبعة الأولى، ١٥٢ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

✻ البلاغة: تطور وتاريخ

الطبعة العاشرة، ٣٨٠ صفحة

✻ المدارس النحوية

الطبعة الثامنة، ٣٧٦ صفحة

✻ تجديد النحو

الطبعة الرابعة، ٢٨٢ صفحة

✻ تيسير النحو التعليمى قديما

وحديثا مع نهج تجديده

الطبعة الثانية، ٢٠٨ صفحة

✻ تيسيرات لغوية

الطبعة الأولى، ٢٠٠ صفحة

✻ تحريفات العامية للفصحى

الطبعة الأولى، ٢٠٣ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

✻ ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة، ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

✻ الرثاء

الطبعة الرابعة، ١١٢ صفحة

✻ المقامة

الطبعة الخامسة، ١٠٨ صفحة

✻ النقد

الطبعة الخامسة، ١١٢ صفحة

✻ الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة

✻ الرحلات

الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

✻ المغرب فى حلى المغرب لابن

سعيد (الجزء الأول)

الطبعة الرابعة، ٤٦٨ صفحة

✻ المغرب فى حلى المغرب لابن

سعيد (الجزء الثانى)

الطبعة الرابعة، ٥٧٢ صفحة

❁ كتاب السبعة في القراءات لابن
مجاهد

الطبعة الثالثة، ٧٨٨ صفحة

❁ كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة، ١٥٢ صفحة

❁ الدرر في اختصار المغازي

والسير لابن عبد البر

الطبعة الثالثة، ٣٥٦ صفحة

❁ في سلسلة "اقرأ"
العقاد

الطبعة الخامسة

❁ البطولة في الشعر العربي
الطبعة الثانية

❁ الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية

❁ معى (١)

الطبعة الثانية

❁ معى (٢)

الطبعة الأولى

صدر حديثاً
للدكتور شوقي ضيف

- 📖 الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة
- 📖 عالمية الإسلام
- 📖 في الشعر والفكاهة في مصر
- 📖 في النقد والأدب

دارالمعارف

والدكتور شوقي ضيف

رحلة عمر معاً
وأكثر من خمسين كتاباً

٢٠٠٠/٢٤٤٥	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5963-2	الترقيم الدولي

١/٩٩/١٠٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذا كتاب عن سيرة خاتم المرسلين محمد الذي
أرسله الله نورا وهدى ورحمة للبشر جميعا ،
كى ينقذهم من الضلال ، ويهديهم إلى الصراط
المستقيم ، من الإيمان بوحداية ربهم وبملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر ، مع استشعار المساواة
بين الناس ، وتحقيق السعادة الكاملة لهم فى
الدنيا والآخرة .



دارالمهارف

٠٣١٧٧٩/٠١



٠٢٠.٠٠